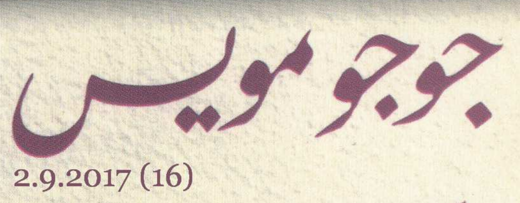
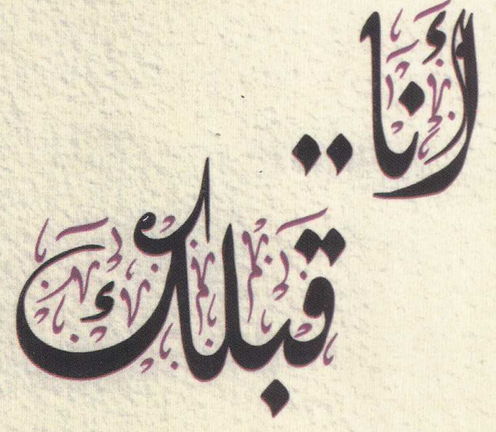
"قصة حب غير عادية...
يلتهمها القارئ كقطعة حلوى رغم أنها تسيل دموعه"
أوبرا وينفري



2.9.2017 (16)



ترجمة: أماني لازار







الرواية التي باعت أكثر من عشرة ملايين نسخة

منشورات الرمل

جوجو مويس

أنا..

قبلك

الكتاب: أنا... قبلك/ رواية

تأليف: جوجو مويس

ترجمة: أماني لازار

عدد الصفحات: 464 صفحة

الطبعة الأولى: 2017

الترقيم الدولي: 978-9938-886-96-2

رقم الناشر: 17/397-103

هذه ترجمة مرخصة لدار التنوير

العنوان الأصلي

Me Before You by Jojo Moyes

الناشر:



منشورات الرمل

دار التنوير

تونس: 24، نهج سعيد أبو بكر - 1001 تونس

هاتف وفاكس: 0021670315690

بريد إلكتروني: tunis@dar - altanweer.com

لبنان: بيروت - بئر حسن - سنتر كريستال، الهزيم - الطابق الأول

هاتف: 009611843340

بريد إلكتروني: darattanweer@gmail.com

مصر: القاهرة - جاردن سيتي - 2 شارع فؤاد سراج الدين (السراي الكبرى) - الدور الأرضي - شقة رقم 2.

هاتف: 0020223921332

بريد إلكتروني: cairo@dar - altanweer.com

موقع إلكتروني: www.dar - altanweer.com

جوجو مويس

أنا... قبلك

ترجمة: أماني لازار



مقدِّمة
2007

لدى خروجه من الحمَّام كانت قد استيقظت. تستند إلى الوسائد وتتصفَّح الكتيِّبات السِّياحية الموضوعة قرب سريرِهِ. كانت ترتدي إحدى كنزاته، وشعرها الطَّويل مشعثٌ على نحو يحُثُّ على التفكير بالليلة السَّابقة. وكان هو مستمتعًا يجفِّف شعره بمنشفة.

ترفع بصرها عن الكتيِّب وتزمُّ شفتيها. من المرجَّح أنَّ هذه الحركة لم تكن تتناسب مع سنِّها بعض الشَّيء، لكن عمر علاقتهما القصير كان يجعلها تبدو جذَّابة مع ذلك.

«هل علينا حقًا أن نقوم برحلة تستلزم صعود الجبال، أو هبوط الوهاد باستخدام الحبال؟ إنها أوَّل إجازة طويلة نمضيها معًا، وفي الواقع ما من رحلة واحدة في هذه الكتيِّبات إلّا وتشتمل على أن نرمي بأنفسنا عن شيء ما، أو...»، وقالت متظاهرة بالارتجاف: «ارتداء الثِّياب الصُّوفيَّة».

ترمي الكتيِّبات على السَّرير وتمطُّ ذراعيها اللذين بلون الكراميل، فوق رأسها. يدلُّ صوتها المبحوح على ما فاتهما من ساعات النَّوم.

«ما رأيكَ في الذِّهاب إلى منتجع صحي باذخ في بالي؟ حيث يمكننا الاستلقاء على الرَّمل.. نمضي ساعات مرفَّهين.. وليالي طويلة من الاسترخاء..».

«لا أستسيغ هذا النَّوع من الإجازات. يجب أن أقوم بنشاط ما».

« كأن ترمي بنفسك من الطَّائرة!!».

«لا تنتقديها قبل أن تجرّبيها».

تكشَّر قائلة: «إذا كان الأمر سيّانًا عندك، أظن أني سأواصل انتقادها».

بلَّل الماء الذي يغطي جلده قميصه قليلًا. مرَّر مشطًا في شعره وأدار هاتفه النَّقال، وجفل إذ اندفعت قائمة الرَّسائل في الحال على الشَّاشة الصَّغيرة.

قال: «صحيح، عليَّ الذِّهاب. تناولي فطورك».

انحنى على السَّرير ليقبّلها. كانت تفوح منها رائحة دافئة وشذيَّة ومثيرة للغاية. استنشق عطر شعرها، وانقطعت لوقت قصير سلسلة أفكاره عندما لفَّت عنقه بذراعيها، وجذبته نحو السَّرير.

«هل ما زال مشروع سفرنا قائمًا هذا الأسبوع؟».

حرَّر نفسه على مضض قائلًا: «الأمر يعتمد على ما قد يحدث في هذه الصَّفقة. كلُّ شيء معلَّق في الوقت الرَّاهن. قد يتوجَّب عليَّ التَّواجد في نيويورك. ما رأيك بعشاء لطيف في مكان ما يوم الخميس، في كلِّ الأحوال؟ اختاري أنتِ المطعم».

تناول اللباس الخاص بالدَّراجة النارية المعلَّق خلف الباب.

ضيَّقت عينيها.

«عشاء. مع السَّيد بلاك بيري أو من دونه؟».

«ماذا؟».

زمَّت شفتيها ثانيةً وقالت: «يجعلني السَّيد بلاك بيري أشعر كما لو أنني متطفّلة. أشعر كما لو أنَّ هناك دومًا شخصًا ثالثًا ينافسني على اهتمامك».

«سوف أجعله على الوضعية الصَّامتة».

وبَّخته قائلة: «ويل ترينر! لا بد أن تطفئه في بعض الأحيان».

«اطفأته الليلة الماضية، ألم أفعل؟».

«بلا، لكن مُكرَهًا للغاية».

ردّ مع ابتسامة عريضة: «هل هذا ما نتجادل بشأنه الآن؟». وارتدى سترته الجلدية.

وانكسر أخيرًا استحواذ ليسا على مخيلته. رمى لباسه الخاص بالدَّراجة البخارية على ذراعه، وأرسل لها قبلة في الهواء وهو يهمُّ بالمغادرة. هناك اثنتان وعشرون رسالة على جهاز البلاك بيري، أولاها مرسلة من نيويورك عند السَّاعة الثَّالثة واثنتين وأربعين دقيقة صباحًا. توجد مشكلة قانونية. ركب المصعد ونزل إلى المرأب السُّفلي، محاولًا أن يوائم نفسه مع حوادث الليلة الماضية.

«صباح الخير، سيِّد ترينر».

يخرج الحارس من مقصورته. إنها مقصورة ضد عوامل الجو، مع أنه لا يوجد هنا في الأسفل شيء لتحتمي منه. يتساءل ويل أحيانًا عمَّ يفعل الحارس هنا في ساعات الصَّباح الأولى. يحدِّق في شاشة نظام المراقبة والمصدَّات الصَّقيلة لسيارات يبلغ ثمنها ستين ألف جنيه ولم تتسخ أبدًا.

يرتدي سترته الجلدية.

«كيف هو الطَّقس في الخارج يا مايك؟».

«رهيب. إنها تمطر بغزارة».

توقَّف ويل.

«حقًّا؟ أتظن أنه ليس ملائمًا لركوب الدَّراجة؟».

يهزّ مايك رأسه قائلًا: «لا يا سيدي. ليس إلّا إذا استعملت عدة سباحة قابلة للنفخ، أو كنت تتمنّى الموت».

يحدّق ويل في دراجته ثم يخلع لباسه. لا يهم ما قد تفكّر فيه ليسا، هو

لا يؤمن بالمجازفة غير الضَّرورية. فتح الصُّندوق العلوي لدراجته ووضع فيه اللباس. أقفله ورمى المفاتيح لمايك الذي التقطها ببراعة بيد واحدة.

«هلَّا أوصلت هذه المفاتيح إلى بيتي؟».

«لا مشكلة. هل ترغب أن أطلب لك سيَّارة أجرة؟».

«لا. لا جدوى من أن نتبلَّل كلانا».

يضغط مايك المفتاح ليفتح الحاجز الآلي ويخرج ويل رافعًا يده شاكرًا. الصَّباح الباكر معتم وهادر من حوله، حركة السَّير في سنترال لندن مكتظَّة الآن وبطيئة على الرَّغم من أن السَّاعة لم تكد تبلغ السَّابعة والنِّصف بعد. يرفع ياقته حول عنقه ويمشي في الشَّارع بخطوات واسعة نحو ملتقى الطُّرق، حيث من المرجَّح أن يجد سيَّارة أجرة. الطُّرقات زلقة بالمياه، والضَّوء الشَّاحب يشعّ على الأرصفة العاكسة.

يشتم بينه وبين نفسه وهو يسترق النَّظر إلى الأشخاص الآخرين الواقفين ببدلاتٍ رسمية على حافَّة الرَّصيف. منذ متى بدأ جميع أهالي لندن ينهضون باكرًا؟ كان الجميع لديهم الفكرة نفسها.

كان يتساءل عن أفضل مكان للوقوف عندما رنَّ هاتفه. إنَّه روبرت.

«أنا قادم. فقط أحاول العثور على سيَّارة أجرة».

في الجهة الأخرى من الطَّريق يلمح سيَّارة أجرة ذات ضوء برتقالي اللون تقترب. يبدأ بالسير نحوها بخطوات واسعة، آملًا ألا يسبقه إليها أحد. مرَّت حافلة مصدرة هديرًا، تبعتها شاحنة منعه زعيق مكابحها من سماع صوت روبرت.

يصيح بصوت أعلى من ضوضاء حركة السَّير: «لا أستطيع سماعك روبي، يجب أن تكرِّر ما قلته».

تقطَّعت به السُّبل، وحركة السَّير تتدفّق بمحاذاته مثل تيَّار. يمكنه أن

يرى الضَّوء البرتقالي يتوهَّج، مدَّ يده، آملًا أن يراه السَّائق من خلال وابل المطر.

«يجب أن تتصل بجيف في نيويورك. هو لا يزال ساهرًا، بانتظارك. حاولنا الاتِّصال بكَ ليلة أمس».

«ما المشكلة؟».

«عقبة قانونية. بندان قانونيان.. هم يماطلون تحت فصل.. إمضاء.. أوراق..».

صوت عجلات سيارة عابرة على الأرض المبتلَّة بماء المطر حجب صوته، فصاح:

«لم أسمع ما قلته».

رآه السائق فأبطأ سرعة السيَّارة التي قذفت كمِّية كبيرة من المياه وهي تخفِّف من سرعتها على الجهة المقابلة من الطَّريق. الرجل القادم من بعيد خفَّف من عدوه السَّريع خائبًا عندما رأى أنَّ ويل يسبقه إلى السَّيارة.

راوده إحساس خفيٌّ بالظَّفر، فصاح قائلًا:

«انظر، دع كالي يضع الأوراق على مكتبي، سأكون هناك في غضون عشر دقائق».

نظر في كلا الاتجاهين، ثم أحنى رأسه وهو يعبر الشَّارع جريًا ليقطع الخطوات القليلة الأخيرة نحو سيَّارة الأجرة. وعلى الفور كانت على شفتيه عبارة «بلاك فرايرس»[1]. المطر يسيل في الفراغ بين ياقته وقميصه. سوف يكون مبلّلًا عند وصوله إلى المكتب، مع أنه لم يمشِ سوى هذه المسافة القصيرة. ربما سيتوجب عليه أن يرسل سكرتيرته لشراء قميص آخر.

«ويجب أن يكون جاهزًا قبل وصول مارتن...».

---

(1) Blackfriars: منطقة تقع في وسط لندن.

يرفع بصره نحو الصوت المدوي لبوقٍ فظ فيرى أمامه جانب سيارة الأجرة السوداء اللامعة وقد أنزل السائق نافذته (استعدادًا لاستقباله)، في طرف مجال رؤيته كان هناك شيء لم يستطع تحديد ماهيته يتحرّك باتجاهه بسرعة جنونية.

يلتفت، وفي جزء من الثانية يدرك أن ذلك الشيء في طريقه إليه وما من سبيل لتفاديه، يسقط الموبايل من يده بحركة مفاجئة، يسمع صرخة ربما تكون صرخته هو، آخر شيء يراه هو قفاز جلدي ووجه تحت خوذة، الصدمة في عيني الرجل تعكس صدمته هو، بعدها هنالك انفجار كبير يحوّل كل شيء بعده إلى شظايا.

ثم لا شيء بعد ذلك.

1
2009

تبعد محطَّة الحافلات عن البيت مسافة 158 خطوة، ولكن ممكن أن تمتد إلى 180 إذا لم تكن في عجلة من أمرك، أو كنت مثلًا تنتعل حذاءً ذا نعلين سميكين. انعطفتُ عند زاوية شارعنا (68 خطوة)، ورأيت المنزل، أربع غرف نوم شبه مستقلَّة على التَّعاقب مع ثلاث غرف أخرى. كانت سيَّارة والدي في الخارج ما يعني أنَّه لم يغادر بعد إلى عمله.

من خلفي كانت الشَّمس تغرب وراء قلعة ستورتفولد. ينزلق ظلُّها المعتم على التَّلة مثل شمع ذائب ليدركني. ربما أخبرك في نهار آخر عن كل ما حدث لي على هذا الطَّريق: أين علَّمني والدي قيادة الدَّراجة بدولابين، وأين كانت السَّيدة دوهيرتي بشعرها المستعار المائل تصنع لنا الكعك الويلزيّ، وأين السِّياج حيث ضربت ترينا عشًا للدَّبابير وهرعنا نصرخ عائدين إلى القلعة.

كانت درَّاجة توماس الثُّلاثية العجلات مرميَّة على الدَّرب. أغلقتُ البوَّابة من خلفي، وجررتها نحو مدخل المبنى وفتحت الباب. ضربتني الحرارة بقوة وسادةٍ هوائية، أمي تبرد كثيرًا فتشغِّل التَّدفئة طوال أيَّام السَّنة. يفتح أبي النَّوافذ دومًا، متذمِّرًا من أنها أودت بنا إلى الإفلاس. هو يقول إنَّ قيمة فواتير التَّدفئة تفوق النَّاتج المحلي الإجمالي لبلد أفريقي صغير.

«هذه أنتِ حبيبتي؟».

«نعم».

علَّقتُ سترتي على المِشجب، حيث وجدتُ لها مكانًا بين الثِّياب المعلَّقة الأخرى بصعوبة.

«أيُّهما أنتِ؟ لو؟ أم ترينا؟».

«لو».

حدَّقت من باب غرفة الجلوس. كان أبي مستلقيًا على الأريكة، ذراعه مقحمة بين الوسائد التي بدت أنها ابتلعت طرفه كاملًا. كان توماس، ابن أختي البالغ من العمر خمس سنوات، جالسًا على مؤخرته ينظر إليه باهتمام.

أدار والدي رأسه نحوي داكن الحمرة من فرط الجهد وقال: «ليغو[1]... لا أعرف لماذا عليهم أن يصنعوا القطع اللعينة بهذا الصِّغر».

«أين أمِّي؟».

«في الأعلى. قطعة تزن رطلين، ما رأيك بذلك؟!».

رفعت بصري، تمكَّنت من سماع صرير طاولة الكيّ المألوف. أمي، جوسي كلارك، لا تجلس أبدًا. إنها قضية مبدأ. اشتهرت بوقوفها على سلَّم خارجي تقوم بطلاء النَّوافذ. تتوقف بين الحين والآخر لتلوِّح، بينما نحن نتناول طعام العشاء.

«هلَّا حاولتِ العثور على هذه القطعة اللعينة؟ لقد جعلني أبحث مدَّة نصف ساعة وعليَّ الاستعداد للذهاب إلى العمل».

«هل تعمل ليلًا؟».

---

(1) Lego: وهو اسم الشركة التي تأسَّست في الدنمارك لتصنيع هذه اللعبة، وهي عبارة عن قطع من البلاستيك الملونة المتشابكة التي يمكن تجميعها وإعادة تجميعها في عدد من الاحتمالات اللانهائية.

«نعم. إنها السَّاعة الخامسة والنِّصف».

نظرتُ إلى السَّاعة.

«في الواقع، إنها السَّاعة الرَّابعة والنِّصف».

انتزع ذراعه من تحت الوسائد ونظر نحو ساعة يده.

«إذًا ماذا تفعلين في البيت في مثل هذا الوقت المبكر؟».

هززت رأسي بغموض، كما لو أني لم أفهم السُّؤال ودخلت إلى المطبخ.

كان جدِّي جالسًا على كرسيِّه بجوار نافذة المطبخ، يمعن التَّفكير في لعبة سودوكو. أخبرنا مندوب الصِّحة إنها ربما تكون مفيدة من أجل تركيزه، ستساعده على التركيز بعد إصابته بالسَّكتة الدِّماغية. ارتبتُ في أني كنت الوحيدة التي لاحظت أنه ملأ ببساطة جميع المربَّعات بأيِّ رقم خَطَرَ في باله.

«مرحبًا جدِّي».

رفع بصره وابتسم.

«هل ترغب بشرب كوبٍ من الشَّاي؟».

هزَّ رأسه وفغر فمه قليلًا.

«أتريد مشروبًا باردًا؟».

أومأ.

فتحت باب الثَّلاجة.

«لا يوجد عصير تفَّاح».

عصير تفَّاح، تذكَّرت الآن أنه كان باهظ الثَّمن كثيرًا.

«أتريد ماءً؟».

أومأ وتمتم بشيء وأنا أناوله الكوب، ربما تكون كلمة شكرٍ.

دخلت أمي إلى الغرفة تحمل سلَّة كبيرة ملأى بالغسيل المطوي بإتقان.

قالت ملوِّحة بزوج من الجوارب: «هل هذه لكِ؟».

«إنها لترينا على ما أظن».

«اعتقدت ذلك. لون غريب. لا بد أنها دخلت في بيجامة والدي البرقوقية اللون. لقد عدتِ باكرًا. هل أنت ذاهبة إلى مكان ما؟».

«لا».

ملأت كأسًا بماء الصُّنبور وشربته.

«هل سيأتي باتريك لاحقًا؟ لقد اتَّصل في وقت سابق. هل كان هاتفك النقَّال مغلقًا؟».

«إممم».

«قال إنه يعتني بأمر الحجز لإجازتكما. يقول والدك إنه شاهد شيئًا على التلفاز يتعلّق بالأمر. أين تحبين؟ إبسوس؟ كاليبسوس؟».

«سكياثوس»[1].

«هذه هي. عليك أن تتحقَّقي من فندقك بعناية فائقة. افعلي ذلك عن طريق شبكة الإنترنت. شاهد هو ووالدي شيئًا في نشرة أخبار الظَّهيرة. يبدو أنهم يبنون مواقع، نصفها صفقات بسعر منخفض، ولن تعرفي قبل أن تصلي إلى هناك. أبي، هل تريد كوبًا من الشَّاي؟».

وضعَت الغلَّاية على النَّار ثم رمقتني بنظرة. ربما لاحظت أخيرًا أني لم أكن أقول شيئًا.

«هل أنت بخير حبيبتي؟ تبدين شاحبة للغاية».

مدَّت يدها ومسَّت جبهتي، كما لو أنَّ عمري أقل من ستَّة وعشرين عامًا بكثير.

---

(1) أسماء جزر يونانية.

«لا أظن أننا سنذهب في إجازة».

سكنت يد أمي. كانت في نظرتها المحدِّقة منذ طفولتي ما يشبه أشعَّة إكس.

«هل ثمَّة مشاكل بينك وبين وبات؟».

«أمي، أنا...».

«أنا لا أحاول التَّدخل. فقط، أنتما معًا منذ فترة طويلة جدًّا. ومن الطَّبيعي أن تسوء الأحوال بين الحين والآخر. أعني، أنا ووالدك، نحن...».

«لقد خسرتُ عملي».

تناهى صوتي إلى الصَّمت. علقت الكلمات هناك، تذوي على الغرفة الصَّغيرة، بعد أن خمد الصَّوت بوقت طويل.

«أنتِ ماذا؟».

«سيغلق فرانك المقهى اعتبارًا من يوم الغد».

ناولتها مغلفًا رطبًا بعض الشَّيء كنت قد أمسكت به مصدومة طوال الطريق إلى البيت. طوال الـ180 خطوة من موقف الحافلة إلى البيت.

«لقد أعطاني أجر ثلاثة أشهر».

***

بدأ النَّهار مثل أيّ يومٍ آخر. يكره جميع معارفي صباحات يوم الاثنين، لكني لم أكن أهتم. أحببت الوصول باكرًا إلى مقهى «باترد بان»[1]، لأوقد النَّار تحت إبريق الشَّاي الكبير في الزَّاوية، وأدخل صناديق الحليب والخبز من الباحة الخلفية، وأثرثر مع فرانك فيما نحن نستعد لافتتاح المحل.

أحببت حرارة المقهى العابقة برائحة اللحم المقدَّد الخانقة، هبَّات الهواء الصَّغيرة الباردة كلَّما انفتح الباب وانغلق، دمدمة المحادثة

(1) Buttered Bun: وتعني الكعك المدهون بالزبدة.

الخفيضة، وعندما تهدأ يشدو مذياع فرانك في الزَّاوية بذلك الصَّوت المعدني الضَّعيف. لم يكن مكانًا عصريًا، كانت جدرانه مكسوَّة بمشاهد من القلعة أعلى التَّلة. لا تزال الطَّاولات مكسوَّة بسطوحها المصنوعة من الفورمايكا، وقائمة الطَّعام لم تتغير منذ أن بدأت العمل، عدا عن إضافة كعك الشوكولا إلى طبق الكعك المثلَّج.

لكني أحببت الزَّبائن أكثر من أيٍّ شيء آخر. أحببت كيڤ وآنجلو، السَّبّاكين اللذين يأتيان في معظم الصَّباحات ويمازحان فرانك بطرحهما أسئلة حول مصدر اللحوم. أحببت السيدة ديندليون[1] التي حصلت على لقبها هذا بسبب شعرها الأبيض المشعث، كانت تتناول بيضة واحدة مع رقائق البطاطا من يوم الاثنين حتى يوم الخميس وتجلس لتقرأ الصُّحف المجانية وتشرب في هذه الأثناء كوبين من الشَّاي. لطالما بذلتُ جهدًا كي أتجاذب معها أطراف الحديث. ظننت بأنها قد تكون المحادثة الوحيدة التي تحظى بها السَّيدة المسنَّة طوال اليوم.

أحببت السُّياح الذين كانوا يُعرِّجون علينا في طريق صعودهم ونزولهم إلى القلعة، وزعيق تلامذة المدارس الذين يمرون بعد انتهاء الدَّوام المدرسي، والزَّبائن الدَّائمين من المكاتب في الجهة المقابلة من الطَّريق، ونينا وشيري، مصففتَيْ الشَّعر اللتين كانتا تعرفان عدد السُّعرات الحرارية في كلِّ قطعة نقدِّمها في «باترد بان». حتَّى الزَّبائن المزعجين، مثل المرأة ذات الشَّعر الأحمر التي تدير متجر الألعاب وتجادل على الفكَّة على الأقل مرَّة في الأسبوع، لم يتسبَّبوا لي بالإزعاج.

شاهدت علاقات تبدأ وتنتهي عبر تلك الطَّاولات، وأطفالًا يتنقّلون بين أزواج سابقين، والارتياح المترافق بالشَّعور بالذَّنب لدى هؤلاء الآباء الذين لم يكن في وسعهم الطَّهو، والمتعة السريَّة للمتقاعدين تجاه فطور مكوَّن من اللحم المقلي. مرَّ بنا شتَّى أنواع البشر، وتجاذبت مع معظمهم

(1) أي الهندباء البرية.

أطراف الحديث. ألقوا بالنُكات أو بالتعليقات وهم يشربون أكوابًا من الشَّاي السَّاخن. طالما كرّر أبي دومًا أنه لم يتنبَّأ أبدًا بما يمكن أن يصدر عني، لكن في المقهى لم يكن يهم. أحبَّني فرانك. كان هادئًا بطبيعته، وقال إنَّ وجودي في المحل منحه حيوية أكبر. كان عملي يشبه عمل نادلة بعض الشَّيء، لكن من دون إزعاج المشروبات الكحولية.

ثمَّ في ذلك الأصيل، بعد انتهاء هجمة فترة الغداء والمكان فارغ لفترة قصيرة، خرج فرانك من خلف الفرن، يمسح يديه بمئزره، وأدار اللافتة الصغيرة «مغلق» نحو الشَّارع.

كان يطوي منشفة بين يديه وبدا منزعجًا كما لم أره من قبل. تساءلت ما إذا كان أحدهم قد اشتكى مني. ثم أشار لي كي أجلس.

قال بعد أن أخبرني: «آسف لويزا، لكني عائدٌ إلى أستراليا. والدي ليس على خير ما يرام، ويبدو كما لو أن القلعة ستبدأ حتمًا بالقيام بالترميمات. إشارة التَّحذير على الجدار».

أظن أني جلست هناك وفمي فاغر فعليًا. ثم ناولني فرانك المغلَّف، وأجاب على سؤالي التَّالي قبل أن أنبس به.

«أعرف أننا لم نوقّع عقدًا رسميًا يومًا أو أيَّ شيء كما تعلمين، لكني أردت أن أعتني بك. هنا يوجد أجر ثلاثة أشهر. سوف نغلق غدًا».

***

انفجر والدي بينما كانت أمي تدفع كوبًا من الشَّاي المحلَّى بين يدي: «ثلاثة أشهر! حسنًا، هذه لفتة كريمة منه بالنَّظر إلى أنها عملت بجدٍّ في ذلك المكان طوال ستِّ سنوات».

«برنارد». حدَّجته أمي بنظرة محذِّرة، وهي تومئ نحو توماس. يهتم والداي به بعد المدرسة كلَّ يوم حتى تنهي ترينا عملها.

«وماذا يفترض بها أن تعمل الآن؟ كان عليه أن يبلغها من قبل».

«حسنًا... ستجد عملًا آخر».

«ليس هناك أعمال لعينة جوسي، أنت تعرفين مثلما أعرف. نحن في خضمِّ كسادٍ لعين».

أغمضت أمي عينيها للحظة، كما لو لتستعيد رباطة جأشها قبل أن تتكلّم.

«إنها فتاة ذكيَّة. ستجد لنفسها شيئًا. لديها سجلّ وظيفي ممتاز، أليس كذلك؟ سوف يعطيها فرانك رسالة توصية جيِّدة».

«أوه، بديع للغاية.. (لويزا كلارك: جيّدة جدًا في دهن الخبز المحمَّص بالزبدة، وخبيرة بإبريق الشَّاي القديم)».

«شكرًا أبي على هذه الثقة!!».

«لم أقصد الإساءة».

عرفتُ السَّبب الحقيقي وراء قلق والديَّ. هما يعتمدان على أجري. وترينا لم تكسب شيئًا تقريبًا من العمل في متجر بيع الزُّهور. لم تستطع أمي أن تعمل، إذ كان عليها الاعتناء بجدِّي، ومعاش جدِّي التَّقاعدي لا يكاد يساوي شيئًا. عاش أبي في حالة من القلق الدَّائم على عمله في مصنع الأثاث. ظلَّ رئيسه في العمل يتمتم حول إمكانية الفصل من العمل طوال أشهر. سرت همهمات في البيت حول ديونٍ، وحول التَّلاعب ببطاقات الائتمان. حوَّل سائق غير مشمول بالتأمين سيارة والدي إلى خردة منذ سنتين، وهذا كان كافيًا بطريقة ما في نهاية المطاف لينهار الصَّرح الذي كان يمثِّل موارد والديّ المالية برمته. كان أجري البسيط صخرة أساس صغيرة من نقود تدبير المنزل، تساعد العائلة على أن تمضي من أسبوع إلى آخر.

«دعنا لا نستبق الحوادث. يمكنها أن تذهب إلى مكتب التَّشغيل غدًا وترى ماذا لديهم. يكفيها ما هي فيه الآن».

تحدَّثا كما لو أني غائبة.

«وهيٍ ذكيَّة. أنت ذكيَّة، ألستِ كذلك حبيبتي؟ ربما يمكنها أن تتَّبع دورة لتعلُّم التنضيد. اذهبي إلى مكتب العمل».

جلست هناك بينما كان والداي يتناقشان عن ماهيَّة الأعمال الأخرى التي قد تخوّلني لها مؤهّلاتي المحدودة. عمل في مصنع، مشغِّلة آلات، دهن الخبز بالزبدة. أردت أن أبكي للمرة الأولى ذلك الأصيل. راقبني توماس بعينينٍ واسعتين مدوَّرتين، وبصمتٍ ناولني نصف قطعة من البسكويت مبتلَّة.

«شكرًا تومو».

فتحت فمي بصمت وأكلتها.

***

كما توقَّعت كان باتريك في النَّادي الرِّياضي. كان يرتاد النَّادي من الاثنين إلى الخميس بانتظام يشبه انتظام جدول مواعيد محطَّة، أو يجري حول الحلبة المنارة بضوءٍ غامر.

قال لاهثًا وهو يقترب: «اركضي معي». خرجت أنفاسه في سُحُبٍ شاحبة. «يجب أن أركض أربعة أشواط».

لم يطل تردّدي، وبدأت أركض بجانبه. كانت الطَّريقة الوحيدة التي تمكنني من أن أتبادل معه أي شكل من أشكال الحديث. كنت أنتعل حذائي الرياضي الزهري اللون بشرائطه الفيروزية. الحذاء الوحيد الصَّالح للجري.

كنت قد أمضيت النَّهار في البيت أحاول تقديم العون. لم تكد تمرُّ ساعة على ما أظن حتى بدأت العمل تحت أنظار أمي. كان كلًّا من أمي وجدي معتادَيْن على روتين معيّن، ووجودي عطّلهما. كان أبي نائمًا لأن عمله كان ليليًا هذا الشَّهر، ولا يمكن إزعاجه. رتَّبت غرفتي ثم جلست أشاهد التِّلفاز بصوت منخفض، وكلما تذكَّرت سبب وجودي في البيت في منتصف النَّهار، انتابني ألم خفيف في صدري.

«لم أكن أتوقَّعك».

«شعرت بالسَّأم في البيت. اعتقدت بأنَّ في وسعنا أن نفعل شيئًا».

نظر نحوي بطرفِ عينه. وكانت تغطِّي وجهه طبقة رقيقة من العرق.

«كلَّما أسرعتِ فيِ العثور على عمل كلَّما كان أفضل حبيبتي».

«لم يمضِ أكثر من أربع وعشرين ساعة على خسارتي عملي الأخير. أليس مسموحًا لي أن أكون بائسة وضعيفة لبعض الوقت؟ أنت تعلم، اليوم فقط؟».

«لكن يجب أن تنظري إلى الجانب الإيجابي. أنت تعرفين أنَّه لا يمكنك البقاء في ذلك المكان إلى الأبد. يجب أن تتقدّمي إلى الأمام».

كُرِّم باتريك منذ سنتين باعتباره رائد العمل الشَّاب في ستورتفولد لذلك العام، ولم يكن قد نسي أمر التكريم بعد، ومنذ ذلك الحين حصل على شريك عمل، جينجر بيت، مقدّمًا تدريبًا شخصيًا للزبائن على مساحة تفوق أربعين ميلًا، وشاحنتين على الحساب تحملان رمزًا موحدًا.

«الفصل من العمل له أن يغيِّر حياة النَّاس، لو». نظر إلى ساعته ليتحقَّق من زمن الشَّوط. «ماذا تريدين أن تفعلي؟ يمكنك أن تتدرّبي. أنا واثق أنهم يقدِّمون منحة لأشخاص مثلك».

«أشخاص مثلي؟».

«نعم، أشخاص يبحثون عن فرصة جديدة. ماذا تريدين أن تكوني؟ يمكنك أن تعملي خبيرة تجميل. أنت جميلة بما فيه الكفاية».

نكزني ونحن نركض، كما لو أنَّ عليَّ الامتنان للإطراء.

«أنت تعرف روتيني التجميلي.. صابون وماء ثم أي منشفة قريبة».

كانت علائم السّخط قد بدأت بالظُّهور على قسمات باتريك. وبدأت أتخلَّف عنه. أكره الركض. وكرهته هو لأنه لم يخفِّف من سرعته.

«ربما مساعدة في متجر، أو سكرتيرة، أو سمسارة عقارات، لا أعرف... لا بدَّ من أن يكون هناك ما ترغبين بفعله».

لكن لم يكن. كنت قد أحببت العمل في المقهى. أحببت معرفة كل ما تجب معرفته عن «الباترد بان»، والاستماع إلى قصص عن حيوات من يرتادونه. شعرت بالارتياح هناك.

«لا يمكنك التسكُّع هنا وهناك، حبيبتي. عليك أن تتجاوزي الأمر. أفضل روَّاد الأعمال شقُّوا طريقهم من الصِّفر. جيفري آرتشر فعلها. وكذلك ريتشارد برَنسُن».

ربَّت على ذراعي محاولًا أن يستعجلني.

«أشكُّ أن يكون جيفري آرتشر قد حضَّر يومًا كمية وافرة من كعكة الشَّاي المحمَّصة».

انقطعت أنفاسي. وحمَّالة الصَّدر التي كنت أرتديها لم تكن مناسبة. أبطأت، وضعت يديَّ على ركبتيّ. التفتَ، وصار يركض إلى الخلف، صوته محمول على الهواء البارد السَّاكن.

«لم أقصد الإساءة. انسي الأمر، ارتدي بدلة جيدة وتوجَّهي إلى مركز العمل. أو سوف أدرِّبك على العمل معي لو تحبين. أنت تعرفين أنَّ الأجر جيِّد ولا تقلقي بشأن الإجازة. سوف أدفع عنك».

ابتسمت له.

رمى قبلةً نحوي وتردَّد صوته عبر الملعب الفارغ عندما قال: «يمكنك أن تسدِّديني عندما تقفين على قدميك».

***

تقدَّمت بطلبي الأول للحصول على إعانة الباحث عن عمل. ذهبت إلى مقابلة امتدت حتى خمسٍ وأربعين دقيقة، وإلى مقابلة جماعية حيث

جلست مع مجموعة من نحو عشرين شخصًا من الرِّجال والنِّساء غير المتآلفين. كان يرتسم على وجوه نصفهم تعبير المندهش قليلًا نفسه الذي أظنُّ أنه كان مرتسمًا على وجهي، وكانت وجوه النِّصف الآخر فارغة لا مبالية لأناس سبق أن جاؤوا إلى هنا مرَّات كثيرة. ارتديت ثيابًا سمَّاها والدي ثيابي «المدنية».

بنتيجة هذه الجهود، عملت لوقت قصير عملًا ليليًا في مصنع لتحضير الدَّجاج (رأيت على إثره الكوابيس لأسابيع)، ويومين في دورة تدريب «مستشارة منزلية لاستخدام الطاقة». أدركت بسرعة كبيرة أن المطلوب مني كان جعل المسنين يتشكّكون في جودة مزوّد الطاقة خاصتهم من أجل أن يغيروه إلى آخر، وأخبرت مرشدي الشَّخصي «سيد» أني لا أستطيع القيام بهذا العمل. أصرَّ على أن أستمر، لذا وضعت لائحة ببعض التَّمارين التي طلبوا مني القيام بها، عندها أصبح أهدأ قليلًا، واقترح أن نجرِّب شيئًا آخر (كان دومًا يقول «نحن» حتى لو كان من الواضح تمامًا أنَّ واحدًا منا سيقوم بالعمل).

عملت لمدَّة أسبوعين في سلسلة مطاعم للوجبات السَّريعة. كانت ساعات العمل مُرضية، وتمكَّنت من التغلُّب على حقيقة أن اللباس الرَّسمي ولَّد الكهرباء السَّاكنة في شعري. لكنني وجدت أنه من المستحيل أن ألتزم بنصِّ «الرُّدود المناسبة»، بعباراته المتمثِّلة بـ«كيف يمكنني مساعدتك اليوم؟»، و«هل تريد طبق بطاطا مقلية كبير مع طبقك؟».. طُردت بعد أن شاهدتني واحدة من فتيات الدونات[1] أناقش المزايا المختلفة للألعاب المجانيَّة مع فتاة تبلغ من العمر أربع سنوات. ماذا يمكنني القول؟ كانت طفلة ذكية تبلغ من العمر أربع سنوات. أنا أيضًا فكَّرت بأن الجميلات النَّائمات كنَّ سخيفات.

---

(1) وهن عادة فتيات متطوّعات في جيش الخلاص يقمن بجمع التبرعات من خلال بيع حلوى الدونات.

جلست الآن في مقابلتي الرَّابعة بينما تفحَّص سيد شاشة اللمس بدقَّة بحثًا عن «فُرصٍ» إضافية للتوظيف. حتى سيد الذي كانت تبدو عليه ملامح شخص مسرور تجهَّم لأنه أقحم أحد أكثر المرشَّحين المستبعَدين في عمل، بدأ الضَّجر يظهر عليه بعض الشَّيء.

«هل فكَّرتِ يومًا في الانضمام إلى صناعة الترفيه؟».

«ماذا تقصد، فنانة مُقلِّدة؟ مغنيَّة أوبرا؟».

«في الواقع، لا. لكن هناك فرصة للعمل راقصة في ملهى ليلي. عدة فرص في الواقع».

رفعت حاجبي مندهشة.

«قل لي إنك تمزح».

«ثلاثون ساعة عمل أسبوعيًا على مبدأ العمل الحر، وأعتقد بأن البقشيش جيِّد. قلتِ إنك كنت جيدة في التَّعامل مع النَّاس. وتبدين أنك مثل... مسرحية... أو في مجال الأزياء».

نظر إلى ثوبي الأخضر اللمّاع. ظننت بأنه قد يبهجني. دندن لي توماس لازمة أغنية **الحوريَّة الصَّغيرة** أثناء تناولنا وجبة الفطور.

كتب سيد شيئًا بواسطة لوحة المفاتيح.

«ماذا عن (مشرف على خط محادثة للكبار)؟».

حدَّقت فيه.

هزَّ كتفيه وقال: «قلتِ إنك تحبين التَّحدث إلى النَّاس».

«لا. ولا العمل في ما يشبه البار. أو محترفة تدليك. أو فتاة استعراض عبر شبكة الإنترنت. هيَّا سيد. لا بدَّ أن يكون هناك شيء يمكنني فعله ولا يصيب والدي بسكتة قلبية».

بدا أن هذا يربكه.

«لم يبقَ كثير من الفرص التي تشتمل على عمل جزئي بساعات مرنة».

لقد حضرت إلى هنا عددًا كافيًا من المرات وصار في وسعي التَّحدث على طريقتهم، فقلت: «عمل ليلي في تكديس البضائع على الرفوف؟».

قال معتذرًا: «هناك قائمة انتظار. إذ يميل الآباء للتوجه إلى هذا العمل لأنه يتوافق مع ساعات المدرسة». تفحَّص الشَّاشة ثانية.

«إذًا لم يبقَ لنا سوى أن تجربي العمل كمساعدة صحيَّة».

«مسح مؤخرات المسنين».

«لويزا، أخشى أنك لستِ مؤهَّلة لما هو أكثر من ذلك. إذا أردت أن تتدرَّبي، سوف يسعدني أن أرشدك في الاتجاه الصَّحيح. هناك الكثير من الدَّورات في مركز تعليم الكبار».

«لكن انتهينا من هذا، سيد. إذا فعلت ذلك، لن يعود في وسعي الحصول على إعانة الباحث عن عمل، صحيح؟».

«نعم، إذا لم تكوني جاهزة للعمل».

جلسنا هناك بصمت إلى حين. حدَّقت نحو الأبواب، حيث وقف حارسان ضخما البنية. تساءلت إذا كانا قد حصلا على الوظيفة من خلال مركز العمل.

«أنا لا أجيد التَّعامل مع المسنين، سيد. جدّي يعيش في البيت منذ أن أصيب بالسَّكتة الدماغية، ولا يمكنني التعامل معه».

«آه. إذًا لديك بعض الخبرة في الرِّعاية».

«ليس حقًّا، أمي تقوم بكلِّ شيء يتعلّق به».

«هل ترغب أمك بالعمل؟».

«مضحك».

«أنا لا أمزح».

«وتتركني أهتم بجدِّي؟ لا، شكرًا. بالنيابة عني وعنه بالمناسبة. ألم تجد أيَّ عمل في أيِّ مقهى؟».

«لا أظن أنه يوجد عدد كافٍ من المقاهي لتكفل لك عملًا، لويزا. يمكننا أن نجرّب مع كنتاكي للدَّجاج المقلي. يمكنك أن تتقدّمي على نحو أفضل هناك».

«ألأني سأحصل على ما هو أكثر بكثير بتقديم وجبة بارغن بوكيت من مطاعم ماك ناغيتس للدَّجاج؟ لا أظنُّ ذلك».

«حسنًا، إذًا ربَّما علينا أن نواصل البحث».

«هناك فقط أربع حافلات من البلدة وإليها. أنت تعرف ذلك. وأنا أعلم أنك قلت إنَّ عليَّ التحرّي عن حافلة السُّياح، لكني اتَّصلت بالمحطة وهي تتوقّف عن العمل عند السَّاعة الخامسة عصرًا. بالإضافة إلى أن أجرها ضعف أجر الحافلة العادية».

استند سيد إلى الوراء في كرسيِّه وقال: «لويزا، الآن في هذه المرحلة من الإجراءات يجب عليَّ حقًّا أن أثبت أنك شخص ملائم وقدير، لكي تستمري في مرحلة التَّأهّل للحصول على الإعانة المالية، يجب عليك...».

«أن أدلّل على أني أسعى للحصول على عمل. أعرف».

كيف يمكنني أن أشرح لهذا الرَّجل مدى رغبتي في العمل؟ هل لديه أدنى فكرة عن مدى افتقادي لعملي القديم؟ البطالة كانت بالنسبة إليَّ أمرًا يشار إليه برتابة في الأخبار في ما يتعلّق بحوض بناء السُّفن أو مصانع السَّيارات.

لم أفكِّر يومًا بأنك يمكن أن تفتقد عملًا كما تفتقد طرَفًا من أطرافك - فعل انعكاسي مستمر. لم أفكِّر أنه بالإضافة إلى المخاوف الواضحة

حول النقود، ومستقبلك، سوف تشعرك خسارتك لعملك بالنَّقص، وبانعدام الجدوى إلى حدٍّ ما. وأن النُّهوض في الصَّباح قد يكون أصعب من أن تصحو مفزوعًا على صوت المنبِّه. وأنك قد تفتقد الأشخاص الذين عملت معهم، مهما قلَّت الأمور المشتركة في ما بينكم. أو حتى إنك قد تجد نفسك تبحث عن وجوه مألوفة وأنت تسير في الشَّارع الرَّئيس. قاومتُ الرَّغبة في الذَّهاب لمعانقة السَّيدة ديندليون عندما رأيتها لأول مرة تمرُّ بالمتاجر، تبدو بلا هدف كما كنت أشعر.

داهم صوت سيد حلم يقظتي.

«آها. هذا قد ينجح الآن».

حاولت أن أصوّب نظري نحو الشَّاشة.

«وصلَتْ للتو. في هذه الدَّقيقة. وظيفة مساعدة في الرِّعاية».

«قلت لكَ لا أجيد...».

«ليس مسنًّا. إنها... وظيفة خاصة. مساعدة أحدهم في منزله، ويبدو أن العنوان على مسافة تبعد أقل من ميلين عن بيتك. (مرافقة رجل معوّق والعناية به). هل يمكنك القيادة؟».

«نعم. لكن هل عليَّ أن أمسح...».

«مسح المؤخرة ليس مطلوبًا على حدِّ علمي». أنعم النَّظر في الشَّاشة ثم تابع: «إنَّه شخص مصاب بالشَّلل الرباعي. يحتاج إلى من يساعده ويطعمه آناء النَّهار. يتوجّب غالبًا في هذه الأعمال التَّواجد هناك عندما يرغبون بالخروج إلى مكان ما، تساعدين في أمور أساسية لا يمكنهم القيام بها بأنفسهم. أوه. المرتَّب جيِّد. أعلى بكثير من الحدِّ الأدنى».

«هذا ربما لأنه ينطوي على مسح المؤخرة».

«سأتَّصل بهم لأتأكد من عدم وجود ذلك. لكن إذا كانت تلك هي الحالة، سوف تذهبين للمقابلة؟».

قال ذلك بصيغة سؤال. لكننا نحن الاثنين كنَّا نعرف الجواب. تنهَّدت وحملت حقيبتي أهمُّ بالعودة إلى البيت.

***

قال والدي: «يا إلهي، هل في وسعك أن تتخيّلي؟ إذا لم يكن عقابًا كافيًا أن ينتهي بك الأمر في كرسي متحرّك لعين، عندئذ تأتيك ابنتنا لو لمرافقتك».

وبَّخته أمي: «برنارد!».

كان جدِّي يضحك من خلفي وهو يشرب فنجان الشَّاي.

2

أنا لست غبيَّة. أنا فقط أودّ ألا أشعر بذلك في هذه المرحلة. لكن من الصَّعب حقًّا ألَّا تشعر ببعض النَّقص في قسم خلايا الدماغ، وأنت تترعرع إلى جانب أخت أصغر سنًّا وسبق أن انتقلت، ليس إلى صفِّي، بل إلى صفٍّ أعلى.

كل شيء متعقِّل، أو ذكي، سبقتني كاترينا إلى فعله، على الرَّغم من أنها تصغرني بثمانية عشر شهرًا. كل كتاب قرأته سبقتني إلى قراءته، كلُّ معلومة ذكرتها أثناء تناولنا العشاء كانت تعرفها. لا أعرف أحدًا سواها يحب الامتحانات حقًّا. أحيانًا أفكِّر بأن طريقتي في اختيار ملابسي هي على ما هي عليه لأن الشَّيء الوحيد الذي لا تستطيع فعله هو تنسيق الثياب. هي فتاة ترتدي بنطال جينز وكنزة صوفيَّة. تتجلّى فكرتها عن الأناقة في كيِّ بنطال الجينز أولًا.

يدعوني والدي «غريبة الأطوار» لأني أتسرَّع في قول ما يخطر في بالي على الفور. وتراني أمي «مستقلَّة»، وهي طريقتها اللبقة في التَّعبير عن عدم فهمها فهمًا تامًّا لطريقتي في ارتداء الملابس. لكن بمعزل عن الفترة القصيرة في مراهقتي، لم أرغب أبدًا أن أبدو مثل ترينا، أو مثل أي فتاة في المدرسة، فضَّلت ملابس الفتية إلى أن بلغت الرَّابعة عشرة من عمري تقريبًا، والآن أميل لأن أمتِّع نفسي - بحسب مزاجي أثناء النَّهار. لا

جدوى من محاولة الظُّهور بمظهر تقليدي. أنا قصيرة القامة، داكنة الشَّعر، ووفقًا لوالدي، لديَّ وجه عفريت. هذا ليس كما في «جمال عفريتي[1]». أنا لست عاديَّة، لكن لا أظن أن أحدًا سوف يدعوني يومًا بالجميلة. لا أملك ذلك الشَّيء الجميل الدَّارج. يدعوني باتريك بالبهيّة عندما يرغب في مضاجعتي، لكنه هكذا صريح إلى حد ما. نحن نعرف بعضنا منذ ما يقارب سبع سنوات.

كنت في سنِّ السَّادسة والعشرين ولم أكن واثقة حقًّا مما أنا عليه. قبل أن أخسر عملي لم أكن قد فكرت في الأمر أبدًا. افترضت أني سأتزوج من باتريك ربما، وأنجب عددًا من الأولاد، وأعيش قريبًا من المكان الذي عشت فيه دومًا. بغضِّ النَّظر عن ذوقي الغريب في الملابس، وحقيقة أني قصيرة القامة بعض الشَّيء، ليس هناك ما يميزني كثيرًا عن أي شخص قد تصادفه في الشَّارع. أنت ربما لن تلتفت إلي. أنا فتاة عادية، أعيش حياة عادية. ناسبتني على نحو ممتاز في الحقيقة.

***

أصرَّت أمي: «لا بد من ارتداء بدلة عند الذَّهاب إلى مقابلة، الجميع يرتدي ملابس غير رسمية في هذه الأيام».

«إذا ما ارتديتُ ثيابًا مخطّطة قد أبدو مفعمة بالحيوية وأنا أطعم عجوزًا».

«لا تتذاكي».

«لا أستطيع شراء بدلة. ماذا لو لم أحصل على العمل؟».

نظرت إلى شعري الذي كان معقودًا كالعادة في ربطتين على جانبي رأسي: «يمكنك أن ترتدي بدلتي، وسوف أكوي لكِ قميصًا جميلًا، ولمرة

(1) Elfin beauty: تعني أيضًا جمالاً فاتنًا أو غريبًا.

واحدة لا ترفعي شعرك على هذا النَّحو، تيمنًا بالأميرة ليا[1]. فقط حاولي أن تبدي مثل شخص عادي».

عرفت أنه من الأفضل أن أتجنَّب الجدال مع أمي. وعرفت أن والدي قد أعطى تعليمات بعدم التَّعليق على ثيابي وأنا خارجة من المنزل، بمشيتي الخرقاء في تنورة ضيقة جدًّا.

قال بفم يرتعش: «وداعًا، حبيبتي، حظًّا سعيدًا. تبدين... عملية جدًا».

لم يكن ما أحرجني ارتدائي لبدلة أمي، أو أنها كانت على طراز ما كان سائدًا أواخر الثَّمانينات، بل إنها كانت بالفعل ضيِّقة بعض الشَّيء. شعرت بأنَّ الحزام يخترق حجابي الحاجز، أغلقت طرفي السُّترة المزدوجة الصَّدر. وتذكَّرت عندما كان أبي يقارن أمي بدبوس الشعر ويقول إن فيه دهنًا أكثر منها.

أثناء جلوسي في الحافلة تلك المدة القصيرة شعرت بالغثيان قليلًا. لم يسبق أن ذهبت إلى مقابلة عمل لائقة. كنت قد التحقت بالعمل في مقهى الباترد بان بعد أن راهنتني ترينا أني لن أستطيع الحصول على عملٍ خلال يوم واحد. دخلت وسألت فرانك ببساطة عمَّا إذا كان يحتاج إلى عاملة إضافية. كان يوم الافتتاح وقد بدا تقريبًا منبهرًا من شدَّة الامتنان.

بالالتفات إلى الوراء لا أستطيع الآن أن أتذكَّر أيضًا أني تناقشت معه بشأن النُّقود. اقترح مرتبًا أسبوعيًا، ووافقت، وقال لي إنه سوف يزيده قليلًا مرة في السَّنة، وكانت الزِّيادة عادة أكثر بقليل مما كنت لأطلبه.

ماذا يسأل الناس في المقابلات بأيِّ حال؟ قال سيد إن هناك رجلًا يقدِّم له الرعاية يعمل على الاعتناء «بحاجاته الخاصَّة» (ارتجفت لسماع العبارة). على حدِّ قوله لم يكن عمل مقدِّم الرِّعاية المساعد «واضحًا تمامًا

(1) وهي إحدى شخصيات فيلم حرب النجوم.

بهذا الشَّأن». تصوَّرت نفسي أمسح اللعاب عن فم الرجل المسنّ، ربما أسأل بصوت مرتفع: «**هل تريد كوبًا من الشَّاي؟**».

عندما بدأ جدِّي يتعافى من السَّكتة الدِّماغية لم يكن قادرًا على فعل أيِّ شيء بنفسه. قامت أمي بكل شيء.

قال أبي: «أمك قدِّيسة»، وفسَّرتُ هذا على أنها مسحت عجيزته من دون أن تهرب صارخة من البيت. كنت واثقة تمامًا أن أحدًا لم يتصورني يومًا بهذا الشَّكل. أقطِّع لجدي طعامه وأحضِّر له كوابًا من الشَّاي، أما في ما يتعلق بأي شيء آخر، لم أكن واثقة من أني كنت مناسبة لهذا العمل.

يقع منزل غرانتا على الجانب الآخر من قلعة ستورتفولد، بالقرب من الجدران القروسطية، على الامتداد الطويل غير المرصوف الذي اشتمل فقط على أربعة منازل ومتجر ناشيونال ترست، في وسط المنطقة السِّياحية بالضَّبط. لقد مررت بهذا المنزل ملايين المرات في حياتي من دون أن أراه بالفعل يومًا. الآن، مررت بمرأب السَّيارات ومصغَّر السِّكة الحديد، وكانا كلاهما فارغين ومكشوفين كما تبدو فقط جاذبية الصَّيف في شهر شباط. كان أكبر مما تخيّلت، قرميد أحمر بواجهة مزدوجة، نوع من المنازل التي تراها في نسخ قديمة من مجلة «كاونتري لايف» فيما تنتظر في عيادة طبيب.

صعدت الدَّرب الطَّويل، أحاول ألَّا أفكِّر في ما إذا كان أحد يتطلَّع من النَّافذة. صعود درب طويل يضعك في ورطة، إنه يجعلك تلقائيًا تشعر بالوضاعة. كنت فقط أفكر مليًا في ما إذا عليَّ أن أرفع غُرّتي عندما انفتح الباب وقفزت.

وخرجت امرأة، لا تفوقني في العمر كثيرًا. كانت ترتدي بنطالًا واسعًا وقميصًا يبدو طبيًا وتتأبط معطفًا وملفّ أوراق. عندما مرّت بجانبي ابتسمت بتهذيب.

قال صوت من الدَّاخل: «شكرًا لك كثيرًا لمجيئك. سنبقى على اتصال. آه».

ظهر وجه امرأة، في خريف العمر لكنها جميلة، تسريحة شعرها دقيقة ومكلفة. كانت ترتدي بنطالًا رسميًا خمَّنتُ أنَّ ثمنه يفوق ما يكسبه والدي في شهر.

«لا بدَّ أنك الآنسة كلارك».

«لويزا». ومددت يدي، وفقًا لما طبعته أمي في ذهني. لا يمد الشبان أبدًا أيديهم هذه الأيام. أتفق مع والديَّ على ذلك. في الأيام الخوالي لم يكن هناك «هاي» أو ما هو أسوأ، «قبلة في الهواء». لم تبدُ هذه المرأة أنها قد ترحِّب بقبلة في الهواء!!

«صحيح. نعم. ادخلي».

سحبت يدها من يدي بأسرع ما يمكن، لكنني شعرت بأن عينيها تمرّان عليَّ كما لو أنها كانت تقيِّمني الآن.

«هلَّا رافقتني؟ سنتحدّث في قاعة الاستقبال. اسمي كاميلا ترينُر».

بدت مُرهقة، كما لو أنها سبق أن كرَّرت الكلمات نفسها عدة مرَّات ذلك اليوم.

تبعتها عبر غرفة واسعة بنوافذ فرنسية ممتدة من الأرض حتى السَّقف. انثنت ستائر ثقيلة بأناقة من أعمدة سميكة من خشب الماهوغني، وكانت الأرضيات مفروشة بسجاجيد فارسية مزيَّنة على نحو معقَّد تفوح منها رائحة شمع العسل والأثاث العتيق. كان هناك طاولات جانبية أنيقة صغيرة في كل مكان، سطوحها الصَّقيلة مكسوَّة بصناديق تزيينية. تساءلت أين بحق الأرض يضع آل ترينر فناجين الشَّاي.

«إذًا أتيتِ عن طريق إعلان مركز العمل، صحيح؟ اجلسي».

بينما كانت تقلِّب في حافظة الأوراق، حدَّقتُ في أرجاء الغرفة خِفيةً. فكَّرت أن في المنزل بعض الشَّبه مع منزل النَّقاهة، كل الرافعات والسُّطوح النَّظيفة. لكن هذا كان شبيهًا بأحد الفنادق الباهظة بشكل مخيف، ثراء

متوارث، بأشياء معتَنى بها جيدًا حتى بدت ثمينة في حدِّ ذاتها. كانت هناك صور لها أطر فضية على صِوان السُّفرة، لكنها كانت بعيدة جدًّا فلم أتمكَّن من تبيّن الوجوه. فيما هي تعاين صفحاتها، تحركتُ في مقعدي لأحاول أن أرى بشكل أفضل.

وعندها سمعت صوت تمزُّق الغرز الذي لا لبس فيه. نظرت نحو الأسفل فرأيت أن قطعتي القماش المدروزتين على جانب ساقي اليمنى قد تمزقتا، وأن الخيوط المنسولة من القماش الحريري تتطاير نحو الأعلى. شعرت بأن وجهي تضرَّج بالدماء.

«إذًا... آنسة كلارك... هل لديك أي خبرة بالشَّلل الرباعي؟».

التفتُّ لأواجه السَّيدة ترينر، وأنا أتلوَّى كي تغطي سترتي التَّنورة قدر الإمكان.

«لا».

«هل عملتِ في تقديم الرِّعاية طويلًا؟».

«أمم... أنا في الواقع لم أفعل يومًا»، وأضفت كما لو أني أسمع صوت سيد في أذني: «لكني واثقة من أني أستطيع التَّعلم».

«هل تعرفين ما هو الشَّلل الرباعي؟».

تردّدت قبل أن أقول:

«عندما.. تعلقين في كرسي متحرك؟».

«أفترض أنَّ هذا هو السَّبيل الوحيد لوصفه. هناك درجات مختلفة لكن في هذه الحالة نحن نتحدَّث عن انعدام القدرة على استعمال السَّاقين بشكل تام واستعمال محدود جدًّا لليدين والذراعين. هل يزعجك هذا؟».

«حسنًا ليس أكثر مما يمكن أن يزعجه بصراحة». ابتسمت، لكن وجه السَّيدة ترينر كان جامد الملامح.

«آسفة -لم أقصد...».

«هل يمكنك القيادة، آنسة كلارك؟».

«نعم».

«رخصة سوقٍ نظامية؟».

أومأت.

وضعت كاميلا ترينر إشارة على أمر في قائمتها. كان الفتق يزداد اتِّساعًا. رأيته يزحف بعناد حتى فخذي. عند هذا الحد، سوف أبدو عندما أنهض مثل فتاة استعراض في فيغاس.

«هل أنت بخير؟»، كانت السَّيدة ترينر ترنو إلي.

«أنا فقط أشعر بالحرِ قليلًا. هل تمانعين لو خلعت سترتي؟».

وقبل أن تتمكن من قول شيء خلعت السُّترة بحركة رشيقة واحدة وعقدتها حول خصري مخفية المزق في التَّنورة.

قلت مبتسمة: «الجو حار جدًّا، المجيء من الخارج، كما تعلمين».

كان هناك وقفة قصيرة جدًّا ثم عادت السَّيدة ترينر مجددًا إلى أوراقها.

« كم عمركِ؟».

«ستةٌ وعشرون عامًا».

«وبقيت في عمل سابق لمدة ست سنوات».

«نعم. لا بد أن لديك نسخة من كتاب التَّوصية».

رفعته السَّيدة ترينر وشزرت.

«يقول ربُّ عملك السَّابق إنك (ودودة، محدِّثة، ولك حضور حيوي)».

«نعم، لقد دفعتُ له ليقول ذلك!!».

ذلك الوجه الخالي من التعبير مرة ثانية.

أوه يا إلهي، فكَّرت.

كان كما لو أنني موضوع للبحث. ليس بطريقة جيدة بالضَّرورة.

بدا قميص والدتي رخيصًا فجأة، شعَّت الخيوط الصِّناعية في الضَّوء الشَّاحب. كان عليَّ أن أرتدي أبسط ما لديّ من سراويل وقميص. أي شيء سوى هذه البدلة.

«إذًا لماذا تركتِ هذا العمل، طالما أنك اعتُبرت جيّدة جدًّا؟».

«باع المالك فرانك المقهى، «باترد بان» واحد من المقاهي التي تقع أسفل القلعة»، استدركت نفسي وتابعت: «كنت أحب أن أبقى».

أومأت السَّيدة ترينر، إما لأنها لم تشعر بحاجة لأن تضيف شيئًا عن الأمر، أو لأنها أيضًا كانت لتكون سعيدة من أجلي لو بقيت هناك.

«وماذا تريدين أن تفعلي في حياتك بالضَّبط؟».

«عذرًا؟».

«هل لديك مطامح في مهنة؟ هل هذه ستكون نقطة انطلاق إلى شيء آخر؟ هل لديك حلم مهني تتمنين تحققيه؟».

نظرت نحوها باندهاش.

هل كان هذا سؤالًا مضللًا؟

«أنا... لم أفكِّر حقًّا إلى هذا الحد. منذ أن فقدت عملي. أنا فقط-» ابتلعت ريقي. «أنا أريد فقط أن أعمل ثانية».

بدوت واهنة. أي نوع من الأشخاص تلك التي تأتي إلى مقابلة من دون أن تعرف حتى ماذا تريد أن تفعل؟ ألمحَ تعبير السَّيدة ترينر إلى أنها فكرت بالأمر نفسه.

وضعت قلمها.

«إذًا يا آنسة كلارك، لماذا عليَّ أن أوظّفك بدلًا من، لنقل، المرشَّحة السَّابقة مع سنوات من الخبرة مع الشَّلل الرباعي؟».

نظرت إليها.

«صدقًا؟ لا أعرف». قوبل هذا بالصَّمت. لذا أضفت: «أعتقد بأن هذا سيكون خيارك».

«ألا يمكنك أن تعطيني سببًا واحدًا يدعوني إلى توظيفك؟».

ظهر لي وجه أمي فجأة. لم أكن لأحتمل فكرة العودة إلى البيت ببدلة ممزَّقة ومقابلة أخرى فاشلة. وأجر هذا العمل يفوق تسعة جنيهات في السَّاعة.

استقمت في جلستي قليلًا.

«حسنًا... أنا سريعة التَّعلم، لا أمرض أبدًا، أنا أسكن على الجانب الآخر من القلعة، وأنا أقوى مما أبدو... ربما قوية بما يكفي لأساعد زوجك...».

«زوجي؟ إنه ليس زوجي من ستعملين معه. بل ابني».

طرفت بعيني قائلة: «ابنك؟ أنا لا أخشى من العمل المجهد. أنا جيدة في التعامل مع كل أنواع الناس و... أجيد تحضير الشَّاي».

بدأت أهذر بالحماقات في الصَّمت. فاجأتني فكرة كونه ابنها.

«أعني، يبدو أن والدي لا يظن أنها أعظم شهادة خبرة. لكن في تجربتي ليس هناك الكثير لا يمكن إصلاحه بكوب محترم من الشَّاي..».

كان هناك شيء غريبٌ بعض الشَّيء في طريقة السَّيدة ترينر في النَّظر إليّ.

دمدمت عندما أدركت ما قلته: «آسفة، أنا لا ألمح إلى أن... الشَّلل النِّصفي.. الشَّلل الرُّباعي عند.. ابنك يمكن أن يُحلّ بكوب شاي».

«عليَّ أن أخبرك، يا آنسة كلارك، أن هذا ليس عقدًا دائمًا. قد لا تتجاوز مدته السِّتة أشهر. لهذا السَّبب الراتب... متناسب. نحن أردنا أن نستميل الشَّخص المناسب».

«صدِّقيني، عندما تعملين في مصنع تحضير الدَّجاج، يبدو العمل في خليج غوانتانامو لستة أشهر جذّابًا».

أوه، اخرسي، لويزا. عضضت على شفتي.

لكن السَّيدة ترينر بدت ذاهلة. أغلقت ملفّها.

«أصيب ابني ويل في حادث سير منذ نحو سنتين. هو يتطلّب عناية على مدى أربع وعشرين ساعة، يقدِّم معظمها ممرض مدرَّب. عدت مؤخرًا إلى العمل، وسيتوجَّب عليّ مقدم الرِّعاية أن يكون هنا أثناء النَّهار ليبقى برفقته، يساعده في تناول الطَّعام والشَّراب، ويقدم له العون عمومًا، ويضمن ألّا يصاب بأيِّ أذى». نظرت كاميلا ترينر إلى حِجرها. «إنه لعلى قدر بالغ من الأهمية أن يكون لدى ويل شخص يفهم تلك المسؤولية».

بدا كل ما قالته، والطَّريقة التي أكدَّت فيها على كلماتها أيضًا، أنه يلمّح إلى حماقة بدرت منّي.

هممت بحمل حقيبتي وقلت: «يمكنني تفهّم ذلك».

«إذًا هل سترغبين بالعمل؟».

كان مفاجئًا جدًّا حتى ظننت بداية أني لم أسمع ما قالته على نحو صحيح.

«عفوًا؟».

«نحن بحاجة إلى أن تبدئي بأسرع ما يمكن. سيتم دفع المستحقَّات أسبوعيًّا».

انعقد لساني لفترة وجيزة.

بدأت: «ستفضلينني بدلًا من...».

«ساعات العمل طويلة بحق - منذ الثَّامنة صباحًا حتى الخامسة مساءً. وأحيانًا أكثر من ذلك. ليس هناك فرصة طويلة للغداء ولو أنه عندما يأتي نايثن، ممرّضه اليومي ليقدم له الغداء سيكون لديكِ نصف ساعة حرّة».

«سوف لن تحتاجون إلى أيِّ شيء... طبّي؟».

«لدى ويل كل ما نستطيع تقديمه له من العناية الطبيَّة. ما نبحث عنه من أجله هو شخص نشيط.. ومبتهج. حياته معقَّدة، ومن المهم أن يتشجع على..»، توقفت. كان تحديقها ثابتاً على شيء خارج النوافذ الفرنسية. التفتت نحوي أخيرًا وأردفت: «حسنًا، لنقل إن مصلحته العقلية تهمُّنا بقدر ما تهمنا مصلحته الجسدية. هل تفهمين؟».

«أظنُّ ذلك. هل يجب عليَّ أن أرتدي زيًا رسميًّا؟».

«لا. بالتأكيد ما من لباس رسمي». نظرت إلى ساقي. «ولو أنه يجب أن ترتدي لباسًا أكثر احتشامًا».

نظرت إلى حيث سترتي قد انزاحت كاشفة عن مساحة كبيرة من فخذٍ عارٍ.

«إنه... أنا آسفة. لقد تمزَّقت. هي ليست لي في الحقيقة».

لكن لم يعد يبدو على السَّيدة ترينر الإصغاء.

«سأشرح ما عليكِ القيام به عندما تبدئين. ويل ليس شخصًا من السَّهل التَّعامل معه في هذا الوضع يا آنسة كلارك. هذا العمل سيكون سلوكًا عقليًا أكثر من أيِّ شيء آخر... مهارات حرفية قد تمتلكينها. لذا سوف نراك غدًا؟».

«غدًا؟ لا ترغبين.. لا ترغبين أن ألتقي به؟».

«ويل ليس بخير اليوم. أظنُّ من الأفضل أن نؤجّل ذلك إلى الغد».

نهضت مدركة أن السَّيدة ترينر كانت الآن تنتظر مغادرتي.

قلت وأنا أشدُّ سترة أمي عليّ: «نعم، شكرًا لك. سأراك عند السَّاعة الثَّامنة من صباح الغدّ».

***

كانت أمي تسكب البطاطا في طبق أبي. وضعَت حبّتَين، فأزاح طبقه

ورفع حبّتَيْ بطاطا إضافيتين من طبق التَّقديم. صدَّته وأعادتها إلى الطبق، أخيرًا ضربته على يده بملعقة التقديم عندما اتجه نحوهما ثانية. جلس حول الطَّاولة الصغيرة كلٌّ من والدي، وأختي وتوماس، وجدِّي، وباتريك الذي يأتي دومًا للعشاء أيام الأربعاء.

قالت أمي لجدِّي: «أبي، هل تودّ أن يقطّع لك أحد اللحم؟ ترينا هلَّا قطَّعت اللحم لأبي؟».

انحنت ترينا وبدأت تشرِّح اللحم في طبق جدِّي بضربات رشيقة. على الجانب الآخر فعلت الأمر نفسه من أجل توماس.

«إلى أيّ حدّ وضع هذا الرجل سيئ، لو؟».

أشار والدي: «لا يمكن أن يكون سيئًا للغاية، إذا كانوا مستعدين لأن يسمحوا لابنتنا بالعمل عنده». كان التِّلفاز من خلفي مشغَّلًا ليتمكن أبي وباتريك من مشاهدة مباراة كرة القدم. يتوقفان بين الحين والآخر، وينظران من حولي. يتوقف فمهما عن المضغ وهما يشاهدان تمريرة أو رمية خاطئة.

«أظن بأنها فرصة عظيمة. ستعمل في واحد من كبريات المنازل. عند عائلة جيّدة. هل هم مترَفون حبيبتي؟».

في شارعنا قد يقصد بكلمة «مترف» أي شخص لا يوجد في عائلته أحد مخالف لقانون مخالفة العرف والسلوك الاجتماعي.

«أفترض ذلك».

كشَّر أبي: «آمل أنك تمرّنت على تقديم التحية».

انحنت ترينا لتمنع توماس عن أن يدفع بمرفقه العصير على الأرض: «هل التقيته حقًا؟ الرجل الكسيح؟ كيف شكله؟».

«سألتقيه غدًا».

«غريب، مع ذلك. سوف تمضين النَّهار معه يوميًا. تسع ساعات. سترينه أكثر مما ترين باتريك».

قلت: «هذا ليس صعبًا».

تظاهر باتريك الجالس إلى الجهة المقابلة من الطاَّولة بأنه لم يسمعني.

قال أبي: «مع ذلك، ليس عليك أن تقلق بشأن تحرّش جنسي من المسن، صحيح؟».

علّقت أمي بصرامة: «برنارد!».

«أنا فقط أقول ما قد يخطر لأي كان. ربما أفضل رب عمل قد تجده لصديقتك، أليس صحيحًا باتريك؟».

ابتسم باتريك عبر الطَّاولة. كان منشغلًا برفض البطاطا، على الرغم من أن أمي بذلت قُصارى جهدها. لم يكن عليه تناول الكربوهيدرات لمدة شهر استعدادًا للماراثون بداية شهر آذار.

«أنت تعرفين، كنت أفكر، هل عليك أن تتعلمي لغة الإشارة؟ أعني إذا كان لا يستطيع أن يتواصل كيف ستعرفين ما يريد؟».

«هي لم تقل إنه لا يستطيع الكلام يا أمي».

لم أتمكَّن حقًا من تذكُّر ما قالته السَّيدة ترينر. كنت لا أزال مصدومة على نحو مبهم بحصولي على العمل حقًّا.

«ربما هو يتحدَّث بواسطة واحدة من تلك الأدوات. مثل ذلك الفتى العالِم. الذي يظهر في مسلسل عائلة سيمبسون».

قال توماس: «اللعنة».

قال أبي: «لا».

قال باتريك: «ستيڤن هوكينغ».

قالت أمي وهي تنقِّل بصرها بين توماس وأبي بنظرة اتهامية: «أصبت، هذا! هو». بدت أنها بنظرتها يمكنها أن تقطع شريحة لحم. «تعلّمه لغة سيئة».

«ليس كذلك. لا أعرف من أين أتى بمثل هذه الألفاظ».

قال توماس وهو ينظر مباشرة إلى جدِّه: «اللعنة».

تجهَّمت ترينا: «أظن أنه سوف يفقدني أعصابي إذا تحدَّث من حلقه. هل يمكنك أن تتخيّلي؟ (أريد ماء)»، قلَّدته.

كان والدي يتمتم بين الحين والآخر قائلًا، ذكية - لكن ليست ذكية بما يكفي لتمنع عن نفسها الانتقاد. كانت أول فرد من أفراد عائلتنا الذي يرتاد الجامعة، إلى أن تركت الدِّراسة في سنتها الأخيرة بعد ولادة توماس. لا يزال أمي وأبي يعقدان الآمال على أن ترينا سوف تجلب الثَّروة للعائلة ذات يوم، أو ربما تعمل في مكان فيه مكتب استقبال لا يستلزم وجود شاشة مراقبة من حوله.

قلت: «لماذا يجب على من يجلس في كرسي متحرِّك أن يتحدَّث مثل رجل آلي؟».

«لكنك ستكونين معه على علاقة حميمة وشخصيَّة. على أقلِّ تقدير سيكون عليك أن تمسحي فمه وتقدِّمين له الشَّراب والطَّعام».

«إذًا؟ إنها ليست عملية معقدة».

«هذا ما تقوله المرأة التي اعتادت على وضع حفاض توماس بالمقلوب».

«هذا حدث مرَّة».

«مرتان. وأنت لم تغيّري له سوى ثلاث مرَّات».

تناولتُ الفاصولياء الخضراء، وكنت أحاول أن أبدو أكثر حماسةً مما كنت في الحقيقة. لكن حتى وأنا استقلُّ الحافلة عائدة إلى البيت، بدأت

الأفكار نفسها تزنُّ في رأسي. ما الذي قد نتحدَّث عنه؟ ماذا لو أنه حدَّق بي وحسب، ورأسه مرخيٌّ طوال اليوم؟ هل سوف أفقد أعصابي؟ ماذا لو لم أتمكَّن من فهم ما يريده؟ كنت سيئة على نحو خرافي في الاهتمام بالأشياء، نحن لم نعد نقتني النَّباتات المنزلية أو الحيوانات الأليفة بعد المصائب التي حدثت، الهامستر، الحشرات الصَّغيرة، والسَّمكة الذَّهبية راندولف. وإلى أي حد سوف تكون حاضرة تلك الأم القاسية؟ لم تعجبني فكرة أن أكون تحت المراقبة طوال اليوم. بدت السَّيدة ترينر واحدة من النساء القويات اللاتي يبعث وجودهن على القلق والارتباك.

«باتريك، ما رأيك بكلِّ هذا إذًا؟».

شرب باتريك جرعة كبيرة من الماء وهزَّ كتفيه. في الخارج، كان صوت قرع المطر على زجاج النَّوافذ يعلو على قرقعة الأطباق وأدوات المائدة.

«إنه أجر جيِّد، برنارد. أفضل من العمل ليلًا في مصنع الدَّجاج، بأيِّ حال».

سرت دمدمة جامعة من الاستحسان من حول الطاولة.

قلت: «حسنًا، وصل الأمر إلى درجة أن أفضل ما في وسعك قوله عن عملي الجديد هو أنه أفضل من جرِّ الدَّجاج الذَّبيح إلى داخل المخازن».

«حسنًا، يمكنك دومًا أن تهتمي بمظهرك في هذه الأثناء وتذهبي للقيام ببعض التَّمارين مع باتريك».

«أهتم بمظهري. شكرًا أبي». كنت على وشك أن أتناول قطعة بطاطا أخرى لكنني غيَّرت رأيي.

«حسنًا، لم لا؟». بدت أمي كما لو أنها تنوي الجلوس - توقَّف الجميع لفترة وجيزة، لكنها نهضت ثانية، تساعد جدِّي في احتساء مرق اللحم.

«قد يكون من المفيد أن تضعي هذا في بالك للمستقبل. بالتأكيد أنت موهوبة في الثرثرة».

شخر والدي: «هي موهوبة في التّكاسل».

قلت: «لقد حصلت لنفسي على عملٍ للتو، يفوق أجره أجر العمل السَّابق أيضًا، إن لم يكن لديك مانع».

تدخَّل باتريك: «لكنه موقَّت فقط، والدك على حق. ربما عليك أن تبدئي بالاهتمام بجسدك أثناء قيامك بعملك. يمكنك أن تكوني مدرّبة شخصيّة جيّدة، إذا بذلت قليلًا من الجهد».

قلت: «لا أريد أن أعملِ مدرّبة شخصيّة. لا أتخيَّل... كلَّ ذلك... القفز». وشتمت باتريك فكشَّر.

قالت ترينا: «ما تريده لو هو عمل يمكِّنها من أن ترفع قدميها وتشاهد التِّلفاز نهارًا وهي تطعم رجلًا قويًّا مسنًّا بواسطة مصاصة».

«نعم. إعادة ترتيب الأضاليا الذَّابلة في دلاء المياه يتطلَّب الكثير من الجهد الجسدي والعقلي، أليس كذلك ترينا؟».

رفع والدي كوب الشَّاي: «نحن نمازحك حبيبتي. عظيم أنك حصلت على عمل. نحن فخورون بك الآن. وليس عليك أن تقلقي لكونه ليس أكثر من ستَّة أشهر. أؤكِّد لك، ما إن تضعي قدميك في منزل هؤلاء التافهين الكبير لن يدعوك تذهبين».

قال توماس: «اللعنة».

قال أبي وهو يمضغ قبل أن تتمكَّن أمي من أن تنبس بكلمة: «ليس أنا».

3

«هذا هو الملحق. كان يُستعمل كإسطبل، لكننا أدركنا أنه سيكون من الأنسب لويل الإقامة فيه بدلًا من المنزل بما أنَّ كل شيء فيه موجود في طابق واحد. وهذه هي غرفة الاحتياط في حال اضُّطر نايثن لقضاء الليل هنا. في بداية الأمر كنَّا بحاجة إلى شخص معظم الأحيان».

حثَّت السَّيدة ترينر السَّير في الممر، تومئ من مدخل إلى آخر من دون أن تلتفت إلى الخلف. كعبها العالي يطقطق على البلاط. بدا حصولي على الوظيفة متوقَّعًا.

«مفاتيح السَّيارة موجودة هنا. لقد أضفتك إلى بوليصة التَّأمين الخاصَّة بنا. أنا أتَّكل على صحَّة التفاصيل التي أعطيتها لي. من شأن نايثن أن يكون في وسعه تعليمك طريقة عمل السلَّم. كل ما عليك فعله هو مساعدة ويل في أن يرتكز على نحو ملائم والمركبة سوف تقوم بالبقية. مع أنه... ليس متحمّسًا للغاية للذهاب إلى أيِّ مكان في هذه الآونة».

قلت: «أشعر ببعض البرد».

بدت السَّيدة ترينر كأنها لم تسمعني.

«يمكنك أن تحضِّري لنفسك الشَّاي والقهوة في المطبخ. أنا أحرص على بقاء الخزائن مموَّنة دائمًا. الحمَّام هنا...».

فتحَت الباب وحدّقتُ في الآلة القابعة فوق حوض الاستحمام

المصنوعة من البلاستيك والمعدن. كان هناك حيِّز مبلل مفتوح تحت الدُّش، وبجانبه كرسي متحرِّك مطوي. في الزاوية حجرة محاطة بالزُّجاج كشفت عن أكوام مرتَّبة من رزم ضخمة مغلفة بالبلاستيك. لم أستطع أن أعرف من مكاني ماذا تكون، لكنها عبقت كلها برائحة معقِّمات خفيفة. أغلقت السَّيدة ترينر الباب، والتفتت صوبي.

«يجب أن أكرِّر، من المهم أن يتواجد شخص برفقة ويل طوال الوقت. اختفت مقدِّمة الرعاية السَّابقة مرة عدة ساعات لتصلح سيارتها، وويل.. جرح نفسه في غيابها».

ازدردت ريقها كما لو أن الذِّكرى لا تزال تتسبّب لها بالألم.

«لن أذهب إلى أيِّ مكان».

«بالتَّأكيد سوف تحتاجين.. إلى فترات للراحة. أنا أريد فقط أن أوضح أنه لا يمكن تركه لفترات أطول من، لنقل، عشر أو خمس عشرة دقيقة. إذا حدث أمر لا مفرَّ منه إما أن تتّصلي بواسطة الهاتف البيني، فقد يكون زوجي ستيفن في البيت، أو اتصلي بهاتفي النَّقال. إذا كنت مضّطرة لإجازة مهما كانت مدّتها، سوف أكون على غاية الامتنان لو أعلمتني في وقت سابق قدر الإمكان. ليس من السَّهل إيجاد بديل دومًا».

«لا».

فتحت السَّيدة ترينُر خزانة الرُّدهة. تحدَّثت مثل شخص يلقي خطابًا تدرَّب على إلقائه جيدًا.

تساءلتُ عن عدد مقدِّمي الرِّعاية السَّابقين.

«إذا كان ويل مشغولًا سوف يكون مفيدًا لو تقومين ببعض الأعمال المنزلية الأساسية. عدَّة التنظيف موجودة تحت المغسلة. هو قد لا يحتاج أن تكوني قريبة منه طوال الوقت. يجب عليكما أن تتوصلا إلى طريقة سلسة للتعامل في ما بينكما».

نظرت السَّيدة ترينر إلى ملابسي، كأنما للمرة الأولى. كنت أرتدي معطفًا قصيرًا زغِبًا قال أبي إنه يجعلني أبدو مثل طائر الإمو. حاولت الابتسام. وبدا كما لو أني بذلت جهدًا.

«بصراحة أتمنّى أن تتمكّنا... من الانسجام مع بعضكما البعض. سيكون لطيفًا إذا استطاع أن يعاملك كصديقة بدلًا من اخصّائية تعمل بأجر».

«صحيح. ماذا يحبّ أن يفعل؟».

«هو يشاهد الأفلام. يستمع أحيانًا إلى المذياع، أو إلى الموسيقى. لديه واحد من تلك الأجهزة الرقمية. إذا وضعته قرب يده، يمكنه عادة أن يشغِّله بنفسه. يستطيع أن يحرِّك أصابعه قليلًا على الرَّغم من أنَّه يجد صعوبة كبيرة في أن يمسك بها شيئًا».

شعرت بالبهجة. إذا كان يحب الموسيقى والأفلام فبالتأكيد قد نجد بعض الأمور المشتركة؟ رأيت فجأة صورة تجمعني بهذا الرجل نضحك على فيلم كوميدي هوليوودي، أو أنا أشغِّل المكنسة الكهربائية في غرفة النوم بينما هو يصغي إلى موسيقاه. ربما هذا سيكون حسنًا. ربما قد ينتهي بنا الأمر صديقين.

«هل تودِّين أن تطرحي أيَّ أسئلة؟».

«لا».

«إذًا دعينا نذهب لأعرِّفك عليه». نظرت إلى ساعتها. «لا بد أن يكون نايثن الآن قد أنهى مساعدته على ارتداء ثيابه».

توقَّفنا أمام الباب وقرعته السَّيدة ترينر.

«هل أنت هنا؟ معي الآنسة كلارك للقائك ويل».

لم يكن هناك جواب.

«ويل؟ نايثن؟».

أجاب صوت بلهجة نيوزيلاندية بيِّنة.

«إنه جاهز سيِّدة ترينر».

دفعت الباب. كانت غرفة الجلوس الملحقة تبدو كبيرة. أحد جدرانها عبارة عن أبواب زجاجية تطلُّ على منظر ريفي، وقد توهَّج موقد يعمل على الحطب بهدوء في الزَّاوية، وقبالة شاشة تلفاز ضخمة مسطَّحة كانت هناك أريكة واطئة لونها بنيٌّ فاتح مقاعدها مكسوَّة بمفرش صوفي. كان جوُّ الغرفة هادئًا يدلُّ على ذوق حسن - غرفة عازب اسكندنافي.

في وسط الغرفة وُضع كرسي متحرِّك أسود اللون، مقعده ومسنده مزوَّدان بوسائد مصنوعة من جلد الغنم. كان يركع تحته رجل متين البنية يرتدي رداءً أبيض بلا ياقة يشبه أردية الجرَّاحين، يسوِّي قدمَيْ الرجل على مسند القدمين في الكرسي المتحرك. عندما دخلنا إلى الغرفة، رفع الرجل في الكرسي المتحرِّك بصره عن شعر مشعث مهمل. لاقت عيناه عينيّ، وبعد توقُّف قصير، أطلق آهة مروِّعة. ثم تلوَّى فمه وأطلق صرخة أخرى خارقة. شعرت بأن أمه تصلَّبت.

«ويل كفى!».

هو لم ينظر إليها. ندَّ صوت آخر بدائي من مكان ما قرب صدره. كانت ضجَّة رهيبة وممضَّة. حاولت ألّا أجفل. كان الرجل مكشّرًا، رأسه مائل وغارق بين كتفيه وهو يحدّق نحوي عبر قسمات ملويَّة. بدا غريبًا وغاضبًا على نحو غامض. أدركت أن مفاصل أصابعي ابيضَّت حيث أمسكت بحقيبتي.

كان هناك نبرة خفيفة من الهيستيريا في صوت أمه: «ويل من فضلك. من فضلك لا تفعل هذا».

أوه يا إلهي، فكَّرت. أنا لست قادرة على هذا. ازدردت ريقي بشدَّة. كان الرجل لا يزال يحدِّق بي. بدا أنه ينتظر مني أن أفعل شيئًا.

«أنا - أنا لو». كسر صوتي الصَّمت، صوت مرتعش على نحو ظاهر.

تساءلت ما إذا كان عليَّ أن أمدَّ يدي ثم تذَّكرت أنه لن يتمكن من مصافحتها فاستعضت عن ذلك بالتلويح: «اختصار لويزا».

ثم لدهشتي انفرجت أساريره، واستقام رأسه على كتفيه.

حدَّق بي ويل ترينر بثبات وارتسمت على وجهه ابتسامة شاحبة.

قال: «صباح الخير آنسة كلارك، سمعت أنك جليستي الجديدة».

أنهى نايثن تسوية مسند القدمين. هزَّ رأسه وهو ينهض.

«أنت رجل سيئ، يا سيد ترينر سيئ جدًا». كشَّر ومدَّ لي يدًا صافحتها بانسياب. بدا نايثن شخصًا هادئ البال.

«أعتقد أنكِ نلت أفضل انطباع من انطباعات كريستي براون[1]. سوف تعتادين عليه. إنه غير مؤذٍ».

كانت السَّيدة ترينر تمسك الصَّليب على عنقها بأصابع نحيلة بيضاء. تؤرجحه على سلسلته الرقيقة الذَّهبية في عادة عصبية. كان وجهها صارمًا.

«سأدعكما لتتعارفا، يمكنكما أن تستخدما الهاتف البيني إذا احتجتما لأيٍّ مساعدة. سوف يحدِّثك نايثن عن روتين ويل ومعدّاته».

«أنا هنا أمي. ليس عليك أن تتحدثي بالنِّيابة عني، دماغي لم يشلّ بعد».

«نعم، حسنًا، إذا كنت تنوي أن تكون بذيئًا ويل أظن من الأفضل للآنسة كلارك أن تتحدَّث مباشرة مع نايثن».

لاحظت أن أمه لم تنظر إليه وهي تتحدّث. ثبَّتت تحديقتها على مسافة عشر أقدام على الأرض.

«أنا أعمل من البيت اليوم. لذا سوف أظهر عند الغداء يا آنسة كلارك».

---

(1) مؤلف كتاب «قدمي اليسرى»، وهو سيرة ذاتية له إذ ولد مصابًا بالشلل الدماغي في 5 يونيو 1932 في دبلن - إيرلندا. براون مؤلف ورسام وشاعر. وتم تحويل القصة إلى فيلم يحمل العنوان نفسه من بطولة الممثل دانييل داي لويس.

«حسنًا». انبثق صوتي مثل صرخة.

اختفت السَّيدة ترينر. التزمنا الصَّمت ونحن نصغي إلى وقع خطواتها وهي تتلاشى عبر الردهة نحو المنزل الرئيس. ثم كسر نايثن الصَّمت.

«هل تمانع أن أذهب وأحدِّث الآنسة كلارك يا ويل؟ هل تريد التِّلفاز؟ أو بعض الموسيقى؟».

«المذياع من فضلك نايثن».

«بالتَّأكيد».

وخرجنا إلى المطبخ.

«تقول السَّيدة ترينر إنه ليس لديك خبرة كبيرة مع الشَّلل الرباعي؟».

«لا».

«حسنًا، سأوضِّحه على نحو بسيط جدًا اليوم. هناك ملفٌّ يخبرك بكل ما قد تحتاجين لمعرفته عن روتين ويل وكل أرقام الطَّوارئ. أنصحك بقراءته إذا كان لديك وقت. أظنُّ أن لديك بعض الوقت».

أخرج نايثن من حزامه مفتاحًا وفتح خزانة مقفلة كانت تعجُّ بالكثير من علب الأدوية والحاويات البلاستيك الصغيرة.

«صحيح. التعامل مع هذه الكمية الكبيرة يقع في الواقع على عاتقي، لكن يجب أن تعرفي مكان كلِّ شيء في حالات الطوارئ. هناك جدول مواعيد على الجدار، يمكنك أن تري مواعيد ما يجب عليه أن يتناوله بشكل يومي. كل ما تعطينه إياه بشكل إضافي أشيري إليه هنا»، أشار، «لكن من الأفضل أن تسألي السَّيدة ترينر عن أي شيء، على الأقل في هذه المرحلة».

«لم أدرك أني سأتعامل مع موضوع الأدوية».

«ليس صعبًا. هو غالبًا يعرف ما يحتاجه. لكن قد يحتاج إلى بعض

المساعدة في ابتلاعها. نحن عادة نستعمل هذا الكوب. أو يمكنك أن تسحقيها بهذه المدقَّة والجرن وتضعينها في شراب».

التقطت إحدى البطاقات. لم أكن على يقين من أني رأيت يومًا هذا العدد من الأدوية خارج الصيدلية.

«حسنًا. يتناول دواءين لضغط الدم، هذا لخفضه عند النَّوم، وهذا لرفعه عندما يستيقظ من النَّوم. هذه الحبوب يحتاجها غالبًا للتحكم بتقلّصاته العضليَّة - سيتوجَّب عليك أن تعطيها له عند الضُّحى، ومرّة ثانية بعد الظُّهر. هو لا يجد صعوبة في ابتلاعها، لأنها صغيرة. وهذه من أجل تشنُّجات المثانة، وهذه من أجل ارتجاع حموضة المعدة. هو يحتاج أحيانًا لهذا بعد الأكل إذا شعر بالانزعاج. هذه مضادات للحساسية في الصَّباح، وهذا الرَّذاذ الأنفي، لكني غالبًا أقوم بهذا العمل قبل أن أغادر، لذا ليس عليك أن تقلقي. يمكنه أن يتناول الباراسيتامول إذا شعر بالألم، ولديه حبوب منوِّمة لكنَّها عادة تجعله سريع الغضب أثناء النَّهار لذا نحاول أن نقلِّل منها. هذه» - ورفع زجاجة أخرى- «مضادات حيوية يتناولها كلَّ أسبوعين عند تغيير القسطرة. أنا أقوم بهذه الأمور إلّا في حال كنت غائبًا، عندئذٍ سوف أترك لك تعليمات واضحة. هي قوية جدًا. هناك علب تحتوي على قفَّازات مطاطية قد تلزمك لعملية التنظيف عمومًا. وهناك أيضًا مرهم يستعمل عندما يشعر بحرقة، لكنه في حالة ممتازة منذ أن جلبنا الحشيَّة الهوائية».

فيما كنت واقفة هناك، مدَّ يده إلى جيبه وناولني مفتاحًا آخر.

قال: «هذا الاحتياطي، لا يُعطى لأي شخص آخر. ليس حتى لويل، احرصي عليه أشد الحرص».

ازدردت ريقي: «يجب تذكُّر الكثير».

«ذلك كلُّه مدوَّن. كلّ ما تحتاجين إلى تذكره اليوم هو الدَّواء المضاد للتشنُّج. هذا. رقم هاتفي النَّقال موجود إذا استدعى الأمر أن تتصلي بي.

أنا أدرّس عندما لا أكون هنا، لذا أفضِّل ألّا تتصلي بي كثيرًا، لكن خذي راحتك إلى أن تشعري بالثقة».

حدَّقت بالملف أمامي. شعرت كما لو أني كنت على وشك أن أتقدّم إلى امتحان لم أستعدّ له.

«ماذا لو احتاج.. أن يدخل إلى دورة المياه؟»، فكَّرت في الرافعة. «أنا لست واثقة من أني أستطيع رفعه كما تعلم». حاولت ألا يظهر الذُّعر على وجهي.

هزَّ نايثن رأسه.

«لا تحتاجين لفعل أيِّ شيء من ذلك. تهتم قسطرته بهذا. سأكون عند وقت الغداء لتغيير كل شيء. أنت لست هنا للقيام بالأمور الجسدية».

«ولم أنا هنا؟».

أمعن نايثن النَّظر في الأرض قبل أن ينظر نحوي.

«لتحاولي أن تبهجيه قليلًا! هو متقلِّب بعض الشَّيء. يمكن تفهّم الأمر بالنَّظر إلى ظروفه. لكن سوف يتوجَّب عليك التَّجمّل بالصَّبر. تلك المسرحية الهزلية هذا الصَّباح هي طريقته في إفقادك توازنك».

«ولهذا السَّبب الأجر جيد؟».

«أوه نعم. لا يوجد شيء من دون مقابل أليس كذلك؟»، ربّت نايثن على كتفي. شعرت بأن جسدي يترجرج.

«آه، ويل شخص طيّب، ليس عليك أن تخافي منه».

تردَّد.

«إنه يعجبني».

قالها كما لو أنه أول من يفعل ذلك. عدنا إلى غرفة الجلوس. انتقل كرسي ويل ترينر إلى النَّافذة، وكان يدير لنا ظهره ويحدِّق نحو الخارج، ويصغي إلى المذياع.

«ويل لقد انتهيت، هل تريد أي شيء قبل أن أغادر؟».

«لا، شكرًا لك نايثن».

«سأدعك في رعاية الآنسة كلارك إذًا، أراك عند الغداء، يا رفيق».

راقبتُ المساعد الأنيس يرتدي سترته بإحساس مرتفع بالذُّعر.

«استمتعا يا صاحبيّ». غمزني نايثن ثم رحل.

وقفت في وسط الغرفة، يديَّ في جيبيَّ وغير متيقّنة مما أفعل، واصل ويل ترينر التَّحديق من النَّافذة كما لو أنني لم أكن موجودة.

قلت أخيرًا عندما أصبح الصَّمت ثقيلًا: «هل تود أن أحضر لك كوبًا من الشَّاي؟».

«آه نعم، الفتاة التي تصنع الشَّاي لتكسب قوت يومها. تساءلت كم سيطول بكِ الوقت قبل أن ترغبي في استعراض مهاراتك. لا، لا شكرًا لكِ».

«قهوة إذًا؟».

«لا أريد أي مشاريب ساخنة الآن يا آنسة كلارك».

«في وسعك أن تناديني لو».

«هل سيساعد؟».

طرفت بعيني، فغر فمي قليلًا. أغلقته. قال والدي دومًا إن ذلك يجعلني أبدو أكثر حماقة مما أنا عليه بالفعل.

«حسنًا هل يمكن أن أجلب لك أي شيء؟».

التفت لينظر إليّ. كانت تكسو فكَّه لحية لم تحلق منذ عدَّة أسابيع وعيناه غير مقروءتين، التفت بعيدًا.

تجوَّلت في الغرفة وقلت: «سوف، سأرى إذا كان هناك أي غسيل إذًا».

خرجت من الغرفة، قلبي يخفق. من أمام المطبخ أخرجت هاتفي النقَّال وأرسلت رسالة إلى أختي.

«هذا رهيب، إنه يكرهني».

جاء الرَّد سريعًا خلال ثوانٍ.

«لم يمضِ على وجودك ساعة،
أنت ضعيفة! أمِّي وأبي
قلقان حقًّا بشأن النُّقود. فقط تماسكي
وفكِّري بأجرك في السَّاعة. قبلة».

أغلقت هاتفي النقَّال، ونفخت خدي. ومضيت نحو سلَّة غسيل في الحمَّام، تمكَّنت من جمع كمية قليلة من الغسيل، وأمضيت بضع دقائق في التَّحقّق من تعليمات الغسَّالة. لم أرغب في تشغيلها بشكل خاطئ أو القيام بأيِ شيء يثير ويل أو السَّيدة ترينر لتنظر إليَّ ثانية كما لو أني حمقاء. شغَّلت الغسَّالة ووقفت هناك أحاول أن أرى ما يمكنني فعله بصورة مقبولة. سحبت المكنسة الكهربائية من خزانة الرُّدهة وشغَّلتها عبر الممر وفي غرفتي النوم. أفكر طوال ذلك الوقت أنه لو استطاع والداي رؤيتي سوف يصرَّان على أن يلتقطا لي صورة تذكاريَّة. كانت غرفة النوم الاحتياطية فارغة تقريبًا مثل غرفة فندقيَّة، شككت بأن نايثن لم يقم فيها غالبًا، فكرت بأني ربما لا أستطيع أن ألومه.

توقَّفت عند باب غرفة نوم ويل ترينر، ثم فكّرت أنها تحتاج إلى كنس مثل أيِّ مكان آخر. كان هناك رفٌّ مسطَّح على أحد الجوانب وضعت عليه نحو عشرين صورة مؤطَّرة. وبينما كنت أكنّس حول السَّرير سمحت لنفسي بإلقاء لمحة خاطفة عليها. كان هناك رجل يقفز من منحدر ذراعاه مبسوطتان مثل تمثال المسيح، كان هناك رجل ربما يكون ويل في ما بدا شبيهًا بدغل وهو وسط مجموعة من الأصدقاء السَّكارى، ارتدى الرِّجال ربطات عنق وستر رسمية وأذرعهم تلتف حول أكتاف بعضهم البعض.

كان هناك على زلّاجة بجانب فتاة تضع نظّارة سوداء وشعرها أشقر طويل. التقطت الصُّورة لأراه على نحو أفضل وهو يضع على عينيه نظّارة واقية. كان حليقًا في الصُّورة، وحتى في الضَّوء الغامر كان لوجهه ذلك البريق الثَّمين الذي يحصل عليه الأثرياء من جرَّاء الذَّهاب في إجازة ثلاث مرات سنويًا. له كتفان عريضان ذكوريان مرئيان حتى من خلال سترته الخاصة بالتزلج. أعدت الصَّورة بعناية إلى الرَّف وواصلت الكنس حول السَّرير. أخيرًا أطفأت المكنسة، وبدأت ألفُّ الحبل، وفيما كنت أنزع القابس الكهربائي رأيت حركة من طرف عيني وقفزت مطلقة صرخة صغيرة. كان ويل ترينر في العتبة يراقبني.

«في منتجع كورشيفيل. منذ سنتين ونصف».

تضرَّجت خجلًا.

«أنا آسفة. كنت فقط...».

«كنت فقط تنظرين إلى صوري. وتتساءلين كم رهيب أن تعيش هكذا ثم تتحول إلى كسيح».

«لا». توردت باهتياج أكثر.

قال: «بقية صوري في الدُّرج السُّفلي إذا وجدت أن الفضول يستولي عليك ثانية».

ثم التفّت الكرسي مصدرةً دندنة خفيضة واختفى.

***

تراخى الصَّباح وقرَّر أن يطيل البقاء. لم أستطع تذكر آخر مرة امتدت فيها السَّاعات والدَّقائق مطوَّلًا إلى هذا الحد. حاولت أن أجد كثيرًا من الأعمال لأشغل نفسي قدر المستطاع، أنفض الغبار عن الرُّفوف وما شابه - قللت من ذهابي إلى غرفة الجلوس قدر الممكن، مدركة بأنني كنت

جبانة، لكني لا أهتم حقًا. عند السَّاعة الثَّانية عشرة والنِّصف وصل نايثن جالبًا معه هواء الخارج البارد ورفع حاجبيه مندهشًا.

سأل: «هل كلُّ شيء على ما يرام؟».

لم أكن بمثل هذا القدر من السَّعادة لرؤية شخص في حياتي إلّا في ما ندر.

«ممتاز».

«عظيم. يمكنك أن تأخذي نصف ساعة الآن. أنا والسَّيد ترينر علينا القيام ببعض الأمور في مثل هذه السَّاعة من اليوم».

كدت أجري نحو معطفي. لم أكن قد خطَّطت للخروج من أجل الغداء، لكن كاد يغمى عليَّ تقريبًا من شدة رغبتي بالخروج من المنزل. رفعت ياقتي، رميت حقيبتي على كتفي، ومشيت بهمَّة على الدَّرب، كما لو أنَّ هناك مكانًا أنوي الذَّهاب إليه بالفعل. في الواقع، مشيت في الشَّوارع المحيطة مدَّة نصف ساعة، أنفث سحبًا حارَّة في وشاحي الملفوف بإحكام. لم يعد هناك مقاهٍ في هذا الجانب من البلدة، بعد أن أغلق مقهى الباترد بان. كانت القلعة مقفرة. كان أقرب مكان لتناول الطعام حانة، نوع من الأمكنة أشك أني أملك ثمن الشَّراب فيها، فما بالك بغداء سريع. كانت جميع السَّيارات في المرأب ضخمة وثمينة تحمل لوحات بأرقام حديثة.

وقفت في ساحة انتظار السَّيارات الخاصَّة بالقلعة، تأكَّدت من أني لست على مرأى منزل غرانتا، واتَّصلت بأختي.

«مرحبًا».

أجابت على الفور: «أنت تعلمين أني لا أستطيع التَّحدث أثناء العمل. لم تتركي العمل، هل فعلت؟».

«لا. فقط كنت بحاجة لسماع صوت أليف».

«هل هو سيئ إلى هذه الدرجة؟».

«ترين، هو يكرهني. ينظر إليَّ بقرف. وهو لا يشرب الشَّاي. أنا أتهرَّب منه».

«لا أصدّق ما أسمعه».

«ماذا؟».

«فقط تحدَّثي إليه، أنت تغضبينني. بالتأكيد هو بائس. هو عالق في كرسي متحرّك لعين. ومن الجائز أنك عديمة الفائدة. فقط تحدّثي إليه. تعرَّفي إليه. ما أسوأ شيء يمكن أن يحدث؟».

«لا أعرف، لا أعرف إذا كنت أتحمَّل ذلك».

«أنا لن أقول لأمي إنك تتركين العمل بعد نصف يوم. سوف لن يعطوك أي نقود لو. لا يمكنك فعل ذلك. لا يمكننا أن نتحمّل منك أن تفعلي هذا».

كانت محقَّة وأدركت أني كرهت أختي.

مرَّت فترة وجيزة من الصَّمت. أصبح في صوت ترينا نبرة استرضائية غير معهودة منها.كان هذا مقلقًا حقًّا. لقد عرفت بأني حصلت على أسوأ عمل في العالم.

قالت: «انظري، إنها فقط ستَّة أشهر. فقط اعملي هذه الأشهر السِّتة وأضيفي شيئًا مفيدًا إلى سيرتك الذَّاتية، ويمكنك الحصول على عمل تحبّينه حقًّا. وانظري إلى الأمر على هذا النحو: على الأقل هو ليس عملًا ليليًّا في مصنع للدجاج، صحيح؟».

«سوف تبدو الليالي في مصنع الدَّجاج نزهة مقارنة مع...».

«أنا ذاهبة الآن، لو. أراكِ لاحقًا».

***

«هل تودّ الخروج إلى مكان ما هذا الأصيل؟ يمكننا الذَّهاب إلى مكان ما لو تحب».

كان قد مضى على مغادرة نايثن نصف ساعة. توانيت في غسيل أكواب الشَّاي قدر الإمكان، وفكَّرت أن رأسي قد ينفجر لو أمضيت ساعة أخرى في هذا المنزل الصَّامت. أدار رأسه نحوي.

«هل في بالك مكان محدد؟».

«لا أعرف. فقط نزهة في الطبيعة؟».

كنت أمارس هذا الشَّيء الذي مارسته مرات متظاهرة بأني ترينا. هي واحدة من هؤلاء الأشخاص الهادئين تمامًا والمؤهَّلين، وبالنتيجة لم يختلف معها أحد. بدوت لنفسي محترفة ومبتهجة.

قال كما لو أنه يفكر في الأمر: «الطبيعة، وماذا سترين. أشجار؟ سماء؟».

«لا أعرف. ماذا يفعلون عادة؟».

«أنا لا أفعل شيئًا، يا آنسة كلارك. لم يعد في وسعي فعل أي شيء. أجلس فقط. حسبي أني موجود».

قلت: «حسنًا، قيل لي إن لديك سيارة معَدّة لاستعمال كرسي متحرك».

«وأنت تشعرين بالقلق من أنها قد تتوقّف عن العمل إذا لم يتم استعمالها يوميًا؟».

«لا، لكن أنا...».

«هل تقولين لي إن عليَّ أن أخرج؟».

«أنا فقط فكرت...».

«فكَّرتِ بأن نزهة قصيرة قد تكون جيدة من أجلي؟ نفحة من هواء منعش؟».

«أنا فقط أحاول أن...».

«آنسة كلارك، حياتي لن تتحسَّن بشكل ملحوظ بواسطة نزهة حول أزقة ستورتفولد الريفية». التفت مبتعدًا.

غرق رأسه بين كتفيه وتساءلت ما إذا كان مرتاحًا. لم يبدُ الوقت مناسبًا لأسأله، جلسنا صامتَين.

«هل تودُّ أن أجلب لك حاسوبك؟».

«لماذا، هل فكّرت بمجموعة جيدة لدعم الشَّلل الرباعي يمكنني الانضمام إليها؟ رباعيات العجلات آر يو إس؟ نادي عجلة الصَّفيح؟».

تنفَّست بعمق كي أضفي بعض الثِّقة على صوتي.

«حسنًا... حسنًا... بالنَّظر إلى أننا قد نمضي كلَّ هذا الوقت معًا ربما يمكننا أن نتعارف».

حينها كان في وجهه شيء جعلني أتلجلج. كان يحدِّق في الجدار مباشرة، وفكُّه يختلج.

«إنه فقط... إنه وقت طويل تمضيه مع شخص ما. طوال اليوم. ربما إذا أخبرتني قليلًا عمَّا تريد فعله، وما تحبُّه. ثمَّ يمكنني أن أضمن سير الأمور على نحو ما تريده».

كان الصَّمت هذه المرة مؤلما. سمعت صوتي يتلاشى فيه ببطء، ولم أتمكَّن من معرفة ماذا أفعل بيدي. تبخَّرت ترينا وسلوكها القدير.

أخيرًا سمعت صوت الكرسي المتحرِّك والتفت ببطء لمواجهتي.

«إليكِ ما أعرفه عنك يا آنسة كلارك. أمِّي تقول إنَّك ثرثارة». قالها كما لو أنها بلاء. «هل يمكننا أن نعقد صفقة؟ بمقتضاها ستكونين قليلة الكلام معي؟». ازدردتُ ريقي وأنا أحسُّ بأن وجهي يلتهب.

قلت عندما استطعت التَّحدث ثانية: «ممتاز، سأكون في المطبخ. إذا أردتَ شيئًا فقط نادي عليَّ».

***

«لا يمكنك أن تستسلمي الآن».

كنت ممدّدة في سريري على نحو موارب وساقاي مرفوعتَيْن على

الحائط كما كنت أفعل في مراهقتي. كنت هنا منذ وقت العشاء وهذا كان غريبًا بالنسبة لي. منذ أن ولد توماس انتقل هو وترينا إلى الغرفة الكبيرة وأقمت في غرفة المخزن وهي غرفة صغيرة. حتى إنها تشعرك بالخوف من الأماكن المقفلة عندما يتوجَّب عليك البقاء فيها مدة أطول من نصف ساعة في كل مرة.

لكني لم أرغب بالجلوس في الطابق الأرضي مع أمِّي وجدّي، لأنَّ أمي ظلّت ترمقني بقلق وتقول أشياء من قبيل: «سوف يتحسَّن حبيبتي»، و«ما من عمل عظيم من يومه الأول» - كما لو أنها عملت في السَّنوات العشرين الأخيرة عملًا لعينًا. كنت أشعر بالذَّنب ولم أكن قد اقترفت أي شيء.

«لم أقل إني سأترك العمل. أوه يا إلهي، ترينا. إنه أسوأ مما اعتقدت. إنه بائس جدًّا».

«شخصٌ لا يمكنه الحركة. بالتأكيد هو بائس جدًّا».

«لا، لكنه ساخر ولئيم بالإضافة إلى ذلك. كلما قلت شيئًا أو اقترحت شيئًا ينظر نحوي كما لو أني حمقاء، أو يقول شيئًا يجعلني أشعر بأني بعمر السَّنتين».

«ربما قلتِ شيئًا أحمق. يجب أن تعتادا على بعضكما البعض».

«حقًّا لم أفعل شيئًا. كنت شديدة الحذر. بالكاد قلت شيئًا ما عدا سؤاله، هل تحب الخروج في نزهة؟ أو هل تود كُوبًا من الشاي؟».

«حسنًا، ربما هو كذلك مع الجميع في البداية إلى أن يعرف إذا كنت ستبقين معه، أؤكد لكِ بأنه مرَّ عليه الكثير من المساعدين».

«هو لم يرغب حتى أن أتواجد معه في الغرفة نفسها، لا أظنُّ بأني أستطيع التَّحمّل كاترينا، أنا حقًّا لا أستطيع، صدقًا لو كنتِ هناك لكنت فهمت».

لم تقل ترينا شيئًا حينها، فقط نظرت نحوي للحظات ثم نهضَت ونظرت إلى الباب، كما لو أنها تتحقق ما إذا كان أحد على سفرة الدَّرج.

قالت أخيرًا: «أنا أفكّر بالعودة إلى الكليَّة»، استغرق دماغي بضع ثوانٍ ليدرك هذا التغيير في المسار.

قلت: «إنه.. يا إلهي، لكن...».

«سوف استلف قرضًا لأدفع الرُّسوم. ويمكنني الحصول على منحة خاصَّة أيضًا بسبب توماس، والجامعة تقدِّم لي سعرًا مخفضًا لأنهم..»، هزّت كتفيها محرجة قليلًا. «يقولون إنهم يظنون بأني قد أتفوَّق لذا يمكنهم أن يأخذوني منذ بداية الفصل الثَّاني».

«وماذا عن توماس؟».

«يوجد روضة في حرم الجامعة. يمكننا الإقامة هناك في شقَّة مدعومة في السَّكن الجامعي خلال الأسبوع ونعود إلى هنا في معظم عطلات نهاية الأسبوع».

«أوه».

شعرت بأنَّها تراقبني. لم أعرف ماذا أفعل بوجهي.

«أنا حقًّا مستميتة لاستعمال دماغي ثانية. العمل في متجر الزُّهور يجعلني مشوَّشة. أريد أن أتعلَّم، أن أطوِّر نفسي، سئمت من أن يديَّ دومًا متجمدتين من الماء البارد».

حدَّقنا معًا بيديها اللتين كانتا متوردتين حتى في دفء المنزل الاستوائي.

«لكن...».

«نعم. لن أعمل، لو. لن يكون في وسعي منح أمِّي أي شيء. ربما أحتاج أيضًا إلى بعض المساعدة منهم».

بدت هذه المرة متضايقة تمامًا. عندما رفعت بصرها نحوي كانت تعابيرها توحي بالاعتذار إلى حد ما.

أمي كانت في الأسفل تضحك على أمر يُعرَض في التلفاز. سمعنا هتافها لجَدّي. كانت غالبًا ما تشرح له فكرة البرنامج على الرغم من أننا كنا دائمًا نقول لها إن لا داعي لذلك.

لم أتمكّن من الكلام، تلاشت أهميَّة كلمات أختي ببطء لكن بعناد. شعرت كما قد يشعر ضحية مافيا وهو يراقب الأسفلت ينسحب ببطء من تحت قدميه.

«أنا أحتاج حقًا لفعل هذا لو، أريد المزيد من أجل توماس، المزيد من أجلنا كلينا. ليس من سبيل أصل عبره إلى أي مكان إلّا بالعودة إلى الجامعة، ليس لديَّ باتريك، أنا لست على يقين من أنه سيكون لدي باتريك، بالنَّظر إلى أنه لم يكن أحد مهتم منذ أن أنجبت توماس، أحتاج إلى أن أبذل قصارى جهدي بنفسي».

عندما لم أقل شيئًا أضافت: «من أجلي ومن أجل توماس».

أومأت.

«لو؟ من فضلك؟».

لم أرَ يومًا أختي على هذا الشَّكل سابقًا. وهذا جعلني أشعر حقًا بالانزعاج. رفعت رأسي وابتسمت. عندما خرج صوتي لم يبدُ أيضًا شبيهًا بصوتي.

«حسنًا، كما قلتِ، إنها مسألة الاعتياد عليه، لا بد أن يكون الأمر صعبًا في الأيام القليلة الأولى، أليس كذلك؟».

4

مرَّ أسبوعان، ومعهما أصبح هناك روتين نوعًا ما. أصل كلَّ صباح إلى منزل غرانتا عند السَّاعة الثامنة، وأعلن عن وصولي، ثمَّ بعد أن ينتهي نايثن من مساعدة ويل في ارتداء ثيابه، أصغي باهتمام وهو يخبرني ما عليَّ معرفته عن أدوية ويل أو الأكثر أهمية، عن مزاجه.

بعد مغادرة نايثن أبرمج المذياع أو التِّلفاز من أجل ويل، أقسِّم حبَّات الدَّواء، أطحنها أحيانًا بالمدقَّة الصَّغيرة الرخامية والجرن. يعلن عادة، بعد نحو عشر دقائق عن أنه ضجر من حضوري. عند هذا الحد أتذرَّع ببعض المهمَّات المنزلية في الملحق الصَّغير، أغسل مناديل الشَّاي التي لم تكن متَّسخة، أو أستعمل المكنسة الكهربائية لأنظِّف الحواشي الصَّغيرة أو عتبات النَّوافذ، وأقحم رأسي بانتظام كل خمس عشرة دقيقة كما أشارت عليَّ السَّيدة ترينر.

عندما أنتهي، يكون جالسًا في كرسيه يتطلَّع إلى الحديقة الكئيبة. لاحقًا قد أجلب له كأس ماء أو واحدًا من المشروبات المزوَّدة بالسُّعرات الحرارية التي من شأنها المحافظة على وزنه الذي يبدو مثل العجينة الخاصَّة بلصق ورق الحائط ملونة بالألوان المائية، أو أقدِّم له طعامه. يمكنه أن يحرِّك يديه قليلًا لكن ليس ذراعيه، لذا كان يجب إطعامه بتأنٍّ.

هذا كان أسوأ شطر في اليوم، بدا خاطئًا بطريقة ما أن تطعم رجلًا بالغًا،

وارتباكي جعلني سمجة وخرقاء. كره ويل هذا كثيرًا حتى إنه لم ينظر في عينيَّ بينما كنت أفعل ذلك.

ثم يصل نايثن قُبيل السَّاعة الواحدة فأختطف معطفي وأختفي لأذرع الشَّوارع، أحيانًا أتناول غدائي في موقف الحافلة عند القلعة. الطَّقس باردٌ وربما بدوت مثيرة للشفقة وأنا أجلس هناك أتناول شطائري لكنني لم أكن أهتم، لم أتمكَّن من إمضاء اليوم بطوله في ذلك المنزل.

في الأصيل أعرض فيلمًا - كان ويل عضوًا في نادي الـ«DVD» وكانت تصله أفلام جديدة عبر البريد يوميًا، لكنه لم يدعُني يومًا لمشاركته المشاهدة، لذا كنت عادة أذهب وأجلس في المطبخ أو في الغرفة الاحتياطية. بتُّ أجلب معي كتابًا أو مجلّة، لكن ساورني شعور غريب بالذَّنب لأني لم أكن أعمل فعليًا ولم أتمكن أبدًا من التركيز على الكلمات.

بين الحين والآخر، عند نهاية النهار، كانت تظهر السَّيدة ترينر - على الرغم من أنها لم تقل يومًا أكثر من: «هل كلُّ شيء على ما يرام؟». وعلى ذلك بدا الجواب الوحيد المقبول: «نعم».

كانت تسأل ويل إذا كان يرغب بأيِّ شيء، وتقترح أحيانًا أمرًا قد يرغب القيام به في اليوم التالي، نزهة ما أو زيارة صديق سأل عنه، وغالبًا كان يجيب بالرفض، إن لم يكن بفظاظة بادية. كانت تبدو متألمة تمرّر أصابعها على تلك السِّلسلة الذَّهبية وتختفي من جديد.

يأتي والده عادة، وهو رجل لطيف المظهر، عند موعد مغادرتي. كان رجلًا قد تراه يشاهد الكريكت وهو يعتمر قبَّعة مصنوعة من القش، وكان في ما يبدو مشرفًا على إدارة القلعة منذ أن تقاعد من عمله ذي الأجر الجيِّد في المدينة. شككت أن هذا كان يشبه ما يفعله مالك أرض لطيف إذ يزرع القليل من البطاطا فقط «كي لا يفقد مهارته». يعود كل يوم عند السَّاعة الخامسة مساءً. ومن غير إبطاء يجلس لمشاهدة التلفاز مع ويل. أحيانًا أسمعه يعلِّق حول ما كان يُقال في الأخبار أثناء مغادرتي.

تعرَّفت على ويل ترينر عن كثب في هذين الأسبوعين. رأيت أنَّه بدا مصممًا على ألَّا ينظر إلى أي شيء يتعلّق بالرجل الذي كانه، ترك ذلك الشَّعر البنّي الفاتح يطول في فوضى عديمة الشَّكل، يزحف شعر وجهه على فكه. كان الإنهاك يبطِّن عينيه الرماديتّين، أو أثر الانزعاج المستمر (قال نايثن إنه نادرًا ما يشعر بالارتياح). كانت عيناه تحملان النَّظرة الجوفاء لشخص كان دومًا منزاحًا عن العالم المحيط به بضع خطوات.

أحيانًا تساءلت إذا كان التَّظاهر بأنه ليس هو من حدث له ذلك آلية دفاعية، أو الطَّريقة الوحيدة للتغلُّب على حياته. أردت أن أشعر بالأسف عليه. وحقًّا فعلت. فكَّرت أنه أشد من التقيتهم حزنًا في تلك اللحظات عندما لمحته يحدِّق من النَّافذة. ومع مرور الأيام أدركت أن ظرفه لم يكن فقط مسألة كونه عالقًا في الكرسي، وفقدان حريته الجسدية، لكن سلسلة لا تنتهي من الإهانات ومشاكل صحيَّة، مخاطر ومشقَّات، ورأيت أني لو كنت مكانه ربما سوف أكون بائسة تمامًا أيضًا.

لكن، يا رب، كان سيئًا معي. كان يجيب بحدَّة على كلِّ ما أقوله. لو سألته إذا كان يشعر بالدفء كان يجيب بأنه يملك القدرة التامة التي تمكّنه من إبلاغي لو كان يحتاج إلى غطاء آخر. لو سألته إذا كانت ضجَّة المكنسة الكهربائية كبيرة وتزعجه لأني لم أكن أرغب بمقاطعة فيلمه، يسألني إن كنت قد اخترعت طريقة لأجعلها تعمل بصمت؟ عندما أطعمه يشتكي من أن الطعام حارٌّ جدًّا أو بارد جدًّا، أو أنني حملت اللقمة التالية إلى فمه قبل أن ينهي اللقمة التي سبقتها.

كان لديه القدرة على تحوير أي شيء أقوله أو أفعله تقريبًا لكي أبدو حمقاء. خلال هذين الأسبوعين الأولين، كنت جيِّدة تمامًا في المحافظة على خلو وجهي من التَّعابير كلّيًا، وكنت ألتفت وأختفي في الغرفة الأخرى ولا أبادره إلّا بأقل ما يمكن من الكلام. بدأت أكرهه، وأنا واثقة من أنه عرف ذلك.

لم أكن قد أدركت أنه كان ممكنًا أن أفتقد عملي القديم أكثر مما فعلت. افتقدت فرانك، وكيف كان يبدو مسرورًا لرؤيتي بالفعل عندما أصل كل صباح. افتقدت الزبائن، رفقتهم، والثرثرة الخفيفة التي نمت وتعمقت بلطف مثل بحر هادئ من حولي. كان هذا المنزل، الجميل والثَّمين، ساكنًا وصامتًا مثل مشرحة. ستة أشهر، كرّرت لنفسي عندما بدا الأمر لا يُطاق. ستة أشهر.

ثم يوم الخميس، عندما كنت أمزج شراب ويل عالي السُّعرات الحرارية عند الضُّحى، سمعت صوت السَّيدة ترينر في الرُّدهة. لكن هذه المرة سمعت أصواتًا أخرى أيضًا. انتظرت، ظلَّت الملعقة في يدي. تمكَّنت من تمييز صوت امرأة، شابة وفصيحة وصوت رجل.

ظهرت السَّيدة ترينر عند باب المطبخ، وحاولت أن أتظاهر بالانشغال، أخفق بهمَّة في الكوب الكبير.

سألت محدِّقة بالشراب: «هل أضفتِ الحليب والماء بنسبة ستين إلى أربعين؟».

«نعم. إنه شراب الفراولة».

«جاء صديقا ويل لرؤيته. سوف يكون من الأفضل لو...».

قلت: «لديّ الكثير من الأمور التي يجب عليَّ القيام بها هنا».

كنت في الواقع مرتاحة تمامًا لأني سأستغني عن رفقته لما يقارب السَّاعة. غطَّيت الكوب.

«هل يود ضيفاك شرب القهوة أو الشاي؟».

بدت كأنها متفاجئة.

«نعم قهوة، سيكون ذلك لطيفًا جدًّا».

بدت أكثر توترًا من المعتاد أيضًا، عيناها مندفعتان نحو الممر، حيث

نسمع دمدمة الأصوات الخفيضة. خمَّنت أن ويل لا يزوره كثير من الضُّيوف.

«أظن.. سأترك كل شيء له». حدَّقت في الممر، بدت أفكارها بعيدة. قالت فجأة: «روبرت. إنه روبرت، صديقه القديم في العمل»، واستدارت نحوي.

راودني شعور بأن الأمر خطير بطريقة ما، وبأنها شعرت بحاجة إلى أن تفضي به إلى شخص ما، حتى لو كان أنا.

«وأليسيا. كانا... قريبين جدًا لفترة من الوقت. القهوة قد تكون فكرة جيدة. شكرًا لك، يا آنسة كلارك».

***

تردَّدت للحظة قبل أن أفتح الباب، استندت إليه بوركي كي أتمكَّن من موازنة الصَّينية في يدي.

قلت وأنا أدخل: «قالت السَّيدة ترينر إنكم قد ترغبون في شرب القهوة»، ووضعت الصَّينية على طاولة منخفضة. استرقت نظرة نحو زائرَيه وأنا أضع كوب ويل في مقبض كرسيه، وأدرت المصَّاصة فلم يكن عليه سوى أن يسوِّي وضعيَّة رأسه للوصول إليها.

لاحظت المرأة أولًا. شقراء طويلة السَّاقين، بشرتها شاحبة بلون الكراميل، كانت من النِّساء اللواتي يجعلنني أتساءل إذا كان جميع البشر حقًّا ينتمون إلى النوع نفسه. بدت مثل فرس رهان بشريّ.

كنت قد رأيت تينك النِّساء بين الحين والآخر، كنَّ عادة يثبن على التَّلة نحو القلعة، ممسكات بأطفال صغار متأنِّقين، وعندما كنَّ يدخلن إلى المقهى كان لأصواتهنَّ صفاء البلور ونبرة غير خجلة عندما يسألن: «هاري، عزيزي هل تحب أن تحتسي القهوة؟ هل عليَّ أن أرى إذا كان في

وسعهم أن يصنعوا لك الماكياتو؟». هذه كانت بالتأكيد امرأة ماكياتو. كل شيء من حولها يفوح برائحة المال، والاستحقاق، وحياة معاشة كما لو على صفحات مجلة من ورق صقيل.

ثم نظرت إليها عن كثب وأدركت مصدومة أنها أولًا، كانت المرأة في صورة ويل وهو يتزلج، وثانيًا، بدت حقًّا، غير مريحة.

قبَّلت ويل على خدِّه وكانت تتراجع الآن، تبتسم بسماجة. كانت ترتدي صديريةً بنية فاتحة اللون، من تلك الأشياء التي تجعلني أبدو مثل مخلوق عجيب، وتلفُّ عنقها بوشاح من الكشمير رمادي باهت اللون، بدأت تعبث به، كما لو أنها لم تتمكّن من أن تقرر أن تخلعه أو لا.

قالت له: «تبدو بخير، حقًّا. لقد... أطلت شعرك قليلًا».

لم ينبس ويل بكلمة. كان فقط ينظر إليها. تعبيره غير مفسَّر. شعرت بامتنان سريع أنني لم أكن فقط أنا التي رمقني بتلك النظرة.

«كرسي جديد، إيه؟». قرع الرجل على ظاهر كرسي ويل، بذقن مضغوط، مومئًا بالرضى كما لو أنه كان يعبِّر عن إعجابه بسيارة رياضية: «يبدو ذكيًا جدًّا. تقنية حديثة جدًّا».

لم أعرف ماذا أفعل. وقفت هناك للحظة، أبدِّل قدمًا بأخرى، إلى أن كسر صوت ويل الصَّمت.

«لويزا، هل تمانعين أن تضعي المزيد من الحطب في الموقد؟ أظن أنه يحتاج إلى القليل».

كانت المرة الأولى التي يستعمل فيها اسمي الأول.

قلت: «بالتَّأكيد».

شغلت نفسي بإشعال زند الخشب، أذكي النار وأختار من سلَّة الحطب القطعة المناسبة.

قالت المرأة: «يا إلهي، الطَّقس بارد في الخارج، إنه لأمر ظريف أن يكون لديك نار مناسبة».

فتحتُ باب الموقد، حرّكت الحطب المتّقد بمحراك النار.

«الطَّقس هنا أكثر برودة من لندن».

وافق الرجل: «نعم، بالتأكيد».

«كنت أفكِّر بشراء موقد للبيت. يبدو هذا أنه أكثر كفاءة من المواقد العادية».

توقفت أليسيا قليلًا لتعاين الموقد، كما لو أنها لم ترَ واحدًا مثله من قبل.

قال الرجل: «نعم لقد سمعت بذلك».

«يجب أن أبحث عن مثله. واحد من تلك الأمور التي تنوي فعلها وثم..»، أضافت بعد وقفة: «قهوة لذيذة».

«إذًا - ماذا كنت تفعل ويل؟». كان في صوت الرَّجل نبرة من الجذل المصطنع.

«ليس الكثير، شيء طريف أليس كذلك!!».

«لكن العلاج الفيزيائي وهذه الأمور... هل كل شيء يتقدّم؟ هل من تحسُّن؟».

قال ويل بصوت مفعم بالسُّخرية: «لا أظنُّ بأني سأتزلج قريبًا روبرت».

كدت أبتسم بيني وبين نفسي. هذا ويل الذي أعرفه. بدأت أنظِّف الرَّماد من الموقد. شعرت بأنهم كانوا يراقبونني جميعًا. بدا الصَّمت ثقيلًا. تساءلت ما إذا كانت ياقة قميصي بارزة وصارعت رغبة في التحقّق منها.

قال ويل أخيرًا: «إذًا، ماذا فعلت لأستحق هذه المتعة؟ لقد مرّت... ثمانية أشهر؟».

«أوه، أعرف. أنا آسفة. لقد كان... لقد كنت مشغولة للغاية. حصلت

على عمل جديد في تشيلسي. إدارة متجر ساشا غولدستاين. هل تتذكّر ساشا؟ كنت أعمل كثيرًا في العطلة أيضًا. كانت هناك زحمة كبيرة أيام السبت. من الصَّعب جدًّا أن تحصل على إجازة». أصبح صوت أليسيا هشًّا. «لقد اتَّصلت عدَّة مرات. ألم تخبرك أمك؟».

«كانت الأمور جنونية تمامًا في لوينز. أنت... أنت تعرف كيف تكون، ويل. لقد أصبح لدينا شريك جديد. صديق من نيويورك. بينز دان بينز. هل التقيت به؟».

«لا».

كان في وسعك أن تلحظ الانفراج الملموس للرجل عندما وجد موضوعًا كان مريحًا له.

«رجل وحشيّ يبدو أنه يعمل أربعًا وعشرين ساعة في اليوم وينتظر من الجميع أن يفعلوا الأمر نفسه. أنت تعرف أخلاق العمل القديمة عند اليانكي - لم يعد هناك استراحات غداء طويلة، ما من نكات بذيئة. أقول لك ويل، جوّ المكان برمته تغيَّر».

«حقًّا».

«أوه يا إلهي، نعم. انعدام الثِّقة الوظيفيِّ واضح على نحو هائل. أحيانًا أشعر كما لو أني لا أجرؤ على مغادرة كرسيي».

بدا كأن الهواء كله يختفي من الغرفة في هبَّة مفرغة. سعل أحدهم.

نهضت ومسحت يدي ببنطال الجينز.

تمتمت مخاطبة ويل: «أنا ذاهبة لجلب المزيد من الحطب». تناولت السَّلة وهربت.

كان الطَّقس باردًا جدًّا في الخارج، لكني توانيت هناك، أقتل الوقت بينما أختار قطع الحطب. كنت أحاول أن أفاضل بين أن أخسر إصبعًا بسبب الصَّقيع وبين أن أكون في تلك الغرفة. لكن كان الطقس باردًا جدًّا

وسبابتي التي أستعملها في أعمال التطريز ازرقّت، كان عليَّ الاعتراف بالهزيمة أخيرًا. فيما كنت أقترب من غرفة الجلوس سمعت صوت المرأة يشق طريقه من خلال الباب الموارب.

كانت تقول: «في الواقع، ويل، هناك سبب آخر لقدومنا، لدينا أخبار».

تردّدت بجانب الباب، سلّة الحطب ممتلئة بين يدي.

«اعتقدت - حسنًا اعتقدنا، أنه من الأفضل أن تعرف.. لكن حسنًا، ها هو الأمر، روبرت وأنا سنتزوج».

وقفت ساكنة جدًّا أحسب ما إذا يمكنني الالتفات من دون أن يسمعني أحد.

تابعت المرأة محرَجة: «انظر، أعرف أن هذا ربما قد يصدمك قليلًا. في الواقع، لقد كانت صدمة لي. نحن - حسنًا، هو فقط بدأ بعد وقت طويل من...».

بدأت أشعر بألم في ذراعي. نظرت إلى السَّلة أحاول معرفة ماذا أفعل.

«حسنًا، أنت تعلم أنت وأنا... نحن...».

ران صمتٌ ثقيل آخر.

«ويل من فضلك قل شيئًا».

قال أخيرًا: «تهانينا».

«أعرف بماذا تفكِّر. لكن لم يقصد أحد منَّا حدوث ذلك. حقًّا. كنَّا لوقت طويل مجرَّد صديقين. صديقان كانا يهتمان لأمرك. الأمر أن روبرت كان السَّند الأكبر لي بعد الحادثة».

«كرمٌ منه».

«من فضلك لا تكن هكذا. هذا رهيب جدًّا. كنت قطعًا أخشى أن أخبرك. كلانا كنَّا كذلك».

قال ويل بفتور: «واضح».

كسر صوت روبرت الصَّمت: «انظر، نحن نخبرك لأننا كلانا نهتم لأمرك. لم نرغب أن تعرف من شخص آخر. لكن، أنت تعلم، الحياة تستمر. يجب أن تعرف ذلك. لقد مرَّت سنتان في النِّهاية».

كان هناك صمت. أدركت بأني غير راغبة في سماع المزيد، وبدأت أتحرّك مبتعدة عن الباب، تندُّ عني بعض اللهثات بسبب ما أبذله من جهد. لكن صوت روبرت ارتفع عندما تحدَّث مجددًا لذا كان لا يزال في وسعي سماعه.

«هيَّا يا رجل. أعرف أنه لا بدَّ أن يكون قاسيًا.. كلُّ هذا. لكن إذا كنت تهتَّم لأمر ليسا يجب أن ترغب أن تحيا حياة جيّدة».

«قل شيئًا، ويل. من فضلك».

تخيَّلت وجهه. رأيت نظرته تلك التي تمكّنت من أن تكون غير مقروءة وأن تنقل نوعًا من الازدراء الطفيف في آن.

قال ثانية: «تهانينا، أنا واثق من أنكما سوف تكونان سعيدَيْن جدًّا».

بدأت أليسيا تحتجُّ حينها بشيء غامض لكن روبرت قاطعها.

«هيا، ليسا. أظنُّ أن علينا المغادرة. ويل، نحن لم نكن ننتظر مباركتك عندما أتينا إلى هنا. فعلنا ذلك من باب اللياقة. اعتقدت ليسيا - حسنًا، أنا وهي اعتقدنا، أنه ينبغي أن تعلم. آسف، يا صديقي. أنا.. أتمنى أن تتحسَّن الأمور معك وأتمنى أن تبقى على اتصال عندما الأمور... كما تعلم... عندما تستقر الأمور قليلًا».

سمعت وقع خطوات، وملتُ على سلَّة الحطب، كما لو أني وصلت للتو. سمعتهم في الممر، ثم ظهرت أليسيا أمامي. كانت عيناها محمرَّتين كما لو أنها كانت على وشك أن تبكي.

قالت بصوت غليظ ومخنوق: «هل يمكنني استعمال الحمّام؟». ببطء رفعتُ إصبعًا وأشرت باتجاهه بصمت. نظرت إليَّ بقسوة حينها، وأدركت

بأن ما شعرتُ به ربما بدا على وجهي. لم أكن يومًا أجيد إخفاء مشاعري.

قالت بعد وقفة: «أعرف بماذا تفكرين، لكني حاولت، حاولت حقًا لأشهر. وهو اكتفى بإبعادي». كان فكّها متصلّبًا، وتعابيرها حانقة بشكل غريب. «هو في الواقع لم يرغب بي هنا. لقد أوضح هذا على نحو لا لبس فيه».

بدت أنها تنتظر مني أن أقول شيئًا.

قلت، أخيرًا: «في الحقيقة هذا ليس من شأني».

وقفنا واحدتنا بمواجهة الأخرى.

قالت: «أنت تعلمين، يمكنك فقط أن تساعدي شخصًا يريد المساعدة». ثم رحلت.

انتظرت عدَّة دقائق، أصغي إلى أن اختفى صوت سيارتهما في الدَّرب، ثم دخلت إلى المطبخ. وقفت هناك وغليت ماء مع أني لم أكن راغبة في شرب فنجان شاي. تصفَّحت مجلَّة كنت قد قرأتها. عدت أخيرًا إلى الممر والتقطت سلَّة الحطب وسحبتها إلى غرفة الجلوس، خبطتها بالباب قليلًا قبل أن أدخل لكي يعرف ويل بقدومي.

بدأت بالقول: « كنت أتساءل إذا كنت ترغب بشيء».

لكن لم يكن هناك أحد. كانت الغرفة فارغة. كنت قد سمعت صوت التَّحطم. هرعت إلى الممر لأسمع صوتًا آخر، ثم تبعه صوت تناثر الزُّجاج. كان قادمًا من غرفة نوم ويل. أوه يا إلهي، من فضلك لا تدعه يؤذي نفسه. ذعرت - ثقبَ تحذير السَّيدة ترينر رأسي، لقد تركته لأكثر من خمس عشرة دقيقة.

عدوت في الممر، وتوقَّفت في المدخل، ووقفت، أمسك بكلتا يديّ هيكل الباب. كان ويل في وسط الغرفة منتصبًا في كرسيه، وعصا المشي

متوازنة عبر مسندَيْ الذِّراعين، فبرزت مسافة ثمانية عشر إنشًا إلى يساره - عصا مبارزة.

لم يكن هناك ولو صورة واحدة على الرفوف الطَّويلة، كانت الأطر الثَّمينة مبعثرة على الأرض ومحطَّمة، السَّجادة مرصَّعة بشظايا الزُّجاج اللمَّاعة. كانت قطع من الزُّجاج ونثرات من الأطر الخشب متناثرة على حِجره. أُخذت بمشهد الدَّمار، وعندما استوعبت أنه لم يتأذَّ شعرت بأن قلبي بدأ يهمد ببطء. كان ويل يتنفَّس بصعوبة، كما لو أنَّ ما فعله كلَّفه بعض الجهد أيًا يكن.

التفَّ بكرسيِّه، يطحن بعض الشيء على الزُّجاج. تلاقت أعيننا. وكانت عيناه مرهقتين بما لا يقاس. تتحديانِي أن أشفق عليه.

نظرت إلى حجره، ثم إلى الأرض من حوله. تعرَّفت فقط إلى صورته مع أليسيا، وجهها الآن مبهم بجانب إطار فضيّ مقوَّس، بين الخسائر الأخرى. ازدردت ريقي، محدِّقة نحوها وببطء رفعت عيني إلى عينيه. كانت تلك الثَّواني القليلة أطول ثوانٍ في وسعي تذكُّرها.

قلت أخيرًا مومئة إلى كرسيه المتحرّك: «هل يمكن أن يوجد ثقب في ذلك الشَّيء؟ لأني لا أعرف أين أضع القابس الكهربائي». اتَّسعت عيناه. فكَّرت فقط للحظة بأني حقًّا أفسدت الأمر. لكن ومضة صغيرة من ابتسامة عبرت وجهه.

قلت: «انظر، لا تتحرّك، سآتي بالمكنسة الكهربائية». سمعت صوت العصا ترمى على الأرض. عندما غادرت الغرفة اعتقدت بأني قد سمعته يقول آسف.

***

كان بار «الكينغز هيد» مزدحمًا دومًا مساء يوم الخميس، وكان أكثر ازدحامًا في ركنه الخلفي. جلست مسحوقة بين باتريك ورجل بدا أنه يدعى «الراتر»، أنقِّل نظري بين أطقم الأحصنة المثبَّتة على روافد من

خشب البلُّوط فوق رأسي وصور القلعة المتقاطعة مع عوارض السَّقف، وحاولت أن أبدو مهتمة على نحو مبهم بالحديث الدَّائر من حولي الذي بدا أنه يدور بشكل رئيس حول نسبة الدُّهون والكربوهيدرات في الجسم.

لطالما فكَّرت أن اللقاءات نصف الشَّهرية لـ«هيلزبيري ترايائلون تيررز» لا بدَّ أن تكون أسوأ كوابيس صاحب الحانة. كنت الوحيدة التي أشرب الكحول، وكيس رقائق البطاطا الوحيد وضع مغضَّنًا وفارغًا على الطَّاولة. ارتشف الجميع المياه المعدنية، أو تأكَّدوا من نسبة السُّكر في الكوكا المخصَّصة للحمية. عندما طلبوا الطَّعام أخيرًا لم يكن مسموحًا لأي ورقة من أوراق الخضار في السَّلطة أن تمسَّ صلصة كاملة الدَّسم، أو أن تحتفظ قطعة دجاج بجلدها. كنت غالبًا أطلب رقائق البطاطا فيمكنني مراقبتهم يتظاهرون بأنهم لا يرغبون بها.

لا أقول إني استمتعت بهذه الاجتماعات، لكن مع ساعات عملي المتزايدة، وجدول مواعيد تدريب باتريك، كانت واحدة من المرات القليلة التي ضمنت فيها رؤيته. جلس بجانبي، فخذان مفتولا العضلات يبرزان من بنطال قصير على الرغم من البرد القارس في الخارج. كانت شارة شرف بين أعضاء النادي ارتداء أقل ما يمكن من الملابس. كان الرجال نحيلين أقوياء يلوحون بمعاطف رياضية مبهمة غالية الثمن تباهت بعضلات «مفتولة» زائدة، أو بأجساد لها أوزان أخف من الهواء.

كانوا يسمّون سكود أو تريج[1]، وينحني كل واحد منهم بجسده على الآخر، يستعرضون إصابات أو نمو عضلة مزعوم. لم تضع الفتيات الزينة، وكانت لهنَّ لون بشرة متورِّد لهؤلاء الذين يعتبرون الهرولة لأميال في طقس شديد البرودة أمرًا تافهًا. نظرن نحوي نظرة تنمُّ عن النُّفور، أو ربما عن عدم الفهم. لا شكَّ أنهنّ يقدّرن نسبة العضل إلى الدُّهن ويجدونها ناقصة.

---

(1) سريع أو قوي.

قلت لباتريك: «كان الأمر مريعًا، لحبيبته وصديقه المقرّب». متسائلة ما إذا كان بمستطاعي أن أطلب التشيز كيك من دون أن يرمقوني جميعًا بنظرة قاتلة.

قال باتريك: «لا يمكنكِ لومها، هل تقولين لي حقًّا إنك ستبقين معي إذا كنت مشلولًا من العنق؟».

«بالطبع سأفعل».

«لا لن تفعلي. ولن أنتظر منك أن تفعلي».

«حسنًا سأفعل».

«لكني لن أرغب أن تكوني هناك. لن أرغب أن يبقى أحد معي بداعي الشَّفقة».

«من يقول إنه بداعي الشفقة؟ ستظل الشَّخص نفسه في الأسفل».

«لا. لن أظل. سوف لن أكون الشَّخص نفسه على الإطلاق». غضَّن أنفه. «لن أرغب بالحياة. معتمدًا على الآخرين من أجل كل شيء تافه. غرباء يمسحون مؤخرتك، يا يسوع. فكّري بكل تلك الأشياء التي لن تتمكني من فعلها...» هزَّ رأسه. «لن يعود هناك جَريٌ، وركوب درّاجات». نظر إليَّ كما لو أن الأمر حدث له: «لا مزيد من الجنس».

«بالطبع يمكنك ممارسة الجنس. فقط المرأة سوف تكون في الأعلى».

«سوف نكون ملعونَيْن حينها».

«مضحك».

«عدا عن أنه إذا كنت مشلولًا من العنق أظن أن العدة لن تعمل كما يجب».

فكرت في أليسيا. قالت، حاولت، حاولت حقًا لأشهر.

«أنا واثقة أنه ينجح مع بعض الناس. بأيٍّ حال، لا بدَّ أن تكون هناك طريقة من أجل هذه الأمور إذا كنت.. تفكر على نحو خَلّاق».

«ها». ارتشف باتريك الماء. «يجب عليكِ أن تسأليه غدًا. أنظري أنتِ قلتِ إنه رهيب. ربما كان رهيبًا قبل الحادث. ربما هذا هو السَّبب الحقيقي الذي جعلها تتخلّص منه. هل فكَّرت في ذلك؟».

«لا أعرف..»، فكَّرت في الصورة الفوتوغرافية. «بدَوَا كما لو أنهما كانا سعيدين معًا». ثم ثانية، ما الذي تثبته صورة؟ لديَّ صورة مؤطّرة في البيت حيث كنت أبتسم لباتريك كما لو أنه سحبني للتو من بناء محترق، مع أني في الواقع كنت قد دعوته للتو: «مغفَّل كبير»، وكان قد أجاب بحماسة: «أوه، اغربي عني!».

لم يعد باتريك مهتمًا.

«هيه، جيم... جيم، هلَّا ألقيت نظرة على تلك الدَّراجة الخفيفة الجديدة؟ هل هي جيدة؟».

تركته يغيّر الموضوع. كنت أفكِّر في ما قالته أليسيا. يمكنني أن أتخيل جيدًا ويل يبعدها عنه. لكن بالتأكيد إذا أحببت شخصًا من واجبك أن تبقى معه؟ لتساعده على تجاوز الاكتئاب؟ في الصِّحة وفي المرض وكل ذلك؟

كان شعور بالذنب قد بدأ يساورني إزاء الطريقة التي كنَّا نتحدث بها عن ربِّ عملي. لا سيِّما عندما أدركت ما تحمّله طوال الوقت. كان يكاد يكون مستحيلًا ألا تفكر في جوانب حياته الأكثر حميمية. نكزني باتريك بمرفقه.

«أنا أفكِّر بالقيام بأكبر السِّباقات».

«أكبر ماذا؟».

«تراياثلون. اكستريم فايكنغ. ستون ميلًا على الدَّراجة الهوائية، ثلاثون ميلًا على الأقدام، وسباحة طويلة في بحر الشَّمال».

كان يحكي عن الفايكنغ باحترام، هؤلاء الذين تنافسوا وهم يحملون إصاباتهم مثل محاربين قدماء ولا سيِّما في حرب وحشية. كان يفتعل

حركات وأصواتًا غريبة بشفتيه. نظرت إلى صديقي وتساءلت إذا كان حقًّا غريبًا. فكَّرت قليلًا بأني فضّلته أكثر عندما كان يعمل في المبيعات عبر الهاتف ولم يتمكَّن من المرور على محطة وقود من دون أن يشتري كمية كبيرة من ألواح شوكولا مارس.

«هل ستفعلها؟».

«لم لا؟ لم أكن يومًا أكثر كفاءةً».

فكَّرت بكلِّ ذلك التَّدريب الإضافي - المحادثات الطَّويلة عن الوزن والمسافة، وعن اللياقة والتَّحمّل. كان من الصعب جذب انتباه باتريك هذه الأيام حتى وهو في أفضل أوقاته.

قال: «يمكنك أن تفعليها معي»، قالها على الرغم من أننا كلانا نعرف أنه لا يؤمن بذلك.

قلت: «سأدعها لك، بالتأكيد».

وطلبت التشيز كيك.

* * *

كنت مخطئة لو فكَّرت أن حوادث اليوم السَّابق قد تخلق فرحًا في منزل غرانتا.

حييت ويل بابتسامة عريضة ومرحبًا بهيجة، ولم يكلِّف نفسه عناء الالتفات عن النافذة.

تمتم نايثن وهو يرتدي معطفه: «ليس يومًا جيدًا».

كان صباحًا بغيضًا، غائمًا، صفع المطر النَّوافذ بدناءة، وكان من الصَّعب تخيل أن الشَّمس سوف تشرق ثانية. حتى إني بدوت متجهمة في مثل هذا اليوم. لم يكن مفاجئًا أن ويل سوف يكون في حال أسوأ. بدأت بأعمال الصباح المنزلية، قائلة لنفسي طول الوقت إن هذا لا يهم.

ليس عليك أن تعجب بربِّ عملك بأي حال، أليس كذلك؟ الكثير من

الناس لا يفعلون. كانت الصور مكدَّسة بعناية في الدُّرج السفلي، حيث وضعتها في اليوم السَّابق، والآن، جثمت على الأرض بدأت أفرشها وأصنّفها وأقيّم أي إطارات يمكن إصلاحها. أنا جيدة تمامًا في إصلاح الأشياء. عدا عن أني فكَّرت بأن هذا قد يكون مفيدًا في قتل الوقت.

كنت أفعل هذا منذ عشر دقائق عندما نبّهتني دندنة كتومة للكرسي المتحرِّك الكهربائي لوصول ويل. جلس هناك في العتبة ينظر إلي. كانت ظلال قاتمة تحت عينيه. قال لي نايثن، إنه أحيانًا لا ينال ولو قسطًا من النَّوم إلّا بالكاد. لم أرغب أن أفكر كيف يكون عليه الأمر عندما تستلقي في سرير ولا يمكنك التخلُّص من الأفكار السَّوداء التي ترافقك خلال ساعات الصَّباح الأولى.

قلت ممسكة بواحد منها: «اعتقدت بأني سأرى إذا كان في وسعي إصلاح أي من هذه الإطارات». كانت صورته وهو يقفز. حاولت أن أبدو مرحة. هو يحتاج إلى شخص متفائل، شخص إيجابي.

«لماذا؟».

طرفت بعيني.

«حسنًا... أظن أن بعضًا منها يمكن إنقاذه. جلبت معي غراء الخشب، إذا كان يسعدك أن أعمل عليه. أو أنك تريد استبدالها، يمكنني أن أبحث أثناء استراحة الغداء وأرى إذا كان في وسعي أن أجد المزيد. أو يمكننا أن نفعل ذلك معًا إذا أحببت الخروج...».

«من طلب منكِ أن تبدئي بإصلاحها؟».

كانت تحديقته ثابتة.

أوه، فكَّرت.

«كنت أحاول المساعدة».

«أنت أردتِ أن تصلحي ما فعلت البارحة».

«أنا...».

«هل تعرفين ماذا، لويزا؟ سيكون لطيفًا - فقط لمرة - إذا ما اهتم شخص بما أريد. لم يكن تحطيمي لتلك الصور حادثًا. لم يكن محاولة مني لإعادة تصميم جذرية لديكور الغرفة. كان لأني حقًّا لا أريد أن أنظر إليها».

نهضت ووقفت على قدمي.

«أنا آسفة. لم أظن أن...».

«اعتقدتِ بأنك تعرفين الأفضل. كل شخص يظن بأنه يعرف ما أحتاج. لنعد جمع الصور اللعينة معًا. لنمنح العاجز المسكين شيئًا ينظر إليه. لا أريد أن تحدّق بي هذه الصور اللعينة كل مرة أدخل إلى سريري حتى يجيء شخص وحشي يخرجني منه ثانية. حسنًا؟ هل تظنين أنك تستطيعين فهم ذلك؟».

ازدردت ريقي.

«لم أكن لأصلح صورة أليسيا - أنا لست حمقاء إلى هذه الدرجة... أنا فقط فكّرت أنك خلال فترة قد تشعر -».

«يا إلهي...». التفت مبتعدًا عني، في صوته مرارة شديدة. «أعفني من العلاج النفسي. فقط اذهبي واقرئي مجلاتك اللعينة أو أيًّا يكن ما تفعلين عندما لا تصنعين الشاي».

كان خدايَ مضطرمَين. راقبته وهو يتحرك في الردهة الضيقة، وخرج صوتي حتى قبل أن أعرف ما كنت أفعل.

«ليس عليك أن تتصرَّف مثل أحمق».

رنَّت الكلمات في الهواء السَّاكن.

توقَّف الكرسي المتحرّك. توقّف وقفة طويلة، ثم استدار ببطء، كي يصبح مواجهًا لي، يده على عصا التحكم الصغيرة.

«ماذا؟».

واجهته بقلب يخفق.

«لقد عاملت أصدقاءك بازدراء. حسنًا، ربما هم استحقوا هذه المعاملة. لكني أنا هنا يومًا بعد يوم أحاول أن أفعل أفضل ما في وسعي. لذا سأقدّر حقًا إذا لم تكدِّر حياتي كما تفعل مع الجميع».

اتسعت عينا ويل قليلًا. مرّت هنيهة قبل أن يتحدَّث ثانية.

«وماذا لو قلت لك بأني لا أريدك هنا؟».

«لست أنت من وظفني. لقد وظَّفتني والدتك. وحتى تقول لي هي إنها لا تريدني هنا أنا باقية، ليس لأني أهتم بالفعل لأمرك، أو يعجبني هذا العمل الأحمق، أو أريد أن أغيّر حياتك بطريقة أو بأخرى، لكن لأني أحتاج للمال. جيد؟ أنا حقًّا أحتاج إلى النقود».

لم تتغيّر كثيرًا تعابير ويل ترينر ظاهريًّا، لكني ظننت بأني رأيت دهشة، كما لو أنه لم يكن معتادًا أن يخالفه أحد.

أوه يا للجحيم، فكَّرت، عندما بدأت تتَّضح حقيقة ما فعلته. لقد أغضبته حقًّا هذه المرة.

لكن ويل حدَّق بي قليلًا، وعندما لم أشح ببصري أطلق نفسًا صغيرًا كما لو أنه على وشك أن يقول شيئًا مزعجًا.

قال: «هذا مناسب جدًا»، وأدار كرسيه وأكمل: «لكن فقط ضعي الصُّور في الدُّرج السفلي، هلَّا فعلت؟ جميعها».

ومضى مصدرًا دندنة خفيضة.

5

عندما تكون مقذوفًا في حياة جديدة بالكامل، أو على الأقل، مقحَمًا بقوَّة كبيرة في حياة شخص آخر لدرجة أن يكون وجهك أيضًا مضغوطًا على نافذته - فإن هذا يجبرك على إعادة النظر في فكرتك عمَّن تكون. أو كيف قد يراك الآخرون.

بالنسبة لوالديَّ، كنت قد أصبحت في غضون أربعة أسابيع أكثر إثارة للاهتمام بقليل. كنت الآن القناة المؤدية إلى عالم مختلف. طرحت عليَّ أمي، بصورة خاصَّة، يوميًا أسئلة عن منزل غرانتا وتقاليده العائلية مثلما يُشرّح عالِم حيوان مخلوقًا جديدًا غريبًا ويدرس بيئته الطَّبيعية.

كانت تطرح أسئلة من قبيل: «هل تستخدم السَّيدة ترينر مناديل المائدة في كل وجبة؟»، أو «هل تظنين أنهم يكنّسون كهربائيًا يوميًا كما نفعل؟»، أو «ماذا يفعلون بالبطاطا؟».

أرسلتني كل صباح بتعليمات صارمة كي أعرف أي علامة تجارية تستعمل من المناديل الورقية الخاصَّة بدورة المياه، أو ما إذا كانت ملاءات الأسرَّة مصنوعة من قماش خليط بين القطن والبوليستر. كان مصدرًا لخيبة أمل عظيمة لها أني معظم الوقت لم أتذكَّر حقًّا. كانت أمي مقتنعة في قرارة نفسها بأنَّ المترفين يعيشون كالخنازير - منذ أن أخبرتها عندما كنت في

السَّادسة من عمري، عن زميلة لي في المدرسة عذبة الحديث لم تسمح لنا والدتها باللعب في غرفتهم الأمامية «لأننا قد نثير الغبار».

عندما كنت أعود إلى المنزل لأخبرهم بأنه، نعم، لم يكن مسموحًا للكلب قطعًا أن يأكل في المطبخ. أو أن آل ترينر لا يشطفون درجهم الأمامي كل يوم كما تفعل أمي، كانت تزمُّ شفتيها، وتنظر بطرف عينها نحو والدي، وتومئ برضى تام، كما لو أني كنت قد أكَّدت كل شكوكها حول أساليب الطبقات الراقية الرثَّة.

اتّكالهم على دخْلي، أو ربما حقيقة أنهم عرفوا أني لم أحبْ عملي حقًّا، عنت أني أيضًا تلقَّيت مزيدًا من الاحترام في المنزل. ولكن ذلك لم يترجم عمليًا بأكثر من أن والدي كفَّ عن مناداتي «ذات المؤخرة السَّمينة». ومن طرف أمي، كان هناك عادة كوب شاي ينتظرني لدى عودتي إلى المنزل.

لم يكن الأمر مختلفًا بالنسبة لباتريك ولأختي، بقيت هدفًا للنكات، أتلقَّى المعانقات أو القبل أو العبوس. لم أشعر بالفرق. لم يتغيَّر شكلي، وكما تقول ترينا لا أزال أرتدي الملابس كما لو أنَّ عندي مباراة مصارعة في متجر خيري.

لم أكن أملك فكرة عن ظنّ معظم سكَّان منزل غرانتا بي. لم يكن ويل مقروءًا. كنت بالنسبة إلى نايثن، كما خُيّل إليَّ، الأخيرة فقط في طابور طويل من مقدِّمي الرِّعاية الذين تم توظيفهم. كان وِدودًا بما فيه الكفاية لكنه في النهاية يؤدّي وظيفة. شعرت بأنه لم يكن مقتنعًا بأني سأطيل البقاء هناك. أومأ السَّيد ترينر لي بتهذيب كلما مررت في الردهة، وكان يسألني بين الحين والآخر عن حال حركة المرور، أو ما إذا كنت قد استقرّيت جيدًا. أنا لست على يقين من أنه قد يتعرف إليَّ لو التقى بي في مكان آخر.

لكن يا ربي، كنت في نظر السَّيدة ترينر الشَّخص الأكثر حماقة والأكثر استهتارًا على سطح الكوكب.

بدأ الأمر مع أطر الصُّور. لم يفلت شيء في ذلك المنزل من ملاحظة

السَّيدة ترينر، وكان عليَّ أن أعرف أن تحطُّم الأطر كان له أن يوصف بأنه حدثٌ مزلزل. سخرت منّي تمامًا في ما يتعلَّق بتركي لويل بمفرده طويلًا، وما نجم عنه، وكيف أنني سريعًا قمت بتنظيف الفوضى. هي لم تنتقدني مباشرةً - كانت دمثة الأخلاق للغاية حتى إنها لم تكن ترفع صوتها - لكن الطريقة التي ردّت بها ببطء على أجوبتي، وهمهمتها الخفيفة وأنا أتكلم، أخبرتني بكل ما كان عليَّ معرفته. ولم يكن الأمر مفاجئًا عندما أخبرني نايثن أنها كانت تعمل قاضية.

هي اعتقدت بأنها قد تكون فكرة جيدة ألا أدع ويل بمفرده لوقت طويل في المرة القادمة، مهما كانت الحالة مربكة، أممم؟ فكَّرت أن في وسعي ربما عندما أنفض الغبار في المرة القادمة أن أتيقن من ألّا تكون الأشياء قريبة جدًا من الحافّة كي لا يصطدم بها أحد مصادفة وتقع على الأرض، أممم؟ (بدا أنها تفضِّل أن تصدق أن الأمر لم يكن مقصودًا). جعلتني أشعر بأني بلهاء من الدَّرجة الأولى، ولذلك أصبحت بلهاء من الدرجة الأولى معها. كانت تصل دومًا عندما أكون قد أوقعت شيئًا على الأرض، أو عندما كنت أناضل مع مقبض الطنجرة. أو قد تقف في الرواق تنظر ساخطة باعتدال عند عودتي من جمع الحطب في الخارج كما لو أني أمضيت وقتًا أطول من المعتاد.

بشكل غريب، نال مسلكها مني أكثر مما فعلت بي فظاظة ويل. راودتني مرتين فكرة أن أسألها صراحة ما إذا كان ثمَّة خطب. أردت أن أقول لها: قلتِ إنك وظفتني من أجل سلوكي وليس لما أمتلك من مهارات حرفيَّة. حسنًا، ها أنا ذا، مبتهجة كل يوم لعين. نشيطة، كما أردتِ تمامًا. إذًا ما المشكلة؟

لكن كاميلا ترينر لم تكن من النِّساء اللاتي يمكنك أن تقول لهنَّ ذلك. علاوة على أني شعرت بأن ما من أحد في ذلك المنزل يقول شيئًا إلى أي شخص آخر صراحةً.

«ليلي، فتاتنا السَّابقة، كان لها عادة ذكية في استعمال تلك المقلاة لنوعين من الخضار مرة واحدة»، وهذا يعني أنك تُحدثين الكثير من الفوضى.

«ربما تحب شرب كوبٍ من الشَّاي، ويل». في الواقع تعني أني لا أملك فكرة عمَّا أقوله لك.

«أظنُّ أن لديَّ بعض الأوراق تحتاج إلى تنظيم». وهذا يعني أنك فظة، وأنا سأغادر الغرفة.

وكل شيء تمَّ التَّصريح عنه مع ذلك التعبير المؤلم قليلًا، والأصابع النحيلة تمر صعودًا ونزولًا على السِّلسلة والصَّليب. كانت مكظومة ومكبوتة جدًا. جعلت أمي تبدو مثل المغنّي أوزي أوزبورن. ابتسمتُ بتهذيب، متظاهرة بأني لم ألاحظ، وقمت بالعمل الذي كنت أتلقى أجره في المقابل. أو حاولت على الأقل.

«لماذا بحقِّ الجحيم تحاولين أن تدسِّي الجزر في ملعقتي؟».

نظرت إلى الطبق. كنت أشاهد المذيعة التلفزيونية وأتساءل كيف لشعري أن يبدو لو صبغته باللون نفسه.

«أوه؟ كلا لم أفعل ذلك».

«بلى فعلتِ. لقد هرسته وحاولتِ أن تخفيه في المرق. لقد رأيتك».

تورَّدت. كان محقًّا. كنت جالسة أطعم ويل، بينما كلانا نتابع أخبار الظَّهيرة بغموض. كانت الوجبة مكوَّنة من لحم العجل مع البطاطا المهروسة. سبق لوالدته أن قالت لي أن أضع ثلاثة أنواع من الخضار في الطبق، حتى لو أنه صرَّح بوضوح بعدم رغبته بتناول الخضار في ذلك اليوم. أظن أنني لم أُعطَ يومًا تعليمات لتحضير وجبة له لم تكن متوازنة غذائيًا بشكل تام بما يناسب متطلبات جسده.

«لماذا تحاولين دسَّ الجزر لي؟».

«لا أفعل».

«إذًا ليس هناك جزر في ذلك الطعام؟».

حدَّقت في القطع الصغيرة البرتقالية اللون.

«حسنًا... حسنًا..».

كان ينتظر مدهوشًا.

«أخال أني اعتقدت بأن الخضار قد تكون مفيدة لك؟».

كان تصرّفي إذعانًا للسَّيدة ترينر من ناحية، ومن ناحية بحكم العادة. كنت معتادة كثيرًا على إطعام توماس الذي كان ينبغي هرس خضاره وإخفاؤها داخل البطاطا أو تخبئتها بين قطع المعكرونة. بدا كل جزء تمكّنا من تمريره له أشبه بانتصار صغير.

«دعيني أضع الأمور في نصابها. هل تظنين بأن ملعقة صغيرة من الجزر سوف تحسِّن نوعية حياتي؟».

كانت حماقة تامّة عندما وصف الأمر بتلك الطريقة. لكني كنت قد تعلمت أنه من المهم ألا تبدو مروَّعًا بأي مما يقوله ويل أو يفعله.

قلت بهدوء: «فهمت فكرتك، لن أفعل ذلك ثانية».

ثم فجأة، ضحك ويل ترينر. انفجرت الضِّحكة منه في لهاث، كما لو أنها كانت مباغتة كليًّا.

هزَّ رأسه قائلًا: «بحق الآلهة».

حدَّقت فيه متسائلةً.

«ما الذي كنت تدسّينه في طعامي سوى ذلك؟ سوف تطلبين مني أن أفتح النَّفق ليتمكن السَّيد قطار من إرسال بعض الكرنب الطريّ إلى المحطة الحمراء التَّالية اللعينة».

فكَّرت في ذلك إلى حين. وقلت بوجه جادّ: «لا، أنا أتعامل فقط مع السَّيد شوكة. السَّيد شوكة لا يبدو مثل قطار».

هذا ما كان توماس قد قاله لي، بحزم شديد، منذ بضعة أشهر.

«هل أمي هي من طلبت منك أن تفعلي ذلك؟».

«لا. أنظر، ويل. أنا آسفة، أنا فقط لم أكن أفكّر».

«كأنّ هذا مستغرب».

«حسنًا، حسنًا. سأُبعد الجزر اللعين، إذا كان حقًّا يزعجك جدًّا».

«ليس الجزر اللعين ما يزعجني. بل امرأة مجنونة تدسّه في طعامي وتخاطب أدوات المائدة بالسيد والسيدة شوكة».

«كانت مزحة. انظر، دعني أخرج الجزر و...».

استدار مبتعدًا عني.

«لا أريد شيئًا آخر. فقط حضّري لي فنجانًا من الشّاي». ناداني وأنا أغادر الغرفة: «ولا تحاولي أن تدسّي فيه الكوسا اللعين».

دخل نايثن بينما كنت أغسل الأطباق.

قال وأنا أناوله كوبًا: «إنه في مزاج جيّد».

«حقًّا؟».

كنت أتناول شطائري في المطبخ. فالبرد قارس في الخارج، وعلى نحوٍ ما لم يعد المنزل يبدو عدائيًا مؤخرًا.

«هو يقول إنك تحاولين أن تسمّميه. لكن كما تعلمين قالها ممازحًا».

شعرت بالسُّرور على نحو غريب من هذه المعلومة.

قلت محاولة إخفاء شعوري: «نعم... حسنًا، امنحني الوقت».

«إنه يتحدث أكثر قليلًا أيضًا. مرّت علينا أسابيع لم يكن يقول فيها شيئًا إلّا بالكاد، لكن بالتأكيد ازداد كلامه قليلًا في الأيام القليلة الماضية».

فكّرت بويل يخبرني أنه إذا لم أتوقّف عن الصفير المزعج فسوف يكون مرغمًا على دهسي.

«أظن أن تعريفك وتعريفي للثرثار مختلفَان قليلًا».

«حسنًا، تحدَّثنا حديثًا صغيرًا عن الكريكت. وعليَّ أن أخبرك»، خفض نايثن صوته: «سألتني السَّيدة ترينر منذ أسبوع تقريبًا إذا كنت أعتقد بأنك تقومين بعملك على نحو جيد. قلت إنك محترفة للغاية لكني عرفت أن ليس هذا ما قصَدَته. ثم دخلت البارحة وقالت لي إنها سمعتكما تضحكان».

فكَّرتُ في مساء اليوم السَّابق.

قلت: «كان يضحك عليّ». وجد ويل أن عدم معرفتي بصلصة البيستو أمر مسلٍّ جدًّا. كنت قد أخبرته أن عشاءه مكوَّن من «الباستا في صلصة مرق اللحم الخضراء».

«آه، هي لا تهتم لذلك. المسألة أن وقتًا طويلًا مر منذ أن أضحكه شيء».

كان صحيحًا. بدَوْنا، ويل وأنا، أننا وجدنا طريقة أسهل للتعامل مع بعضنا البعض. انطوَت بشكل أساسي على أن يكون فظًّا معي، وأن أكون فظَّة معه في المقابل بين الحين والآخر. قال لي إني فعلت شيئًا على نحو سيئ، وقلت له إذا كان يهمه ذلك حقًا إذًا فليسألني بلطف. شتمني، أو دعاني ألماً في المؤخرة، وقلت له إنَّ عليه أن يجرِّب أن يستغني عن هذا الألم في المؤخرة ويرى إلى أي حد في وسعه الصمود.

كان ذلك مصطنعًا بعض الشَّيء لكنه بدا أنه ينجح مع كل واحدٍ منا. أحيانًا بدا أيضًا مرتاحًا لوجود شخص مستعد لمعاملته بفظاظة، أن يعارضه أو يقول له إنه رهيب. شعرت بأن الجميع كانوا يتجنَّبونه منذ الحادثة - ما عدا نايثن الذي ربما بدا أن ويل يعامله باحترام تلقائي، وكان من المرجَّح أنه منيع إزاء أي من تعليقاته القاسية بأيّ حال. كان نايثن مثل عربة مصفَّحة في هيئة بشرية.

«أنت فقط كوني واثقة من أنك هدف للمزيد من نكاته، حسنًا؟».

وضعت فنجاني في المجلى.

«لا أظن أن ذلك سيكون مشكلة».

التغيّر الكبير الآخر، بمعزل عن الظُّروف الجويَّة داخل المنزل، كان أن ويل لم يطلب مني أن أدعه بمفرده في كثير من الأوقات، وسألني مرتين في الأصيل إن كنت أرغب في البقاء لمشاركته مشاهدة فيلم سينمائي.

لم أمانع كثيرًا في مشاهدة فيلم «المدمِّر» - مع أني شاهدت جميع أجزائه - لكن عندما عرض عليَّ الفيلم الفرنسي مع الترجمة، ألقيت بنظرة خاطفة على الغلاف وقلت إني أفضل أن أفوّته.

«لماذا؟».

هززت كتفي: «لا أحب الأفلام المترجمة».

«هذا كما لو أنك تقولين لا أحب الأفلام مع الممثلين. لا تكوني سخيفة. ما الذي لا تحبينه؟ حقيقة أنه مطلوب منك أن تقرئي أثناء المشاهدة؟».

«أنا فقط لا أحب الأفلام الأجنبية».

« كل فيلم تسعى قصته وراء بطل لعين محلّي هو فيلم أجنبي. هل تظنين أن هوليوود من ضواحي بيرمنغهام؟».

«مضحك».

لم يستطع أن يصدِّق عندما اعترفت بأني لم أشاهد يومًا أي فيلم مع الترجمة. فقد سيطر والداي على جهاز التَّحكم في الأمسيات، وكان احتمال أن يقترح باتريك مشاهدة فيلم أجنبي مساوٍ لاحتمال أن يقترح اتباع دروس ليلية في تعلم الكروشيه. لم تعرض صالة السينما في بلدتنا الأقرب سوى أحدث أفلام القتال أو الأفلام الكوميدية الرومانسية، وكانت تزدحم بعدد كبير من الأولاد المشاغبين بستراتهم ذات غطاء الرأس، حتى إن معظم الناس في أرجاء البلدة نادرًا ما ارتادوها.

«عليكِ أن تشاهدي هذا الفيلم، لويزا. في الواقع، أنا آمركِ بمشاهدة هذا الفيلم». أعاد ويل كرسيه إلى الوراء وأومأ نحو الكرسي ذي المسندين وتمتم قائلًا: «هناك. اجلسي هناك. ولا تتحركي حتى ينتهي.. لم تشاهد فيلمًا أجنبيًا. يا إلهي!!».

كان فيلمًا قديمًا، عن أحدب يرث منزلًا في الرِّيف الفرنسي، وقال ويل إنه مقتبس عن كتاب شهير، لكني لا أستطيع القول إني سمعت عنه يومًا. شعرت في أول عشرين دقيقة ببعض الضِّيق، ساخطة من الترجمة وأتساءل ما إذا كان ويل سيتذمر إذا قلت له إني مضطرة للذهاب إلى دورة المياه.

ثم حدث أمر. توقَّفت عن التفكير في صعوبة الاستماع والقراءة في الوقت نفسه، نسيت جدول مواعيد أدوية ويل، وما إذا كانت السَّيدة ترينر لتظن بأني مقصِّرة، وبدأت أقلق بشأن الرجل المسكين وعائلته التي كانت مخدوعة من قبل جيران سفلة. عند موت الرَّجل الأحدب، كنت أنشج بصمت، وأنفي يسيل في كمّي.

رمقني ويل خلسة وقال وهو يمثُل إلى جانبي: «إذًا، لم تستمتعي بذلك على الإطلاق».

رفعت بصري ووجدت لمفاجأتي أن الظُّلمة قد حلَّت في الخارج.

تمتمت وأنا أتناول علبة المناديل الورقية: «سوف تشمت بي الآن، أليس كذلك؟».

«قليلًا. أنا فقط مندهش من أنكِ قد بلغتِ هذا العمر -كم عمرك؟».

«ستة وعشرون».

«ستة وعشرون، ولم تشاهدي فيلمًا مترجمًا». راقَبَني وأنا أمسح دموعي.

نظرت نحو المنديل وأدركت أن الماسكارا قد امَّحت.

تذمّرت: «لم أكن أدرك أنه كان إلزاميًّا».

«حسنًا. ماذا تفعلين مع نفسك لويزا كلارك، إذا كنت لا تشاهدين الأفلام؟».

كوّرت منديلي في قبضتي: «تريد أن تعرف ماذا أفعل عندما لا أكون متواجدة هنا؟».

« كنتِ أنتِ من أراد أن نتعرّف على بعضنا البعض. لذا هيًا، حدثيني عن نفسك».

كانت له هذه الطريقة في الكلام حيث لا يمكنك أن تكون واثقًا تمامًا من أنه لم يكن يسخر منك. كنت أنتظر النتيجة الحاسمة. قلت: «لماذا؟ لماذا صرت تريد أن تعرف على حين غرَّة؟».

«أوه، بحقِّ المسيح. إنَّ حياتك الاجتماعية ليست شأنًا سريًا، هل هي كذلك؟». بدأ السّخط يبدو عليه.

قلت: «لا أعرف. أذهب لأحتسي الشَّراب في الحانة. أشاهد بعض برامج التِّلفاز. أذهب مع صديقي عندما يركض. لا شيء استثنائيًّا».

«تشاهدين صديقك وهو يجري».

«نعم».

«لكنك لا تركضين».

«لا. لا أركض، في الواقع أنا لست مؤهَّلة لذلك». خفضت بصري نحو صدري.

هذا جعله يبتسم.

«وماذا أيضًا؟».

«ماذا تعني بماذا أيضًا؟».

«هوايات؟ سفر؟ أماكن تحبين زيارتها؟».

بدأ يبدو مثل مُدرّسي المهني القديم.

حاولت التّفكير.

«ليس عندي في الحقيقة أيُّ هواية. أقرأ قليلًا.. أحب الملابس».

قال بجفاء: «أشياء بسيطة».

«أنت سألت. في الحقيقة أنا لست شخصًا يمارس الهوايات». كان صوتي قد أصبح دفاعيًّا بغرابة. «لا أفعل الكثير، هل هذا جيّد؟ أعمل ثم أذهب إلى البيت».

«أين تقيمين؟».

«على الجانب الآخر من القلعة. شارع رينفرو». بدا هادئًا. بالتأكيد كان كذلك. كانت هناك حركة مرور بشرية طفيفة بين جانبَي القلعة. «أمام الطريق العمومي المزدوج. قرب مطعم ماكدونالدز».

أومأ، على الرغم من أني لم أكن واثقة من أنه عرف حقًّا المكان الذي كنت أتحدث عنه.

«إجازات؟».

«ذهبت إلى إسبانيا، مع صديقي باتريك»، وأضفت: «عندما كنت صغيرة ذهبنا فقط إلى دورست. أو تينبي. عمتي تعيش في تينبي».

«وماذا تريدين؟».

«ماذا أريد مماذا؟».

«من حياتك؟».

قلت: «هذا عميق بعض الشَّيء، أليس كذلك؟».

«فقط أسأل بشكل عام. لا أطلب منك تحليلًا نفسيًّا. مجرَّد سؤال، ماذا تريدين؟ أن تتزوجي؟ أن تنجبي أطفالًا؟ مهنة تحلمين بها؟ أن تسافري حول العالم؟».

مرّت وقْفة طويلة.

أظنُّ أنه عرف أن ردِّي سوف يكون مخيّبًا حتى قبل أن أنطق.

«لا أعرف. لم أفكِّر يومًا في الأمر حقًّا».

***

ذهبنا يوم الجمعة إلى المستشفى. كنت مسرورة لأني لم أعرف بموعد ويل إلّا عند وصولي ذلك الصَّباح، لأني كنت لأبقى مستيقظة طوال الليل أفكر بشأن قيادته إلى هناك. نعم يمكنني القيادة، لكني أقول أستطيع القيادة بنفس الطريقة التي أستطيع بها القول إن في وسعي التَّحدث بالفرنسية. نعم، خضعت للفحص الخاص بها ونجحت. لكني لم أستعمل تلك المهارة الخاصّة أكثر من مرة في السَّنة منذ أن حصلت عليها. ملأتني فكرة تحميل ويل وكرسيه في الشَّاحنة الصَّغيرة المعدَّلة ونقله سالمًا من وإلى البلدة المجاورة برعب تام.

تمنّيت لأسابيع طويلة أن يتضمن عملي اليومي هربًا من ذلك المنزل ولو لبعض الوقت. الآن كان لي أن أعمل أي شيء فقط كي لا أغادره. وجدت بطاقته الطِّبية بين ملفَّات أشياء تتعلق بصحته - مجلد كبير سميك مقسَّم إلى «نقل»، «تأمين»، «العيش مع الإعاقة»، و«مواعيد». التقطت البطاقة وتحقَّقت من موعد اليوم. كان بعضي يأمل لو أن ويل كان مخطئًا.

«هل والدتك قادمة؟».

«لا. هي لا تأتي إلى مواعيدي».

لم أتمكَّن من إخفاء استغرابي. كنت قد ظننت أنها قد ترغب بالإشراف على كلِّ جانب من جوانب علاجه.

قال ويل: « كانت تفعل، الآن لدينا اتفاق».

«هل نايثن قادم؟».

كنتُ جاثية أمامه. متوتّرة للغاية حتى إني أوقعت بعضًا من طعامه على حجره، وكنت أحاول عبثًا أن أمسحها، فأصبحت رقعة كبيرة من بنطاله

مشبعة بالماء. لم يقل ويل شيئًا، إلّا أنه رجاني أن أكفَّ عن الاعتذار، لكن هذا لم يمنع إحساسي العام بالتوتّر.

«لماذا؟».

«ما من سبب». لم أرغب أن يعرف بخوفي الشديد. لقد أمضيت معظم الوقت ذلك الصَّباح - الوقت الذي أمضيه عادة في التَّنظيف - في قراءة وإعادة قراءة دليل المستخدم لحامل الكرسي، لكني كنت لا أزال أخشى اللحظة التي سأكون فيها مسؤولة بمفردي عن رفعه مسافة قدمين في الهواء.

«هيا، كلارك. ما المشكلة؟».

«حسنًا. أنا فقط.. فقط فكَّرت أنه قد يكون من السَّهل في المرَّة الأولى لو كان هناك شخص آخر على علم بتفاصيل الأمور».

قال: «أي على طرفي نقيض مني».

«ليس هذا ما قصدته».

«لأنه لا يمكن أن يكون متوقَّعًا مني معرفة أي شيء عن رعايتي الشَّخصية؟».

قلت دون مواربة: «هل تدير حامل الكرسي؟ هل يمكنك أن تخبرني بالضَّبط ماذا أفعل، هل يمكنك ذلك؟».

راقبني، بتحديقة ثابتة. إن كان ينوي الشِّجار فقد بدا أنه غيّر رأيه.

«معك حق. نعم، إنه قادم. هو شخص إضافي مفيد. إضافة إلى أني اعتقدت بأنك ستكونين متماسكة على نحو أكبر إذا كان معك هناك».

اعترضت: «أنا متماسكة».

«واضح». نظر إلى حجره الذي كنت لا أزال أنظفه بقطعة قماش. كنت قد أزلت صلصة المعكرونة، لكنه كان مبلّلًا.

«إذًا، هل سأذهب مثل مصاب بسلس البول؟».

«أنا لم أنتهِ». أوصلت مجفف الشَّعر بالقابس الكهربائي ووجهت الفوَّهة نحو منفرجهِ.

اندهش عندما وجّهت الهواء السَّاخن نحو بنطاله.

قلت: «حسنًا، هو ليس بالضبط ما توقّعت أني سأفعله أصيل يوم الجمعة أيضًا».

«أنت متوتّرة حقًّا، ألست كذلك؟».

شعرت بأنه يتفحَّصني.

«أوه، هوِّني عليك كلارك. أنا من يلسع هواء ساخن أعضاءه التناسلية.

لم أستجب. سمعت صوته يعلو فوق هديرِ مجفف الشَّعر.

«هيا، ما أسوأ ما يمكن أن يحدث - أن ينتهي بي الأمر في كرسي متحرك؟».

ربما بدا سخيفًا، لكني لم أتمكَّن من الامتناع عن الضَّحك. كان ويل المتكتّم قد نجح بالفعل في محاولته أن يجعلني أشعر بتحسّن.

***

بدت السَّيارة من الخارج مثل نقَّالة عادية، لكن عندما انفتح باب مقعد الراكب الخلفي ونزل سلّم من الجانب وانخفض إلى الأرض. قمت بمراقبة من نايثن، بتوجيه كرسي ويل الخارجي (كان يملك كرسيًّا خاصًّا بالسَّفر) مباشرة على السُّلَّم، تحقَّقت من المكبح الالكتروني وبرمجته ليرفعه ببطء إلى السَّيارة. انزلق نايثن في المقعد المقابل، وربط له الحزام، وأمَّن العجلات. في محاولة لإيقاف يدي عن الارتجاف، ركبت في مقعد السَّائق، حررت مكبح اليد، وقدت ببطء على الدَّرب نحو المستشفى.

بدا ويل أنه ينكمش قليلًا بعيدًا عن البيت. كان الطَّقس باردًا في الخارج، ونايثن وأنا حزّمناه في وشاحه ومعطفه الثَّقيل، لكن مع ذلك ازداد هدوءًا. كان مطبق الفك ومتأثرًا بطريقة ما بالفضاء الأعظم لما يحيط

به. كلما نظرت من خلال المرآة الخلفية (وقد حدث هذا كثيرًا لأني كنت مرعوبة، على الرغم من وجود نايثن، من أن الكرسي قد يفلت بطريقة ما من أربطته)، كان يحدّق من النافذة، وتعبيره مصمت. حتى عندما توقّفت فجأة أو دست على المكابح بشدَّة كبيرة، وقد فعلت هذا عدَّة مرات، جفل قليلًا فقط وانتظرني حتى أستعيد الإمساك بزمام بالأمر.

مع وصولنا إلى المستشفى كنت بالفعل قد تفصَّدت عرقًا. قدت حول ساحة انتظار السَّيارات في المستشفى ثلاث مرات، خائفة للغاية من الرجوع إلى الوراء إلّا في أكثر الأماكن اتِّساعًا، إلى أن شعرت بأن الرجلين كانا قد بدأا يفقدان صبرهما. ثم أخيرًا أنزلت السُّلم وقام نايثن بدحرجة كرسي ويل على المدرج.

قال نايثن مربِّتًا على ظهري وهو يترجّل: «أحسنتِ صنعًا»، لكني وجدت من الصَّعب تصديق أني فعلت.

هناك أشياء لا تلاحظها حتى ترافق شخصًا على كرسي متحرّك. إحداها أن تلاحظ إلى أي حد كانت سيئة حالة معظم الأرصفة، مكسوّة بفجوات مرقَّعة على نحو رديء، أو فقط أرض غير ممهّدة. رأيت وأنا أمشي ببطء قرب ويل وهو يجرُّ نفسه كيف جعلته كل بلاطة غير ممهدة يرتجُّ متألمًا، أو كم كان عليه أن يستدير بحذر حول عقبة محتملة. تظاهر نايثن بعدم الانتباه، لكني رأيته يراقب أيضًا. ويل فقط بدا متجهّمًا وصارمًا.

الأمر الآخر هو إلى أي حدٍّ كان معظم السَّائقين متهوّرين. يتوقفون أمام القواطع المنحدرة على الأرصفة، أو يوقفون سياراتهم على نحو متقارب فلا يكون هناك مجال لكي يعبر كرسي متحرك. كنت مصدومة، حتى إني حاولت مرتين أن أترك ملاحظة فظة مطويَّة في ماسحة زجاج السَّيارة، لكن بدا أن نايثن وويل معتادان على ذلك. أشار نايثن إلى مكان مناسب للعبور وأحطنا كلانا بويل وعبرنا أخيرًا.

ويل لم يكن قد تفوَّه بكلمة منذ مغادرتنا المنزل. كان المستشفى نفسه

مبنى متألّقًا ذا عدد قليل من الطوابق، منطقة الاستقبال النظيفة أكثر شبهًا بتلك التي لفندق عصري، ربما بسبب وجود تأمين خاص. تراجعت عندما أخبر ويل موظف الاستقبال باسمه ثم تبعته ونايثن عبر ممر طويل.

كان نايثن يحمل حقيبة ظهر ضخمة تحتوي على كل ما يمكن أن يحتاجه ويل أثناء زيارته القصيرة، من الأكواب إلى ملابس إضافية. كان قد حزمها أمامي ذلك الصَّباح، مفصلًا كل احتمال ممكن. قال وقد شعر بخوفي: «أظن من حسن الحظ أنه ليس علينا أن نفعل هذا كثيرًا».

لم أتبع ويل إلى الموعد. جلسنا أنا ونايثن على كرسيين مريحين أمام غرفة الطبيب. لم تكن هناك رائحة مستشفى، وكانت زهور نضرة في مزهرية على عتبة النَّافذة. ليس مجرد زهور بائتة أيضًا. أشياء ضخمة غريبة لم أعرف أسماءها، منسَّقة بإتقان في باقات بسيطة.

سألت بعد أن جلسنا هناك مدة نصف ساعة: «ماذا يفعلون في الداخل؟».

رفع نايثن بصره عن كتابه: «إنه مجرّد فحص طبي دوري كلَّ ستَّة أشهر».

«ماذا، ليروا إذا كان هناك تحسّن؟».

وضع نايثن كتابه: «هو لن يتحسّن أبدًا. إنها إصابة في النخاع الشَّوكي».

«لكنك تجري له العلاج الفيزيائي».

«هذا لمحاولة الحفاظ على وضعه الجسدي - لنمنع الضُّمور، وكي لا تفقد عظامه الأملاح المعدنية، أو تتجمّع الأوردة في ساقيه.. هذا النوع من الأمور».

عندما تحدَّث ثانية كان صوته رقيقًا كما لو أنه اعتقد أنه قد يخيّب ظنّي.

«هو لن يمشي ثانية يا لويزا. هذا يحدث فقط في أفلام هوليوود. كل

ما نفعله هو محاولة إبعاده عن الألم، والمحافظة على أي قدر من الحركة التي يمتلكها».

«هل هو يفعل هذه الأمور من أجلك؟ المعالجة الفيزيائية؟ هو لا يبدو أنه يرغب بفعل أي شيء أقترحه».

غضَّن نايثن أنفه: «هو يفعل، لكني لا أظن أنه متحمِّس. في بداية عملي معه، كان عاقد العزم. أمضى مدة طويلة للغاية في إعادة التأهيل، لكن بعد سنة من عدم ملاحظة أي تحسُّن أظن أنه وجد من الصَّعب أن يبقى معتقدًا أن الأمر يستحق العناء».

«هل تظن أن عليه الاستمرار في المحاولة؟».

حملق نايثن بالأرض: «بأمانة؟ هو مصاب بالشَّلل الرباعي في الفقرتين 5-6. هذا يعني أن لا شيء يعمل تحت هنا..»، ووضع يده على الجزء العلوي من صدره. «هم لم يتوصّلوا إلى إصلاح نخاع شوكي بعد».

تطلَّعت نحو الباب، أفكر بوجه ويل في شمس الشِّتاء، الوجه المشعّ لرجل في رحلة للتزلج.

«مع ذلك تحدث جميع أنواع التَّقدم الطبي، صحيح؟ أعني... في مكان مثل هذا... لا بد أنهم يعملون طوال الوقت».

قال برصانة: «إنه مستشفى جيّد جدًّا».

«حيث توجد حياة، وكل ذلك؟».

نظر نايثن نحوي، ثم عاد إلى كتابه وقال: «بالتَّأكيد».

* * *

ذهبت لأجلب القهوة عند السَّاعة الثَّالثة إلّا ربعًا، عندما طلب نايثن ذلك. قال إن هذه المواعيد قد تستمر لبعض الوقت، وإنه سيتولى المسؤولية حتى أعود. تسكَّعت قليلًا في منطقة الاستقبال، أقلِّب المجلات في كشك الجرائد، وأتريَّث عند ألواح الشوكولا.

وكما هو متوقّع، تهت وأنا أحاول إيجاد طريق عودتي إلى الممر، وتوجَّب عليَّ أن أسأل عدَّة ممرضات عن الطريق، اثنتان منهنّ لم تكونا تعرفان. عندما وصلت إلى هناك، كانت القهوة قد بردت في يدي، والممر فارغًا. وعندما اقتربت، رأيت أن باب الطبيب كان مواربًا. توقَّفت في الخارج، لكنّي سمعت صوت السَّيدة ترينر في أذني طوال الوقت الآن، تنتقدني لتركي إياه. كنت قد فعلتها ثانية.

كان صوت يقول: «إذًا سوف نراك بعد ثلاثة أشهر يا سيد ترينر، لقد عدَّلت الأدوية الخاصة بالتشنّجات وسوف أضمن أن يزورك شخص حاملًا معه نتائج التَّحاليل. ربما يوم الاثنين».

سمعت صوت ويل: «هل يمكنني الحصول عليها من الصَّيدلية في الأسفل؟».

«نعم. هاك. لا بد أن يكونوا قادرين على إعطائك المزيد من هذه أيضًا».

سمعت صوت امرأة: «هل آخذ ذلك الملف؟».

أدركت أنهم لا بد أن يكونوا على وشك المغادرة. قرعت الباب ونادى شخص عليَّ بالدخول. التفت نحوي شخصان.

قال الطبيب وهو ينهض عن كرسيه: «أنا آسف. اعتقدت أنك المعالج الفيزيائي».

قلت وأنا متشبّثة بالباب: «أنا مساعدة ويل». كان ويل مثبتًا إلى الأمام في كرسيّه ونايثن يسحب قميصه.

«آسفة، اعتقدت بأنكم قد انتهيتم».

صدح صوت ويل في الغرفة: «فقط امنحينا دقيقة، لويزا، من فضلك».

تراجعت إلى الخارج بوجه لاهب وأنا أتمتم باعتذاراتي.

لم يكن ما صدمني مرأى جسد ويل المكشوف نحيلًا ومليئًا بالنُّدوب.

ولم تكن نظرة الطبيب الاختصاصي الغاضبة بغموض، تلك النظرة نفسها التي ترمقني بها السَّيدة ترينر يومًا بعد يوم - نظرة جعلتني أدرك أني ما زلت البلهاء المتخبّطة نفسها، حتى لو كنت أتقاضى أعلى أجر في السَّاعة.
لا، لقد كانت آثار الخطوط الحمر المزرقَّة على رسغي ويل، والنُّدوب الطويلة المسننة التي لا يمكن إخفاؤها، مهما حاول نايثن الإسراع في سحب كمَّيْ ويل.

6

هطل الثَّلج على حين غرَّة حتى إني غادرت البيت تحت سماء ساطعة زرقاء، وما إن مرت نصف ساعة حتى كنت متّجهة نحو قلعة بدت مثل كعكة مزيَّنة محاطة بقشرة سميكة من السُّكر الأبيض.

اجتزت الدَّرب بصعوبة، خطواتي مكتومة وأصابع قدمَيَّ خدرة، أرتجف في معطفي المصنوع من الحرير الصيني الرقيق جدًا. انبثقت دوَّامة من النُّدف البيضاء السَّميكة من لا نهاية حديدية رمادية اللون، تكاد تخفي منزل غرانتا. تحجّب الصَّوت، وتباطأ العالم في خطوة غير طبيعية. خلف السَّياج المشذَّب بإتقان، مرَّت سيارات بحذر وانزلق السَّابلة على الأرصفة صارخين. جذبت وشاحي على أنفي وتمنَّيت لو أني ارتديت حذاءً أكثر ملاءمة من حذاء الباليه وثوب مخمليّ قصير. ولمفاجأتي لم يكن نايثن من فتح الباب بل والد ويل.

قال وهو يرنو إلى السَّماء من عتبة الباب: «إنه في السَّرير. هو ليس على خير ما يرام. كنت أتساءل ما إذا ينبغي عليَّ الاتصال بالطبيب».

«أين نايثن؟».

«في إجازة صباحية. بالتأكيد، لا بد أنها اليوم. جاء ممرض من وكالة وذهب خلال ست ثوانٍ. إذا استمر هطول هذا الثلج أنا لست واثق مما سنفعله لاحقًا». تململ، كما لو أنَّ هذه الأمور لا حلَّ لها، واختفى في

الممر، مرتاحًا في ما يبدو لأنه لم يعد مسؤولًا. نادى من فوق كتفه: «أنت تعرفين ما يحتاجه، صحيح؟».

خلعت معطفي وحذائي، وعرفت أن السَّيدة ترينر في المحكمة (كتبت مواعيدها على روزنامة في مطبخ ويل)، وضعت جواربي المبللة على المشعاع كي تجفّ. وجدت زوجًا من جوارب ويل في سلَّة الغسيل النظيف فارتديتهما. كانا كبيرين على نحوٍ مضحك لكن كنت متلهِّفة للدفء وتجفيف قدمَيّ. لم يجب ويل عندما ناديت، لذا بعد فترة حضَّرت له شرابًا وقرعت بهدوء وأقحمت رأسي من الباب.

لم أتمكَّن في الضَّوء الشَّاحب من تمييز سوى الهيئة تحت اللحاف. كان ينام سريعًا. تراجعت خطوة وأغلقت الباب خلفي، ورحت أؤدي مهمَّات الصَّباح.

بدت أمي أنها تجني شيئًا فشيئًا رضًى بدنيًا من منزل مرتَّب جيدًا. كان قد مضى شهر وأنا أكنس وأنظِّف يوميًا، ومع ذلك لا أجد ما يغويني. شككت بأني لن أفضِّل أن يقوم بهذه الأعمال شخص آخر في أي مرحلة من مراحل حياتي.

لكن في يوم مثل هذا اليوم، عندما كان ويل ملازمًا الفراش، وبدا أن العالم ساكن في الخارج، وجدت أيضًا نوعًا من المتعة التأمّلية في الانشغال بين طرفَي الملحق. بينما نفضت الغبار ومسحت، حملت المذياع معي من غرفة إلى أخرى، مبقية الصوت منخفضًا كي لا أزعج ويل.

أقحمت رأسي من الباب بين الفينة والأخرى، فقط لأتأكد من أنه كان يتنفس. حلَّت السَّاعة الواحدة وكان لا يزال نائمًا حتى، فبدأت أشعر بشيء من القلق. ملأت سلَّة الحطب، ولاحظت أن سماكة الثلج قد بلغت عدة إنشات. حضَّرت لويل شرابًا منعشًا ثم قرعت الباب. بصوت مرتفع قرعت ثانية.

«نعم؟»، كان صوته مبحوحًا كما لو أني أيقظته.

عندما لم يجب قلت: «هذه أنا. لويزا. هل يمكنني الدخول؟».

«أنا بالكاد أؤدي رقصة الحُجب السبعة».

كانت الغرفة شبه مظلمة. السَّتائر لا تزال مسدلة. دخلت بحذر حتى اعتادت عيناي على الضَّوء. كان ويل مستلقيًا على جنبه، إحدى ذراعيه مائلة أمامه كما لو ليدعم نفسه نحو الأعلى. أحيانًا كان من السَّهل أن تنسى أنه لن يكون قادرًا على أن يتقلَّب بنفسه.

كان شعره ملتصقًا على جانب واحد، ولحافه محشورًا بإحكام من حوله. امتلأت الغرفة برائحة رجل دافئ غير مغتسل، ليست كريهة لكنها مع ذلك مجفلة قليلًا.

«ماذا يمكنني أن أفعل لك؟ هل تريد شرابك؟».

«أريد أن أغير وضعيتي».

وضعت الشَّراب على خزانة الأدراج وتقدَّمت نحو السَّرير.

«ماذا... ماذا تريدني أن أفعل؟».

ازدرد ريقه مليًا، كما لو أن ذلك كان مؤلمًا.

«ارفعيني وأديريني، ثم ارفعي ظهر السرير. هنا...»، أومأ لي لاقترب. «ضعي ذراعيك تحت ذراعي، وصِلي يديك خلف ظهري، ثم اسحبي إلى الخلف. ابقي جالسة على السَّرير وبهذه الطريقة لن تجهدي أسفل ظهرك».

لم أتمكن من التظاهر بأن ذلك لم يكن غريبًا بعض الشَّيء. مددت يدي من حوله فملأت رائحته منخريَّ، جلده دافئ على جلدي. لم أتمكن من الاقتراب أكثر ما لم أبدأ بقضم أذنه. جعلتني الفكرة هستيرية إلى حد بسيط وكافحت لكي أتمالك نفسي.

«ماذا؟».

«لا شيء». تنفَّست، وصلت يديَّ وسويت وضعيتي حتى شعرت بأني

أمسك به بإحكام. كان أعرض مما توقعت، وأثقل بطريقة ما، ثم جذبته إلى الخلف عند العد إلى ثلاثة.

«ماذا؟»، كدت أوقعه.

«يداكِ متجمدتان للغاية».

«نعم. حسنًا، إذا كلَّفت نفسك عناء الخروج من السَّرير ستعرف أنها تثلج في الخارج».

كنت أمزح تقريبًا، لكن الآن أدركت أن جلده كان حارًّا تحت كنزته - حرارة كثيفة بدت أنها نابعة من أعماقه. تأوَّه بعض الشيء وأنا أسوِّي وضعه على الوسادة، وحاولت أن تكون حركاتي بطيئة ولطيفة قدر الإمكان. أشار إلى جهاز التحكم الذي من شأنه أن يرفع رأسه وكتفيه.

تمتم: «ليس كثيرًا مع ذلك، فأنا دائخ قليلًا».

أضأت المصباح الجانبي، متجاهلة احتجاجه غير الصَّريح، لأتمكن من رؤية وجهه.

«ويل هل أنت بخير؟». كان عليَّ أن أكررها مرتين قبل أن يجيبني.

«ليس يومي الأفضل».

«هل تحتاج إلى مسكِّن؟».

«نعم... مسكِّن قوي».

«ربما بعض الباراسيتامول؟».

استند إلى الوسادة الباردة وأطلق تنهيدة.

ناولته الكوب وراقبته يبتلع.

قال في ما بعد: «شكرًا لك»، وساورني شعور مفاجئ بالقلق. لأنه لم يسبق لويل أن شكرني على شيء.

أغمض عينيه، ولفترة وقفت فقط في العتبة وراقبته، يعلو صدره ويهبط

تحت قميصه، فاغر الفم قليلًا. كان تنفسه ربما مجهدًا أكثر بقليل من أيام أخرى. لكني لم أره يومًا خارج كرسيه، ولم أكن واثقة إذا كان ذلك يتعلّق بوطأة الاستلقاء.

تمتم: «اذهبي».

غادرت.

***

أرسلت أمي لي رسالة نصِّية عند السَّاعة الثَّانية عشرة والنِّصف من بعد الظُّهر تقول فيها إنَّ والدي لم يتمكَّن من تشغيل السيارة، وأمرتني: «لا تأتي إلى البيت قبل أن تتّصلي بنا أولًا». لم أكن واثقة مما اعتقدت بأنها ستفعل - إرسال أبي على مزلجة مع القدِّيس برنارد؟

استمعت إلى الأخبار المحلّية على المذياع - انقطاع الطريق السَّريع، تعطُّل القطارات، وإغلاق موقَّت للمدارس بسبب عاصفة ثلجية قوية غير متوقعة. عدت إلى غرفة ويل ونظرت إليه ثانية. لم يعجبني لونه. كان شاحبًا، نقاط بارزة من شيء لامع على خديه.

قلت بلطف: «ويل؟».

لم يأتِ بنأمة.

«ويل؟».

بدأت أشعر باضطرابات الذُّعر الخفيفة. نطقت باسمه مرتين أخريين بصوت مرتفع. لا جواب. أخيرًا انحنيت عليه.

ما من حركة واضحة على وجهه، لم أتمكَّن من رؤية شيء في صدره. كان عليَّ أن أتمكن من الشُّعور بأنفاسه. قرّبت وجهي من وجهه أحاول اكتشاف زفير. عندما لم أتمكن مددت يدي ومسست وجهه بلطف.

جفل وانفتحت عيناه فقط على مسافة إنشات من عينيّ.

قلت: «أنا آسفة»، وقفزت متراجعة.

طرف بعينيه ونظر في أرجاء الغرفة كما لو أنه كان في مكان بعيد عن البيت.

قلت عندما لم أتيقن من أنه تعرّف إليّ: «أنا لو».

بدت على ملامحه صورة غضب خفيف: «أعرف».

«هل تريد بعض الحساء؟».

«لا، شكرًا لك». أغمض عينيه.

«المزيد من الحبوب المسكِّنة؟».

كان هناك بريق شاحب من العرق على عظمِ خديه. كان ملمس لحافه حار بغموض ومعرَّق، جعلني أتوتر.

«هل هناك ما يجب أن أفعله؟ أعني، إذا لم يتمكَّن نايثن من القدوم إلى هنا؟».

تمتم قائلًا: «لا... أنا بخير»، وأغمض عينيه ثانية.

رحت أقلِّب في الملف، أحاول اكتشاف إذا كنت قد فوَّت شيئًا. فتحت خزانة الأدوية، علب القفازات المطاطية، وضمادات الشَّاش، وأدركت أني لم أكن أملك فكرة على الإطلاق عمَّ عليَّ أن أفعل بأي منها. اتصلت بالهاتف البيني لأتحدث مع والد ويل، لكن صوت الرنين تلاشى في منزل فارغ. سمعته يتردّد خلف باب الملحق.

كنت على وشك أن أتَّصل بالسَّيدة ترينر عندما انفتح الباب الخلفي ودخل نايثن يلفّ نفسه بطبقات من الثياب الفضفاضة، ووشاح صوفيّ وقبعة تكاد تحجب رأسه. جلب معه هبَّة من هواء بارد ودفعة خفيفة من الثَّلج.

شعرت كأن البيت استيقظ فجأة من حالة أشبه بالحلم.

قلت: «أوه حمدًا لله أنك هنا، هو ليس بخير. لا يزال نائمًا معظم الصباح وهو لم يشرب شيئًا، لم أعرف ماذا أفعل».

هزّ نايثن كتفيه وخلع معطفه.

«كان عليَّ أن أمشي الطريق كله إلى هنا. توقَّفت الحافلات عن العمل».

كنت على وشك أن أحضِّر له كوبًا من الشَّاي عندما ذهب ليتفحص ويل. ظهر مجددًا قبل أن يغلي الماء في الغلاية.

قال: «إنه محموم، منذ متى وهو على هذه الحال؟».

«طوال الصباح. ظننت بأنه محموم لكنه قال إنه فقط يريد أن ينام».

«يا إلهي. الصباح بطوله. ألا تعلمين أنه لا يستطيع تنظيم حرارته؟». اندفع مارًّا بي وبدأ يبحث في خزانة الأدوية.

«أقوى مضاد حيوي». أمسك بقارورة وأفرغ حبة في الهاون، وسحقها بالمدقَّة باهتياج. حكنت أحوم خلفه.

«أعطيته باراسيتامول».

«كان عليك أيضًا أن تعطيه حبّة شوكولا ملوَّنة M&M».

«لم أعرف. لم يقل لي أحد. كنت أغطّيه».

«إنه في الملف اللعين. انظري، ويل لا يتعرَّق مثلنا. في الواقع هو لا يتعرّق على الإطلاق نزولًا من نقطة إصابته. هذا يعني أن حرارته سوف ترتفع كثيرًا إذا ما أصيب ببرداء خفيفة. ابحثي عن المروحة. سوف ننقلها إلى هناك حتى يبرد. ومنشفة مبللة، لنضعها حول عنقه. سوف لن نكون قادرين على أخذه إلى الطَّبيب حتى يتوقّف الثلج. ممرّض الوكالة اللعينة. كان عليه أن يلحظ هذا في الصباح».

كان نايثن غاضبًا كما لم أره من قبل. لم يعد يتحدّث إليّ.

هرعت لأجلب المروحة.

استغرق الأمر أربعين دقيقة تقريبًا لتنخفض حرارة ويل إلى درجة مقبولة. بينما انتظرنا أن يسري مفعول الدواء القوي، وضعت منشفة على جبهته وأخرى حول عنقه بحسب توجيهات نايثن. عرَّيناه وغطينا صدره

بملاءة قطنية ووضعنا المروحة لتعمل فوقها. من دون أكمام كانت النُّدب على ذراعيه مكشوفة بوضوح، تظاهرت بأني لم أرها.

تحمَّل ويل كل هذه العناية بصمت تقريبًا مجيبًا على أسئلة نايثن بنعم أو لا، على نحو ملتبس للغاية أحيانًا، حتى إني لم أكن واثقة من أنه يعرف ما كان يقول. أدركت، الآن بعد أن رأيته في الضَّوء، أنه بدا حقًّا مريضًا، وشعرت شعورًا رهيبًا لأني أخفقت في استيعاب الأمر. قلت إني آسفة إلى أن أخبرني نايثن أنني أصبحت مزعجة.

قال: «صحيح، يجب أن تراقبي ما أفعله. قد يتوجَّب عليك أن تفعلي هذا بمفردك لاحقًا».

لم أشعر بأن في وسعي الاحتجاج. لكني اكتشفت أنه من الصعوبة بمكان ألّا أشعر بالغثيان عندما رفع نايثن خصر بيجامة ويل كاشفًا عن بطن أجرد عار شاحب وأزال بعناية الشَّاش من حول أنبوب صغير في بطنه ونظّفه بعناية وبدّل الضِّمادة. علّمني كيف أغير الكيس على السَّرير، وشرح سبب وجوب أن يكون دومًا أخفض من جسد ويل، وفاجأني كم كنت عملية عندما كنت على وشك الخروج من الغرفة أحمل كيسًا من السَّائل الدافئ.

كنت مسرورة لأن ويل لم يكن يراقبني.. ليس فقط لأنه سوف يلقي بتعليق لاذع لكن لأني شعرت وأنا أشهد جزءًا من هذا الروتين الحميم بأنه سيكون محرجًا له أيضًا بوجه من الوجوه.

قال نايثن: «حسنًا، ها هو». أخيرًا بعد ساعة غفا ويل مستلقيًا على ملاءات جديدة من القطن، ويبدو أنه إذا لم يكن جيدًا إلّا أنه ليس مريضًا على نحو مخيف.

«دعيه نائمًا الآن. لكن أيقظيه بعد ساعتين وتأكَّدي من أن يشرب أكبر كمية من السَّوائل. المزيد من أدوية خفض الحرارة عند السَّاعة الخامسة، حسنًا؟ ربما سوف ترتفع حرارته ثانية في آخر ساعة لكن لا شيء قبل الخامسة».

خربشت كل شيء على مذكرة، كنت أخشى القيام بأي شيء على نحو خاطئ.

«الآن سيتوجَّب عليك أن تكرري ما فعلناه للتو هذا المساء. هل أنت موافقة على ذلك؟». دثَّر نايثن نفسه مثل اسكيمو وتوجَّه نحو الثلج. «فقط اقرئي الملف ولا تصابي بالذعر، عند حدوث أي مشاكل اتصلي بي وحسب، سوف أحدّثك عن كل شيء. سأعود إلى هنا ثانية إذا كان ذلك ضروريًّا».

***

جلست في غرفة ويل بعد مغادرة نايثن. كنت خائفة جدًّا من عدم فعل ذلك. كان في الزاوية كرسي جلديّ قديم مع مصباح للقراءة ربما من حياة ويل السَّابقة،وتكوَّرت عليه مع كتاب قصص قصيرة أخرجته من خزانة الكتب.

كان الجو في الغرفة هادئًا على نحو غريب. رأيت العالم الخارجي من خلال فرجة في السَّتائر، مكسوًّا بالأبيض، هادئًا وجميلًا. في الداخل كان دافئًا وصامتًا، فقط كانت هسهسة وتكتكة التدفئة المركزية تقطع سلسلة أفكاري.

قرأت، وبين الحين والآخر كنت أرنو وأتحقَّق من أن ويل ينام بسلام، وأدركت أنه لم يكن هناك جدوى من حياتي عندما كنت أجلس في صمت ولا أفعل شيئًا. أنت لا تعتاد على الصَّمت في منزل مثل منزلي، مع الكنس المتواصل، وصوت التلفاز المدوّي، والصراخ. خلال اللحظات النادرة التي كان فيها التلفاز مطفأ، كان أبي يضع تسجيلات ألفيس القديمة رافعًا الصوت إلى أعلاه. في المقهى أيضًا أزيز متواصل من صخب وقعقعة.

أستطيع هنا سماع صوت أفكاري. يمكنني تقريبًا سماع دقَّات قلبي. أدركت، وتفاجأت بأنني أحببت هذا. وصلَتْ عند السَّاعة الخامسة رسالة على هاتفي النقال. تحرَّك ويل، وقفزت عن الكرسي هلعة لتناوله قبل أن يزعجه.

ما من قطارات. هل من مجال لتمضي الليل؟ نايثن لم يتمكَّن من القدوم.

كاميلا ترينر.

لم أفكر بالأمر في الحقيقة قبل أن أكتب ردًا.

لا مشكلة.

اتصلت بوالديَّ وقلت لهما بأني سأبقى. بدت أمي مرتاحة، بل بدت مبتهجة للغاية عندما قلت لها إني سأحصل على أجر مقابل بقائي هناك.

قالت وهي تغطِّي سماعة الهاتف بيدها جزئيًا: «هل سمعت بذلك برنارد؟ هم يدفعون لها مقابل النَّوم الآن».

سمعت تعجُّب والدي. «ليتمجَّد الرب. لقد وجدت العمل الذي تحلم به».

أرسلت رسالة نصّية إلى باتريك، وقلت له إنه طُلب مني البقاء في العمل وسوف أتصل به لاحقًا. وصل الرد خلال ثوانٍ.

سيهطل الثَّلج الليلة في جميع أنحاء البلاد.

تمرين جيد على النرويج! قبلاتي.

تساءلت كيف يكون ممكنًا لشخص ما أن يتحمّس كثيرًا لفكرة الجري في جو شديد البرودة مرتديًا صديرية وسروالًا.

نام ويل. طهوت لنفسي بعض الطَّعام، وسخنت بعض الحساء في حال رغب بتناوله لاحقًا. وأوقدت المدفأة في حال شعر بتحسن ورغب في الذَّهاب إلى غرفة الجلوس. قرأت قصَّة أخرى وتساءلت كم مضى من وقت منذ أن اشتريت كتابًا. كنت أحب القراءة في صغري، لكني لم أتذكّر قراءة أي شيء عدا المجلات. كانت ترينا هي القارئة.

تقريبًا كنت كما لو أنني بتناول كتاب أشعر بأني أعتدي على أرضها.

فكَّرت فيها وفي توماس يختفون في الجامعة وأدركت بأني لا أزال لا أعرف إن كان هذا مبعثًا للسعادة أو الحزن أو لشيء معقّد بعض الشَّيء في ما بينهما.

اتَّصل نايثن عند السَّاعة السَّابعة. بدا مرتاحًا لبقائي أثناء الليل.

قلت له: «لم أتمكَّن من الاتصال بالسَّيد ترينر، اتصلت برقمهم الأرضي لكن تمَّ تحويلي مباشرة إلى المجيب الآلي».

«نعم حسنًا يكون ذهب».

«ذهب؟».

شعرت بذعر مفاجئ غريزي لفكرة أني أنا وويل وحدنا في المنزل أثناء الليل. كنت خائفة من القيام بشيء أساسي على نحو خاطئ ثانية. المجازفة بصحة ويل.

«هل عليَّ الاتصال بالسَّيدة ترينر إذًا؟».

رانت فترة قصيرة من الصمت على طرف الهاتف الآخر.

«لا، من الأفضل ألا تفعلي».

«لكن»

« انظري، لو، هو غالبًا... هو غالبًا يذهب إلى مكان آخر عندما تقضي السَّيدة ترينر الليل في البلدة».

استغرقني دقيقة أو اثنتين لأفهم ما كان يقوله.

«أوه».

«من الجيد أنك هناك، هذا كل شيء. إذا كنت واثقة أن ويل يبدو أفضل سأجيء في أول حافلة في الصباح».

***

هناك ساعات عادية، ثم هناك ساعات معتلَّة عندما يتوقَّف الوقت فجأة

وينزلق، عندما تبدو الحياة - الحياة الحقيقية - موجودة على مسافة قريبة. شاهدت عددًا من البرامج التلفزيونية، تناولت الطَّعام ونظَّفت المطبخ، تجوَّلت في الملحق بصمت وعدت إلى غرفة ويل.

تحرَّك عندما أغلقت الباب ورفع رأسه قليلًا: «كم السَّاعة كلارك؟». كان صوته مكتومًا بعض الشيء بالوسادة.

«الثَّامنة والربع».

خفض رأسه وقال: «هل يمكن أن أشرب شيئًا؟».

لم يكن هناك حدَّة في صوته الآن، كان كما لو أن كونه مريضًا جعله أخيرًا مكشوفًا، ناولته شرابًا وأضأت المصباح الجانبي. جلست على طرف سريره ولمست جبهته كما كانت أمي تفعل عندما كنت طفلة. كان لا يزال محمومًا بعض الشَّيء لكن ليس كما كان سابقًا.

«يداك باردتان».

«لقد تشكَّيت منهما سابقًا».

«هل فعلت؟»، بدا متفاجئًا بصدق.

«هل تريد تناول بعض الحساء؟».

«لا».

«هل أنت مرتاح؟».

لم أعرف يومًا مدى انزعاجه لكنني شككت بأنه أكثر من أن يبوح به.

«الجانب الآخر سيكون جيدًا. فقط اقلبيني. لا أريد النهوض».

صعدت على السَّرير وقلبته، بلطف قدر استطاعتي. حرارته كانت فقط تلك الحرارة العادية التي يكتسبها جسد أمضى وقتًا تحت اللحاف.

«هل في وسعي فعل أي شيء آخر؟».

«أليس عليك الذهاب إلى البيت؟».

قلت: «لا بأس، أنا سأبقى هنا».

في الخارج كان الثَّلج لا يزال يهطل. حيث رأيت شرفات تتوهج عبر النافذة مغمورة في ضوء ذهبي شاحب كئيب، جلسنا هناك في صمت مسالم نراقب هبوطه المنوِّم.

قلت أخيرًا: «هل يمكنني أن أسألك شيئًا؟». رأيت يديه فوق الملاءة. بدا غريبًا جدًّا أنها تبدو عادية وقويّة جدًّا ومع ذلك عديمة الفائدة.

«شككت بأنك ذاهبة».

«ماذا حدث؟». لم أتوقّف عن السُّؤال عن العلامات على رسغيه. كان السؤال الوحيد الذي لم أتمكَّن من طرحه مباشرة.

فتح عينيه: « كيف أصبحت هكذا؟».

عندما أومأت أغمض عينيه ثانية وقال: «حادث دراجة نارية، ليست دراجتي، كنت راجلًا بريئًا».

«اعتقدت بأنه التزلج أو القفز».

«الجميع يظن ذلك. مزحة صغيرة من الله. كنت أعبر الطريق خارجًا من بيتي، ليس هذا البيت، بيتي في لندن».

حدَّقت في الكتب على الرَّف. كانت هناك بين الروايات، إصدارات دار بنغوين المقروءة، عناوين عملية: قانون الشَّركات، الاستملاك، دليل أسماء لم أتعرف إليها.

«ولم يكن هناك مجال لتستمر في عملك؟».

«لا. ولا الشقة، ولا الإجازات، ولا الحياة. أعتقد بأنك قابلتِ صديقتي السابقة». لم يتمكن الاندفاع في صوته من إخفاء المرارة. «لكن يجب أن أكون ممتنًا. لأنهم لبعض الوقت لم يعتقدوا بأني سأعيش على الإطلاق».

«هل تكرهه، أعني العيش هنا؟».

«نعم».

«هل هناك أي طريقة تمكنك من العيش في لندن ثانية؟».

«لا ليس وأنا على هذا الحال».

«لكن يمكن أن تتحسّن، أعني هناك تقدّم كبير في هذا النوع من الإصابة».

أغمض ويل عينيه ثانية.

انتظرت، ثم سوَّيت الوسادة خلف رأسه واللحاف حول صدره.

قلت وأنا أجلس باستقامة: «آسفة، إذا طرحت عليك الكثير من الأسئلة. هل تريد أن أغادر؟».

ازدرد ريقه وانفتحت عيناه ثانية ونظر في عينيّ.

«لا. ابقي قليلًا. تحدَّثي معي. قولي لي شيئًا جيّدًا». بدا مرهَقًا بشكل لا يُحتمل.

ترددت للحظة، ثم استندت إلى الوسائد بجانبه. جلسنا هناك في ظلمة جزئية، نشاهد ندف الثلج المضيئة تختفي في ظلمة الليل.

قلت أخيرًا: «تعرف... اعتدت على قول ذلك لوالدي، لكن إذا قلت لك ما كان يردُّ به ستظن بأني مجنونة».

«أكثر مما أفعل؟».

«عندما أرى كابوسًا أو أكون حزينة أو خائفة من شيء ما كان يغني»، بدأت أضحك. «أوه لا أستطيع».

«هيا».

«كان يغني لي أغنية مولاهونكي».

«ماذا؟».

«أغنية (المولاهونكي). كنت أظن بأن الجميع يعرفونها».

تمتم: «تأكدي كلارك، أنا لا أعرف المولاهونكي».

التقطت نفسًا عميقًا، أغمضت عيني ورحت أغني.

تمنَّيت لو أني عشت في أرض المولا-لالالا-هونكي

الأرض التي ولدت فيها

لأعزف على آلة البانجو القديمة خاصَّتي

آلة البانجو القديمة خاصتي لن تذهب.

«يا إلهي!!».

التقطتُ نفسًا آخر وتابعت.

حملتها إلى حانوت التَّصليح

ليروا ماذا في وسعهم أن يفعلوا

قالوا لي إنَّ أوتارك تالفة

ولم تعد تفيدك.

رانت فترة قصيرة من الصَّمت.

«أنت مختلَّة. أفراد عائلتك جميعًا مختلون».

«لكنها نجحت».

«وأنت مغنية فظيعة. آمل أن والدك كان أفضل منك في الغناء».

«أظن أنك قصدت أن تقول: (شكرًا لك آنسة كلارك لمحاولة تسليتي)».

قال: «من المفترض أنها أفضل من كل مساعدة نفسية تلقيتها، حسنًا كلارك، قولي لي شيئًا آخر، شيئًا آخر سوى الغناء».

فكرت قليلًا.

«حسنًا، حسنًا... كنت تنظر إلى حذائي منذ بضعة أيام».

«من الصَّعب ألا أفعل».

«حسنًا، تقول أمي إن أول حذاء استثنائي انتعلته كان عندما كنت في

عمر الثالثة. اشترت لي جزمة لماعة فيروزية اللون. كانت استثنائية تمامًا، ففي ذلك الحين كان الأطفال ينتعلون فقط تلك الأحذية الخضراء أو ربما الحمراء إذا كنت محظوظًا. وقالت إني منذ أن اشترتها لي رفضت أن أخلعها. كنت أنتعلها في السَّرير والحمَّام والروضة وطوال فصل الصَّيف. كانت حذائي المفضل تلك الجزمة اللماعة وجوارب النَّحلة الطنانة».

«جوارب النَّحلة الطنانة؟».

«جوارب مخططة بالأصفر والأسود».

«جميل».

«هذا مزعج بعض الشَّيء».

«حسنًا هذا صحيح يبدو مقززًا».

«قد تبدو مقزّزة بالنسبة لك لكن يا للعجب سيد ويل ترينر، لا ترتدي جميع الفتيات ثيابًا بقصد أن تعجب الرجال».

«هراء».

«لا ليس كذلك».

«في كل ما تفعله النساء، يكون الرجال في بالهن. كل ما يفعله كل شخص يفعله والجنس في حسبانه. ألم تقرئي «الملكة الحمراء»؟».

«ليس لدي أي فكرة عما تتحدث عنه. لكن يمكنني أن أؤكد لك بأني لا أجلس على سريرك وأغني أغنية مولاهونكي لأني أحاول أن أغويك. وعندما كنت في سن الثالثة فقط أحببت أن يكون لديّ ساقان مخططتان».

أدركت أن القلق الذي استحوذ عليّ في قبضته طوال اليوم كان ينحسر ببطء مع كل تعليق من تعليقات ويل. لم أعد في نوبة حراسة معوّق عليل بمفردي. كنت جالسة بجانب رجل ساخر نثرثر.

«هيا إذًا ماذا حدث لتلك الجزمة اللماعة الجميلة؟».

«كان عليها أن تتخلّص منها. فقد كانت النتيجة أقدام رياضية مريعة».

«مبهج».

«وقد رمت الجوارب الطَّويلة أيضًا».

«لماذا؟».

«لم أعرف السبب يومًا. لكن ذلك حطَّم قلبي. لم أجد يومًا جوارب طويلة أحبها ثانية. لم يعودوا يصنعونها بعد اليوم. وإذا فعلوا فهم لا يصنعونها للنساء البالغات».

«هذا غريب».

«أوه يمكنك أن تسخر. ألم تحب يومًا شيئًا بهذا القدر؟».

بالكاد استطعت أن أراه الآن، خيَّمت على الغرفة ظلمة تامة تقريبًا. كان بوسعي أن أضيء المصباح العلوي لكنّ شيئًا ما أوقفني. وتقريبًا حالما أدركت ما قلته تمنيت لو لم أفعل.

قال بهدوء: «نعم. نعم فعلت».

تحدثنا لفترة أطول قليلًا ثم أومأ ويل برأسه أنه يرغب بالنوم. تمددت هناك، أراقبه يتنفس، وبين الحين والآخر أتساءل ما قد يقول لو استيقظ ووجدني أحدِّق فيه، بشعره الطويل جدًّا وعينيه المرهقتين وطلائع لحيته المهلهلة. لكنني لم أتمكن من الحركة. أصبحت السَّاعات كالحلم، معزولة خارج الزمن. كنت الشَّخص الوحيد الآخر في المنزل، وكنت خائفة من تركه.

بُعيد السَّاعة الحادية عشرة رأيت أنه بدأ يتعرّق ثانية، تنفسه يصبح قليل العمق. أيقظته وجعلته يتناول بعض الأدوية، لم يتكلّم. فقط تمتم شاكرًا. غيرت غطاء السَّرير العلوي وغطاء وسادته ثم عندما نام أخيرًا استلقيت على بعد قدم منه، وبعد وقت طويل نمت أيضًا.

***

استيقظت على صوت ينادي باسمي. كنت في غرفة صفّ، نائمة على

منضدتي، وكانت المدرّسة تنقر على سبورة، تكرر اسمي مرارًا وتكرارًا. عرفت أن عليَّ أن أنتبه، عرفت أن المدرِّسة سوف ترى نومي هذا على أنه تصرّف مشاغب لكني لم أتمكن من رفع رأسي عن المنضدة.

«لويزا».

غمغمت.

«لويزا».

كانت المنضدة ناعمة للغاية. فتحت عينيّ، كانت الكلمات قد بدأت تُلفظ فوق رأسي همسًا لكن بتأكيد عظيم. لويزا. كنت في سرير. طرفت وركزت بعيني ثم رفعت بصري لأجد كاميلا ترينر واقفة فوقي. ترتدي معطفًا صوفيًا ثقيلًا وحقيبتها متدلية من كتفها.

«لويزا».

دفعت نفسي إلى الأعلى بوثبة. بجانبي، كان ويل نائمًا تحت الأغطية فمه فاغرًا قليلًا ومرفقه مائل بزاوية قائمة أمامه، تسرَّب ضوء من خلال النافذة منبئًا عن صباح مشرق بارد.

«أوه».

«ماذا تفعلين؟».

شعرت كما لو أنه قُبض عليَّ وأنا أرتكب فعلًا مريعًا. مسحت وجهي، أحاول أن أستجمع أفكاري. لماذا أنا هنا؟ ماذا أقول لها؟

«ماذا تفعلين في سرير ويل؟».

قلت بهدوء: «ويل، ويل لم يكن بخير وفكرت أن عليَّ أن أسهر عليه».

«ماذا تعنين بأنه لم يكن بخير، اخرجي لو سمحت إلى الرُّدهة».

خطوت خارجة من الغرفة بوضوح تنتظرني أن ألحق بها. تبعتها محاولة أن أسوِّي ملابسي، كان ينتابني شعور رهيب أن زينتي كانت تلطّخ كامل وجهي.

أغلقت باب غرفة نوم ويل خلفي. وقفت أمامها أحاول أن أمهِّد شعري وأنا أستجمع أفكاري. «كان ويل محمومًا. تمكن نايثن من خفض الحرارة عندما أتى، لكني لم أعرف عن هذا الدواء المنظّم، وأردت أن أسهر عليه، قال إن عليَّ أن أبقي عينيَّ عليه». بدا صوتي ثخينًا غير ناضج. لم أكن واثقة تمامًا من أني صغتُ جملًا مترابطة.

«لماذا لم تتصلي بي؟ إذا كان مريضًا عليك أن تتصلي بي في الحال أو بالسَّيد ترينر».

كما لو أن مشابكي العصبية نترت معًا فجأة. السَّيد ترينر. أوه يا رب. رمقت السَّاعة وكانت تشير إلى الثامنة إلّا ربعًا.

«لم أفعل، نايثن بدا أنه...».

«انظري لويزا هو ليس علم الصواريخ. إذا كان ويل مريضًا بما يستوجب أن تنامي في غرفته، إذًا هذا شيء يجب أن تتّصلي وتعلميني به...».

«نعم».

أطرقت محدّقة بالأرض.

«لا أفهم لماذا لم تتصلي. هل حاولت الاتصال بالسَّيد ترينر؟».

قال نايثن ألّا أقول شيئًا.

«أنا...».

في تلك اللحظة انفتح باب الملحق ووقف السَّيد ترينر يتأبّط صحيفة.

قال لزوجته وهو ينفض ندف الثَّلج عن كتفيه: «لقد عدتِ! لقد شققت طريقي لأحصل على صحيفة وبعض الحليب، الطرقات مخادعة قطعًا، كان عليَّ اجتياز مسافة طويلة حتى هانسفورد كورنر لأتجاوز برك المياه المتجمِّدة».

نظرت إليه، وتساءلت للحظة ما إذا كانت تلاحظ أنه كان يرتدي نفس القميص والسترة اللتين كان يرتديهما في اليوم السَّابق.

«هل تعلم أن ويل كان مريضًا في الليل؟».

نظر نحوي مباشرة، رميت بنظرتي على قدميّ. لم أكن واثقة بأني شعرت يومًا بانزعاج أكثر من هذا.

«هل حاولت الاتصال بي لويزا؟ أنا آسف لم أسمع شيئًا. أشك أن الهاتف البيني لا يعمل كما يجب. فوَّته مؤخرًا عدة مرات ولم أكن أشعر بأني جيد شخصيًا الليلة الماضية. غرقت في نوم عميق».

كنت لا أزال أرتدي جوارب ويل. حدّقت بهما متسائلة إذا كانت السَّيدة ترينر سوف تنتقدني من أجل ذلك أيضًا. لكنها بدت شاردة.

«كانت رحلة طويلة إلى البيت. تابعي عملك الآن. لكن إذا حدث شيء مثل هذا ثانية اتصلي بي في الحال، هل تفهمين؟».

لم أرغب بالنظر إلى السَّيدة ترينر قلت: «نعم»، واختفيت في المطبخ.

7

جاء الرَّبيع بين عشية وضحاها. كما لو أن الشِّتاء، مثل زائر غير مرغوب فيه، ارتدى معطفه على حين غرة واختفى من دون أن يقول وداعًا. اخضرَّ كلُّ شيء، غمر ضوء الشَّمس الخفيف الطُّرقات، وسكن الهواء فجأة. كانت هناك لمحات من شيء ما زهريّ اللون ومرحَّب به في الهواء. كان تغريد الطُّيور خلفية لطيفة للنهار.

لم ألاحظ أيًا من هذا. كنت قد أقمت في منزل باتريك منذ مساء اليوم السَّابق. كانت المرة الأولى التي رأيته فيها منذ أسبوع تقريبًا بسبب جدول تدريبه المعزَّز، لكنه أمضى أربعين دقيقة في الحمَّام مع نصف عبوة من ملح الاستحمام، كان منهكًا للغاية وبالكاد استطاع التّحدث إليّ. كنت قد بدأت ألاطف ظهره، في محاولة نادرة للإغواء، وتمتم بأنه حقًا متعب للغاية، ينقف بيده كما لو أنه يضربني ليبعدني. كنت لا أزال مستيقظة وأحدِّق في السَّقف باستياء أربع ساعات أخرى.

باتريك وأنا التقينا عندما كنت في العمل الآخر الوحيد الذي قمت به أبدًا، كنت تحت التَّمرين في «الكاتينغ إدج»، صالون الحلاقة الوحيد لكلا الجنسين في هيلزبيري. دخل بينما كانت سامنثا المالكة منشغلة تنادي على الرقم أربعة. قصصت له شعره قصّة وصفها في ما بعد على أنها ليست فقط أسوأ تسريحة حصل عليها في حياته بل أسوأ تسريحة في

تاريخ الجنس البشري. بعد ثلاثة أشهر، مدركة أن حب العبث بشعري لم يكن يعني بالضرورة أني مهيأة لأعبث بشعر أي شخص آخر، تركت وحصلت على العمل في مقهى فرانك.

عندما بدأنا الخروج، كان باتريك يعمل في المبيعات وكانت أشياؤه المفضلة على التوالي: البيرة، ألواح الحلوى من محطة الوقود، التَّحدث عن الرياضة، والجنس (ممارسته وليس التَّحدث عنه)، وقد نكون محظوظين لو اشتملت ليلتنا عليها جميعًا. كان عادي الشَّكل أكثر من كونه وسيمًا، وعجيزته كانت أسمن من عجيزتي لكني أحببتها. أحببت صلابته، والطريقة التي يشعر بها عندما ألفُّ نفسي من حوله. كان والده ميتًا وأحببت طريقته في التعامل مع أمه، حمائية وجزعة.

وإخوته وأخواته الأربعة كانوا مثل آل والتون. لقد بدوا حقًا أنهم يعجب واحدهم بالآخر. المرة الأولى التي خرجنا فيها في موعد، قال صوت صغير في رأسي: هذا الرجل سوف لن يؤذيك يومًا، ولم يفعل شيئًا خلال سبع سنوات منذ ذلك الحين ليجعلني أشك بذلك. ثم تحوَّل إلى رجل ماراثون.

معدة باتريك لم تعد تتجاوب عندما كنت أحتضنه، كانت قاسية، شيئًا قاسيَ القلب مثل صِوان السُّبفرة، وكان ينبطح ويرفع قميصه ويضربها بأشياء ليتثبّت من قسوتها تمامًا. كان وجهه منبسطًا لفحته الشَّمس لأنه كان يمضي وقته في الخارج بشكل دائم. كان فخذاه مفتولي العضلات. هذا كان مثيرًا بحدِّ ذاته، لو أراد حقًا ممارسة الجنس. لكننا كنا نفعل مرتين في الشَّهر تقريبًا، ولم يكن من طبيعتي أن أطلب.

بدا كما لو أنه كلما ازداد جسده لياقة كلما زاد هوسه بمظهره وقلَّ اهتمامه بشكلي. سألته عدة مرات إن كان قد كف عن الإعجاب بي. لكن ذلك بدا واضحًا تمامًا.

كان يقول: «أنت رائعة، أنا مشتَّت فقط بأيِّ حال، لا أريدك أن تخففي

وزنك. الفتيات في النادي لا يمكنكِ أن تميّزي واحدة تمتلك نهدين لائقين من بينهنّ جميعًا».

أردت أن اسأل كيف توصَّل إلى حلٍّ هذه المعادلة المعقّدة بدقة، لكن جوهريًّا كان لطفًا منه أن يقول ذلك لذا اكتفيت بالصَّمت.

أردت أن أكون مهتمة بما قام به، وحقًّا كنت كذلك. ذهبت إلى ليالي نادي ترياثلون، وحاولت أن أتحدَّث مع فتيات أخريات. لكن سرعان ما أدركت أني وحيدة - لم تكن هناك صديقات مثلي، كان جميع من في النادي بمفردهم، أو منخرطين مع شخص مؤثّر على نحو مساو جسديًّا. تدافع الأزواج في التدريبات، خطّطوا لعطلات نهاية الأسبوع في سراويل قصيرة من السبانديكس، وحملوا صور بعضهم بعضًا في محافظهم وهم ينهون سباقات ترياثلون يدًا بيد، أو يقارنون الأوسمة باعتداد كان لا يوصف.

لم أكن مهووسة بالجنس - ففي النهايةكان قد مضى وقت طويل على علاقتنا. إلّا أن جزءًا جامحًا مني كان قد بدأ يشكّك في جاذبيتي.

لم يعترض باتريك يومًا على ارتدائي الملابس بطريقة خلّاقة على حدِّ قوله. لكن ماذا لو لم يكن صادقًا كلّيًّا؟ عمل باتريك، حياته الاجتماعية برمتها، تدور الآن حول التَّحكم باللحم - ترويضه، التَّقليل منه، شحذه. ماذا لو بدت مؤخرتي فجأة معيبة وتلك الأفخاذ بمؤخّراتها الصغيرة تواجهه؟ ماذا لو أن منحنياتي التي ظننت أنها مثيرة وممتعة بدت الآن لينة لعينيه المتطلّبتين؟

تلك كانت الأفكار التي لا تزال تدندن في رأسي من غير ترتيب عندما دخلت السَّيدة ترينر وأمرتني تقريبًا وويل بالخروج.

«لقد طلبت من عاملات التنظيف المجيء للقيام بتنظيف شامل، لذا فكرت أنكما قد تستمتعان بالطَّقس اللطيف أثناء تواجدهنَّ هنا».

تلقَّفت عينا ويل عينيَّ ورفع حاجبيه قليلًا.

«هذا ليس طلبًا؟ هل هو كذلك أمي؟».

قالت: «أنا فقط أفكّر أنه قد يكون حسنًا أن تستنشق بعض الهواء، السُّلَّم في مكانه. لويزا ربما قد تأخذين بعض الشَّاي معكما؟».

لم يكن اقتراحًا سيّئاً. فالحديقة جميلة. وكان كما لو أن كل شيء، مع ارتفاع طفيف في درجات الحرارة، قرر فجأة أن يبدو أكثر خضرة بقليل. كأنَّ النرجس البرّي انبثق من اللامكان، تُبشِّر أبصاله المصفرّة بالزهور القادمة. انبثقت براعم من الأغصان البنيَّة، شقَّت نباتات معمّرة طريقًا استهلاليًا عبر التربة القاتمة الخشنة.

فُتحت الأبواب وخرجنا، يعمل ويل على إبقاء كرسيه على الدَّرب الحجري، أومأ نحو دكَّة حديدية عليها وسادة، وجلست هناك لبعض الوقت، نتطلّع نحو الشَّمس الضعيفة، ونصغي إلى عصافير الدوري التي كانت تشغب في سياج الأشجار.

«ما خطبك؟».

«ماذا تعني؟».

«أنت هادئة».

«قلت إنك تريدني أن أكون هادئة».

«ليس إلى هذه الدرجة. إنه هدوء يفزعني».

قلت: «أنا بخير». وأردفت: «إنه صديقي، إذا أردت حقًّا أن تعرف».

قال: «آه، العدَّاء».

فتحت عيني فقط لأرى إذا كان يسخر مني.

قال: «ما المسألة؟ هيا، أخبري العم ويل».

«لا».

«سوف تأتي أمي بعاملات التنظيف ليركضن كالمجانين هنا مدة ساعة أخرى على الأقل. لا بد أن تتحدّثي عن شيء ما».

دفعت نفسي للأعلى، والتفتّ لأواجهه. كان كرسي منزله يحتوي على زر للتحكم يرفع مقعده فيمكن أن يخاطب الناس وهو يعلوهم مسافة رأس. لم يستعمله غالبًا، لأنه يشعر بالدوار بسببه أحيانًا، لكن كان يعمل الآن. فعليًّا كان عليَّ أن أرفع رأسي لأكلمه. جذبت معطفي من حولي وشزرت نحوه.

«هيا، إذًا ماذا تريد أن تعرف؟».

قال: «منذ متى وأنتما معًا؟».

«منذ ست سنوات ونيِّف».

بدا متفاجئًا: «هذا وقت طويل».

قلت: «نعم، هو كذلك».

انحنيت وسوَّيت بساطًا أمامه. كانت الشَّمس مخادعة، وعدَت بأكثر مما استطاعت أن ترسله من دفء.

«ماذا يفعل؟».

«يعمل مدرّبًا شخصيًّا».

« ثم يعدو».

« ثم يعدو».

« كيف تصفينه؟ بثلاث كلمات، إذا كان هذا لا يضايقك».

فكَّرت في الأمر.

«إيجابي، مخلص، مهووس بنسبة الدهن في الجسم».

«هذه سبع كلمات».

«إذًا حصلت على أربع مجانًا. كيف كانت تبدو؟».

«من؟».

«أليسيا؟»، تطلّعت فيه كما تطلّع نحوي. أخذ نفسًا عميقًا وحدَّق عاليًا

نحو شجرة دلب سامقة. تساقط شعره على عينيه وقاومت الرغبة في أن أزيحه جانبًا.

«جميلة. مثيرة. متطلِّبة عاطفيًا. قلقة بشكل مذهل».

«ماذا لديها لتقلق بشأنه؟». خرجت الكلمات من فمي قبل أن أتمكَّن من منع نفسي.

بدا مستمتعًا غالبًا.

قال: «سوف تتفاجئين، الفتيات مثل ليسيا يستثمرن مظهرهن طويلًا لأنهن يعتقدنَ بأنهن لا يملكن شيئًا آخر. في الواقع، أنا لست منصفًا. هي جيدة في أمور. أمور -الثياب، التصميم الداخلي. تستطيع أن تجمِّل الأشياء».

قاومت الرغبة في قول إن أي شخص يمكنه أن يجعل الأشياء جميلة إذا كان يملك محفظة عميقة عمق منجم ألماس.

«يمكنها أن تنقل بعض أشياء في غرفة فتبدو مختلفة تمامًا. لم أعرف يومًا كيف تفعل ذلك». أومأ نحو المنزل وقال: «لقد رتبَتْ هذا الملحق عندما انتقلت إليه».

وجدت نفسي أستعرض غرفة الجلوس المصمَّمة بإتقان. أدركت أن إعجابي بتصميم الغرفة قد صار فجأة أقل مما سبق.

« كم بقيت معها؟».

«من ثمانية إلى تسعة أشهر».

«ليست مدة طويلة».

«طويلة بالنسبة إليّ».

« كيف التقيتما؟».

«في حفل عشاء. حفل عشاء رهيب حقًا. وأنتِ؟».

«عند مصففة الشَّعر. كنت أنا المصفّفة وكان زبوني».

«ها. كنت شيئه الإضافي لعطلة آخر الأسبوع».

لا بد أن وجهي بدا خاليًا من التعبير لأنه هزَّ رأسه وقال بلين: «لا يهمّ».

سمعنا من الداخل دندنة المكنسة الكهربائية الكتيمة. كان هناك أربع نساء من شركة التنظيف، جميعهن ترتدين أثوابًا متماثلة. تساءلت ما الذي قد يجدنه للتنظيف مدة ساعتين في الملحق الصغير.

«هل تفتقدها؟».

بدا ويل أنه يراقب شيئًا في البعيد: «كنت أفتقدها». ثم التفت نحوي وأردف بصوت جامد: «لكني كنت أفكّر في الأمر، وارتأيت أنها وروبرت متكافئان».

أومأت قائلة: «سيكون زواجهما سخيفًا، ينجم عنه طفل أو طفلان، يشتريان منزلًا في الريف، ثم سوف يطارد سكرتيرته خلال خمس سنوات».

«ربما أنتِ على حق».

كنت أتحمّس لموضوع الحديث الآن: «وهي سوف تكون غاضبة منه قليلًا طوال الوقت من دون أن تعرف السَّبب حقًا، وتتذمّر منه في حفلات عشاء رهيبة ما يتسبب بالإحراج لأصدقائهما، وهو لن يرغب بأن يتركها لأنه سيكون خائفًا من النَّفقة».

التفت ويل ناظرًا نحوي.

«وسوف يمارسان الجنس مرة كل ستة أسابيع، وسوف يعشق أطفاله وهو لا يفعل شيئًا بالتأكيد للمساعدة في العناية بهم. وسيكون شعرها مثاليًا لكن وجهها سوف يكون شاحبًا» - ضيَّقت فمي: «وتقول ما لا تعنيه حقًّا، وتبدأ اتباع نظام تمارين رياضية مجنون، أو ربما تشتري كلبًا، أو حصانًا، وتحلم بمدرّبها على امتطاء الخيل أحلام يقظة. وهو سوف يهرول عندما يبلغ الأربعين، وربما يشتري دراجة نارية من نوع هارلي ديفيدسُن، وهي سوف تحتقرها، وكل يوم

سيذهب إلى العمل وينظر إلى جميع الشبان في مكتبه ويصغي في الحانات إلى من كان محظوظًا في عطلة نهاية الأسبوع، أو إلى أين ذهبوا لحضور حفل، ويشعر بطريقة ما - ولن يكون واثقًا تمامًا - بأنه خُدع».

التفتّ نحوه. كان ويل يحدّق بي.

قلت بعد لحظة: «آسفة، لا أعرف حقًّا من أين أتى هذا».

«بدأت أشعر ببعض الأسف على الرجل العدّاء».

قلت: «أوه ليس هو، بل العمل في مقهى لسنوات. ترى وتسمع كل شيء. تفاصيل من سلوك الناس، سوف تصاب بالذهول مما يجري».

«ولهذا السبب لم تتزوجا إلى الآن؟».

طرفت: «أفترض ذلك».

لم أرغب في القول إنه لم يطلب مني ذلك أبدًا.

***

قد يبدو كما لو أننا لم نفعل الكثير. لكن في الحقيقة كانت الأيام مع ويل مختلفة على نحو طفيف - بالاعتماد على مزاجه، وأكثر على مدى شعوره بالألم. بعض الأيام كنت أصل وأعرف من شكل فكّه أنه لا يريد أن يتكلّم معي - أو مع أي شخص آخر - وبالنظر إلى هذا، أشغل نفسي في الملحق، أحاول أن أتوقّع حاجاته فلا أكلّفه عناء الطلب.

كثير من الأشياء كانت تسبب له الألم. كان هناك الوجع العام الذي ينجم عن تلف العضلات، وأمور أخرى تستحوذ عليه بدرجة أقل، رغم ما بذله نايثن من جهد كبير في العلاج الفيزيائي. كان هناك ألم المعدة النّاجم عن مشكلات هضمية، وألم الكتف، وألم ناجم عن التهابات في المثانة، حتمي على ما يبدو على الرغم من جهود الجميع. كان يعاني من قرحة في المعدة بسبب تناول الكثير من المسكّنات في المراحل الأولى من تعافيه عندما كان يبتلعها كما يبتلع حبوب تيك تاك.

أحيانًا، كانت هناك تقرُّحات ناتجة عن جلوسه في الوضعية نفسها لوقت طويل جدًّا. لازم ويل الفراش مرتين حتى شفائها، لكنه كره أن يكون منبطحًا. كان يستلقي مصغيًا إلى المذياع، تلمع عيناه بغضب مكبوح بالكاد. وكان يعاني أيضًا من الصُّداع كأثر جانبي كما أعتقد لشعوره بالغضب والخيبة. كان لديه الكثير من الطَّاقة العقلية التي لا يجد سبيلًا لتفريغها، كان عليها أن تقيم في مكان ما.

لكن ما كان يوهنه أكثر هو إحساس قاسٍ ونابضٍ بالحرقة في يديه وقدميه، كان يمنعه من التَّركيز على أي شيء آخر. كنت أحضر قدرًا يحتوي على ماء بارد وأنقعها أو ألفّها بقماش بارد على أمل أن أريحه من ضيقه. وبين الحين والآخر تخفق عضلة رفيعة في فكه فيبدو أنه يغيب، كما لو أن السَّبيل الوحيد لكي يحتمل مثل هذا الألم هو أن يغيب عن جسده.

أصبحت بغتة معتادة على المتطلّبات البدنية لحياة ويل. بدا غير منصف كون أطرافه تسبّب له الكثير من الإزعاج على الرغم من أنه لا يستطيع استعمالها أو الشعور بها.

لم يشتكِ ويل على الرغم من هذا كلِّه. لهذا السَّبب استغرقت أسابيع لألاحظ أنه يعاني. الآن أستطيع تفسير النَّظرة المتوتِّرة في عينيه، والصَّمت، وكيف ينكفئ إلى داخل جلده. كان يسأل ببساطة: «لويزا، هل يمكنك أن تجلبي ماءً باردًا؟»، أو «أظن أنه حان وقت تناول بعض المسكِّنات». كان يعاني أحيانًا من ألم شديد حتى إن وجهه يتبدّل لونه ويشحب، تلك كانت أسوأ الأيام.

لكن في أيام أخرى احتملنا بعضنا بعضًا على نحو ممتاز. هو لم يبدُ مهانًا على نحو قاتل إذا ما تحدّثت إليه، كما كان في البداية. بدا اليوم أنه خالٍ من الألم. عندما خرجت السَّيدة ترينر لتخبرنا أن على عاملات التنظيف البقاء عشرين دقيقة إضافية. صنعتُ لكلٍّ منَّا شرابًا آخر وتمشَّينا على مهل حول الحديقة. يركِّز ويل انتباهه على الدَّرب وأنا أراقب حذائي المصنوع من قماش السَّاتان يغمق لونه في العشب النَّديّ.

قال ويل: «خيار مثير للاهتمام بالنِّسبة لحذاء».

كان حذاءً أخضر زمرّدي اللون. وجدته في متجر لبيع الأشياء المستعملة. قال باتريك إنه يجعلني أبدو مثل جنّية خبيثة.

«هل تعلمين، لا تبدو ثيابك كما لو أنها ثياب شخص من هنا. أنا حقًا أتطلع لأرى بأي توليفة مخبولة ستظهرين لاحقًا».

«إذًا كيف لملابس شخص من هنا أن تكون؟».

استدار إلى اليسار قليلًا ليتفادى غصنًا على الدَّرب.

«معاطف صوفيَّة. أو، لو كنت من جماعة أمي، شيء من متجرَيْ ياغِر أو ويستلز». نظر نحوي. «إذًا من أين أتيت بهذا الذَّوق الغريب؟ أين عشتِ سوى هنا؟».

«لم أفعل».

«ماذا! فقط عشتِ هنا؟».

«فقط هنا». التفتّ ونظرت نحوه مصالبة ذراعي على صدري على نحو دفاعي. «إذًا؟ ما الغريب في ذلك؟».

«إنها بلدة صغيرة. محدودة للغاية. وكل شيء يدور حول القلعة».

توقَّفنا وحدَّقنا بها، ترتفع في البعيد على تلتها الغريبة الشَّبيهة بالقبة مثالية كما لو أنها مرسومة من قبل طفل.

«أنا أفكر دومًا بأن هذا من الأمكنة التي يعود إليها الناس عندما يضجرون من كل شيء، أو عندما لا يكون لديهم الخيال الكافي للذهاب إلى أي مكان آخر».

«شكرًا».

«لا شيء خاطئ في حدِّ ذاته. لكن... يا إلهي. هو ليس مؤثّرًا تمامًا، هل هو كذلك؟ ليس مليئًا بالأفكار أو بالناس المثيرين للاهتمام أو بالفرص بالضبط. هنا يظنونه عملًا تخريبيًا لو بدأ متجر السُّياح يبيع حصرًا صغيرة

مع منظر مختلف لمصغَّر سكّة الحديد».

لم يسعني إلّا أن أضحك. كانت هناك مقالة في صحيفة محلية الأسبوع الماضي تتحدّث عن الموضوع نفسه بالضبط.

«أنت في السَّادسة والعشرين من عمرك يا كلارك. عليك أن تكوني في الخارج، أن تدَّعي أن العالم ملكك، تتورطي في مشكلات في البارات، وتتفاخري بملابسك الغريبة للرجال المحتالين...».

قلت: «أنا سعيدة هنا».

«حسنًا ليس عليك أن تكوني».

«أنت تحب أن تقول للناس ماذا عليهم أن يفعلوا، ألست كذلك؟».

قال: «فقط عندما أعرف أني على حق، هل يمكنك أن تسوِّي شرابي؟ لا أستطيع الوصول إليه».

ثنيت المصاصة لكي يتمكن من الوصول إليها بسهولة أكبر، وانتظرت وهو يتناول الشَّراب. البرد الخفيف منح أطراف أذنيه لونًا زهريًا.

كشّر قائلًا: «يا إلهي، بالنسبة إلى فتاة تحضِّر الشَّاي لتكسب قوت يومها، لقد حضّرتِ كوبًا رهيبًا».

قلت: «أنت معتاد على الشاي المنكّه، كل تلك الأمور التي لها علاقة بالشَّاي الأسود».

«الشاي المنكَّه!». انصدم تقريبًا. «حسنًا إنه أفضل من طلاء السَّلالم هذا. يا إلهي. يمكنك أن توقفي ملعقة في هذا الشاي».

«إذًا حتى الشاي الذي أحضِّره ليس جيدًا». جلست على المقعد أمامه.» كم هو حسن بالنسبة لك أن تقدم رأيًا في كل ما أقوله أو أفعله، ومع ذلك ما من أحد عليه أن يقول شيئًا على الإطلاق؟».

«هيا إذًا لويزا كلارك، قدِّمي لي آراءك».

«عنك؟».

تنهد تنهيدة متكلَّفة: «هل أملك الخيار؟».

«يمكنك أن تقصَّ شعرك. إنه يجعلك تبدو مثل المتشرّدين».

«الآن أنت تبدين مثل أمي».

«حسنًا أنت تبدو مريعًا للغاية، يمكنك أن تحلق على الأقل. ألا يصيبك شعر الوجه هذا كله بالحكّة؟». نظر إليَّ جانبيًا. «نعم أليس كذلك؟ أعرف. حسنًا - هذا الأصيل سوف أحلقه كله».

«أوه لا».

«نعم. أنت طلبت رأيي. هذا جوابي. ليس عليك أن تفعل شيئًا».

«ماذا لو قلت لا؟».

«عليَّ أن أفعل بكل الأحوال. إذا طال الأمر أكثر سوف يتوجب عليَّ أن ألتقط بعضًا من طعامك عنه، وبصراحة إذا حدث ذلك سيكون عليَّ أن أقاضيك على الإزعاج المفرط في مكان العمل».

ابتسم حينها كما لو أني سلَّيته، ربما بدا حزينًا قليلًا، لكن ابتسامات ويل كانت شديدة النُّدرة، حتى إن ابتسامة محفِّزة جعلتني أشعر بأني دائخة من شدة الفخر.

قال: «هنا، كلارك، هل تسدي لي خدمة؟».

«ماذا؟».

«حكِّي لي أذني، هلا فعلتِ؟ إنها تقودني إلى الجنون».

«لو فعلت هل ستسمح لي بأن أقص شعرك، فقط أرتبه قليلًا؟».

«لا تجازفي».

«صَه. لا تثر أعصابي. أنا لا أجيد استخدام الشَّفرات كثيرًا».

***

وجدت الشَّفرات وقليل من رغوة الحلاقة في خزانة الحمَّام، مخفيَّة

خلف صرر المناشف والقطن الطبي، كما لو أنهم لم يستخدموها منذ بعض الوقت. أدخلته الحمَّام، ملأت المغسلة بالماء الفاتر، وطلبت منه أن يميل مسند رأسه إلى الخلف قليلًا ثم وضعت منشفة حارة على ذقنه.

«ما هذا؟ هل هو صالون حلاقة؟ ما الحاجة إلى المنشفة؟».

اعترفت: «لا أعرف. هذا ما يفعلونه في الأفلام. إنها مثل الماء الحار والمناشف عند الولادة».

لم أرَ فمه، لكنّ عينيه تغضَّنتا بمرح خفيف. أردت أن أبقيهما هكذا. أردته أن يكون سعيدًا - أن يفقد وجهه تلك النظرة المسكونة المتيقِّظة. ثرثرت، رويت النُكات، بدأت أدندن بأي شيء لأطيل اللحظة قبل أن يعود كئيبًا ثانية.

ثنيت أكمامي وبدأت أرغي رغوة الحلاقة على ذقنه، حتى أذنيه. ثم مرّرت الشَّفرة على ذقنه.

«هل هذه هي اللحظة المناسبة لأقول لك بأني لم أحلق من قبل سوى ساقيّ؟».

أغمض عينيه، واستند إلى الوراء. بدأت أكشط بلطف بشرته بالشَّفرة، لم يكسر الصَّمت سوى صوت الرَّذاذ عندما كنت أغسل الشَّفرة في إناء الماء. عملت في صمت، أتفحَّص وجه ويل ترينر وأنا أعمل، التغضّنات التي امتدت نحو زاويتي فمه، بدت متعمّقة قبل الأوان نسبة إلى عمره. أزحت شعره عن جانب وجهه ورأيت آثار الغرز، ربما من الحادث. رأيت الظلال البنفسجية الفاتحة اللون التي حكت عن ليالٍ من الأرق، الثّلم في منتصف جبهته الذي تحدَّث عن ألم صامت.

انبعثت عذوبة دافئة من جلده، رائحة كريم الحلاقة، وشيء كان مميزًا لويل ذاته. بدأ وجهه ينبثق ورأيت كم كان من السهل عليه أن يجذب أي شخص مثل أليسيا. عملت ببطء وبحذر، متشجعة بحقيقة أنه بدا في سلام جزئي.

فكرت أن أحدًا لم يمسَّ ويل إلّا بداعٍ طبي أو لعملية علاجية، وهكذا تركت أصابعي تستريح بخفةً على بشرته. أحاول قدر الإمكان أن تكون حركاتي بعيدة عن الرَّشاقة المجرّدة من الإنسانية التي ميّزت تعامل نايثن والطَّبيب معه.

كانت هذه الحلاقة لويل شيئًا أليفًا على نحو غريب. أدركت وأنا أواصل العمل أني تصوَّرت أن كرسيه سيكون عائقًا، وأن إعاقته ستمنع الشعور بأي نوع من الإثارة. على نحو غريب، لم تجرِ الأمور على هذا الشكل. كان مستحيلًا أن تكون قريبًا من شخص إلى هذه الدرجة، وأن تحس ببشرته تشتدُّ تحت أطراف أصابعك، وأن تتنفس الهواء الذي يزفره، وأن يكون وجهك على مسافة قريبة من وجهه، من دون أن تشعر بأنك تفقد بعض التوازن. مع وصولي إلى أذنه كنت قد بدأت أشعر بالارتباك، كما لو أني تجاوزت حدًّا غير مرئي.

ربما كان ويل قادرًا على قراءة التغيُّرات الدقيقة في ضغطي على جلده، ربما كان أكثر اعتيادًا على أمزجة الناس من حوله. لكنه فتح عينيه، ووجدتهما تنظران في عينيّ.

كانت هناك وقفة قصيرة، ثم قال بوجه جامد: «من فضلك لا تقولي لي بأنك حلقت حواجبي».

قلت: «فقط واحدًا». غسلت الشَّفرة، على أمل أن يكون اللون قد انسحب من خدي عند استدارتي.

قلت أخيرًا: «صحيح، هل اكتفيت؟ ألن يأتي نايثن بعد قليل؟».

قال: «ماذا عن شعري؟».

«هل تريد حقًا أن أقصه؟».

«يمكنك ذلك أيضًا».

«ظننت أنك لا تثق بي».

هزَّ كتفيه قدر استطاعته. كانت حركة ضئيلة للغاية من كتفيه.

«إذا كان هذا سيمنعك من التأوّه في حضرتي لأسبوعين، أكتشف أنه ثمن بخس أسدده».

قلت وأنا أمسح كتلة صغيرة رطبة من كريم الحلاقة: «أوه يا إلهي أمك سوف تبتهج».

«نعم، حسنًا، لن ندع ذلك يوقفنا».

***

دخلنا غرفة الجلوس. أوقدت النَّار ووضعنا فيلمًا - فيلم إثارة أميركي - ووضعت منشفة حول كتفيه. كنت قد حذَّرت ويل من أني لست خبيرة كثيرًا، لكني أضفت أن الأمر لا يمكن أن أكون أسوأ من السابق.

قال: «شكرًا لك على ذلك».

شرعت في العمل، ينزلق شعره عبر أصابعي، أحاول أن أتذكر المبادئ الأساسية القليلة التي تعلمتها، وأنا أشاهد الفيلم، بدا مسترخيًا ومسرورًا تقريبًا. بين الحين والآخر حدثني بشيء عن الفيلم - عن أي فيلم آخر شارك الممثل في بطولته وأين رآه لأول مرة - وأثرت ضجة أصطنع الاهتمام (كما أفعل مع توماس عندما يريني ألعابه)، مع ذلك كان كل انتباهي مركّزًا فعليًا على ألا أفسد شعره. أخيرًا، قصصت أسوأ جزء منه ووقفت أمامه لأرى كيف بدا.

«حسنًا؟». أوقف ويل الفيلم.

استقمت قائلة: «أنا لست واثقة من أني أحب أن أرى هذا القدر من وجهك. إنه يقطع نياط القلب بعض الشيء».

قال وهو يحرك رأسه من اليسار إلى اليمين كأنه يجرب شعوره به: «ملمسه بارد».

قلت: «انتظر، سأجلب مرآتين. حينها يمكنك أن ترى على نحو ملائم.

لكن لا تتحرك. لا يزال هناك بعض الترتيب لينتهي، ربما أُذن يجب قطعها».

كنت في غرفة النَّوم أبحث في الجوارير عن مرآة صغيرة عندما سمعت صوت الباب. وقع خطوات مستعجلة لشخصين، صوت السَّيدة ترينر مرتفع وقلق.

«جورجينا، أرجوك لا تفعلي».

كان باب غرفة الجلوس مواربًا. تناولت المرآة وخرجت من الغرفة. لم تكن لدي النيّة في آن يجدوني غائبة ثانية. كانت السَّيدة ترينر واقفة في عتبة غرفة الجلوس، يداها مرفوعتان إلى فمها، تشهد في ما يبدو مواجهة غير مرئية.

«أنت أكثر الرجال الذين التقيتهم في حياتي أنانية!». كانت امرأة شابة تصرخ.»لا يمكنني تصديق هذا ويل، كنت أنانيًّا، وأنت أسوأ الآن».

«جورجينا». ومضت تحديقة السَّيدة ترينر نحوي عندما اقتربت: «من فضلك، توقَّفي».

دخلت الغرفة خلفها. كان ويل، المنشفة حول كتفيه وخصل من الشَّعر البني النَّاعم عند عجلات الكرسي، يواجه امرأة شابة. كان شعرها طويلًا داكنًا مثبّتًا في كعكة مشعثة خلف رأسها. كان جلدها مسفوعًا وترتدي بنطال جينز معتَّق بغلوّ وجزمة من الجلد. مثل أليسيا، كانت قسماتها جميلة ومتناسقة، أسنانها ناصعة البياض مثل اللواتي يظهرنَ في إعلانات معجون الأسنان. عرفت ذلك لأن وجهها محمرّ من شدة الغضب، كانت لا تزال تقول له: «لا يمكنني التصديق. لا يمكنني أن أصدق أن تفكر بذلك. ماذا..».

ارتفع صوت السَّيدة ترينر بحدَّة: «من فضلك جورجينا. هذا الوقت ليس مناسبًا».

كان ويل يحدِّق جامد الوجه باستقامة نحو نقطة غير منظورة.

قلت بهدوء: «ويل؟ هل تحتاج إلى مساعدة؟».

قالت الشَّابة وهي تلتفت فجأة: «من أنت؟». حينها رأيت أن عينيها كانتا مغرورقتين.

قال ويل: «جورجينا. هذه لويزا كلارك مرافقتي ومصفِّفة الشعر المبدعة المروِّعة. لويزا هذه أختي جورجينا. يبدو أنها جاءت من أستراليا لتصرخ في وجهي».

قالت جورجينا: «لا تكن سطحيًّا، أمي أخبرتني، لقد أخبرتني كل شيء».

لم يتحرّك أحد.

قلت: «هل أمنحكم دقيقة؟».

«تلك ستكون فكرة جيّدة». كانت أصابع السَّيدة ترينر بيضاء على مسند الأريكة.

انسللت من الغرفة.

«في الواقع لويزا، ربما سيكون مناسبًا الآن أن تأخذي استراحة الغداء».

كان من الواضح أنه سيكون واحدًا من تلك الأيام التي أتناول فيها طعامي عند موقف الحافلة. تلقَّفت شطائري من المطبخ، وارتديت معطفي واتجهت خارجة.

وأنا أغادر سمعت صوت جورجينا ترينر يرتفع داخل المنزل.

«هل سبق أن خطر لك ويل، صدِّق أو لا تصدق، أن هذا قد لا يكون فقط متعلّقًا بك؟».

* * *

عندما عدت بعد نصف ساعة بالضَّبط كان المنزل صامتًا. كان نايثن يغسل كوبًا في المطبخ.

التفت عندما رآني: «كيف حالك؟».

«هل ذهبَتْ؟».

«من؟».

«الأخت؟».

نظر خلفه وقال: «آه. هل كانت أخته؟ نعم رحلت. كانت تركب سيارتها عندما وصلت إلى هنا. هل كانت مشاجرة عائلية؟».

قلت: «لا أعرف، كنت أقصُّ شعر ويل ودخلت هذه المرأة وبدأت تهدّده. تصوّرت أنها صديقة أخرى».

هزَّ نايثن كتفيه.

أدركت أنه لن يهتم بتفاصيل حياة ويل الشَّخصية حتى لو كان يعلم.

«إنه هادئ بعض الشَّيء مع ذلك. بالمناسبة تلك الحلاقة عمل جيّد. جيّد أنك أخرجته من خلف كل تلك الشُّجيرات».

عدت إلى غرفة الجلوس. كان ويل جالسًا يحدِّق في الشاشة التي كانت لا تزال متوقفة عند اللحظة التي تركته فيها.

قلت: «هل تريد أن أعيد تشغيله؟».

لم يبدُ عليه أنه سمعني لمدة دقيقة. كان رأسه غارقًا في كتفيه، التعبير المسترخي السَّابق استبدل بحجاب. كان ويل مستغلقًا ثانية، محبوسًا خلف شيء لم أتمكن من سبره. طرف بعينيه كما لو أنه لاحظني الآن.

قال: «بالتأكيد».

***

كنت أحمل سلَّة غسيل في الرُّدهة عندما سمعتهم. كان باب الملحق مواربًا قليلًا وأصوات السَّيدة ترينر وابنتها تُسمع على طول الممر، كان الصوت قادمًا في موجات مكتومة. كانت شقيقة ويل تنشج بهدوء، وقد ذهب كل حنق من صوتها الآن، بدت شبيهة بالأطفال تقريبًا.

«لا بد أن يكون هناك شيء يمكننا فعله. ثمة تطوُّر طبي. ألا يمكنك أن تأخذيه إلى أميركا؟ الأمور دومًا متطورة في أميركا».

«يتابع والدك دومًا جميع التطورات. لكن لا، عزيزتي لا يوجد شيء ملموس».

«إنه مختلف كثيرًا الآن. كما لو أنه مصمّم ألّا يرى الخير في أي شيء».

«هذا حاله منذ البداية جورجي. أظن فقط أنك لم تريه منفردًا منذ أن غادرت المنزل. آنذاك أظن أنه كان لا يزال مصمّمًا. كان واثقًا من أن شيئًا قد يتغير».

شعرت ببعض الانزعاج وأنا أسمع محادثة شخصية. لكن الفحوى الغريب للحديث جعلني أقترب أكثر. وجدت نفسي أسير بهدوء نحو الباب. قدماي المجوربتان لم تصدرا صوتًا على الأرض.

«انظري، والدك وأنا لم نخبرك، لم نرغب في إزعاجك. لكنه حاول..».

كافحت مع الكلمات: «ويل حاول أن... حاول قتل نفسه».

«ماذا؟».

«وجده والدك. في شهر كانون الأول. كان... كان رهيبًا».

مع أن هذا أكّد ما كنت قد خمنته، شعرت بأن دمي كله نزف مني. سمعت بكاءً مكتومًا، طمأنةً هامسة. كانت هناك فترة أخرى طويلة من الصَّمت. ثم جورجينا، صوتها مثخن باللوعة تتحدّث ثانية.

«الفتاة؟».

«نعم. لويزا هنا لنضمن ألّا يحدث شيء مثل ذلك ثانية».

توقفت. عند طرف الممر الآخر، سمعت من الحمَّام، نايثن وويل يتحدثان بتمتمة خفيضة، ساهيين بارتياح عن المحادثة التي كانت تجري على بعد بضع خطوات.

اقتربت خطوة من الباب. افترض أني كنت أعلم بذلك منذ أن وقع

بصري على النُّدوب على رسغيه. وهذا منح معنى لكل شيءٍ في النهاية - قلق السَّيدة ترينر من أن ليس عليَّ أن أترك ويل وحيدًا لوقت طويل، كرهه لتواجدي هناك، واقعة أني لم أشعر لوقت طويل بأني كنت أفعل أي شيء مفيد على الإطلاق. كنت جليسة أطفال. لم أكن أعرف ذلك لكن ويل عرف وكرهني لذلك.

مددت يدي نحو مقبض الباب، أستعدُّ لإغلاقه برفق. تساءلت عمّا يعرفه نايثن. تساءلت عمّا إذا كان ويل أكثر سعادة الآن. أدركت بأني أنانية، شعرت بارتياح خفيف لأني لم أكن أنا من اعترض ويل عليّ، بل على حقيقة أني أنا - أو أي شخص - كنت موظفة لمراقبته.

«لا يمكنك أن تدعيه يفعل ذلك أمي، عليك أن توقفيه».

«إنه ليس خيارنا يا عزيزتي».

احتجَّت جورجينا: «لكنه خيارنا. خيارنا - إذا كان يطلب منك أن تشاركي فيه».

سكن المقبض في يدي.

«لا أستطيع أن أصدِّق بأنك توافقين عليه. ماذا عن عقيدتك؟ ماذا عن كلِّ شيء فعلته؟ ما كانت فائدة إنقاذك له آخر مرة؟».

كان صوت السَّيدة ترينر هادئًا عمدًا: «هذا ليس منصفًا».

«لكنك قلتِ بأنك ستأخذينه. ماذا...».

«هل تظنين ولو للحظة بأني في حال رفضت، لن يطلب من شخص آخر؟».

«لكن (ديجنيتاس)؟ هذا خطأ. أعرف أن الأمر صعب عليه، لكنه سوف يدمرك ويدمِّر أبي. أعرف ذلك. فكِّري كيف سيكون شعورك! فكري بانتشار الخبر! عملك! سمعتكما! لا بدَّ أنه يعرف ذلك. أنانية منه

حتى أن يطلب. كيف يمكنه؟ كيف يمكنه أن يفعل هذا؟ كيف يمكنك أن تفعلي هذا؟». بدأت تنتحب ثانية.

«جورجي...».

«لا تنظري إليّ هكذا. أنا أهتمُّ لأمره، أمّي. حقًا. إنه أخي وأنا أحبه. لكني لا أستطيع تحمُّل ذلك. لا يمكنني تحمُّل مجرَّد التفكير فيه. إنه مخطئ في طلبه، وأنت مخطئة في التفكير في الأمر. وهي ليست حياته فقط التي يريد أن يدمرها إذا مضى في هذا الأمر».

تراجعت خطوة إلى الوراء عن النَّافذة. اندفع الدم قويًا جدًّا في أذنيّ حتى إني لم أسمع ردَّ السَّيدة ترينر.

«ستَّة أشهر جورجي. هو وعد أن يمنحني ستَّة أشهر. الآن لا أريد منك أن تذكري هذا ثانية وبالتأكيد ليس في حضور أي شخص آخر. وعلينا...»، أخذت نفسًا عميقًا وتابعت: «علينا أن نصلِّي كثيرًا أن يحدث شيء في ذلك الوقت ليغيّر رأيه».

8

كاميلًا

أنا لن أشرع في المساعدة على قتل ابني مطلقًا.

حتى قراءة الكلمات تبدو مستهجنة - مثل شيء قد ترينه في الصُحف الصَّفراء.

لم أكن من الأشخاص الذين يحدث لهم ذلك. أو على الأقل، اعتقدت بأني لم أكن كذلك. كانت حياتي منظَّمة إلى حدٍّ ما - عادية، بالمعايير المعاصرة. تزوَّجت منذ سبعة وثلاثين عامًا، ربيت طفلين، واصلت عملي، قدَّمت المساعدة في المدرسة، منظمة الأهل والمدرّسين، والتحقت بالمحكمة عندما لم يعد الطفلان في حاجة إليّ.

عملت في القضاء لما يقارب إحدى عشرة سنة. شاهدت الحياة الإنسانية برمَّتها تعبر محكمتي: المتشردون البائسون الذين لم يتمكنوا من جمع شتاتِ أنفسهم لكي يأتوا إلى المحكمة في الوقت المحدّد، أصحاب السَّوابق، الشُّبان الغاضبون والمنهكون بوجوههم المريرة، الأمهات المدانات. من الصَّعب جدًا أن تحتفظ بهدوئك وتفهُّمك عندما ترى الوجوه والأخطاء نفسها يُعاد اقترافها مرارًا وتكرارًا. سمعت أحيانًا نفاد الصبر في نبرتي. قد يكون رفض البشر المصمت لمحاولة حتى أن يعملوا بمسؤولية مثبطًا للهمّة على نحو غريب.

ورغم جمال القلعة لم تكن بلدتنا الصغيرة، ومبانينا الكثيرة المصنّفة في الدَّرجة الثانية من حيث أهميتها كأبنية أثرية، وأزقّتنا الريفية الفاتنة، في مأمن. ريجنسي سكويرز التي احتمى فيها المراهقون ليحتسوا مشروب التُّفاح، أكواخ مسقوفة بالقش كتمت أصوات الأزواج وهم يضربون زوجاتهم وأطفالهم. شعرت أحيانًا كأني الملك كانوت[1] مفصحًا عن آرائه عبثًا في وجه مدِّ الفوضى والخراب الزَّاحف. لكنني أحببت عملي. أدّيته لأني أؤمن بالنِّظام وبالأخلاق. أؤمن بأن هناك خطأ وصوابًا، غير عصرية كما قد تكون وجهة النظر تلك.

ساعدتني حديقتي على اجتياز الأيام العصيبة. عندما كبر الطفلان كانت قد أصبحت تشكِّل لي هاجسًا إلى حدٍّ ما. يمكنني أن أقول لك الاسم اللاتيني لمعظم النَّباتات التي قد تشيرين إليها. كان الأمر المضحك أنني لم أتعلم اللغة اللاتينية في المدرسة - كانت مدرستي نوعًا ما مدرسة رسمية للفتيات قليلة الأهمية حيث كان التركيز على الطهو والتطريز، أشياء قد تساعدنا على أن نكون زوجات صالحات - لكن ما يميز أسماء تلك النباتات هي أنها تعلق في ذهنك. ما إن أسمعها مرة واحدة حتى تبقى عالقة في ذاكرتي إلى الأبد: هيلابرس نايغر، اريمورس ستينوفيلس، آثيريُم نيبونيكُم. أستطيع ترددادها بمهارة لم أمتلكها في المدرسة.

يقولون إنك لا تعرف قيمة حديقة حقًّا إلّا بعد أن تبلغ خريف العمر، ويخيل إليَّ أن هذا لا يخلو من الصِّحة. ربما هو شيء يتعلّق بدورة الحياة الكبيرة. يبدو أن هناك شيئًا أعجوبيًّا في رؤية التفاؤل في النمو من جديد بعد كآبة الشِّتاء، فرح ما في كل سنة مختلفة، الطريقة التي تختارها الطبيعة

---

(1) الملك كانوت والأمواج: أسطورة مشهورة تروي قصة غرور الملك كانوت الذي يدعي أنه يستطيع إيقاف مد البحر، وتستخدم كمثال لأي اعتقاد وهمي بإيقاف ماهو حتمي.

لتتباهى بأجزاء مختلفة من الحديقة. مرّت عهود كانت فيها ملاذًا وفرحًا - الأوقات التي أثبت زواجي فيها أنه ناجح نوعًا ما أكثر مما آمل.

وأيضًا هناك فترات كانت فيها حديقتي ألماً خالصاً، لا يوجد شيء مخيب للآمال أكثر من أن تزرع رقعة أرض جديدة لترى أنها لم تزهر، أو أن تشاهد صفًا من الثوم الجميل قد خرّبه أثناء الليل مجرم قذر. لكني أحببتها حتى عندما اشتكيت من الوقت، ومن الجهد اللازم للاهتمام بها. كيف احتجّت مفاصلي ذات أصيل أمضيته في إزالة الأعشاب الضارة، أو كيف لم تبدُ أظافري نظيفة تمامًا. أحببت المتع الحسّيّة لكوني في الخارج، لرائحتها، أو ملمس التربة تحت أصابعي، والرضى الناجم عن رؤية الأشياء تعيش، تزهو، مأخوذة بجمالها الموقّت.

بعد حادثة ويل أهملت الحديقة مدة عام. لم يكن ذلك فقط بسبب الوقت، على الرغم من السّاعات المتواصلة التي أمضيتها في المستشفى، الذهاب والإياب في السّيارة، الاجتماعات - يا إلهي، استغرقت الاجتماعات جزءًا كبيرًا من الوقت. أخذت إجازة مدة ستة أشهر من العمل ولم تكن كافية مع ذلك.

الأمر أني وجدت فجأة أن لا فائدة. استأجرت بستانيًا ليعتني بالحديقة، ولا أظن أني منحتها شيئًا سوى نظرات عابرة في معظم أيام السَّنة.

لم أستطع أن أرى نفعًا من جعلها جميلة ثانية إلّا بعدما أعدنا ويل إلى البيت، وكان الملحق معدّلًا وجاهزًا. كان عليَّ أن أمنح ابني شيئًا ينظر إليه. أن أقول له بصمت إن الأمور قد تتغير، سلبًا أو إيجابًا، لكن الحياة تستمر. وأننا جميعًا جزء من دورة كبيرة، رسمًا لا يفهم الغرض منه إلّا الله. بالتأكيد لم أتمكّن من قول ذلك له - لم نكن، ويل وأنا، يومًا قادرَيْن على تبادل الكثير من الكلام - لكنني أردت أن أريه. وعد صامت، إذا شئت، بأن هناك صورة أكبر، مستقبلًا أكثر ازدهارًا.

***

كان ستيڤن يحرك النَّار. تلاعب بالحطب المتبقي نصف المحترق ببراعة بمحراك الجمر، مرسلًا شرارات وهَّاجة نحو المدخنة، ثم رمى حطبة جديدة في الوسط. تنحَّى كما يفعل دومًا، يراقب برضى تام عند استحواذ اللهب عليها، ومسح يديه بسرواله القطني. التفت عندما دخلت الغرفة وناولته كأسًا.

«شكرًا لك. جورجي قادمة؟».

«لا يبدو ذلك».

«ماذا تفعل؟».

«تشاهد التلفاز في الأعلى. لا ترغب بالصُّحبة. لقد سألتها».

«سوف تأتي. ربما هي متعبة من الرحلة الطويلة بالطائرة».

«آمل ذلك، ستيڤن. هي ليست سعيدة جدًّا معنا في الوقت الراهن».

وقفنا في صمت، نراقب النار. كانت الغرفة من حولنا مظلمة وساكنة. الريح والمطر يلطمان عتبات النوافذ فتصدر صوت جلجلة خفيضًا.

«ليلة لعينة».

«نعم».

دخلت الكلبة إلى الغرفة بهدوء وهمهمت وهي تتمدّد أمام النار، تحدِّق بنا بولع وهي مضطجعة.

قال: «ماذا تظنين؟ بشأن قَصَّة الشَّعر هذه».

«لا أعرف. أحب أن أفكر بأنها بشارة خير».

«لويزا هذه غريبة بعض الشَّيء. أليست كذلك؟».

رأيت كيف ابتسم زوجي بينه وبين نفسه. وجدت نفسي أفكّر، ليست هي أيضًا، ثم محوتُ الفكرة.

«نعم. نعم، أفترض أنها كذلك».

«هل تظنين أنها الخيار الصَّحيح؟».

ارتشفت من شرابي قبل أن أجيب. مقدار إصبعين من الجن، وشريحة ليمون، والكثير من الشراب المنشّط.

قلت: «من يعلم؟ لا أظن أني أملك في هذا الوقت أدنى فكرة عما هو الصَّواب وما هو الخطأ».

«هي تعجبه. أنا واثق من أنها تعجبه. كنَّا نتحدَّث ونحن نشاهد الأخبار ليلة أمس، ولقد أتى على ذكرها مرتين. لم يفعل ذلك من قبل».

«نعم. حسنًا. لا أريد أن أرفع من درجة تفاؤلك بهذا».

«هل عليكِ أن تفعلي؟».

تحوَّل ستيفن عن النَّار. رأيته يعاينني، ربما منتبهًا للتغضنات الجديدة حول عينيّ، وقد تحوَّل فمي تلك الأيام إلى خطٍ رقيق من الوساوس. نظر إلى الصَّليب الذَّهبي الصَّغير، الموجود دومًا الآن حول عنقي. لم تعجبني طريقته في النَّظر إليَّ. لم أستطع الإفلات من الإحساس بأنه كان يقارنني بشخص آخر.

«أنا فقط واقعية».

«أنت تبدين... أنت تبدين كما لو أنك تترقّبين حدوثه».

«أعرف ابني».

«ابننا».

«نعم. ابننا». وجدت نفسي أفكّر، لكنه ابني أكثر. أنت لم تكن موجودًا يومًا حقًا من أجله. ليس عاطفيًا. كنت الغياب الذي كان يسعى دومًا لفهمه.

قال ستيفن: «سوف يغيِّر رأيه، لا يزال هناك طريق طويل لقطعه».

وقفنا هناك. ارتشفت رشفة طويلة من مشروبي، ذاب الثَّلج البارد بسبب الدِّفء الذي بعثته النَّار.

قلت محدِّقة بالمدفأة: «دومًا أفكّر...، دوما أفكر بأني أفوِّت شيئًا».

كان زوجي لا يزال يراقبني. شعرت بأنه يرمقني، لكني لم أستطع مواجهته. ربما كان ليمد يده لي حينها. لكن على الأرجح أظن أننا أصبحنا بعيدين جدًّا عن ذلك.

ارتشف من مشروبه.

«يمكنك فقط أن تفعلي ما تستطيعين فعله عزيزتي».

«أنا مدركة جيدًا لذلك. لكنه ليس كافيًا حقًّا، هل هو كافٍ؟».

التفتَ إلى النَّار، يحرك زنود الخشب على غير حاجة إلى أن تحرّكت وبهدوء غادرتُ الغرفة.

وكان على علم بأن هذا ما يمكن لي أن أفعله.

***

عندما أفصح ويل أول مرة عن رغبته، كان عليه أن يردّد ما قاله، فما كنت واثقة تمامًا من أني أسمعه على نحو صحيح في المرة الأولى. التزمت الهدوء التَّام عندما أدركت قصده، ثم قلت له إنه سخيف وخرجت مباشرة من الغرفة.

هذه ميزة غير منصفة، أن تكون لك القدرة على الخروج وترك رجل في كرسي متحرك. خطوتان تفصلان الملحق عن المنزل الرئيس، ومن دون مساعدة نايثن لن يتمكَّن من اجتيازهما. أغلقت باب الملحق ووقفت في رواقي وكلمات ابني المنطوقة بهدوء لا تزال تتردّد في أذني. أنا لست واثقة من أني تحرّكت قبل مرور نصف ساعة.

رفض أن يتخلَّى عن تلك الفكرة. لأن الكلمة الأخيرة كانت لويل دومًا. كل مرة ذهبت فيها لرؤيته كرَّر طلبه إلى أن كان عليَّ تقريبًا أن أحثَّ نفسي على الدُّخول إليه كلَّ يوم.

«لا أريد أن أعيش هكذا، يا أمي. هذه ليست الحياة التي اخترتها. ليس

هناك أمل في أن أتحسّن، وبالتالي فإنه من المنصف أن أطلب إنهاءها بالطّريقة التي أراها ملائمة».

سمعته وتخيلت جيدًا كيف كان يبدو في اجتماعات العمل تلك، المهنة التي جعلته غنيًا ومزهوًا بنفسه. كان رجلًا اعتاد أن يكون مسموعًا في النهاية ومستقلًا. لم يتمكّن من احتمال أن تكون لدي بطريقة ما القوة على فرض مستقبله وأني أصبحت أمًّا من جديد.

حاول الحصول على موافقتي. ليس الموضوع أن عقيدتي منعت ذلك - على الرغم من أن مشهد ويل مرسلًا إلى الجحيم بسبب يأسه كان رهيبًا (اخترت أن أؤمن بأن الله، إلهًا كريمًا، قد يفهم معاناتنا ويسامحنا على أخطائنا).

إنه فقط الأمر الذي لن تفهميه يومًا بخصوص كونك أمًّا إلى أن تصبحي كذلك، هو أنه ليس الرجل الناضج - المرح، غير الحليق، النتن، الابن العنيد - الذي ترينه أمامك، مع تذاكر موقف السّيارات وحذاءٍ غير ملمَّعٍ وحبِّ حياة معقّدٍ. ترينَ جميع الأشخاص الذين ولّى زمانهم يجتمعونَ في واحد. نظرت إلى ويل ورأيت الطّفل الذي حملته بين ذراعَيّ، مسلوبة اللبّ دامعة، عاجزة عن تصديق أني ولدت إنسانًا آخر. رأيت الطّفل الذي يمدُّ لي يده، التلميذ الذي يمسح دموع الغضب بعد أن أزعجه طفل آخر. رأيت الهشاشة والحب والتّاريخ. إن ما كان يطلبه مني هو أن أتخلّى عن - الطفل الصّغير كما الرجل، كل ذلك الحب، كل ذلك التاريخ.

من ثمّ في الثّاني والعشرين من شهر كانون الثّاني، يوم كنت عالقة في المحكمة في مناداة عديمة الشفقة على أسماء سارقي السّلع والسّائقين غير المؤمَّن عليهم، من شركاء سابقين باكين غاضبين، دخل ستيفن إلى الملحق ووجد ابننا فاقدًا الوعي تقريبًا، رأسه متدليًا إلى جانب سندة ذراعه، حول كرسيه بركة دم قاتم دبق. لقد وجد ظفرًا صدئًا، منبثقًا بالكاد مسافة نصف إنش من أشغال الخشب المنجزة على عجل في الرّواق

الخلفي وضغط رسغه عليه، حرك كرسيه جيئة وذهابًا حتى تمزَّق لحمه. لا أستطيع حتى يومنا هذا تخيل التصميم الذي جعله يستمر، حتى مع أنه لا بد كان شبه دائخ من الألم.

قال الأطباء إن أقل من عشرين دقيقة كانت تفصله عن الموت. لاحظوا بتفهُّم شديد الحساسية، أن ما من صرخة ندَّت عنه طلبًا للنجدة.

عندما قالوا لي في المستشفى إنَّ ويل قد يعيش، خرجت إلى حديقتي وثارت ثائرتي. غضبت من الله، من الطبيعة، من أي مصير بلغ بعائلتنا هذا الحضيض. الآن أنظر إلى الوراء ولا بد أني بدَوْت مجنونة تمامًا. وقفت في حديقتي ذلك المساء البارد وقذفت كأس براندي مسافة عشرين قدمًا نحو شجيرة الكومباكتُس وصرخت، حتى كسر صوتي الهواء، يثب على جدران القلعة ويتردَّد صداه في البعيد. كنت حانقة للغاية، كما ترين، كان كل ما حولي أشياء تتحرّك وتتمايل وتنمو وتتكاثر، وكان ابني، فتاي الجميل الجذّاب الحيوي، مجرد هذا الشيء. عاجز عن الحركة، ذابل، مدمًّى، يعاني، بدا كل ذلك الجمال مجرد قبح بالنسبة إليَّ. صرخت وصرخت، ولعنت - بكلمات لم أعرف أني كنت أعرفها - حتى خرج ستيڤن ووقف واضعًا يده على كتفي ينتظر حتى تيقَّن من أني سأكون صامتة ثانية.

لم يفهم، كما ترين. هو لم يكن قد استوعب الأمر بعد. لم يستوعب أن ويل قد يحاول ثانية. إننا قد ننفق حياتنا في حالة من اليقظة الدائمة، ننتظر المرة التالية، ننتظر أن نرى أي رعب قد يلحقه بنفسه. كان علينا أن نرى العالم من خلال عينيه - السُّموم المحتملة، الأدوات الحادَّة، الابتكارية التي يمكن أن ينهي بها العمل الذي بدأه سائق الدَّراجة النَّارية. كان على حيواتنا أن تنكمش لتلائم تبعات ذلك الفعل. كان لدى ويل امتياز - فلم يكن لديه أي شيء آخر يفكِّر فيه، كما ترين.

قلت لويل بعد أسبوعين: «نعم».

بالتأكيد فعلت. ماذا كان في وسعي أن أفعل سوى ذلك؟

9

لم أنم تلك الليلة. استلقيت يقظةً في غرفة المخزن الصَّغيرة، أحدِّق بالسَّقف وبعناية، أعيد تركيب الشَّهرين الأخيرين بالاعتماد على ما بتُّ أعرفه الآن. كان كما لو أن كلَّ شيء قد تحوَّل وتشظَّى واستقرَّ في مكان آخر واتَّخذ شكلًا لم أكد أتعرَّف عليه. شعرت بأني مغفَّلة، التَّابع الغبي الذي لم يكن يدري ماذا يجري. شعرت بأنهم لا بد ضحكوا في سرِّهم على محاولاتي أن أطعم ويل الخضار، أو أن أقصَّ له شعره - أشياء بسيطة كي أجعله يشعر بتحسّن. ما كان الغرض من ذلك؟

أعدت مرارًا وتكرارًا المحادثة التي سمعتها، أحاول تفسيرها بطريقة بديلة، أن أقنع نفسي بأني أسأت فهم ما قالوه. لكن عيادة (ديجينتاس) لم تكن بالضَّبط المكان الذي تذهب إليه للحصول على بعض الراحة. لم أصدِّق أنَّ كاميلا ترينر تفكّر بفعل ذلك لابنها. نعم، كنت قد فكّرت بأنها باردة وسمجة، في تعاملها معه. كان من الصَّعب أن تتخيلها تحضنه كما حضنتنا والدتي - بعنف وبفرح - إلى أن نتملَّص منها متوسِّلين إليها أن تخلي سبيلنا. وكي أكون صادقة، ظننت أنها كانت طريقة أبناء الطبقة الراقية في التَّعامل مع أطفالهم. كنت قد قرأت نسخة ويل من كتاب «الحب في مناخٍ بارد» في النهاية. لكن أن تلعب دورًا في موت ابنها بهمَّة، وتطوّعًا؟

بإدراك متأخّر، بدا سلوكها أكثر برودًا، اصطبغت تصرُّفاتها بنيَّة شريرة. كنت غاضبة منها ومن ويل. لأنهما أشركاني في المواجهة. كنت غاضبة من أجل كل الأوقات التي جلست فيها وفكرت بطريقة لتتحسّن الأمور من أجله، كيف أجعله مستريحًا، أو سعيدًا. عندما لم أكن غاضبة، كنت حزينة. كنت لأتذكّر التقصُّف الخفيف في صوتها عندما حاولت تعزية جورجينا، وأشعر بحزن عظيم عليها. عرفت أنها كانت في موقف مستحيل.

لكن في المقام الأول شعرت بأني مملوءة بالرُّعب. كنت مسكونة بما عرفته الآن. كيف يمكنك أن تعيش كل يوم وأنت تعلم أنك كنت ببساطة تقضي الأيام بانتظار موتك؟ كيف أمكن لهذا الرجل الذي تلمَّست جلده ذلك الصَّباح بأصابعي - دافئًا، وحيًّا - أن يختار قتل نفسه؟ كيف يمكن أن يكون، بموافقة الجميع، خلال أربعة أشهر ذلك الجلد نفسه سوف يتفسَّخ تحت الأرض؟ لم أتمكَّن من إخبار أحد. ذلك كان الأسوأ. كنت الآن شريكة في سرٍّ آل ترينر.

رفضت تناول طعام العشاء. استلقيت في السَّرير إلى أن أعتمت أفكاري وتصلَّبت إلى حدٍّ لم أعد أحتمل ثقلها، وعدت عند السَّاعة الثَّامنة والنِّصف إلى الطابق الأرضي وجلست أشاهد التِّلفاز بصمت، جلست إلى جانب جدّي الذي ضمنت أنه الوحيد في عائلتنا الذي لن يطرح عليَّ سؤالًا. جلس في كرسيِّه المفضَّل وحدَّق بحدَّة في الشَّاشة بعينين كامدتين. لم أكن واثقة أبدًا ما إذا كان يشاهد أو أن عقله كان في مكان آخر كلّيًّا.

ظهرت أمي إلى جانبي تحمل كوبًا من الشاي: «هل أنت واثقة من أنك لا ترغبين بأن آتيك بشيء، حبيبتي؟». لم يكن هناك شيء في عائلتنا لا يمكن تحسينه بكوب من الشَّاي، ظاهريًا.

«لا. لست جائعة، شكرًا».

رأيت كيف رمقَت أبي. عرفت أنه لاحقًا ستكون هناك همسات سريَّة

عن أن آل ترينر كانوا يجهدونني بشدة، وأن الإرهاق من الاعتناء بشخص مقعد كان يدلّ على الكثير. عرفت أنهما سوف يلومان نفسيهما لتشجيعي على قبول العمل.

عليَّ أن أدعهما يفكّران بأنهما محقّان.

***

بشكل متناقض، في اليوم التالي كان ويل في هيئة حسنة - ثرثارًا على غير العادة، متشبثًا برأيه، عدوانيًّا. تحدَّث ربما أكثر مما فعل في أي يوم سابق. كان كما لو أنه أراد أن يناوشني، وكان مخيبًا له أنني لم أجاريه.

«إذًا متى سوف تنهين عمل الحفر هذا؟».

كنت أرتِّب غرفة الجلوس. رفعت بصري عن وسادات الأريكة الضخمة. «ماذا؟».

«شعري. القصَّة غير منجزة. أبدو مثل واحد من هؤلاء اليتامى الفيكتوريين». أدار رأسه لأرى بشكل أفضل ما صنعته يداي. «إلّا إذا كانت هذه من عروض الأسلوب البديل».

«هل تريدني أن أواصل القصّ؟».

«حسنًا، بدا أن ذلك يجعلك سعيدة. وسيكون لطيفًا ألّا أبدو كأني أنتمي إلى دار للأيتام».

جلبت المنشفة والمقص في صمت.

قال: «نايثن بالتأكيد أكثر سعادة الآن لأني أبدو شبيهًا بفتى، على الرغم من أنه لم يذكر ذلك، وقد أعدت وجهي إلى حالته السَّابقة، سوف أحتاج الآن إلى أن أحلق كلَّ يوم».

قلت: «أوه».

«أنت لا تمانعين! هل تمانعين؟ نهاية كل أسبوع سيكون عليَّ أن أتحمل مشذِّب اللحية».

لم أتمكَّن من التَّحدث إليه. حتى إني وجدت صعوبة في النَّظر في عينيه. كان كما لو أنك تكتشف خيانة صديق. شعرت بغرابة كما لو أنه خانني.

«كلارك؟».

«اممم؟».

« تمرّين بيوم هادئ آخر على نحو يخلع القلب. ماذا حدث للـ«مهذارة إلى حدٍّ شديد الإزعاج»؟».

قلت: «آسفة».

«الرجل العدَّاء ثانية؟ ماذا فعل الآن؟ هو لم يمضِ هاربًا، هل فعل؟».

«لا».

أمسكت بخصلة ناعمة من شعر ويل بين سبابتي وإصبعي الوسطى ورفعت المقص لأقص ما انكشف فوقه. همد في يدي. كيف لهم أن يفعلوا ذلك؟ هل سيحقنونه بحقنة؟ هل يعطونه دواء؟ أو يتركونه في غرفة مع كمية كبيرة من الشَّفرات؟

«أنت تبدين متعبة. لم أكن لأقول شيئًا عندما دخلت، لكن اللعنة - أنت تبدين رهيبة».

«أوه».

كيف يساعدون شخصًا لا يمكنه أن يحرك أطرافه؟ وجدت نفسي أحدِّق برسغيه اللذين كانا دومًا محجوبَيْن بكمين طويلين. كنت قد تصورت لأسابيع أن هذا لأنه يشعر بالبرد أكثر مما نشعر به نحن، كذبة أخرى.

«كلارك؟».

«نعم؟».

كنت مسرورة لأني كنت خلفه. لم أرغب أن يرى وجهي. حيث كان

ظاهر عنقه مغطًّى بالشعر، كان أكثر شحوبًا من بقية جلده. بدا ناعمًا وأبيض وهشًّا على نحو غريب.

«انظري، أنا آسف بشأن أختي. كانت... منزعجة جدًّا، لكن هذا لا يمنحها الحق في أن تكون فظَّة. إنها صريحة أحيانًا. لا تعرف إلى أي درجة تعامل الناس بالطريقة الخاطئة». توقَّف.

«لهذا السَّبب هي تحب العيش في أستراليا، كما أظن».

«ماذا؟».

«لا شيء. ارفع رأسك، من فضلك».

قصصت ومشَّطت، عملت بانتظام حول رأسه إلى أن صارت كل شعرة مقصوصة أو مشذَّبة، وكل ما بقي كان مبعثرًا على الأرض.

***

اتَّضح كل شيء مع نهاية اليوم. بينما كان ويل يشاهد التِّلفاز مع والده، أخذت ورقة من الطَّابعة وقلمًا من الإناء بجانب نافذة المطبخ وكتبت ما أردت قوله. طويت الورقة، وجدت مغلَّفًا وتركتها على طاولة المطبخ. وجّهتها إلى والدته.

عندما غادرت عند المساء، كان ويل ووالده يتجاذبان أطراف الحديث. في الواقع، كان ويل يضحك. توقَّفت في الرِّواق وحقيبتي على كتفي، أصغي. لماذا يضحك؟ ما الذي قد يثير الفرح بالنَّظر إلى أنه خلال أسابيع سيفقد حياته؟

صحت في المدخل: «أنا ذاهبة»، وبدأت أسير.

بدأ: «هيه، كلارك»، لكني كنت قد أغلقت الباب خلفي.

أمضيت رحلة الحافلة القصيرة أحاول أن أجد ما سأقوله لوالديَّ. قد يكونان غاضبين من أني تركت ما قد يرونه عملًا جيد الأجر ومناسبًا تمامًا. قد تبدو أمي بعد صدمتها الأولية متألمة وتدافع عني، وتوضح أن

كل شيء كان يفوق طاقتي. ربما يسأل والدي عن السَّبب الذي يمنعني من أن أكون مثل أختي. هو فعل غالبًا، حتى لو لم أكن أنا من دمَّرت حياتها بالحمل معتمدة على بقية أفراد العائلة بالدعم المالي ورعاية الطفل. لم يكن مسموحًا لك أن تقولي شيئًا من هذا القبيل في منزلنا لأنه بحسب أمي كان مثل تلميح إلى أن توماس لم يكن بركةً. كل الأطفال كانوا بركة من الله، حتى هؤلاء الذين ردَّدوا كلمة «بَغر» كثيرًا جدًا، وهؤلاء الذي عنى حضورهم أن نصف أفراد عائلتنا الذين بمقدورهم العمل لا يمكنهم الذَّهاب للبحث عن عمل محترم. سوف لن يكون في وسعي إخبارهم بالحقيقة. أعرف أني لا أدين لويل ولا لعائلته بشيء، لكنني لن أبتلي نفسي بالتحديقة الفضولية التي يرميها به جيرانه.

انصبَّت كل هذه الأفكار على رأسي وأنا أترجَّل من الحافلة وأهبط التلة. ثم وصلت إلى زاوية الطريق وسمعت صراخًا، شعرت بتردد الهواء الخفيف وسرعان ما كان كل شيء منسيًّا.

كان حشد صغير قد تجمَّع حول منزلنا. حثثت الخطو، خشية أن يكون قد حدث شيء، لكن حينها رأيت والديَّ على الشُّرفة، يحدّقان، وأدركت أنه لم يكن منزلنا على الإطلاق. كانت معركة في سلسلة طويلة من معارك صغيرة وسمت زواج جيراننا.

لم تكن أخبارًا جديدة في شارعنا أن ريتشارد غريشام لم يكن أكثر الأزواج إخلاصًا. لكن من خلال المشهد في حديقته الأمامية، ربما كانت أخبارًا جديدة بالنسبة لزوجته.

«لا بد أنك ظننت أني كنت حمقاء لعينة. كانت ترتدي قميصك! القميص الذي صنعته لك في يوم عيد ميلادك!».

«حبيبتي... ديمبنا... ليس الأمر كما تظنين».

«دخلت من أجل بيضك الأسكتلندي اللعين! وكانت هناك ترتديه! وقحة حد الصَّفاقة! وأنا حتى لا أحب البيض الأسكتلندي!».

أبطأت مشيتي، أشقُّ طريقي عبر الحشد الصَّغير إلى أن تمكنت من الوصول إلى بوابتنا. أشاهد ريتشارد وقد انحنى ليتجنب مشغِّل أقراص الـ«دي في ي»، ثم جاءه حذاء.

«منذ متى وهما على هذه الحال؟».

فردت أمي ذراعيها، مئزرها مزموم بإتقان حول خصرها، ورمقت ساعتها: «منذ ثلاثة أرباع السَّاعة. برنارد، هل تقول إنه مضى عليهم ثلاثة أرباع الساعة؟».

«هذا يعتمد على تحديد البداية، أهي منذ أن رمت ثيابه أو منذ عودته».

«أقول منذ عودته إلى البيت».

فكر أبي في هذا: «إذًا إنه حقًا يقارب النصف ساعة. لكنها رمت أشياء كثيرة من النافذة في أول ربع ساعة».

«يقول والدك إذا طردته حقًّا هذه المرة سوف يحاول الحصول على مثقب ريتشارد من ماركة (بلاك أند ديكر)».

تنامى الحشد ولم تبدِ ديمبنا غريشام أي علامة على الاستسلام. بدت متشجِّعة مع ازدياد عدد الجمهور.

صاحت وهي تقذف وابلًا من المجلات من النافذة: «يمكنك أن تأخذ كتبك القذرة».

هذا استدعى هتافًا صغيرًا من الحشود.

«أنظر إذا كانت تحبك جالسًا في المرحاض مع تلك المجلات طوال منتصف أصيل يوم الأحد؟». اختفت في الداخل، ثم عاودت الظُّهور عند النافذة، تجر محتويات سلة غسيل لترمي بها نحو ما تبقى من المرج.

«خذ سراويلك القذرة. انظر إذا كانت تظن أنك - ما كان ذلك؟ - عشيقًا شبقًا عندما تغسلها من أجلك كل يوم!».

كان ريتشارد يجمع سدى غمرًا من أشيائه عندما حطَّت على العشب.

وكان يصرخ نحو النافذة، لكن إزاء الضجيج العام وصيحات الاستهجان كان من الصَّعب أن يُسمع. على نحو غريب، في حين كانت مجموعة أقراصه المدمجة وألعاب الفيديو شهيرة للغاية، لم يتحرك أحد نحو غسيله القذر. صوت تحطم. كان هناك صمت وجيز عندما ارتطم مسجّله بالأرض.

رفع بصره غير مصدق.

«أيتها العاهرة المجنونة!».

«أنت تضاجع ذلك المخلوق الخرافي المتصالب العينين الذي يركبه المرض من المرأب، وأنا عاهرة مجنونة؟».

التفتت والدتي نحو والدي: «هل تود أن تشرب كوبًا من الشَّاي، برنارد؟ أظن أن الطقس يزداد برودة بعض الشيء».

لم يشح والدي بنظره عن الباب المجاور: «هذا سيكون عظيمًا، حبيبتي. شكرًا لك».

عندما دخلت أمي لاحظت السَّيارة. كان ذلك مفاجئًا للغاية، حتى إني في البداية لم أتعرَّف إليها - سيارة السَّيدة ترينر، المرسيدس الزرقاء النيلية اللون. توقَّفت، تنظر إلى المشهد على الرصيف، وتردّدت للحظة قبل أن تخرج من السيارة. وقفت تحدّق بالمنازل المختلفة، ربما تتأكد من الأرقام. ثم رأتني.

انزلقت من الشُّرفة وكنت على الدَّرب قبل أن يتمكن والدي من السُّؤال عن مكان ذهابي. وقفت السَّيدة ترينر بجوار الحشد، تحدِّق بالفوضى كما لو أن ماري انطوانيت تشاهد جمعًا من الفلاحين المشاغبين.

قلت: «خلاف عائلي».

أشاحت ببصرها، كما لو أنها محرَجة من أنها شوهدت تنظر: «أرى».

«إنه خلاف إيجابي إلى حد ما بالنظر إلى معاييرهم. كانا ذاهبين إلى مستشار زواج».

بدلتها الصُّوفية الأنيقة، اللؤلؤ، وشعر ثمين، كانت تكفي لكي تدل على أنها ليست من شارعنا، حيث السَّراويل الفضفاضة وقماش رخيص بألوان زاهية من متاجر البيع بالتجزئة. بدت قاسية، أسوأ من الصَّباح الذي أتت فيه إلى البيت لتجدني نائمة في غرفة ويل. سجّلت في جزء بعيد في عقلي أني لن أفتقد كاميلا ترينر.

«كنت أتساءل إذا كان في وسعنا أن نتحدّث قليلًا». كان عليها أن ترفع صوتها ليُسمع فوق الهتاف. رمقت الحشد، ثم من خلفي بدا أنها تتّجه نحو المنزل. لم أتمكن من تخيل أن آتي بالسَّيدة ترينر إلى غرفتنا الأمامية، بالقطارات المبعثرة، وجدي يشخر بصمت أمام التلفاز، وأمي ترشُّ معطِّر الهواء لتخفي رائحة جوارب أبي، وتوماس يفرقع متمتمًا كلمة «اللعنة» على الزَّائرة الجديدة.

«إنه ليس وقتًا مناسبًا».

«ربما يمكننا أن نتحدّث في سيارتي؟ انظري، فقط خمس دقائق، لويزا. بالتأكيد أنت مدينة لنا بذلك».

اثنان من جيراننا نظرا باتجاهي وأنا أركب السَّيارة. كنت محظوظة لأن آل غريشام كانا أخبارًا ساخنة للمساء، وإلّا كان عليَّ أن أكون موضوع الحديث. في شارعنا، إذا ركبت سيارة باهظة هذا يعني إما إنك على علاقة بلاعب كرة قدم، أو أنه تم توقيفك من قبل الشرطة السِّرية. أغلقت الأبواب بصوت طقّة مكتومة، ثم فجأة ران الصَّمت. فاحت رائحة الجلد في السَّيارة ولم يكن فيها أحد سواي أنا والسَّيدة ترينر. ما من أغلفة سكاكر، أو طين، أو بقايا قطع ألعاب، أو أشياء معطّرة مدلاة لتخفي رائحة علب الحليب المرميَّة منذ ثلاثة أشهر.

«اعتقدت أنك وويل على علاقة طيبة». مع أنها لم تكن تنظر إليّ، تحدَّثت كما لو أنها تخاطب شخصًا أمامها مباشرة. قالت عندما لم أتكلم: «هل هناك أي مشكلة بخصوص النقود؟».

«لا».

«هل تحتاجين إلى استراحة غداء أطول؟ أعني أنها قصيرة. يمكنني أن أطلب من نايثن إذا كان...».

«إنها ليست ساعات العمل أو النقود».

«إذًا...».

«أنا حقًا لا أريد أن...».

«انظري، لا يمكنك أن تسلِّمي استقالتك بأثر مباشر وتتوقعي ألا أسأل عن السَّبب».

أخذت نفسًا عميقًا: «لقد سمعتك مصادفة. أنت وابنتك. الليلة الماضية. ولا أريد أن أكون مشاركة فيه».

«آه».

جلسنا في صمت. كان السَّيد غريشام الآن يحاول شق طريقه عبر الباب الرئيس، والسَّيدة غريشام كانت منشغلة بقذف أي شيء يقع تحت يدها من خلال النافذة على رأسه. ألمح اختيار المقذوفات - مناديل المرحاض، صناديق الحشوات القطنية، فَراشٍ، علب شامبو، ما يشير إلى أنها الآن في الحمَّام.

قالت السَّيدة ترينر بهدوء: «من فضلك لا تغادري، ويل مرتاح معك أكثر من أي وقت مضى، سيكون من الصَّعب علينا أن نعيد الكرّة مع شخص آخر».

«لكنك سوف تأخذينه إلى ذلك المكان حيث ينتحر الناس، (ديجنتاس)».

«لا. سوف أفعل كل شيء أستطيعه لأضمن ألا يفعل ذلك».

«مثل ماذا، الصَّلاة؟».

رمتني السَّيدة ترينر بما قد تسميها أمي «نظرة عتيقة الطراز».

«يجب أن تعرفي الآن أنه إذا قرّر ويل أن يجعل نفسه متعذر المنال لا يمكن لأي شخص أن يفعل سوى القليل».

قلت: «لقد فهمت هذا كله، أنا هناك بشكل أساسي فقط لأتأكد من أنه لن يخادع ويفعل ذلك قبل ستة أشهر، هذا هو أليس كذلك؟».

«لا ليس هذا هو الأمر».

«ولهذا السَّبب لم تهتمي لمؤهّلاتي».

«اعتقدت أنك كنت مبهجة وفطِنة ومختلفة، لم تبدي مثل ممرضة، لم تتصرفي مثل أي واحدة من الأخريات، اعتقدت بأنك قد تبهجينه وقد فعلت، أبهجتِه لويزا، رأيته من دون تلك اللحية الرهيبة البارحة، بدوتِ واحدة كنت أبحث عنها. واحدة من القلائل القادرين على التعامل معه. كنت قادرة على الوصول إليه».

«ألا تظنين أنه من العدل إخباري أن مهمتي كانت فقط مراقبته كي لا ينتحر؟».

كانت التنهيدة التي أطلقتها كاميلا ترينر صوت شخص أُجبر على شرح شيء لأبله بتهذيب. تساءلت إذا عرفت أن كل ما قالته جعل الآخر يشعر كما لو أنه أبله. تساءلت إذا كان شيئًا غرسته بتعمّد. لم أظن أني سوف أتمكن يومًا أن أجعل شخصًا يشعر بالوضاعة.

«تلك كانت الحالة عندما التقيتك في البداية، لكني واثقة من أن ويل سوف يتشبّث برأيه، لقد وعدني بستة أشهر وهذا ما سأحصل عليه، نحتاج إلى هذا الوقت لويزا، نحتاج إلى هذا الوقت لنفتح باب وجود إمكانات أخرى، كنت آمل أن هذا قد يزرع فكرة أن هناك حياة يمكن أن يستمتع بها، حتى لو لم تكن الحياة التي خطّط لها».

«لكن ذلك كلّه كذب. لقد كذبتِ عليّ وأنتم جميعكم يكذب واحدكم على الآخر».

لم يبدُ عليها أنها سمعتني. التفتت لمواجهتي، وأخرجت دفتر شيكات من حقيبتها، والقلم جاهز في يدها.

«انظري، ماذا تريدين؟ سوف أضاعف راتبك. قولي لي كم تريدين؟».

«لا أريد نقودك».

«سيارة. بعض المزايا. مكافآت...».

«لا».

«إذًا... ما الذي يمكن أن أفعله لتغيري رأيك؟».

«أنا آسفة. أنا لا...».

هممت بالخروج من السَّيارة. امتدت يدها. بقيت هناك على ذراعي، غريبة ومشعَّة. كلانا حدَّقنا بها.

قالت: «لقد وقَّعتِ عقدًا، يا آنسة كلارك، لقد وقعتِ عقدًا حيث وعدت أن تعملي لحسابنا مدة ستة أشهر. وبحساباتي لقد أمضيتِ منها شهرين فقط. أنا ببساطة أطلب منك أن تلتزمي بما ينصُّ عليه العقد». أصبح صوتها هشًّا. نظرت نحو يد السَّيدة ترينر ورأيت أنها كانت ترتجف. ازدردت ريقها. «من فضلك».

كان والداي يشاهدان من الشُّرفة. رأيتهما يحملان الأكواب، الشخصان الوحيدان اللذان لا يلتفتان نحو المسرح في الجوار. التفتا بارتباك عندما رأيا أني لاحظتهما. أدركت أن أبي كان يرتدي الشبشب الصُّوفي المبقَّع بالألوان.

دفعت مقبض الباب.

«سيدة ترينر، أنا حقًّا لا يمكنني الجلوس والمشاهدة إنه أمر غريب جدًّا. لا أريد أن أكون جزءًا من هذا».

«فقط فكري في الأمر. يصادف غدًا يوم الجمعة العظيمة، سوف أقول لويل إن لديك التزامًا عائليًّا إذا كنتِ تحتاجين إلى بعض الوقت.

استغلي نهاية الأسبوع للتفكير في الأمر. لكن من فضلك. عودي. عودي وساعديه».

عدت إلى المنزل من دون أن ألتفت إلى الوراء. جلست في غرفة الجلوس وحدَّقت بالتلفاز بينما كان والداي يتابعانني ويتبادلان النَّظرات، ويتظاهران بأنهما لا يراقبانني.

مرَّت تقريبًا اثنتا عشرة دقيقة قبل أن أسمع صوت سيارة السَّيدة ترينر تنطلق وتمضي.

***

واجهتني أختي خلال خمس دقائق من الوصول إلى البيت، صعدت الدَّرج وفتحت باب غرفتي بعنف.

قلت: «نعم، ادخلي». كنت مستلقية على السَّرير، أمدّ رجليّ على الجدار، وأحدّق في السَّقف. كنت أرتدي جوارب طويلة وسروالًا قصيرًا أزرق مزين بالترتر، تجمّع حول أعلى فخذيّ بشكل بشع.

وقفت كاترينا في العتبة: «هل هذا صحيح؟».

«أن ديمبنا غريشام رمت أخيرًا زوجها السَّيئ المغازل المخادع و...».

«لا تتذاكي. أسأل حول عملك».

تعقَّبت نقوش ورق الجدران بإبهام قدمي.

«نعم، لقد قدَّمت استقالتي. نعم، أعرف أن أمي وأبي ليسا سعيدين للغاية بسماع هذا. نعم، نعم، لأيٍّ مما قد تقذفينني به».

أغلقت الباب بعناية خلفها، ثم جلست ضاغطة على طرف سريري وشتمت بقوة.

«أنا لا أصدقك». دفعت ساقيَّ فأنزلتهما عن الجدار، وانتهى بي الأمر ممددة على السَّرير. دفعت نفسي إلى الأعلى. «أوه». كان وجهها أحمر داكنًا. «لا أصدقك. أمي غاضبة في الأسفل. أبي يتظاهر أنه ليس كذلك

لكنه كان كذلك أيضًا. ماذا يفترض بهما أن يفعلا بشأن النقود؟ أنت تعلمين أن أبي الآن مذعور بشأن العمل. لماذا بحق الجحيم ترمين عملًا جيدًا مثاليًّا؟».

«لا تلقي عليَّ موعظة كاترينا».

«حسنًا، على أحدهم أن يفعل! أنت لن تحصلي على مثل هذه النقود في أي مكان آخر أبدًا. وكيف سوف يبدو تصرّفكِ على سيرتك الذاتية؟».

«أوه، لا تتظاهري أن هذا يتعلَّق بأي شيء سواك وبما تريدين».

«ماذا؟».

«أنت لا تهتمين لأمري، طالما أنه لا يزال في وسعك المضي بنشاط في مهنتك المحلِّقة. أنت فقط تحتاجين إليّ لأدعم العائلة ماليًا وتوفير عناية الطفل. ولا يهمك أحد».

عرفت أني بدوت وضيعة وقذرة لكني لم أتمكَّن من كبح جماح نفسي. مأزق أختي هو ما أوقعنا في هذه الفوضى في النهاية. بدأت سنوات السّخط تنزّ مني.

«علينا جميعًا أن نؤدي أعمالًا نكرهها، فقط لكي تتمكّن الصغيرة كاترينا من أن تحقّق طموحاتها اللعينة».

«هذا لا يتعلّق بي».

«لا؟».

«لا، إنه يتعلّق بكِ، بعدم قدرتك على التمسُّك بالعمل المحترم الذي عملت فيه طوال شهرين».

«أنت لا تعرفين شيئًا عن عملي، حسنًا؟».

«أعلم أن أجره أكثر من الحد الأدنى بكثير. وهذا كل ما أحتاج إلى معرفته».

«ليس كل ما في الحياة يتعلّق بالنقود كما تعلمين!!».

«نعم؟ انزلي إلى الطابق الأرضي وقولي لأمي وأبي ذلك».

«إياك أن تتجرأي على وعظي حول النقود وأنت لم تقدمي أي شيء في هذا المنزل لسنوات».

«أنت تعلمين أني لا أستطيع منح الكثير بسبب توماس».

بدأت أدفع أختي لتخرج من الباب. لا يمكنني تذكّر آخر مرة وضعت يدي عليها، لكن حينها أردت أن أضرب أحدًا وكنت أخشى مما قد أفعله إذا بقيت هناك أمامي.

«اغربي عن وجهي ترينا. هلا تفعلين؟ فقط اغربي ودعيني وشأني».

صفقت الباب في أثر أختي. وعندما سمعت أخيرًا صوت خطواتها على الدَّرج اخترت ألا أفكِّر بما قد تقوله لوالدي، ولا بالطريقة التي قد يتعاملون فيها مع هذا كدليل إضافي على عدم قدرتي الفاجعة على فعل أي شيء مهما كانت قيمته. اخترت ألا أفكر بسيد في مركز العمل وكيف يمكنني أن أشرح أسباب تركي لهذه الأعمال الوضيعة، اخترت ألا أفكر بمصنع الدجاج وكيف أنه في مكان ما عميق في داخله كانت هناك ربما مجموعة من مئازر البلاستيك وقبعة نظافة لا يزال اسمي عليها.

استلقيت وفكَّرت في ويل. بغضبه وحزنه. فكَّرت بما قالته والدته – عن أني كنت واحدة من القلائل القادرين على التعامل معه. فكّرت به يحاول ألا يضحك على «أغنية مولاهونكي» في الليلة التي تراكم الثلج فيها ذهبيًا على النافذة. فكرت بالجلد الدافئ والشّعر الناعم واليدين المليئة بالحياة، كان أكثر ذكاء وخفَّة ظل مما يمكن أن أكون، هو من لا يزال لا يستطيع أن يرى مستقبلًا أفضل من أن يقتل نفسه. وأخيرًا انضغط رأسي على الوسادة، بكيت لأن حياتي فجأة بدت أكثر قتامة وأكثر تعقيدًا مما يمكنني أن أتخيّل وتمنيت لو أعود إلى العهد الذي كانت فيه أعظم مخاوفي منصبَّة على ما إذا كنا أنا وفرانك قد طلبنا ما يكفي من كعك تشيلسي.

كان هناك قرع على الباب. تمخّطت بصوت مرتفع.

«إليك عني كاترينا».

«أنا آسفة».

حدَّقت بالباب. كان صوتها مكتومًا كما لو أن شفتيها كانتا قريبتين من ثقب المفتاح.

«لقد جلبت نبيذًا. انظري، دعيني ادخل، أرجوك، أو أن أمي سوف تسمعني. لقد خبأت في سترتي كوبين من تلك التي مرسوم عليها «بوب ذا بيلدر» وأنت تعرفين كيف تكون ردَّة فعلها إزاء الشُّرب في الطابق العلوي».

نزلت عن السَّرير وفتحت الباب. حدَّقت في وجهي الملطخ بالدموع وأغلقت بسرعة باب غرفة النوم خلفها.

قالت وهي تفتح الزجاجة وتصبّ لي كأسًا من النبيذ: «حسنًا، ما الذي حدث حقًّا؟».

نظرت نحو أختي بشدَّة: «عليك ألا تخبري أحدًا بأي مما سأقوله لك، لا أبي ولا أمي على وجه الخصوص».

ثم أخبرتها..

كان عليَّ أن أخبر أحدًا.

***

كرهت أختي بطرق عدة. منذ بضع سنوات كان في وسعي أن أريك قوائم خربَشْتها بخط يدي حول هذه الموضوعة بالذات. كرهتها لأن شعرها كثيف منسدل، في حين يتقصَّف شعري إذا طال أكثر من كتفي. كرهتها لأنك لا تستطيع أن تخبرها بأي شيء تجهله. كرهتها لأن مدرِّسيَّ أصروا طوال سنوات دراستي على أن يخبروني بنبرات هامسة عن مدى ذكائها كما لو أن نباهتها لم تكن لتعني أني أعيش في ظلٍ افتراضيٍّ دائمًا. كرهتها لأني في عمر السَّادسة والعشرين عشت في غرفة مخزن شبه

منفصل فقط لتتمكن من أن يكون ابنها غير الشَّرعي معها في غرفة النوم الكبيرة. لكن بين الحين والآخر كنت مسرورة جدًّا حقًّا لأنها كانت أختي.

لأن كاترينا لم تصرخ رعبًا. لم تبدُ مصدومة، ولم تصرّ على أن أخبر أمي وأبي. لم تقل لي أبدًا أنني أخطأت في قراري بترك العمل.

شربت جرعة كبيرة من النبيذ.

«يا إلهي!!».

«بالضَّبط».

«إنه أمر قانوني أيضًا. ليس كما لو أنهم يستطيعون إيقافه».

«أعلم».

«اللعنة. أنا حتى لا يمكنني أن أفهمه».

كنا قد شربنا كأسين أثناء ذلك وشعرت بأن الحرارة ترتفع في وجنتيّ.

«أنا أكره التَّفكير في تركه. لكن لا يمكنني أن أكون جزءًا من هذا، ترين، لا أستطيع».

كانت تفكّر. كانت أختي فعليًا تملك «وجهًا مفكّرًا». يجعل الناس ينتظرون قبل أن يتحدّثوا إليها. يقول أبي إن وجهي المفكّر يجعلني أبدو كما لو أني أريد الذَّهاب إلى دورة المياه.

قلت: «لا أعرف ماذا عليَّ أن أفعل؟».

رفعت بصرها نحوي، تهلَّل وجهها فجأة: «الأمر بسيط».

«بسيط».

صبّت كأسين أخريين:» أوبس.. يبدو أن الزجاجة قد فَرغت.. نعم بسيط. لديهم المال، صح؟».

«لا أريد نقودهم. عرضت عليَّ علاوة. ليس هذا ما يشغلني».

«اخرسي. ليس من أجلك، أيتها البلهاء. سيكون لديهم نقودهم. وهي

ربما حصلت على مبلغ تأمين من الحادثة. حسنًا، قولي لهم إنك تريدين ميزانية، ثم استعملي ذلك المال خلال الشهور الأربعة المتبقية وغيري رأي ويل ترينر».

«ماذا؟».

«غيّري رأيه. قلت إنه يمضي معظم الوقت في البيت، صحيح؟ حسنًا، ابدئي بشيء صغير ثم عندما تخرجيه مرارًا وتكرارًا فكّري في كل شيء رائع يمكنك أن تفعليه من أجله، كل ما قد يجعله راغبًا بالحياة - مغامرات، سفر إلى الخارج، السّباحة مع الدلافين أيًا يكن. افعلي. يمكنني مساعدتك. سوف أرى أمورًا على الإنترنت في المكتبة. أؤكد لك يمكنك أن تجدي أشياء رائعة لتفعليها من أجله، أشياء قد تجعله سعيدًا حقًّا».

حدّقت بها.

«كاترينا»

«نعم. أعلم». كشّرت عندما بدأتُ أبتسم. «أنا عبقرية».

10

بدتا متفاجئتين بعض الشَّيء. في الواقع، هذا تصريح مكبوح. بدت السَّيدة ترينر مندهشة، ثم مبلبلة قليلًا، ثم انغلق وجهها. اكتفت ابنتها المتكوِّرة بقربها على الأريكة بأن حملقت بانشداه -نوع من التعابير التي اعتادت أمي أن تنبّهني إلى أنها سوف تتجمَّد على وجهي إذا ما تغيَّر اتجاه الريح. لم يكن رد الفعل المتحمّس الذي كنت آمله.

«لكن ما الذي تنوين فعله في الحقيقة؟».

«لا أعرف بعد. أختي تجيد البحث. هي تحاول أن تعرف ما هو متاح للمصابين بالشَّلل الرباعي. لكنني حقًّا أردت أن أعرف منكم ما إذا قد تكونون راغبين بالمضي في هذا».

كنَّا في غرفة الاستقبال. الغرفة نفسها التي أجريت فيها المقابلة معي، عدا أن هذه المرة كانت السَّيدة ترينر وابنتها جالستين على الأريكة، وكلبتهما المسنة جالسة بينهما يسيل لعابها. وكان السَّيد ترينر واقفًا بجانب الموقد. كنت أرتدي سترة العمل الفرنسية خاصتي نيلية اللون مصنوعة من قماش الدنيم وثوبًا قصيرًا وجزمة عسكرية. انتبهت على نحوٍ متأخّر إلى أني انتقيت اللباس الأكثر حِرَفية لأرسم خطتي.

انحنت كاميلا ترينر إلى الأمام: «دعيني أضع الأمور في نصابها. أنت تريدين أن تأخذي ويل بعيدًا عن هذا المنزل».

«نعم».

ثم أردفت كما لو أني أقترح أن يجري له هاوٍ جراحة قلب مفتوح: «وتأخذينه في سلسلة مغامرات».

«نعم، كما قلت، أنا لست واثقة مما هو ممكن بعد. لكن الفكرة هي أن نصحبه إلى الخارج، ونوسّع آفاقه. قد يكون هناك أشياء في المحيط يمكننا فعلها أولًا، ثم بعد ذلك آمل أن نتمكّن من فعل شيء أبعد».

«هل تتحدّثين عن السَّفر إلى الخارج؟».

«الخارج...؟»، طرفت بعيني. «كنت أفكّر أكثر باصطحابه إلى الحانة ربما. أو إلى عرضٍ ما. فقط كبداية».

«لم يغادر ويل المنزل منذ سنتين إلّا لمامًا، باستثناء مواعيد المستشفى».

«حسنًا، نعم... اعتقدت بأني سأحاول إقناعه بشيء آخر».

قالت جورجينا ترينر: «وسوف تذهبين معه بالتأكيد في كل هذه المغامرات».

«انظري، ليس من شيء استثنائي. أنا حقًّا أتحدَّث عن إخراجه من المنزل، لنبدأ بذلك. لنبدأ بنزهة حول القلعة، أو زيارة إلى الحانة. إذا انتهينا في السِّباحة مع الدلافين في فلوريدا، حينها هذا جيّد. لكن حقًّا أنا أردت فقط أن أخرجه من المنزل وأفكر بشيء آخر». لم أضف أن مجرد فكرة القيادة إلى المستشفى وأنا مسؤولة بمفردي عن ويل كانت كافية لأتصبّب عرقًا باردًا. بدت فكرة أخذه إلى الخارج كما لو أني أجري في الماراثون.

قال السَّيد ترينر: «أظن أنها فكرة مبهجة، أظن أنه سوف يكون رائعًا أن يخرج ويل. تعرفين لا يمكن أن يكون جيدًا له التحديق بأربعة جدران يومًا بعد آخر».

قالت السَّيدة ترينر: «لقد حاولنا أن نخرجه ستيفن، الأمر ليس كما لو أننا تركناه هناك ليتعفّن. لقد حاولت مرارًا وتكرارًا».

«أعرف ذلك، عزيزتي، لكن لم ننجح بشكل ممتاز، هل فعلنا؟ إذا كان في وسع لويزا أن تفكّر بأمور يكون ويل مستعدًا لتجريبها، هذا وحده يمكن أن يكون جيدًا، بلا ريب؟».

«نعم، حسنًا، «مستعد لتجريبها» هي العبارة العملية».

قلت وقد شعرت فجأة بالسّخط ورأيت ما كانت تفكّر فيه: «إنها مجرّد فكرة. إذا لم تكوني راغبة بأن أفعل ذلك...».

«ستغادرين؟»، ونظرت نحوي مباشرة.

لم أشح ببصري. لم تعد تخيفني. لأني عرفت الآن أنها لم تكن أفضل مني. كانت امرأة تجلس وتدع ابنها يموت أمام ناظريها.

«نعم، ربما سأفعل».

«إذًا هو ابتزاز».

«جورجينا!».

«حسنًا، دعونا لا نحوم حول الموضوع، أبي».

جلست باستقامة أكثر قليلًا: «لا. ليس ابتزازًا. هذا فقط ما يمكّنني من الاستمرار في العمل. لا يمكنني الجلوس والانتظار بهدوء حتى... ويل... حسنًا...»، اختفى صوتي.

حدَّقنا جميعنا في أكواب الشَّاي.

قال السَّيد ترينر بحزم: «كما قلت، أظنُّ أنها فكرة سديدة جدًّا. إذا كنت تستطيعين الحصول على موافقة ويل، لا أستطيع أن أرى في ذلك أيّ أذى على الإطلاق. أحب فكرة أن يذهب في إجازة. فقط... فقط دعينا نعرف ما المطلوب منّا».

قالت السَّيدة ترينر وقد وضعت يدًا على كتف ابنتها: «لديّ فكرة، ربما يمكنك الذهاب في إجازة معهما جورجينا».

قلت: «ممتاز». كان ممتازًا لأن حظوظي في اصطحاب ويل في إجازة تقريبًا تساوي حظوظي في منافسة «العقل المدبِّر»[1].

تحرَّكت جورجينا ترينر غير مرتاحة في مقعدها: «لا أستطيع. أنت تعلمين أني سأبدأ عملي الجديد خلال أسبوعين. لن يكون في وسعي العودة إلى إنكلترا ثانية حالما أبدأ».

«هل ستعودين إلى أستراليا؟».

«لا تتفاجئي كثيرًا. لقد أخبرتك أنها مجرّد زيارة».

«لقد فكرت أنه بالنظر إلى الحوادث الأخيرة قد ترغبين في البقاء هنا مدة أطول بقليل». حدَّقت كاميلا ترينر بابنتها بطريقة لم تنظر بها إلى ويل، مهما كان فظًّا معها.

«إنه عمل جيّد حقًّا أمي. إنه العمل الذي كنت أطمح إليه منذ سنتين». رمقت والدها. «لا يمكنني أن أضع حياتي كلّها في الانتظار بسبب حالة ويل العقلية».

كان هناك صمت طويل.

«هذا ليس عدلًا. إذا كنت أنا في كرسي، هل كنت ستطلبين من ويل أن يعلِّق جميع خططه؟». لم تنظر السَّيدة ترينر إلى ابنتها. نظرتُ أسفل نحو قدميّ، أقرأ وأعيد قراءة الفقرة الأولى. «لدي حياة أيضًا كما تعلمين»، خرجت الكلمات في نبرة تشبه الاحتجاج.

«لنناقش هذا في وقت آخر». وضع السَّيد ترينر يده على كتف ابنته وضغط بلطف.

«نعم، دعونا». بدأت السَّيدة ترينر تخلط الأوراق أمامها. «صحيح، إذًا. أنا أقترح أن نفعل التالي. أريد أن أعرف كل ما تخطّطين له»، قالت وهي ترفع بصرها نحوي: «أريدك أن تقومي بالتخمينات، وإذا كان ممكنًا أن

---

(1) Mastermind: برنامج مسابقات بريطاني.

تضعي جدولًا سأستطيع أن أحاول وأخطط لإجازة كي آتي معكما. لدي بعض العطل المستحقة لذا يمكنني...».

«لا».

التفتنا جميعنا لننظر إلى السَّيد ترينر. كان يلاطف رأس الكلب وكانت قسماته لطيفة لكن صوته كان حازمًا:

«لا. لا أظن أن عليك الذَّهاب، كاميلا. يجب أن يكون مسموحًا لويل أن يفعل هذا بنفسه».

«ويل لا يمكنه أن يفعل بنفسه، ستيفن. هناك أمور كثيرة يجب أن تؤخذ في الاعتبار عندما يذهب ويل إلى أي مكان. الأمر معقَّد. لا أظن أن في وسعنا أن ندع الأمر لـ...».

كرر: «لا عزيزتي. نايثن يمكنه المساعدة ولويزا يمكنها تدبُّر الأمر على نحو ممتاز».

«لكن...».

«يجب أن يكون مسموحًا لويل أن يشعر بأنه رجل. هذا لن يكون ممكنًا إذا كانت أمه أو أخته دومًا في المتناول».

شعرت ببعض الأسف على السَّيدة ترينر حينها. هيٍ لا تزال لديها تلك النظرة الأنوفة، لكنني رأيت أنها بدت تائهة بعض الشَّيء كما لو أنها لم تتمكّن من أن تفهم ما كان يفعله زوجها. ذهبت يدها إلى سلسلتها.

قلت: «سأضمن أن يكون سالماً، وسوف أعلمكم بكلِّ ما نخطِّط لفعله. مقدَّمًا».

كان فكُّها متصلبًا للغاية وعضلة صغيرة بارزة تمامًا تحت عظم خدها. تساءلت إذا كانت حقًّا قد كرهتني حينها.

قلت أخيرًا: «أريد أن يرغب ويل بالحياة أيضًا».

قال السيد ترينر: «نحن نفهم ذلك، ونثمِّن مقاصدكِ وجهودك».

تساءلت ما إذا كانت تلك الكلمة على علاقة بويل أو بشيء آخر كلّيًّا، وحينها وقف وأدركت أنها كانت إشارة للمغادرة. لا تزال جورجينا وأمها جالستَيْن على الأريكة لا تقولان شيئًا. شعرت أنه ستكون هناك محادثة أطول عندما أغادر الغرفة.

قلت: «إذًا، سوف آتيكم بورقة العمل. حالما أنهي كل شيء في رأسي لن يكون لدينا الكثير في وقتٍ قريب...».

ربَّت السَّيد ترينر على كتفي.

قال: «أعلم. فقط دعينا على علم بما تتوصّلين إليه».

***

كانت ترينا تنفخ على يديها، وقدميها تتحركّان أعلى وأسفل كرهًا كما لو أنها تراوح في المكان. كانت ترتدي قبعتي البيريه الخضراء الداكنة التي أزعجني أنها تبدو عليها أفضل مما تكون عندما أعتمرها. انحنت وأشارت إلى القائمة التي أخرجتها من جيبها للتو وناولتني إياها.

«ربما سيكون عليك أن تشيري إلى الرقم ثلاثة أو على الأقل تؤجّليه حتى يصبح الطقس أكثر دفئًا».

تفحَّصت القائمذة.

« كرة سلَّة للمصابين بالشَّلل الرباعي؟ أنا لست واثقة من أنه يحب كرة السلَّة».

«ليست هذه هي الفكرة. يا للجحيم الطقس بارد هنا». جذبت البيريه على أذنيها. «الفكرة هي أنها سوف تمنحه فرصة ليرى ما هو ممكن، يمكنه أن يرى أن هناك أناسًا آخرين حالهم سيئ مثل حاله ويمارسون الرياضة وهذه الأشياء».

«أنا لست واثقة. هو لا يمكنه أن يمسك كوبًا. أظنُّ أن هؤلاء الناس لا

بد مصابين بالشَّلل النصفي. لا أستطيع أن أرى أنه يمكنك أن ترمي كرة من دون استعمال ذراعيك».

«أنت تفوتين الفكرة. ليس عليه حقًّا أن يفعل أي شيء. لكن الأمر يتعلّق بتوسيع آفاقه، صحيح؟ نحن نريه ماذا يفعل معوَّقون آخرون».

«إذا كنت تقولين ذلك...».

علت تمتمة خفيضة بين الجمهور. شوهد الراكضون على مسافة قريبة. إذا وقفت على رؤوس أصابعي، كان في وسعي أن أميّزهم، ربما على بعد ميلين نحو الوادي. كتلة صغيرة من النقاط البيضاء المتمايلة تشقّ طريقها عبر الطريق الرمادي البارد الرطب. نظرت إلى ساعتي. كنا نقف هناك على حافّة التلّة المسماة ببراعة «ويندي هيل» منذ أربعين دقيقة وأنا لم أعد أشعر بقدميَّ.

«بحثت في النشاطات المحليّة، وإذا كنت غير راغبة أن تقودي مسافات بعيدة هناك مباراة في المركز الرياضي خلال أسبوعين. يمكنه أن يراهن على النتيجة».

«رهان؟».

«بتلك الطريقة يمكنه أن يشارك من دون أن يلعب. أوه انظري ها هم هناك. كم من الوقت تظنين قد يستغرقون للوصول إلينا؟».

وقفنا قرب خط النهاية. رفرف فوق رؤوسنا في النسيم الجاف علم من القماش المشمَّع يعلن عن «خط نهاية ترياثلون الربيع».

«لا أعرف. عشرون دقيقة؟ أكثر؟ لقد أتيت بلوح شوكولا مارس للطوارئ، إذا كنت ترغبين بمشاركتي إياه». مددت يدي إلى جيبي. كان مستحيلًا أن أمنع القائمة من الخفقان. «وبماذا أتيت أيضًا؟».

«قلتِ إنك أردت الذهاب بعيدًا، صحيح؟». أشارت إلى أصابعي. «لقد أعطيت لنفسك أكبر الرهانات».

«خذي هذه القطعة إذًا. أخال أن العائلة تظن بأني متطفّلة».

«ماذا، لأنك ترغبين أن تصحبيه بضعة أيام رخيصة؟ يا إلهي. عليهم أن يكونوا ممتنين لشخص يبذل الجهد. ليس كما هم عليه».

أخذت ترينا القطعة الأخرى من لوح الشُّوكولا.

«بأي حال. الرقم خمسة، أظن أنه هو. هناك دورة حاسوب يمكنه اتباعها. يضعون شيئًا على رأسهم مثل لصاقة ويومئون به ليمسَّ لوحة المفاتيح. هناك مقدار كبير من مجموعات المصابين بالشَّلل الرباعي على الخط. يمكنه أن يعقد الكثير من الصَّداقات الجديدة بتلك الطريقة. قد يعني أنه ليس عليه دومًا مغادرة المنزل. تحدثت أيضًا إلى زوج في غرف المحادثة. بدَوَا لطيفين. تمامًا» - هزت كتفيها - «عاديَّين».

تناولنا بصمت لوح الشوكولا الذي اقتسمناه، نراقب عندما اقتربت مجموعة العدّائين الرثّي المظهر. لم أتمكَّن من رؤية باتريك. لم أستطع أبدًا. كان له وجه يختفي في الحال بين الحشود.

أشارت إلى قصاصة ورق.

«بأيّ حال، توجَّهي إلى القسم الثَّقافي. يقام حفل موسيقي خاص بذوي الإعاقة هنا. قلتِ إنه مثقف، صحيح؟ حسنًا، يمكنه أن يجلس هنا ويتأثّر بالموسيقى. هذا يعني أن يخرجك عن طورك، صحيح؟ أخبرني ديريك ذو الشَّارب، في العمل عنه. قال إنه يمكن أن يصبح صاخبًا بسبب المعوّقين الذين يصرخون قليلًا لكن أنا واثقة من أنه سوف يستمتع بصراخهم مع ذلك».

غضَّنت أنفي قائلة: «لا أعرف ترين...».

«أنت فقط مذعورة لأني قلت «ثقافة». ليس عليك سوى أن تجلسي هناك معه. وألّا تصدري ضجيجًا بعبوتك المغضَّنة، أو إذا تخيلت شيئًا أكثر أناقة»، كشَّرت نحوي. «هناك نادٍ للتعري، يمكنك أن تصحبيه إلى لندن من أجل ذلك».

«أصحب ربَّ عملي ليشاهد متعرّية؟».

«حسنًا، أنت تقولين إنك تفعلين كل شيء من أجله - كل التنظيف والإطعام وأشياء من هذا القبيل. لا يمكنني أن أرى ما يمنعك من الجلوس إلى جانبه وهو يشعر بالإثارة».

«ترينا!».

«حسنًا، لا بد أنه يفتقده. يمكنك أيضًا أن تبتاعي له رقصة جنسية».

أدار بعض الناس من حولنا في الحشد رؤوسهم. كانت أختي تضحك. يمكنها أن تتحدث عن الجنس بهذه الطريقة. كما لو أنه نوع من نشاط ترفيهي. كما لو أنه لا يهم.

«ثمَّ على الجانب الآخر، هناك الرحلات الأكبر. لا تعرفين ما قد يخطر لك، لكن يمكنك أن تذهبي إلى اختبار تذوّق النبيذ في اللوار... هذا ليس بعيدًا بالنسبة للبدايات».

«هل يمكن للمشلول أن يثمل؟».

«لا أعرف، اسأليه».

قطَّبت في القائمة.

«إذًا.. سأعود وأخبر آل ترينر إني سوف أجعل ابنهم المشلول ذا الميول الانتحارية ثملًا، وأصرف نقودهم على المتعرّيات والرقصات الجنسية ثم أدحرجه إلى الألعاب الأولمبية للمعوّقين».

اختطفت ترينا القائمة مني: «حسنًا، لا أرى أنك ستتوصّلين إلى شيء أكثر إلهامًا».

«أنا فكّرت للتو... لا أعرف»، حككت أنفي، «أشعر قليلًا بالرهبة. كي أكون صادقة، أنا يصعب عليَّ إقناعه بالذهاب إلى الحديقة».

«حسنًا هذا هو الموقف بالكاد، أليس كذلك؟ أوه انظري ها هم قادمون. من الأفضل أن نبتسم».

***

«هيا باتريك!» صرخت بوهن. لم يرني. وعبرَ نحو خط النهاية.

***

لم تتحدّث ترينا إليَّ ليومين بعد أن تلكأتُ عن إظهار الحماسة المطلوبة لقائمتها. والداي لم يلاحظا، كانا فقط مبتهجين لسماع أني قررت عدم ترك عملي. دعت الإدارة إلى سلسلة من الاجتماعات في معمل الأثاث في نهاية ذلك الأسبوع وكان أبي مقتنعًا بأنه سيكون من بين هؤلاء الذين سيتم التخلص منهم باعتبارهم فائضين عن الحاجة. لم ينجُ أحد ممن يتجاوز عمرهم الأربعين عامًا من الغربلة.

كرّرت أمي كثيرًا: «نحن ممتنون للغاية من أجل عنايتك بالمنزل حبيبتي». ما جعلني أشعر ببعض الضِّيق.

كان أسبوعًا مسلّيًا. بدأت ترينا تحزم حقائبها للالتحاق بدورتها، وكان عليَّ كل يوم أن أنسلّ إلى الطابق الأعلى لأفتش في الحقائب التي حزمتها لأرى أيًّا من أغراضي قد خططت لأخذه معها. كانت معظم ملابسي في مأمن لكن حتى الآن استعدت مجفّف الشعر، ونظارتي الشمسيَّة من ماركة برادا المزيفة، وحقيبتي الأثيرة تلك التي عليها ليمون، لو واجهتها بأي منها سوف تهز كتفيها وتقول: «حسنًا أنت لم تستعمليها أبدًا»، كما لو أن تلك كانت الفكرة برمَّتها.

تلك كانت ترينا في كل مكان. شعرَت بأنها مخوَّلة. حتى مع ولادة توماس، هي لم تفقد تمامًا ذلك الإحساس في كونها طفلة العائلة - الشُّعور المتأصِّل بأن العالم أجمع يدور من حولها بالفعل. عندما كنا صغيرتين ثارت ثائرتها لأنها أرادت شيئًا لي، توسَّلتني أمي قائلة: «فقط دعيها تأخذه»، فقط من أجل بعض السَّلام في المنزل. بعد عشرين عامًا لم يتغير شيء تقريبًا. كان علينا أن نرعى توماس فتتمكن ترينا من الخروج، نطعمه فلا يكون عليها أن تقلق، نشتري لها هدايا جميلة في أعياد الميلاد والكريسماس «لأن وجود توماس كان غالبًا يعني ألّا تحظى بها». حسنًا،

يمكنها أن تذهب من دون حقيبتي اللعينة. وضعت ملحوظة على بابي كتبت عليها: «أشيائي هي ملك لي، اغربي عني»، مزَّقَتها ترينا وقالت لأمي إني أكبر الأطفال الذين عرفَتهم في حياتها، وأن توماس كان أكثر نضجًا مني. لكن هذا جعلني أفكِّر. ذات مساء، بعد أن ذهبت ترينا إلى درسها الليلي، جلست في المطبخ بينما أمي كانت تحضر قمصان والدي للكي.

«أمي...».

«نعم، حبيبتي».

«هل تظنين بأن في وسعي أن أنتقل إلى غرفة ترينا عندما تذهب؟».

توقَّفت أمي، قميص نصف مطوي مضغوط على صدرها: «لا أعرف. لم أفكّر في ذلك حقًّا».

«أعني إذا كانت هي وتوماس غائبَيْن، من العدل أن يُسمح لي أن أحظى بغرفة مناسبة. يبدو سخيفًا أن تبقى فارغة إذا كانا ذاهبين إلى الكلية».

أومأت أمي، ووضعت القميص بعناية في سلَّة الغسيل.

«أخال أنك على حق».

«وبالحقوق يجب أن تكون تلك الغرفة لي، لكوني الأكبر.. ولكل شيء. هي حصلت عليها فقط بسبب توماس».

استطاعت أن ترى ذلك معقولًا.

قالت: «هذا صحيح. سوف أتحدَّث مع ترينا بهذا الشَّأن».

بعد ثلاث ساعات دخلت ترينا مندفعة إلى غرفة الجلوس متوعِّدة.

«تريدين أن تقفزي في قبري سريعًا جدًّا؟!».

انتفض جدِّي مستيقظًا في كرسيه، قبضت يده على صدره برد فعل انعكاسي.

رفعت بصري عن التلفاز.

«عمَّ تتحدثين؟».

«أين من المفترض أن نذهب أنا وتوماس في عطلة نهاية الأسبوع؟ لا يمكن أن تتّسع لنا غرفة المخزن. ليس هناك مكان لسريرَين».

«بالضبط. ولكن أنا كنت محشورة هناك طوال خمس سنوات». معرفة أني كنت دومًا مظلومة نوعًا ما جعلتني أبدو مزعجة أكثر مما انتويت أن أكون.

«لا يمكنك أن تأخذي غرفتي. هذا ليس عادلًا».

«أنت لن تكوني فيها!».

«لكني أحتاجها! لن تسعنا غرفة المخزن أنا وتوماس، أبي قل لها!».

انحدر ذقن والدي عميقًا في ياقته، وانطوت ذراعاه على صدره. كره تشاجرنا، وكان ينحو إلى ترك الأمر لأمّي كي تحلّه.

قال: «اهدأا قليلًا أيتها الفتاتان».

«لا أصدقكِ. لا عجب أنك كنت متحمسة كثيرًا لمساعدتي على المغادرة».

«ماذا؟ إذًا رجاؤك لي أن أحتفظ بعملي كي أستطيع مساعدتك ماليًا هو الآن جزء من خطتي الشريرة، أليس كذلك؟».

«أنت منافقة».

«كاترينا، اهدئي». ظهرت أمي في الباب، قفازَاها المطاطيّان يقطران الماء على سجادة غرفة الجلوس. «يمكننا التَّحدث عن الأمر بهدوء. لا أريدك أن تجعلي جدّك يتضايق».

كان وجه كاترينا ملطخًا كعادته منذ أن كانت صغيرة ولم تتخلّص من هذا.

«هي في الواقع تريدني أن أذهب. هذا هو الأمر. لا يمكنها أن تنتظر

حتى أذهب، هي تغار مني لأني أفعل شيئًا في حياتي وتريد أن تصعِّب أمر عودتي إلى البيت ثانية».

صرخت ملدوغة: «ليس هناك ما يضمن عدم عودتك إلى البيت في عطلات نهاية الأسبوع، أحتاج إلى غرفة نوم، وليس إلى خزانة، وأنت حصلت على أفضل غرفة طوال الوقت، فقط لأنك كنتِ حمقاء بما فيه الكفاية كي تحبلي».

قالت أمي: «لويزا!».

«نعم، حسنًا، لو لم تكوني سمينة جدًا ما منعك من الحصول على عمل مناسب لكنت حصلت على مكانك اللعين. أنت كبيرة بما يكفي. أو ما هي المسألة؟ هل عرفت أخيرًا أن باتريك لن يطلب الزواج منك يومًا؟».

كسر هدير والدي الصمت: «هذا يكفي! لقد سمعت ما فيه الكفاية! ترينا اذهبي إلى المطبخ. لو اجلسي واخرسي. تحمّلت ما يكفي من الضَّغط في حياتي من دون أن يكون عليَّ أن أصغي إلى مشاجراتكما».

همست ترينا لي عندما دفعتها أمي لتخرج من الغرفة: «إذا كنت تظنين بأني أساعدك الآن بقائمتك الحمقاء، فقد حصلت على شيء آخر».

قلت: «جيّد. لم أرغب بمساعدتك بأيّ حال، أيتها المستغلَّة»، ثم تنحَّيت عندما رمى أبي نسخة من صحيفة الراديو تايمز على رأسي.

***

ذهبت صباح يوم السَّبت إلى المكتبة. أظن بأني ربما لم أذهب منذ أن كنت في المدرسة خوفًا من أنهم قد يتذكّرون كتاب «جودي بلوم» الذي ضيّعته في السَّنة السَّابعة. وقد تمتد يد طرية لأحد المسؤولين لكي تطلب مني دفع مبلغ 3.853 جنيهات إسترليني على سبيل الغرامة عند عبوري أبواب المبنى الفكتوري ذي الأعمدة.

ليس هذا ما تذكّرته. بدا أن نصف الكتب استُبدلت بالأقراص

المضغوطة، رفوف كبيرة مليئة بالكتب المسموعة، وحتى مساند لبطاقات المعايدة. ولم يكن هناك صمت. رفرف صوت الغناء والتصفيق من ركن كتب الأطفال، حيث مجموعة من أمهات وأطفال. الناس يقرأون المجلات ويثرثرون بهدوء. اختفى القسم حيث كان ينام الرجال المسنّون على صحف مجانية واستُبدل بطاولة بيضاوية الشَّكل كبيرة بحواسيب منتشرة من حولها. جلست بتحفظ إلى واحدة منها، على أمل أن أحدًا لم يكن يراقبني. الحواسيب كالكتب، هي أشياء تخصّ أختي. من حسن الحظ، بدا أنها توقّعت الرعب المجرَّد من قبل أناس مثلي، توقّفت أمينة مكتبة إلى طاولتي، وناولتني بطاقة وبضع صفحات عليها تعليمات. لم تقف فوق كتفيَّ، فقط تمتمت بأنها سوف تكون عند المكتب إذا احتجت لأي مساعدة إضافية، ثم كنت أنا وكرسي ذو عجلات متداعية والشَّاشة الفارغة.

الحاسوب الوحيد الذي كنت على اتصال معه خلال سنوات هو حاسوب باتريك. هو فقط استعمله ليحمِّل خطط اللياقة، أو ليطلب كتبًا تقنية رياضية من موقع أمازون. إذا كانت هناك أمور أخرى فعلها فأنا لا أريد أن أعرف بأمرها. لكني تبعت تعليمات أمينة المكتبة، أتأكد مرتين وأنا أكمل كل مرحلة. وبشكل مدهش نجح الأمر. لم ينجح فقط لكنه كان سهلًا. بعد أربع ساعات كان لديَّ طلائع قائمتي.

ولم يذكر أحد كتاب «جودي بلوم». بالمناسبة ذلك كان ربما لأني استعملت بطاقة أختي. في طريقي إلى البيت عرَّجت على متجر بيع القرطاسية واشتريت روزنامة حائط - من النوع الذي قد تجده في مكتب، معلَّم عليها أيام العطلات. فتحتها في غرفتي الصَّغيرة في البيت وثبَّتها بعناية على الباب ووسمت تاريخ بدئي العمل عند آل ترينر في بداية شهر شباط. ثم عددت للأمام ووسمت تاريخ 12 آب بعد أربعة أشهر بالكاد. خطوت خطوة إلى الوراء وحدَّقت بها لفترة أحاول أن أصنع حلقة سوداء صغيرة تحمل معنًى لما لها من دلالة. وأنا أحدّق بدأت بإدراك ما كنت أواجهه.

كان عليّ أن أملأ تلك المستطيلات الصغيرة البيضاء بأشياء يمكن أن تخلق السَّعادة، السُّرور، الرضى، أو المتعة. قد أملأها بكل تجربة جيّدة يمكنني أن أستحضرها من أجل رجل عاجز، ما يعني أنه لا يمكنه القيام بها بنفسه. لديَّ أقل من أربعة أشهر من المستطيلات المطبوعة لأملأها بالنزهات، والزوّار، وبمآدب الغداء، وحفلات موسيقية. كان عليَّ أن أتوصَّل بكل الطرق العملية لتحقيقها وأقوم بما يكفي من الأبحاث لأضمن نجاحها.

ثم كان عليَّ إقناع ويل أن يفعلها. تطلعت نحو روزنامتي، القلم ثابت في يدي. حمَلت قطعة الورق الصغيرة هذه فجأة كمًا كبيرًا من المسؤولية. أمامي مائة وسبعون يومًا لإقناع ويل ترينر بأن لديه سببًا كي يحيا.

11

هناك أماكن تميزت فيها الفصول بالطُّيور المهاجرة، أو بحركتَي المدّ والجزر. هنا، في بلدتنا الصَّغيرة، كانت عودة السُّياح. بداية، يترجّل عدد ضئيل من الوافدين، من القطارات أو من السَّيارات، في معاطف مطرية زاهية الألوان، يمسك واحدهم بالدليل السياحي وببطاقة عضوية ناشيونال ترَست، ثم مع ارتفاع درجة الحرارة وتقدُّم الموسم، كانوا ينزلون من مركباتهم التي تقذف بقوة مصدرة صوت فحيح، يسدُّون الطَّريق الرَّئيس، أميركيون ويابانيون، ومجموعة من طلاب المدارس الأجانب ينتشرون في محيط القلعة.

في الشِّتاء، بقيت بعض المتاجر مفتوحة الأبواب. إذ ينتهز مالكو المتاجر الأكثر ثراء الشُّهور الطَّويلة الكئيبة ليختفوا في إجازة خارج البلاد، بينما الأكثر تصميمًا من بينهم استضافوا أحداث عيد الميلاد مستغلين حفلات الترانيم التي تقام بين الحين والآخر في السَّاحات، أو معارض الحرَف الاحتفالية. لكن حينها مع ارتفاع درجات الحرارة، تصبح ساحة انتظار السَّيارات في القلعة مرصَّعة بالعربات، وسوف تحرز الحانات المحلية ارتفاعًا في عدد طلبات وجبة «غداء الحارث»[1]. وخلال عدد

(1) وهي وجبة إنكليزية باردة مكونة من الجبن والمخلل والخبز.

من الآحاد المشمسة، نتحوّل ثانية من كوننا بلدة تجارية خاملة إلى وجهة سياحية إنكليزية تقليدية.

صعدتُ التَّلة، أتفادى هذا العدد القليل من الذين جاؤوا مبكرين لهذا الموسم، وهم يتحزّمون بحقائب الخصر ويحملون الأدلَّة السياحية المستعملة. آلات تصويرهم على أهبة الاستعداد لالتقاط تذكارات القلعة في الربيع. ابتسمت إلى البعض، توقّفت لالتقاط الصُّور لآخرين قدّموا لي آلات تصوير تخصّهم. اشتكى بعض المحليين من موسم السِّياحة الذي يتسبّب بالازدحام المروري، ودورات المياه العامة المزدحمة، وطلبات لأطعمة غريبة في مقهى الباترد بان («ألا تصنعون السوشي؟ ليس حتى لفافة يدوية الصُّنع؟»)، لكني لم أفعل، أحببت رائحة الهواء الغريب، والنظرات المقرَّبة على حيوات بعيدة عن حياتي.

أحببت سماع اللكنات وتخمين المكان الذي قدم منه أصحابها. تفحّص ثياب الناس الذين لم يروا يومًا كتالوج «نِكست» ولم يشتروا حزمة مؤلّفة من خمسة سراويل تحتية من متجر «ماركس أند سبنسر».

قال ويل وأنا أرمي حقيبتي في الرِّواق: «تبدين مبتهجة». قال ذلك كما لو أنها إهانة.

«ذلك لأنه اليوم...».

«ماذا؟».

«نزهتنا. سوف نأخذ نايثن ليرى سباق الخيل».

تبادل ويل ونايثن النَّظرات. كنت أضحك تقريبًا. مرتاحة للغاية لمرأى الطَّقس. حالما رأيت الشَّمس، عرفت أنَّ كل شيء سوف يكون على ما يرام.

«سباق خيل؟».

«نعم. سباق الأرض المنبسطة في...»، أخرجت مفكرتي من جيبي:

«لونغفيلد. إذا غادرنا الآن يمكننا أن نصل إلى هناك مع بدء السِّباق الثَّالث. ولديَّ خمسة جنيهات، رهان متعدّد الاتجاه على مان أوه مان، لذا من الأفضل أن نتحرّك».

«سباق خيل».

«نعم. نايثن لم يحضر يومًا أي سباق».

كنت أرتدي على شرف المناسبة ثوبي الأزرق المبطَّن القصير، وأعقد حول عنقي وشاحًا رُسمت حول حافته شكائم حصان، وجزمة جلديَّة خاصَّة بركوب الخيل.

تفحَّصني ويل بعناية، ثم عكس كرسيه وانحرف ليتمكّن من رؤية نايثن بشكل أفضل.

«هذه رغبة مكبوتة عندك، أليست كذلك يا نايثن؟».

حدَّقتُ بنايثن محذِّرة.

قال مبتسمًا: «نعم، لم أرَ سباقًا من قبل، لنتوجَّه لرؤية الأفراس».

كنت قد أوضحت له الأمر. اتَّصلت به يوم الجمعة وسألته عن اليوم الذي يناسبه. كان آل تريتر قد وافقوا على أن يدفعوا له مقابل السَّاعات الإضافيَّة (سافرت أخت ويل إلى أستراليا وأظنُّ أنهما أرادا أن يكونا على ثقة من أن شخصًا «متعقِّلًا» سوف يكون في صحبتي)، لكن لم أكن واثقة مما سنفعل حتى يوم الأحد. تلك بدت بداية مثالية - يوم لطيف في الخارج، أقل من نصف ساعة في السَّيارة.

«وماذا لو قلت إني لست راغبًا في الذَّهاب؟».

قلت: «إذًا أنت مدينٌ لي بأربعين جنيهًا».

«أربعون جنيهًا؟ كيف حسبتها؟».

«إنها أرباحي. خمس جنيهات في ثمانية لكلٍّ واحد». هززت كتفيَّ.

«أمر أكيد في لعبة مان أوه مان».

بدوت أني أفقدته توازنه.

صفق نايثن يديه على ركبتيه وقال: «يبدو هذا عظيمًا. يوم لطيف من أجله أيضًا، هل ترغبين أن أحزم بعض الطَّعام؟».

قلت: «لا، هناك مطعم ظريف، بعد أن يكسب حصاني، الغداء على حسابي».

قال ويل: «هل كنت تذهبين إلى السِّباقات كثيرًا إذًا؟».

تبسّمت وقبل أن يتمكَّن من قول أي شيء آخر، ألبسناه معطفه وهرعنا إلى الخارج لنعكس اتجاه السَّيارة.

***

كنت قد خططت لكلِّ شيء. كنا سنصل إلى مضمار السِّباق في يوم مشمس جميل. ستكون هناك خيول أصيلة ملمَّعة بقوائمَ كالعصيّ، وينطلق فرسانها متّشحين بحرير منفوخ زاهٍ. ربَّما فرقة نحاسيَّة أو اثنتان. وستكون المدرَّجات ملأى بالمهللين، وقد نجد مكانًا نلوِّح منه بقصاصتنا الرَّابحة. قد يبدأ مفعول خصلة ويل التنافسية بالسريان وسوف لن يكون قادرًا على مقاومة حساب الاحتمالات ليضمن أنه سوف يربح أكثر من نايثن أو منِّي. لقد حسبت كلَّ ذلك. ثم بعد أن نشاهد الأحصنة مدَّة كافية نذهب إلى مطعم حسن السُّمعة ونتناول وجبة ممتازة.

كان عليَّ أن أصغي إلى والدي. كان ليقول: «تريدين أن تعرفي التَّعريف الصَّحيح لانتصار الأمل على الخبرة؟ خططي لنزهة عائلية مسليَّة».

بدأ الأمر مع ساحة انتظار السَّيارات. قدت إلى هناك من دون أي حادثة، واثقة الآن أكثر لأني لم أكن لأقلب ويل إذا زدت السرعة أكثر من 15 م/ س. وبقيت أمازحه بمرح طوال الطريق إلى هناك، أطلق تعليقات حول السَّماء الصَّافية الجميلة، وجمال الرِّيف، وقلَّة الازدحام. لم يكن هناك ما يعيق دخول المضمار الذي كان أصغر مما كنت أتوقَّع وموقف السَّيارات كان ملحوظًا بوضوح.

لكن لم يحذِّرني أحد من أن المضمار كان على العشب، ونحن في فترة من أيام ماطرة. عدنا إلى الوراء في الفسحة (ليس صعبًا إذ لم يكن ممتلئًا إلّا نصفه فقط) وتقريبًا حالما أنزلت السُّلم بدا نايثن قلقًا.

قال: «إنه طريٌّ جدًا، سوف يغوص».

نظرت نحو المدرَّجات.

«إذا استطعنا أن نصل به نحو ذلك الممر سنكون بخير؟».

قال: «هذا الكرسي يزن طنًا، والمسافة قرابة أربعين قدمًا».

«أوه هيًا، لا بدَّ أنهم صنعوا هذه الكراسي لتصمد قليلًا على الأرض الملساء».

أنزلت كرسي ويل بحذر ثم شاهدت العجلات تغوص مسافة إنشات في الوحل.

لم يقل ويل شيئًا. بدا متضايقًا، والتزم الصَّمت معظم وقت الرحلة التي استمرت نصف ساعة.

قلت: «هيًا، سوف نجرّها يدويًا. أنا واثقة أن في وسعنا تدبّر أمر الوصول إلى هناك».

أمَلنا ويل إلى الخلف. أمسكت بمقبض وأمسك نايثن بالآخر وجررنا الكرسيَّ نحو الدَّرب. كانت عمليَّة بطيئة. وكان عليَّ أن أتوقَّف باستمرار لأني شعرت بألم في ذراعيَّ، وجزمتي القديمة أصبحت مُثخنة بالوحل. عندما وصلنا أخيرًا إلى الدَّرب انزلق غطاء ويل عنه وعلق قليلًا في كرسيه مخلفًا زاوية ممزَّقة وموحلة.

قال ويل بجفاء: «لا تقلقي، إنه من الكشمير».

تجاهلته.

«ها نحن، لقد نجحنا. الآن هيًا إلى المرح».

آه نعم المرح. من فكَّر أنها ستكون فكرة حسنة أن يكون للمضمار

أبواب دوَّارة؟ كان بالكاد كما لو أنهم احتاجوا إلى التَّحكم بالحشود. نظرنا إلى الباب الدَّوار ثمَّ إلى كرسي ويل ثم تبادلنا نايثن وأنا النظرات.

تقدَّم نايثن إلى مكتب التَّذاكر وشرح مأزقنا للمرأة في الدَّاخل. مطّت رأسها ونظرت إلى ويل ثم أشارت نحو الجهة الأخرى من الموقف وقالت: «مدخل المعوّقين هناك».

قالت كلمة معوّق مثل شخص يخوض مسابقة في الخطابة. كان يبعد مسافة مائتي ياردة. عندما وصلنا أخيرًا اختفت السَّماء الصَّافية بغتة، وحلَّ محلها هبَّة ريح مفاجئة. لم أجلب معي مظلَّة بطبيعة الحال. واصلت طرح تعليقاتي المرحة عن كم كان الأمر مسليًا، وإلى إي درجة كان سخيفًا وحتى أنا شخصيًّا رأيت أني صرت أبدو هشَّة ومزعجة. قال ويل أخيرًا: «كلارك، اهدئي. حسنًا، أنت مُنهكة».

اشترينا التَّذاكر، ثم دفعت ويل إلى منطقة مظللة تمامًا إلى جانب المدرَّج الرَّئيس وأنا نصف دائخة من الارتياح لوصولنا أخيرًا إلى المدرجات. وفيما كان نايثن يحضّر شراب ويل كان لديّ بعض الوقت للنظر نحو روَّاد السِّباق.

فوقنا، على شرفة ذات واجهة زجاجية، قدَّم رجال يرتدون بدلات، كؤوس الشَّمبانيا إلى نساء يرتدين أزياءً تليق بحفلات الزِّفاف. بدت الشرفة دافئة ومريحة. ظننت أنها كانت الدرجة الأولى، مدرجَة إلى جانب سعر مرتفع للغاية على اللوح في كشك بيع التَّذاكر. وضعوا نياشين صغيرة مربوطة بخيطٍ أحمر، تسِمهم بأنهم مميزون. تساءلت إذا كان ممكنًا أن نلوِّن نياشيننا الزرقاء بصبغة مختلفة، لكني رأيت أننا الوحيدون بصحبة كرسي متحرّك وربما هذا يجعلنا محط الأنظار بعض الشَّيء.

إلى جانبنا، كان رجال في بدلات من قماش التويد، ونساء في معاطف مبطَّنة أنيقة، ينتشرون على طول المدرَّجات ويحملون أكواب قهوة من البوليستايرين وقوارير صغيرة. بدوا عاديين أكثر بقليل، وضعوا نياشين

زرقاء مثل نياشيننا. ثم مثل محاكاة لنظام الصَّف، وقف جمع من الرِّجال حول حلقة السِّباق يرتدون قمصان البولو المخططة، ويمسكون بعلب البيرة وبدوا أنهم في ما يشبه نزهة.

ألمحت رؤوسهم الحليقة إلى الخدمة العسكريَّة. كانوا ينطلقون دوريًا بالغناء، أو يبدأون مشاجرة صاخبة، فينطحون بعضهم بعضًا برؤوس بليدة أو يلفُّون أذرعهم حول أعناق بعضهم بعضًا. صاحوا باستهجان عندما مررت بهم في طريقي إلى دورة المياه ونقفتهم بإصبعي من خلف ظهري. ثم فقدوا الاهتمام عندما بدأت سبعة أو ثمانية خيول بالطواف، ثم عندما هدر جمع صغير من حولنا اندفعت الأحصنة من بوابة الانطلاق. وقفت وراقبتهم، كانوا غير قادرين على كبت فورة الهياج عندما انسابت الذيول فجأة من خلفهم، وبانت الجهود المسعورة للرجال المتّشحين بألوان زاهية على متن الخيول يتنافسون جميعهم على الفوز بموقع. عندما عبر الرابح خطَّ النهاية كان من المستحيل ألا تهتف.

شاهدنا «سيسترورود كَب» ثم، الميدين ستيكس»، وربح نايثن ستة جنيهات على رهان «متعدد الاتجاه» صغير. رفض ويل أن يراهن. راقب كل سباق لكنه ظلَّ صامتًا، رأسه منكمش في ياقة سترته العالية. فكَّرت أنه ربما كان في البيت لوقت طويل فكان لا بد من أن يشعر ببعض الغرابة وأنا قررت أني ببساطة لن أعترف بذلك.

«إذًا كم عدد السِّباقات، وكم يستغرق الأمر لنضمن أننا أشبعنا مطامحك طويلة الأمد؟».

قلت: «لا تكن مشاكسًا. يقولون إن عليك أن تجرِّب كل شيء مرة».

«أظن أن سباق الخيل يقع في الفئة نفسها التي تقول: (باستثناء زنا المحارم ورقصة موريس)».

قلت: «أنت من يقول لي دومًا أن أوسّع آفاقي. أنت تحبه، ولا تتظاهر بغير ذلك».

ثم تمَّ إطلاقهم. كان «مان أوه مان» في حرير أرجواني مع ألماس أصفر. راقبته ينبسط حول الحاجز الأبيض، امتد رأس الحصان، ساقا الفارس تدفعان، أذرع تضرب إلى الأمام والخلف على عنق الحصان.

«هيَّا، يا رفيق!». دخل نايثن اللعبة رغمًا عن أنفه. أغلق قبضتيه بإحكام، عيناه مثبتتان على مجموعة غير واضحة المعالم من الحيوانات المتسابقة حول الطرف القصيّ من الحلبة.

صرخت: «هيا، مان أوه مان! لقد نلنا عشاءً مؤلفًا من اللحم بالمراهنة عليك!». راقبته يحاول اللحاق بمن سبقه سدى، منخراه متسعَان، أذناه خلف رأسه. ترنَّح قلبي في فمي. من ثم، عندما وصلوا إلى ثُمن الميل الأخير، بدأ صراخي يتبدّد.

قلت: «لا بأس، قهوة، سوف أقنع بالقهوة». انفجرت المدرَّجات من حولي بالصُّراخ والصِّياح. كانت فتاة تنطُّ على مبعدة مقعدَيْن منا، صوتها مبحوح من الصُّراخ. وجدت أني كنت أقفز على رؤوس أصابعي. من ثم نظرت أسفل ورأيت أن عينيّ ويل كانتا مغمضتين، وثلم شاحب في منتصف جبينه. انتزعت انتباهي من المسار وركعت.

قلت وأنا أقترب منه: «هل أنت بخير ويل؟ هل تحتاج إلى شيء؟».

قال: «ويسكي، كأس كبيرة».

رفع بصره نحوي. بدا سئمًا تمامًا.

قلت لنايثن: «لنذهب ونتناول وجبة الغداء».

«مان أوه مان»، ذلك الدجَّال بقوائمه الأربع، مرَّ عبر خط النهاية سادسًا، بئسًا. علا هتاف آخر، وأعلن صوت عبر مكبِّر الصوت: أيتها السَّيدات والسَّادة، ربح مؤكد من «لاف بي آ ليدي»، في المرتبة الأولى، يتبعه «وينتر صن»، و«بارني ربل» في المرتبة الثَّالثة على مسافة فرسين.

بتأنٍ دفعت كرسي ويل عبر جموع الناس الذّاهلين، أضرب بكعبي كلما تلكأوا عن الاستجابة عندما أردد: «من فضلك».

كنَّا عند المصعد عندما سمعت صوت ويل: «إذًا كلارك، هل هذا يعني أنك تدينين لي بأربعين جنيهًا؟».

***

كان المطعم مجددًا، الطَّعام الآن تحت رعاية طاهٍ يظهر على شاشة التِّلفاز، كانت صورته تظهر على الملصقات حول المضمار. نظرت إلى قائمة الطعام مسبقًا.

قلت للرجلين: «الطبق الاستهلالي مكوَّن من البَّط في صلصة البرتقال».

«إنه يعود إلى السَّبعينات على ما يبدو».

علّق ويل: «مثل ثيابك».

بدا أنه ابتهج قليلًا بعيدًا عن البرد والحشود. كان قد بدأ يجيل نظره من حوله، بدلًا من الانكفاء إلى عالمه المنعزل. بدأت معدتي تقرقر وهي تنتظر غداء جيدًا ساخنًا. أعطتنا والدة ويل ثمانين جنيهًا على سبيل «الدَّعم». كنت قد قررت دفع ثمن وجبتي، وأن أحمل لها فاتورة الحساب، وبالنتيجة لم أكن أخشى أن أطلب لنفسي ما أحب على القائمة - لحم بط مشوي عتيق الطراز أو أيًا يكن.

قلت: «هل تحبُّ الخروج لتناول الطعام نايثن؟».

قال نايثن: «أنا أفضِّل شرب البيرة وتناول الوجبات السَّريعة. مع ذلك سعيد بقدومي معكما اليوم».

قلت: «متى آخر مرة خرجت فيها لتناول الطعام ويل؟».

هو ونايثن نظرا واحدهما إلى الآخر. قال نايثن: «لم يحصل منذ أن كنت هناك».

قال ويل: «أنا لست شديد الولع في أن يتم إطعامي أمام أعين الغرباء».

قلت: «إذًا سوف نحصل على طاولة حيث يمكننا أن نجلسك بحيث لا تكون بمواجهة الصالة». كنت قد توقَّعت ذلك. «إذا كان هناك أحد المشاهير، ستكون أنت الخاسر».

علّق: «لأن المشاهير يملأون المكان في مضمار موحل قليل الأهمية في شهر آذار».

قلت عندما انفتحت أبواب المصعد: «سوف لن تفسد الأمر عليَ، ويل ترينر، كانت آخر مرة تناولت فيها الطعام في الخارج في حفل عيد ميلاد طفلة في عمر الرابعة في هيلزبيري داخل زقاق للبولينغ، وكان كل شيء مغطًّى بالحليب حتى الأطفال».

دفعنا الكرسي عبر الممر المفروش بالسَّجاد. امتدَّ المطعم على جانب واحد، خلف جدار زجاجي، ورأيت أن هناك عددًا كبيرًا من الطَّاولات.

قلت وأنا أخطو نحو منطقة الاستقبال: «مرحبًا، أريد طاولة لثلاثة أشخاص، من فضلك»، وقلت للمرأة بصمت، من فضلك لا تنظري إلى ويل، لا تجعليه يشعر بالارتباك، من المهم أن يستمتع بهذا.

قالت: «النيشان من فضلك».

«عفوًا؟».

«نيشانك المميّز؟».

نظرت إليها باندهاش.

«هذا المطعم من أجل حمَلة نيشان الأوائل فقط».

نظرت من خلفي نحو ويل ونايثن. لم يتمكّنا من سماعي، لكن وقفا ينتظران مترقبَين. كان نايثن يساعد ويل في خلع معطفه.

«لا أعرف أنه لا يمكننا أن نأكل في أي مكان نريد. نحن نحمل النياشين الزرق».

ابتسمت قائلة: «آسفة، فقط حملة نياشين الدَّرجة الأولى. هذا مكتوب على جميع منتجاتنا الترويجية».

أخذت نفسًا عميقًا: «حسنًا. هل هناك مطاعم أخرى؟».

«أخشى أن غرفة الطعام، منطقتنا غير الرسمية للعشاء، يتم ترميمها الآن، لكن هناك بسطات على طول المدرَّجات حيث يمكنك أن تحصلي على طعام»، رأت وجهي ينهار. وأضافت: «الفطائر جيّدة جدًّا. تحصلين على لحم مشوي في فطيرة. ولديهم مشروب التفاح أيضًا».

«بسطة».

«نعم».

انحنيت نحوها وقلت: «من فضلك، لقد جئنا من مكان بعيد، وصديقي الموجود هناك لا يناسبه الطَّقس البارد. هل من طريقة تمكِّننا من الحصول على طاولة هنا؟ نحن نحتاج أن يكون في مكان دافئ. إنه لعلى قدر من الأهمية أن يحصل على يوم جيد».

غضَّنت أنفها وقالت: «آسفة حقًّا، أنا لا أستطيع انتهاك القواعد. لكن هناك مناطق مخصّصة لذوي الإعاقة في الطَّابق الأرضي حيث يمكنك أن تغلقي الباب. لا يمكنك أن تري الدرب لكن هي حجرة صغيرة وهادئة».

حدَّقت فيها. شعرت بالضَّغط يزحف من قصبتَيْ ساقيّ. أمعنت النَّظر في شارتها لأعرف اسمها.

قلت: «شارون، أنتم حتى لم تبدأوا بملء طاولاتكم. بالتَّأكيد من الأفضل وجود أكبر عدد من الأشخاص يتناولون الطعام بدلًا من ترك نصف هذه الطَّاولات فارغة؟ هذا فقط بسبب قانون غامض طبقي في كتاب قواعد؟».

ومضت ابتسامتها تحت الإضاءة المنخفضة: «سيدتي، لقد شرحت

لك الوضع. إذا تهاونّا في تطبيق القواعد معك سيتوجب علينا أن نفعل مع الجميع».

«إنه وقت غداء في يوم اثنين ماطر. لديك طاولات فارغة. نريد أن نشتري وجبة. وجبة باهظة الثمن كما ينبغي، مع مناديل وكل شيء. لا نريد أن نتناول لفائف لحم الخنزير ونجلس في حجرة معاطف بغير إطلالة، مهما كانت مريحة».

كان زبائن آخرون قد بدأوا يلتفتون إلينا من مقاعدهم، تثير فضولهم المشاحنة عند الباب. رأيت ويل يبدو محرَجًا الآن. عرف هو ونايثن أن هناك خطبًا.

«إذًا أخشى أنَّ عليك شراء نيشان الدَّرجة الأولى».

«حسنًا». تناولت حقيبتي، وبدأت أنقِّب فيها بحثًا عن محفظة النقود. «كم ثمن نيشان الدَّرجة الأولى؟». تطايرت مناديل، بطاقات حافلات قديمة، وإحدى ألعاب توماس. لم أعد أهتم. كنت أريد أن أحصل لويل على وجبة غداء راقية في مطعم. «هاكِ. كم ثمنها؟ عشرة إضافية؟ عشرين؟». دفعت نحوها حفنة من الأوراق المالية.

نظرت نحو يدي. «أنا آسفة سيدتي لا نبيع النياشين هنا. هذا مطعم. عليك العودة إلى مكتب التَّذاكر».

«المكتب الذي يقع على الجانب الآخر من حلبة السِّباق».

«نعم».

حدَّقت واحدتنا بالأخرى.

صدح صوت ويل: «لويزا، لنذهب».

شعرت بأن عينيّ فاضتا بالدَّمع.

قلت: «لا. هذا سخيف. لقد قطعنا كل هذه المسافة. ابقيا هنا وسأذهب لأجلب كل نياشين الدَّرجة الأولى. ثم سنتناول طعامنا».

«لويزا، أنا لست جائعًا».

«سنكون بخير عندما نأكل. يمكننا أن نشاهد الأحصنة وكل شيء. سيكون كلُّ شيء على ما يرام».

تقدَّم نايثن وأمسك ذراعي: «لويزا، أظن أن ويل يريد الذَّهاب إلى البيت».

كنا الآن محطَّ أنظار جميع من في المطعم. كانت نظرات الزبائن تمر بي لترتكز على ويل، حيث كانت مملوءة بالشَّفقة والنُّفور. شعرت بفشل ذريع. رفعت بصري نحو المرأة التي كان لديها الشَّرف على الأقل لتبدو محرَجة قليلًا الآن بعد أن تكلَّم ويل.

قلت لها: «حسنًا شكرًا لك، شكرًا لتفهمك اللعين».

«كلارك...»، كان صوت ويل منذرًا.

«مسرورة جدًّا لسعة صدرك، بالتَّأكيد سأنصح بكِ كل معارفي».

«لويزا!».

اختطفت حقيبتي ودفعتها تحت ذراعي.

«نسيت سيارتكِ الصَّغيرة»، صاحت وأنا أخرج من البابِ الذي أمسك به نايثن مفتوحًا من أجلي.

قلت: «عجبًا هل هذا يحتاج إلى نيشان لعينٍ أيضًا؟»، وتبعتهما نحو المصعد.

نزلنا بصمت، أمضيت معظم وقت الرِّحلة القصيرة في المصعد أحاول أن أمنع يديَّ عن الارتجاف غضبًا.

***

طلبنا ثلاث فطائر محشوَّة بلحم الخنزير، ومشروب التُّفاح، وجلسنا تحت الظِّلة المخططة ونحن نأكلها. جثمت على حاوية قمامة صغيرة، لكي أتمكَّن من أن أكون على مستوى ويل، وساعدته في قضم طيِّع للحم،

أمزقه بأصابعي عندما تستدعي الحاجة. تظاهرت المرأتان اللتان كانتا في الخدمة خلف النُّضد بأنهما لا تنظران إلينا. رأيتهما تترصَّدان ويل بطرف عينيهما، تتمتمان دوريًا لبعضهما البعض عندما اعتقدتا أننا لا نراهما. سمعتهما عمليًا تقولان، رجل مسكين، يا لها من طريقة رهيبة للعيش. حاولت ألّا أفكر كثيرًا بما لا بدّ أن يكون عليه شعور ويل.

توقَّف المطر، لكن الدَّرب الذي تذروه الرياح بدا فجأة مكشوفًا، تتناثر على سطحه البنّي والأخضر قصاصات الرِّهان المرمية، أفقه مسطح وفارغ. امتزج موقف السَّيارات بماء المطر، وفي البعيد سمعنا صوت مكبر الصَّوت المشوَّه عندما هدر معلنًا عن سباق آخر.

قال نايثن وهو يمسح فمه: «أظن أنَّ علينا العودة، أعني، كان لطيفًا لكن من الأفضل أن نتفادى زحمة المرور؟».

قالت إحدى النساء عندما بدأ نايثن يجره بعيدًا على العشب: «ألم يعجبه؟».

قلت: «لا أعرف. ربما كان له أن يحبه لو لم يأتِ مع طبق جانبي من نظرات الفضوليين»، ورميت الفضلات بعنف في سلَّة المهملات.

الوصول إلى السَّيارة وتثبيت السُّلم كان سهل القول وصعب التطبيق. في السَّاعات القليلة التي أمضيناها في المضمار، حوَّلت حركة الوصول والمغادرة موقف السَّيارات إلى بحر من الوحل. حتى مع ما يملك نايثن من قوة مؤثرة، وما استطعت بذله من قوة لم نتمكَّن من أن نقطع نصف المسافة على العشب حتى السَّيارة. تزحلقت العجلات وأصدرت أنينًا، عاجزة عن الحركة لاجتياز تلك المسافة القصيرة المتبقية. انزلقت قدماي وقدما نايثن في الوحل الذي غطَّى جوانب أحذيتنا.

قال نايثن: «أظنُّ أننا بحاجة إلى مساعدة، لا يمكنني حتى أن أعيد الكرسي على الدَّرب. إنه عالق».

أطلق ويل تنهيدة مسموعة. بدا وكأنه مشمئزّ كما لم أره من قبل.

«يمكنني أن أحملك إلى المقعد الأمامي، ويل، ثم لويزا وأنا نرى كيف ندخل الكرسي في ما بعد».

انبثق صوت ويل عبر أسنان تصرّ: «لن أنهي اليوم محمولًا على أكفّ إطفائي».

قال نايثن: «آسف يا رفيق، لكن لو وأنا لن نتمكن من فعل هذا بمفردنا. لو أنتِ أجمل مني، اذهبي واجلبي بعض المساعدة الإضافية، هلّا فعلت؟».

أغمض ويل عينيه، وأطبق فكّه، وهرعت نحو المدرَّجات.

***

أنا لا أجيد التَّعامل مع الغرباء عادة، لكنَّ اليأس حررني من الخوف. مشيت من جمع إلى آخر في المدرَّج المسقوف، أسأل إذا كان في وسع أي شخص أن يمنحني من وقته بضع دقائق. نظروا إليَّ وإلى ملابسي كما لو أني أخطط لشرك.

قالوا: «نحن ننتظر السِّباق التَّالي». أو «آسف». أو «عليَّ أن أنتظر حتى الثَّانية والنِّصف».

فكَّرت أيضًا بأن أستوقف فارسَين. لكن عندما اقتربت من السُّور، رأيت أنهم كانوا أقصر قامة مني. مع وصولي إلى حلقة الاستعراض كنت أتَّقد بغضب مكبوت. أخال أني كنت أهدر على الناس حينها بدل أن أبتسم. وهناك، أخيرًا، كان الرجال في قمصان البولو المخططة. كتب على ظهور قمصانهم «ماركيز لاست ستاند» وأمسكوا بعلب الـ«بيلسنر» و«تينانتز إكسترا». ابتهجوا مع اقترابي وقاتلت الرغبة في أن أمدَّ لهم إصبعي ثانية.

«ابتسمي حبيبتي. إنها عطلة نهاية أسبوع مثيرة لماركي»، تحدَّث أحدهم وهو يلطم كتفي بيد بحجم فخذ خنزير.

«إنه يوم الاثنين». حاولت ألا أجفل وأنا أبعدها.

«أنت تمزحين، اليوم الاثنين؟». ترنَّح إلى الخلف.

قلت: «في الواقع، لقد جئت لأطلب مساعدتكم».

قال وهو يغمز غمزة فاسقة: «آه سوف أقدِّم لك أي مساعدة تطلبينها يا فتاة».

ترنَّح رفاقه بلطف من حوله مثل نباتات مائية.

«أحتاج لمساعدة صديقي هناك في موقف السَّيارات».

«آه أنا آسف، أنا لست واثقًا من أني في حالة مناسبة لمساعدة صديقك يا فتاة».

«السِّباق التَّالي قادم ماركي. هل راهنت على هذا؟ أظن أني سأراهن عليه».

التفتوا نحو المسار، فاقدين الاهتمام. نظرت من فوق كتفي نحو موقف السَّيارات، لأرى هيئة ويل المحدَّبة، نايثن يدفع مقبضَي الكرسي عبثًا. تصوَّرت نفسي أعود إلى البيت لأقول لوالدَيْ ويل إننا تركنا كرسي ويل الباهظ الثَّمن في موقف السَّيارات. ثمَّ رأيت العرض العسكري.

قلت بصوت مرتفع: «إنه جندي، جندي سابق».

التفتوا واحدًا تلو الآخر.

«أصيب في العراق، كل ما أردنا أن نفعله هو أن ننزّهه. لكن لا نجد مساعدة من أحد». عندما نطقت بالكلمات شعرت بأن عينَيَّ تغرورقان.

«أين هو؟»

«في موقف السَّيارات. سألت الكثير من الناس، لكنهم لا يرغبون بالمساعدة».

«هيا يا رجال علينا القيام بذلك». تمايلوا خلفي واثقين من أنفسهم. عندما وصلنا إليهما كان نايثن واقفًا بجانب ويل الذي كان رأسه غارقًا عميقًا في ياقة معطفه من البرد مع أن نايثن غطى كتفيه بغطاء آخر.

قلت: «هؤلاء رجال لطفاء للغاية عرضوا المساعدة».

كان نايثن يحدِّق بعلب البيرة. ويجب الاعتراف بأنه لم تبدُ عليهم أي صفة من صفات الجنود.

قال أحدهم: «إلى أين تريدين أن نقوده؟».

وقف الآخرون من حول ويل يومئون بهتافات التَّرحيب. قدَّم أحدهم له بيرة على ما يبدو عاجزًا عن استيعاب أن ويل لا يستطيع الإمساك بها. أشار نايثن إلى سيارتنا قائلًا:

«هناك نحو السَّيارة، لكن لفعل ذلك نحتاج أن نرفعه على المنصة ثم نعيد السيارة نحوه».

قال أحدهم وهو يربِّت على ظهر نايثن: «ليس عليك أن تفعل ذلك. يمكننا أن نأخذه إلى السَّيارة، ألا يمكننا يا رجال؟».

وافقوا بالإجماع. وبدأوا ينتظمون حول كرسي ويل.

انزحت على غير ارتياح قائلة: «لا أعرف... هذا طريق طويل لتحملوه»، وأضفت متجاسرة: «والكرسي ثقيل جدًّا».

كانوا ثملين بصخب. بعض منهم بالكاد يمسك بعلبة شرابه وأقحم أحدهم علبته في يدي.

«لا تقلقي يا فتاة. أي شيء من أجل جندي، أليس هذا صحيحًا يا رجال؟».

«نحن لن نتركك هناك يا رفيق. نحن لا نترك رجلًا أبدًا».

رأيت وجه نايثن وهززت رأسي باهتياج على تعبيره السَّاخر. بدا من غير المرجَّح أن يقول ويل شيئًا. هو فقط بدا كئيبًا، ثمَّ عندما تجمَّع الرجال حول كرسيه ورفعوه بينهم مطلقين صرخة، ذُعر على نحو غامض.

«أيّ كتيبة يا فتاة؟».

حاولت الابتسام، أتصيد ذاكرتي بحثًا عن الأسماء قلت: «البنادق، كتيبة البنادق الحادية عشرة».

قال آخر: «لا أعرف البنادق الحادية عشرة».

تمتمت: «إنها فرقة عسكرية جديدة، سرِّية جدًا تأسَّست في العراق».

انزلقت أحذيتهم الرياضية في الوحل، وشعرت بأن قلبي يترنَّح. كان كرسي ويل مرفوعًا بضعة إنشات عن الأرض، فيما يشبه الهودَج. وكان نايثن يركض جالبًا حقيبة ويل ليفتح السَّيارة أمامنا.

«هل هؤلاء الأولاد مدرّبون في كاتريك؟».

«هذا هو»، قلت ثم غيرت الموضوع. «إذًا أيّ واحد منكم متزوج؟».

كنا قد تبادلنا الأرقام عندما تخلَّصت أخيرًا من ماركي ورفاقه. نقَّبوا في جيوبهم مقدِّمين لنا أربعين جنيهًا لتمويل تأهيل ويل ولم يكفّوا عن الإصرار إلّا عندما قلت لهم إننا سنكون أكثر سعادة إذا شربوا على حسابنا بدلًا من ذلك. كان عليَّ أن أقبِّل كل واحد منهم. كنت تقريبًا دائخة من رائحة الدُّخان عندما انتهيت. واصلت التلويح لهم حتى اختفوا في المدرجات ونايثن زمَّر لأذهب إلى السَّيارة.

قلت بابتهاج وأنا أدير محرك السَّيارة: « كانوا عونًا، أليسوا كذلك؟».

قال ويل: «رمى الطويل كل بيرته عند ساقي اليمنى، تفوح مني رائحة تشبه رائحة مصنع البيرة».

قال نايثن عندما انطلقت أخيرًا نحو المدخل الرئيس: «لا أصدِّق هذا، انظر، هناك قسم كامل لركن السَّيارات خاص بذوي الإعاقة عند الكشك وكله على طريق معبَّد».

***

لم يتفوه ويل بكلمة بقيَّة النهار. ودَّع نايثن عندما وصل إلى البيت ثم

بقي صامتًا وأنا أصعد الطَّريق إلى القلعة. خفَّ الازدحام الآن بعد أن انخفضت الحرارة ثانية، وأخيرًا ركنت السَّيارة أمام الملحق.

أخفضت كرسي ويل وأدخلته إلى البيت، وحضَّرت له شرابًا دافئًا. غيَّرت حذاءه وسرواله، ووضعت البنطال الملطَّخ بالبيرة في الغسَّالة، وأشعلت المدفأة. أدرت التِّلفاز، وسحبت السَّتائر لكي تكون الغرفة حميمة من حولنا - ربما أكثر حميمية من الوقت الذي أمضيناه في الهواء البارد. لكن ما إن جلست في غرفة الجلوس أشرب الشَّاي معه حتى أدركت أنه لم يكن يتحدّث، ليس من التعب أو لأنه أراد أن يشاهد التلفاز، هو لم يكن يتحدّث معي.

قلت عندما تلكَّأ عن الجواب على تعليقي الثَّالث عن الأخبار المحلية: «هل من خطب؟».

«أنت قولي لي، كلارك».

«ماذا؟».

«حسنًا، أنت تعلمين كل ما يمكن أن تعرفيه عني. أنت قولي لي».

حدَّقت فيه. قلت أخيرًا: «أنا آسفة، أعرف أن اليوم لم يكن مثلما خططت له أن يكون. لكن كنت أقصد أن تكون نزهة لطيفة. في الحقيقة ظننت أنك سوف تستمتع بها».

لم أضِف أنه كان حادَّ الطَّبع بلا شك، وأنه ليس لديه فكرة عما مررت به فقط لأجعله يحاول أن يمتِّع نفسه، وأنه لم يحاول حتى أن يمضي وقتًا طيبًا. لم أقل له إنه لو سمح لي أن اشتري النياشين الحمقاء ربما كنا تغدينا غداء لطيفًا وكل تلك الأمور الأخرى تم نسيانها.

«هذه فكرتي».

«ماذا؟».

«أوه، أنت لست مختلفة عن البقية».

«ماذا يعني هذا؟».

«لو كلَّفت نفسك عناء سؤالي، كلارك، لو كلَّفت نفسك عناء استشارتي فقط مرة حول ما دعوتها نزهتك المسلية لكنت قلتُ لك. أنا أكره الأحصنة وسباقات الأحصنة. لطالما كرهتها، لكنك لم تكلِّفي نفسك عناء سؤالي. قررت ما اعتقدت أني أحب، أو ربما أنك تحبين، أن أفعل، ومضيت به قدمًا. أنت فعلت ما يفعله الجميع، قرَّرتِ عني».

ازدردت ريقي.

«لم أقصد أن...».

«لكن فعلتِ».

أدار كرسيه بعيدًا عني وبعد دقيقتين أخريين من الصَّمت أدركت أني كنت مطرودة.

12

يمكنني أن أخبرك بالتفصيل عن اليوم الذي فقدت فيه شجاعتي.

حدث ذلك تقريبًا منذ سبع سنوات، في الأيام الأخيرة البطيئة الحارّة من شهر تموز، عندما كانت الشّوارع الضيِّقة حول القلعة تغصُّ بالسّيّاح، والهواء زاخرٌ بوقع خطواتهم المتعرِّجة وأصوات أبواق سيَّارات الآيس كريم الحاضرة دومًا والمصطفَّة على قمَّة التَّلة.

كانت المنيّة قد وافت جدَّتي منذ شهر بعد صراع طويل مع المرض، وكان غشاءً رقيقًا من الحزن يحجب ذلك الصَّيف، لقد أهمد إلى حدٍّ ما كل ما فعلناه، وخنق ميلنا أنا وأختي إلى الإثارة، لاغيًا روتيننا الصيفي المعتاد من عطلات قصيرة ونزهات. وقفت أمي معظم الأيام أمام طشت غسيلها، ظهرها متصلّب بجهد المحاولة لكبح دموعها، بينما غاب والدي في العمل كلَّ صباح، قسماته عازمة بتجهُّم، ليعود بعد ساعات بوجه لامع من الحرّ وعاجز عن الكلام قبل أن يشرب علبة بيرة.

كانت أختي عائدة إلى البيت من سنتها الجامعية الأولى، أفكارها في مكان بعيدًا عن بلدتنا الصغيرة. كنت في العشرين من عمري وكنت سألتقي باتريك خلال مدة تقلُّ عن ثلاثة أشهر. كنا نستمتع بواحد من تلك الصيفيات النَّادرة من حرية قصوى - ما من مسؤوليات مالية، أو ديون، لا ندين بالوقت لأي شخص. كنت أعمل عملًا موسميًا ولديَّ كل الوقت في

العالم لأضع الزينة على وجهي، وأنتعل الكعب العالي الذي يجعل والدي يجفل، وبالإجمال لأكتشف نفسي.

في تلك الأيّام كنت أرتدي ثيابًا عادية. أو عليَّ أن أقول إن ثيابي لم تكن لتختلف عن ثياب باقي فتيات البلدة - شعر طويل، يهتزَّ على الكتفين، بنطال جينز نيلي اللون، كنزة ضيِّقة بما يكفي لإظهار خصرنا النَّحيل والنَّهدين الناهضَيْن. أمضينا السَّاعات ونحن نتقن وضع أحمر الشِّفاه اللماع، والظلَّ المناسب للعيون الدُّخانية. بدونا في مظهر جيِّد في كل شيء، لكن أنفقنا السَّاعات نشتكي من السِّلوليت المتخيَّل وعيوب غير مرئية على جلدنا.

وكان عندي أفكار. أمور أردت القيام بها. ذهب أحد الفتية الذي كنت أعرفه في المدرسة في رحلة حول العالم وعاد مختلفًا كليًا ونائيًا إلى حدٍّ ما، كما لو أنَّه لم يكن نفس الفتى البالغ من العمر أحد عشر عامًا الذي يجرُّ قدميه واعتاد أن يذرَّ فقاعات البصاق خلال حصَّة اللغة الفرنسية. كنت قد سجَّلت في رحلة رخيصة التَّكلفة إلى أستراليا في نزوة، وكنت أحاول أن أجد مرافقًا. أحببت الغرابة والغموض اللذين أسبغهما عليه سفره. كان قد تفتح مع النسائم العليلة لعالم أرحب، وكان مغريًا على نحو غريب. عرف الجميع هنا كلَّ شيء عني في النهاية. ومع أخت مثل أختي، لم يكن مسموحًا لي أن أنسى أي شيء.

كان يوم جمعة، وكنت قد أمضيت اليوم أعمل مرافقة في ساحة انتظار السَّيارات مع مجموعة من الفتيات كنت أعرفهنَّ من المدرسة، نرشد الزُّوار إلى معرض حِرَفي يقام على أرض القلعة. كان اليوم بطوله مليئًا بالضَّحك، وبالمشروبات الغازيَّة التي أسرفنا في شربها تحت وهج الشَّمس، ونور السَّماء الصَّافية يتلألأ على شرفات الحصن. لا أظنُّ أنَّ هناك سائحًا واحدًا لم يبتسم لي ذلك اليوم. يجد النَّاس صعوبة كبيرة في ألّا يبتسموا إلى مجموعة من الفتيات المرحات الضَّاحكات. دفع لنا المنظمون ثلاثين

جنيهًا، وكانوا مسرورين للغاية من الغلَّة، حتى إنهم نفحوا خمسة جنيهات إضافية لكل واحدة منا.

احتفلنا بأن ثملنا مع بعض الفتية الذين كانوا يعملون في موقف السَّيارات الآخر عند مركز الزُّوار. كانوا يرتدون قمصان الركبي وشعرهم مشعثًا. كان أحدهم يدعى إد، واثنان منهم كانا جامعيين - لكن لا أستطيع تذكُّر في أي جامعة - وكانوا يعملون من أجل الحصول على النقود في العطلة أيضًا. كانوا مبتهجين بالنقود في نهاية أسبوع طويل من العمل في الاستقبال، وعندما أنفقنا نقودنا سعدوا بتقديم الشَّراب للفتيات المتهوِّرات اللاتي حلَلنَ شعورهن وجلسن في أحضان بعضهن البعض وصحنَ وألقين النُكات ونادت واحدتهن الأخرى بالأنيقة. تحدَّثوا بلغة مختلفة، عن سنوات دراسية وصيفيات أمضوها في أميركا الجنوبية، وفي تايلاند، وعمَّن كان ذاهبًا ليقضي فترة التخصص الدراسي في الخارج. فيما كنَّا نصغي ونشرب، أتذكَّر أختي تتوقَّف عند الحانة المفتوحة حيث استلقينا على العشب. كانت ترتدي أقدم سترة بغطاء للرأس في العالم ولا تضع الزينة، وكنت قد نسيت أننا اتفقنا على اللقاء. طلبت منها أن تقول لوالديَّ إني سأعود بعد أن أبلغ الثلاثين من عمري. لسبب ما وجدت هذا مسلّيًا على نحو هستيري. رفعت حاجبيها مندهشة، ومشت متشامخة كما لو أني كنت أكثر الأشخاص إزعاجًا.

عندما أغلقت حانة الـ«ريد ليون» ذهبنا جميعًا وجلسنا في وسط متاهة القلعة. تمكَّن شخص ما من تسلُّق البوابات، وبعد الكثير من الاصطدام والقهقهة وجدنا جميعنا طريقنا إلى المركز وشربنا خمرًا قويًا مصنوعًا من عصير التفاح، بينما مرَّر أحدهم لفافة حشيش. أتذكَّر التَّحديق بالنُّجوم، أشعر بأني أختفي في أعماقها اللانهائية، والأرض مادت بخفَّة وترنَّحت من حولي مثل سطح سفينة هائلة. كان أحدهم يعزف على الغيتار، وكنت

أنتعل حذاءً من السَّاتان زهري اللون ذا كعبٍ عالٍ خلعته على العشب الطَّويل ولم أعد من أجله أبدًا. إعتقدت ربماً أني حكمت العالم. مرَّت نحو نصف ساعة قبل أن أدرك أن الفتيات الأخريات ذهبن.

وجدتني أختي صامتة وأرتجف في وسط المتاهة بعد حين، بعد أن كانت غيوم الليل قد حجبت النُّجوم بوقت طويل. كما قلت، هي ذكيّة جدًّا. أذكى مني بأيِّ حال. هي الشَّخص الوحيد الذي عرفته في حياتي الذي يجد طريقه في المتاهة بأمان.

***

«هذا سيضحكك. لقد اشتركت بالمكتبة».

كان ويل هناك إلى جانب مجموعة أقراصه المضغوطة. أدار الكرسي على محوره، وانتظر فيما كنت أضع شرابه في حامل الكوب: «حقًّا؟ ماذا تقرئين؟».

«أوه، لا شيء قد تحبه. فقط أشياء تتعلق بلقاء فتى وفتاة. لكنني مستمتعة به».

« كنت تقرئين كتاب «فلانري أوكونر» منذ أيَّام». ارتشف من شرابه واستأنف كلامه قائلًا: «عندما كنت مريضًا».

«القصص القصيرة؟ لا أصدِّق أنك لاحظت ذلك».

«لم أستطع إلّا أن ألاحظ. تركتِ الكتاب على الطاولة. لم أتمكن من التقاطه».

«آه».

«إذًا لا تقرئي الهراء. خذي قصص أوكونر إلى البيت. اقرئيها بدلًا من ذلك».

كنت على وشك أن أقول لا، ثم أدركت أني لا أعرف سببًا لأرفض.

«حسنًا، سأعيده حالما أنهيه».

«ضعي لي بعض الموسيقى، كلارك».

«ماذا تريد؟».

قال لي مومئًا إلى مكانها الصعب المنال وبحثت حتى وجدت القرص المضغوط.

«لديَّ صديق يعزف على الكمان في فرقة ألبرت السيمفونية. اتَّصل ليقول إنه يعزف في مكان قريب من هنا الأسبوع القادم. هل تعرفين هذه القطعة الموسيقية؟».

«لا أعرف شيئًا عن الموسيقى الكلاسيكية. أعني أحيانًا يعثر والدي مصادفة على إذاعة الموسيقى الكلاسيكية لكن...».

«ألم تذهبي يومًا إلى حفلة موسيقية؟».

«لا».

بدا مصدومًا بصدق.

«حسنًا، حضرت مرة حفلة لفرقة (ويست لايف). لكني لست واثقة إذا كانت تُحتَسَب. كان اختيار أختي. أوه، وكنت أنوي الذَّهاب لرؤية روبن وليامز في عيد ميلادي الثاني والعشرين، لكني أصبت بتسمّم غذائي».

رمقني ويل بإحدى نظراته - نظرة توحي إلى أني ربما كنت بالفعل محتَجَزة لسنوات في قبو.

«يجب أن تذهبي. هو قدَّم لي التذاكر. هذا سيكون جيدًا حقًّا. خذي والدتك».

ضحكت وهززت رأسي قائلة: «لا أظن ذلك. أمي لا تخرج. وهذا ليس من الأمور التي تعجبني».

« كما لم تكن الأفلام مع الترجمة من الأمور التي تعجبك؟».

قطَّبت وأنا أنظر نحوه: «أنا لست مشروعك، ويل. هذا ليس (ماي فير ليدي)».

«بيغماليون».

«ماذا؟».

«المسرحية التي تشيرين إليها. إنها بيغماليون. (ماي فير ليدي) مجرد ابنٍ غير شرعيٍّ لها».

حملقت فيه. وضعت القرص المضغوط. عندما التفتّ كان لا يزال يهزُّ رأسه.

«أنتِ أكثر المتكبّرين فظاعة، كلارك».

«ماذا؟ أنا؟».

«أنت أبعدتِ نفسك عن كل أنواع التجارب لأنك تقولين لنفسك إنكِ لست هذا النَّوع من الأشخاص».

«لكني لست كذلك».

«كيف تعرفين؟ أنتِ لم تفعلي شيئًا، ولم تذهبي إلى أي مكان. كيف يمكن أن يكون لديك أدنى فكرة عن أي نوع من الأشخاص تكونين؟».

كيف يمكن لشخص أن يتحدّث هكذا عن مشاعري؟ غضبت منه بعض الشيء لأنه تعمد ألّا يفهم.

«هيا. افتحي مداركك».

«لا أريد».

«لماذا؟».

«لأني لن أكون مرتاحة. أشعر كما لو... أنهم قد يعلمون».

«من هم؟ يعلمون بماذا؟».

«الجميع سيعرف أني مختلفة».

«كيف تظنين بأني أشعر؟».

تبادلنا النَّظرات. فأكمل:

«كلارك، كلُّ مكان أذهب إليه الآن ينظر الناس إليَّ كما لو أني مختلف».

جلسنا صامتَين عندما بدأت الموسيقى. كان والد ويل على الهاتف في قاعته، وصوت الضَّحك المكتوم وصل إلى الملحق، كما لو من مكان بعيد. مدخل المعوّقين هناك، قالت المرأة في حلبة السِّباق. كما لو أنه كان من نوع مختلف.

نظرت إلى غلاف القرص المضغوط، ومن دون أن أنظر نحوه قلت: «سأذهب إذا أتيت معي».

«إذًا لن تذهبي لوحدك».

«لا مجال».

جلسنا هناك، وهو يتفكَّر هذا. «يا إلهي، أنت ألم في المؤخرة».

«إذًا استمر في قول ذلك لي».

* * *

لم أكن قد وضعت خططًا هذه المرة. ولم أنتظر شيئًا. كل ما أملته أن يكون ويل لا يزال مستعدًا لمغادرة الملحق بعد كارثة السِّباق. أرسل لنا صديقه عازف الكمان رسالة وعَدَنا فيها بتذاكر مجانيَّة، مع معلومات عن المكان. كان المكان يبعد مسافة أربعين دقيقة. أنهيت أعمالي المنزلية، تحقَّقت من مكان ركن السَّيارات المخصّص للمعوَّقين، اتَّصلت بالمكان مسبقًا لأقيِّم أفضل طريقة لوضع كرسي ويل على مقعده. سوف يجلسوننا في المقدِّمة، وأنا على كرسي قابل للطي قرب ويل.

قالت المرأة في مكتب البريد بابتهاج: «إنه في الواقع أفضل مكان، جلوسك قرب الفرقة الموسيقية يمنحك أثرًا قويًا، لطالما كنت أفتتن بالجلوس هناك شخصيًا».

سألت إذا كنت أرغب أن يوافينا أحدهم عند موقف السَّيارات ليساعدنا

على الوصول إلى مقاعدنا. شكرتها خشية أن ويل قد يشعر بأنه محط الأنظار، ورفضت.

مع دنوِّ المساء، لا أعرف من ازداد توترًا أكثر، ويل أم أنا. شعرت بأن فشل نزهتنا الأخيرة الذريع، والسَّيدة ترينر لم تقدم العون، بدخولها وخروجها من الملحق أربع عشرة مرة لتتأكد من مكان وموعد الحفل الموسيقي وماذا سنفعل بالضبط.

قالت إن روتين ويل ما بعد الحفل سوف يستغرق بعض الوقت أيضًا. كان عليها أن تضمن وجود من يساعدنا. كان لدى نايثن خطط أخرى. وكان السَّيد ترينر في ما يبدو خارجًا في المساء.

قالت: «ساعة ونصف على الأقل».

قال ويل: «وهو مضجر إلى حدٍّ لا يصدَّق».

أدركت أنه كان يتطلّع إلى عذر كي لا يذهب.

قلت: «سأفعل. إذا قال لي ويل ما عليَّ أن أفعله. لا أمانع أن أبقى للمساعدة». قلت ذلك تقريبًا قبل أن أدرك بأني أوافق عليه.

قال ويل مشاكسًا قبل أن تغادر والدته: «حسنًا، هذا أمر سننتظر لنرى كيف سيحصل، لقد نلت نظرة عن كثب نحو مؤخرتي، وأنا حصلت على حمَّام في السَّرير من شخص ينهار لمرأى اللحم العاري».

«أنا لا أنهار لمرأى اللحم العاري».

«كلارك، لم يسبق أن رأيتُ أحدًا أكثر منك انزعاجًا من مرأى الجسد البشري».

قلت من دون سابق إنذار: «دع أمك تفعل ذلك إذًا».

«نعم، لأن ذلك يجعل فكرة الخروج برمَّتها أكثر جاذبية بكثير».

ثم هناك مشكلة الملابس. لم أعرف ماذا أرتدي.

لم تكن الثِّياب التي ارتديتها عندما ذهبنا إلى السِّباق مناسبة. كيف

يمكنني أن أكون واثقة من أنني لن أرتكب الخطأ نفسه ثانية؟ سألت ويل عمَّا يمكن أن يكون اللباس الأفضل. ونظر إليَّ كما لو أني مجنونة.

شرح: «سوف تكون الأضواء مطفأة، لن ينظر إليك أحد. سيكون تركيزهم على الموسيقى».

قلت: «أنت لا تعرف شيئًا عن النِّساء».

جلبت ثلاث قطع مختلفة من الملابس معي إلى العمل في النهاية، أجرّها جميعًا إلى الحافلة في حامل بدلة أبي القديم. كانت الطَّريقة الوحيدة لكي أقنع فيها نفسي بالذهاب.

وصل نايثن إلى فترة موعد الشَّاي عند السَّاعة الخامسة والنِّصف من بعد الظُّهر، وبينما كان يهتمّ بويل اختفيت في الحمَّام لأستعد. أوَّلًا ارتديت ما خِلت أنه لباسي «الفنّي»، فستان فضفاض أخضر اللون عليه خرزات كبيرة كهرمانية. تخيَّلت أن من يذهبون إلى الحفلات الموسيقية قد يكونون أدعياء ومبهرَجين. حدَّق كل من ويل ونايثن بي عندما دخلت إلى غرفة الجلوس.

قال ويل أخيرًا: «لا».

وعلّق نايثن: «هذا يبدو مثل شيء قد ترتديه أمي».

قال ويل: «أنت لم تقل لي يومًا إنَّ أمك نانا موسكوري».

سمعتهما يقهقهان عندما عدت إلى الحمَّام.

كان الثَّوب الثَّاني فستانًا أسود اللون بسيطًا للغاية ذي قَصَّةٍ مائلة ومخاطًا إلى ياقة بيضاء وثنيات، كنت قد صنعته بنفسي. بدا كما اعتقدت أنيقًا وباريسيًّا في آن.

قال ويل: «أنت تبدين كما لو أنَّك على وشك تقديم الآيس كريم».

قال نايثن باستحسان: «آو، يا رفيقة، لكنك صنعت خادمة عظيمة».

«ارتدي ذلك الفستان أثناء النهار حقًّا إذا أحببت».

قلت: «أنتما، ستجدان سائل التنظيف في شايكما غدًا».

ارتديت خياري الثَّالث، فستان ممتاز من السَّاتان الأحمر القاني. كان مصنوعًا من أجل جيل اقتصادي أكثر، وكان عليَّ دومًا أن أتلو صلاة سريَّة كي ينغلق السَّحاب صعودًا من خصري، لكنه أحاطني بهالة تشبه الهالة التي كانت تحيط بنجمات السِّينما في الخمسينات، وكان فستان «النتائج الطيبة» واحدًا من تلك الثِّياب التي لا تستطيع إلّا أن تشعر بشعور جيد عندما ترتديها. ارتديت سترة بوليرو فضِّية اللون، وعقدت وشاحًا رماديًا من الحرير حول عنقي لأغطِّي ما بين نهديَّ، ووضعت أحمر شفاه بلون مناسب ثم خرجت إلى غرفة الجلوس.

قال نايثن بإعجاب: «مذهل!».

جالت عينا ويل على فستاني صعودًا ونزولًا. عندئذٍ فقط أدركت أنه غيَّر ملابسه وارتدى قميصًا وسترة رسمية. حليقًا ومع شعره المقصوص بدا وسيمًا على نحو مثير للإعجاب. لم أتمكَّن إلّا أن أبتسم لمرآه. لم تكن ابتسامتي بسبب مظهره بقدر ما كانت لواقعة أنه بذل جهدًا.

قال: «هذا هو». كان صوته خاليًا من أي تعبير وموزونًا على نحو غريب. وفيما أنا أمدُّ يدي لأسوِّي تقويرة الثَّوب قال: «لكن اخلعي السُّترة».

كان محقًّا. عرفت أنها لم تكن مناسبة. خلعتها وطويتها بعناية ووضعتها على ظهر الكرسي.

«والوشاح».

امتدَّت يدي إلى عنقي: «الوشاح؟ لماذا؟».

«غير مناسب. وأنت تبدين كما لو أنك تحاولين أن تخفي شيئًا خلفه».

«لكني... حسنًا... سيكون صدري مكشوفًا».

هز كتفيه: «إذًا؟ انظري كلارك إذا كنت سترتدين فستانًا مثل هذا يجب أن ترتديه بثقة، عليك أن تملئيه عقليًا وجسديًا على حدٍّ سواء».

قلت: «فقط أنت ويل ترينر يمكنك أن تقول لامرأة كيف ترتدي فستانًا لعينًا». لكني خلعت الوشاح.

ذهب نايثن ليحزم حقيبة ويل. كنت أفكر إلى أي درجة كان يعاملني بتشجيع عندما التفتُّ ورأيته لا يزال ينظر إلي.

قال بهدوء: «تبدين رائعة كلارك، حقًّا».

***

كنت قد لاحظت بضع عادات أساسية بخصوص النظر إلى ويل من أناس عاديين، كما قد تدعوهم كاميلا ترينر «أناسًا من الطبقة الكادحة». قد يحدّق معظمهم، وقد يبتسم البعض متعاطفًا، أو يعبّر عن الشَّفقة، أو يسألني بنبرة هامسة عمَّ حدث. كنت غالبًا أميل إلى الإجابة: «سقوط مشؤوم مع الاستخبارات العسكرية، الفرع 6». أن أقول ذلك فقط لأرى ردَّ فعلهم، لكني لم أفعل أبدًا.

هنا الأمر يتعلَّق بمن ينتمون إلى الَّطبقة المتوسطة. يتظاهرون أنهم لا ينظرون، لكنهم يفعلون. إنهم مهذَّبون للغاية فلا يحدّقون. وبدلًا من ذلك، يفعلون هذا الأمر الغريب، إذ يلقون نظرة على ويل في مجال رؤيتهم ثم بتصميم يشيحون ببصرهم عنه إلى أن يمر. عند هذه النقطة ترتكتز نظرتهم عليه، حتى وهم يواصلون محادثتهم مع شخص آخر. لكنهم لا يتحدّثون عنه. لأن ذلك قد يكون فظًا.

فيما نحن نجتاز بهو القاعة، حيث مجموعات من أناس متأنّقين وقفوا يحملون حقائب وبرامج في يد، والجن والشَّراب المنشِّط في اليد الأخرى، رأيت ردَّ الفعل هذا يسري عبرهم في موجة خفيفة تتبّعتنا. لا أعرف إذا كان ويل قد لاحظها. أحيانًا أعتقد بأن الطريقة الوحيدة التي يستطيع أن يتعامل من خلالها هي التظاهر بأنه لم يرَ شيئًا.

جلسنا وكنا الوحيدين في المقدِّمة في المجموعة الوسطى من المقاعد. كان يجلس إلى يميننا رجل آخر في كرسي متحرك، يثرثر بمرح مع امرأتين

تحيطان به من كلِّ جانبٍ. راقبتهم، على أمل أن يلاحظهم ويل أيضًا. لكنه حدَّق مباشرة أمامه، رأسه غارق بين كتفيه كما لو أنه كان يحاول أن يكون مخفيًّا.

قال بصوت خفيض: «هذا لن ينجح».

همست: «هل تحتاج إلى شيء».

هز رأسه: «لا». ثم ازدرد ريقه وأضاف: «في الواقع نعم شيء يحفر في ياقتي».

انحنيت ومرَّرت إصبعي في داخل الياقة، كانت بطاقة من النايلون متروكة في الدَّاخل. سحبتها على أمل أن أنتشها لكنها كانت مقاومة على نحو معاند.

«ماركة القميص الجديد. هل تزعجك حقًا؟».

«لا أنا فقط فكَّرت أن أخرجها للتسلية».

«هل لدينا مقصٌّ في الحقيبة؟».

«لا أعرف كلارك، صدِّقي أو لا تصدقي، أنا نادرًا ما أحزم أشيائي بنفسي».

لم يكن هناك مقصّ. نظرت خلفي، حيث كان روَّاد الحفل الآخرين لا يزالون يستقرون في مقاعدهم، يتمتمون ويتصفَّحون برامجهم. إذا لم يتمكن ويل من الاسترخاء والتَّركيز على الموسيقى ستذهب هذه الفسحة هباءً، لن أحتمل كارثة أخرى.

قلت: «لا تتحرك».

«لماذا».

قبل أن ينتهي، انحنيت وأزحت برفق ياقته عن طرف عنقه، ووضعت فمي عليها، وأخذت البطاقة المزعجة بين سنيَّ الأماميين. تمكنت من أن أعض عليها بضع ثواني وأغمضت عيني أحاول أن أتجاهل رائحة الذَّكر

النَّظيف، وملمس بشرته على بشرتي، وعدم ملاءمة ما كنت أفعله. ثم أخيرًا شعرت بأنها انقطعت. أعدت رأسي وفتحت عينيَّ ظافرة والبطاقة المحررة بين سنيَّ.

قلت وأنا أسحب البطاقة من بين أسناني وأنقفها عبر المقاعد: «نلت منها!».

حدَّق بي ويل: «ماذا؟».

استدرت في مقعدي لأرى هؤلاء الحضور الذين بدوا مستغرقين وقد وجدوا برامجهم آسرة بالتَّأكيد. ثم عدت إلى ويل.

«أوه، هيَّا، إنه ليس كما لو أنهم لم يروا من قبل فتاة تقضم ياقة رجل».

بدوت أني أسكتّه باختصار. طرف ويل مرَّتين كما لو أنه يهزُّ رأسه. لاحظت باستمتاع احمرار عنقه الشَّديد.

سوَّيت تنورتي وقلت: «بأي حال، أظنُّ أن علينا أن نكون ممتنِّين أنها لم تكن في بنطالك».

ثم قبل أن يتمكَّن من الإجابة، خرج العازفون فيستراتهم الرسمية وهدأ الجمهور. شعرت قليلًا برعدة من الهياج رغمًا عني. وضعت يديَّ معًا على حجري وجلست في مقعدي باستقامة. بدأوا دَوْزَنة آلاتهم، وفجأة امتلأت القاعة بصوت واحد هو الأكثر حيوية، شيء بثلاثة أبعاد لم يسبق أن سمعته. جعل شعر جسمي يقشعرّ، علقت أنفاسي في حلقي. نظر ويل نحوي ولا يزال وجهه يحمل جذل اللحظات الأخيرة. قالت ملامحه: «حسنًا، سوف نستمتع بهذا».

صعد قائد الأوركسترا، وربَّت مرتين على المنبر، وران صمت عظيم. شعرت بالسُّكون، القاعة حيَّة، مترقِّبة. ثم أنزل عصاه وفجأة كل شيء صار صوتًا صرفًا. شعرت بالموسيقى مثل شيء ملموس، هي لم تدخل أذنيَّ فقط، بل سرَت بي، وحولي، جعلت أحاسيسي تتذبذب. جعلت جسمي

يقشعر وراحتَيَّ نديّتَيْن. لم يكن ويل قد وصف لي أيًّا من هذا. كنت قد ظننت أني سوف أشعر بالملل. لكنّه كان أكثر ما سمعته في حياتي جمالًا.

وهذا جعل خيالي يقوم بأشياء غير متوقَّعة، فيما أنا جالسة هناك. وجدت نفسي أفكِّر بأشياء لم أفكِّر فيها منذ سنوات. غمرتني مشاعر قديمة، وخرجت مني أفكار جديدة وخواطر كما لو أن إدراكي نفسه كان يتمدّد في الشَّكل. كان يكاد يكون مفرطًا لكني لم أرغب أن يتوقف. أردت أن أجلس هناك إلى الأبد. استرقت نظرة نحو ويل. كان سابحًا في عالم آخر، فجأة من دون وعي التفتُّ خائفة من النَّظر إليه على نحو غير متوقَّع. كنت خائفة من مشاعره، من عمق خسارته، من حجم مخاوفه. كانت حياة ويل ترينر تتجاوز تجاربي. من أنا لأقول له إن عليه أن يعيشها؟

***

ترك صديق ويل ملاحظة يطلب إلينا فيها أن نذهب إلى وراء الكواليس ونراه في ما بعد، لكن ويل لم يرغب بذلك. توسَّلته مرة لكنّي عرفت من شكل فكّه أنه لن يتزحزح. لم أستطع لومه.

تذكَّرت كيف نظر روبرت، زميله السَّابق في العمل، إليه ذلك اليوم - مزيج من الشَّفقة، والاشمئزاز، وارتياح عميق من أنه هو نجا من ضربة القدر هذه. شككت بأنه تحمَّل عددًا كبيرًا من ذلك النوع من اللقاءات.

انتظرنا حتى فرغت القاعة، ثم دفعت كرسي ويل إلى الخارج، نزلنا نحو موقف السَّيارات بواسطة المصعد، وحملت ويل من دون أي حوادث. لم أقل الكثير، كان رأسي لا يزال يطنُّ بالموسيقى، ولم أرغب في تلاشيها. فكَّرت فيها باستمرار، باستغراق صديق ويل في ما كان يعزفه. لم أكن أدرك أن في وسع الموسيقى أن تحرر فيك أمورًا، وأن تنقلك إلى مكان، حتى المؤلِّف لم يكن ليتكهَّن به. تترك بصمة في الهواء من حولك، كما لو أنك حملت بقاياها معك عندما غادرت. لبعض الوقت، فيما كنا جالسين هناك بين الجمهور، كنت قد نسيت تمامًا أن ويل جالس إلى جانبي.

توقَّفنا عند باب الملحق. كانت القلعة أمامنا، ظاهرة فوق الجدار، مُنارة بضوء غامر تحت بدر التمام، تحدِّق بصفاء من موقعها على أعلى التلة.

«إذًا أنت لست شخصًا يحب الموسيقى الكلاسيكية».

نظرت في المرآة الخلفية. كان ويل يبتسم.

«لم أستمتع بذلك ولو قليلًا».

«أرى ذلك».

«لم أستمتع بتلك المقطوعة قرب النهاية عندما كان عازف الكمان يعزف بمفرده».

«أرى أنك لم تُعجَبي بتلك القطعة الموسيقية. في الواقع، أظن أنك بكيت من شدَّة كرهك لها».

ابتسمت ابتسامة عريضة وقلت: «أحببتها حقًّا، أنا لست واثقة من أني أحب كل الموسيقى الكلاسيكية، لكني أعتقد بأن تلك كانت رائعة». غضَّنت أنفي وقلت: «شكرًا لك. شكرًا لك لأنك صحبتني».

جلسنا صامتَيْن، نحدِّق بالقلعة. بطبيعة الحال، كانت غارقة ليلًا في نوع من الوهج البرتقالي لأضواء انتشرت حول جدار الحصن. لكن الليلة، تحت بدر التَّمام، بدت مغمورة في أزرق سماوي.

قلت: «أي نوع من الموسيقى تظن بأنهم كانوا يعزفون هناك؟ لا بد أنهم استمعوا إلى شيء ما».

«في القلعة؟ أشياء القرون الوسطى. آلة اللوت، وتريّات. ليس النوع الذي أحبه، لكن لدي منها القليل يمكنني أن أعيرك إياها لو تحبين. عليك أن تمشي حول القلعة وأنت تستمعين إليها، لو كنت تريدين حقًّا أن تعيشي التجربة كاملة».

«لا. لا أحب الذَّهاب إلى القلعة».

«هكذا تكون الأمور دومًا عندما تعيشين قرب مكان ما».

جلسنا هناك مزيدًا من الوقت نصغي إلى تكتكة المحرك حتى صَمَت.

قلت وأنا أفك حزامي: «هيا، من الأفضل أن أدخلك. روتين المساء ينتظر».

«فقط انتظري دقيقة كلارك».

التفتّ في مقعدي. كان وجه ويل في الظل ولم أتمكن من تبيّنه.

«فقط ابقي لدقيقة».

«هل أنت بخير؟». وجدت تحديقتي تنزل نحو كرسيّه، خشية أن يكون أي عضو من أعضائه مقروصًا، أو عالقًا. وخشية أن أكون قد ارتكبت أي خطأ.

«أنا بخير. أنا فقط...».

رأيت ياقته الشَّاحبة، سترته الغامقة على تضاد معها.

«لا أريد أن أذهب.. أريد أن أجلس ولا أفكر في...». ازدرد ريقه: «أنا فقط... أريد أن أكون رجلًا حضر حفلًا موسيقيًا مع فتاة ترتدي فستانًا أحمر لبضع دقائق إضافية».

تركت مقبض الباب.

«بالتَّأكيد».

أغمضت عينيَّ وأرحت رأسي على مسند المقعد. جلسنا هناك معًا لفترة أطول، شخصان غارقان في موسيقى متذكَّرة، مخفيّين تقريبًا في ظلِّ قلعة على تلة مقمرة.

***

لم نتحدَّث أختي وأنا حقًّا عمَّ حدث تلك الليلة في المتاهة. أنا لست على يقين تام من أنه كان هناك ما يمكن أن يُقال. عانقتني قليلًا ثم أمضت الوقت تساعدني في إيجاد ملابسي، ثم بحثت سدى في العشب النامي عن حذائي إلى أن قلت لها إنه لا يهم حقًّا. لم أكن لأنتعله ثانية بأيِّ حال.

ثم سرنا إلى البيت على مهلٍ - أنا حافية، وهي إلى جانبي وذراعها متصلة بذراعي حتى لو أننا لم نمشِ على هذا النحو منذ أن كانت في سنتها الأولى في المدرسة عندما أصرَّت أمي على ألّا أدعها تسير بمفردها.

عندما وصلنا إلى البيت، وقفنا على الشُّرفة ومسحت شعري ثم عينَيّ بمنديل رطب، ثم فتحنا الباب الرئيس ودخلنا كما لو أن شيئًا لم يحدث. كان أبي لا يزال ساهرًا يشاهد مباراة كرة قدم.

«أيتها الفتاتان تأخّرتما قليلًا». ثم أردف: «أعرف أنه يوم الجمعة، لكن مع ذلك...».

قلنا بانسجام: «حسنًا، أبي».

حينها كانت غرفتي هي الغرفة التي يقيم فيها جدِّي الآن. صعدت بسرعة إلى الأعلى قبل أن تتمكن أختي من أن تقول شيئًا وأغلقت الباب خلفي.

قصصت شعري في الأسبوع التالي. وألغيت تذكرة الطَّائرة، ولم أخرج مع الفتيات من مدرستي ثانية. كانت أمي غارقة في لوعتها فلم تنتبه، وأبي يضع أي تغيُّر في المزاج في منزلنا، وعادتي الجديدة في اعتزالي في غرفتي، في خانة «مشكلات نسائية». عرفت من كنت، وكنت شخصًا مختلفًا تمامًا عن الفتاة الضَّاحكة التي تثمل مع الغرباء. شخصًا لا يرتدي شيئًا يمكن أن يوصف بالمثير. ثياب لن تغري الرجال الذين يرتادون حانة الـ«ريد ليون» بأيّ حال.

عادت الحياة إلى طبيعتها. حصلت على عمل في محل لتصفيف الشَّعر ثم في مقهى الـ«باترد بان» ووضعت كل شيء خلفي.

لا بد أني مررت بالقلعة آلاف المرات منذ ذلك اليوم.

لكني لم أعد إلى المتاهة أبدًا منذ ذلك الحين.

13

وقف باتريك على حافَّة المسار، يهرول في المكان، تلتصق كنزته الجديدة من ماركة «نايكي» وبنطال قصير قليلًا بأطرافه المبللة. كنت قد عرَّجت عليه لألقي التَّحية ولأخبره بأني لن أذهب إلى اجتماع الـ«ترياثلون تيررز» في الحانة ذلك المساء. كان نايثن في إجازة وكان عليَّ أن أتواجد لأتولَّى روتين المساء.

«هذا ثالث لقاء لا تحضرينه».

«حقًّا؟»، عددت على أصابعي: «نعم أعتقد أنه الثَّالث».

«سيتوجّب عليكِ المجيء الأسبوع القادم. إنه عن خطط السَّفر من أجل الفايكنغ اكستريم. وأنت لم تخبريني ماذا تريدين أن تفعلي في عيد ميلادك». بدأ يؤدّي تمارين التمطيط، يرفع ساقه عاليًا ويضغط صدره على ركبته. «فكرت أن نذهب إلى السِّينما؟ لا أريد أن أتناول وجبة كبيرة، ليس أثناء قيامي بالتدريبات».

«آه. والداي يخططان لعشاء مميَّز».

أمسك بكعبه، مصوبًا ركبته نحو الأرض. لاحظت رغمًا عني أن ساقه كانت تصبح مفتولة العضلات على نحو غريب.

«هي ليست ليلة في الخارج بالضبط، أليس كذلك؟».

«حسنًا، ولا هي صالة السِّينما بأيّ حال، أشعر بأن عليَّ الحضور باتريك. كانت أمي مكتئبة قليلًا».

كانت ترينا قد انتقلت من المنزل في عطلة نهاية الأسبوع السَّابق (من دون أن تأخذ حقيبتي ذات اللون الليموني). كانت أمي مغتمَّة، في الحقيقة. كان الأمر أسوأ مما حدث عندما ذهبت ترينا إلى الجامعة لأول مرة. افتقدَتْ توماس مثل عضو مبتور. وضعت ألعابه التي افترشت أرض غرفة الجلوس منذ طفولته في صناديق.لم يكن هناك أصابع شوكولا أو عبوات الشَّراب الصَّغيرة في الخزانة. هي لم تعد تملك سببًا يدعوها للسير إلى المدرسة عند السَّاعة الثَّالثة والربع، ما من أحد لتثرثر معه في طريق العودة القصير إلى المنزل. كان الوقت الوحيد الذي تمضيه كل يوم أمي خارج المنزل. الآن لم تعد تذهب إلى أي مكان عدا الذِّهاب للتبضُّع من السُّوق المركزية مع أبي مرة في الأسبوع.

طافت في أرجاء المنزل وقد بدت تائهة إلى حدٍّ ما طوال ثلاثة أيام، ثم بدأت تنظيفًا شاملًا بهمَّة أثارت رعب جدّي أيضًا. كان يتفوَّه باحتجاجات بغيضة وهي تحاول أن تكنّس بالمكنسة الكهربائية تحت الكرسي الذي كان لا يزال جالسًا عليه، أو تنفض كتفيه بمنفضتها. قالت ترينا إنها لن تعود في الأسابيع القليلة الأولى إلى البيت، فقط لتمنح توماس الفرصة ليستقر. عندما كانت تتصل كلَّ مساء، كانت أمي تتحدث إليهما ثم تبكي نصف ساعة في غرفتها بعد ذلك.

«أنت دومًا تعملين حتى وقت متأخر هذه الأيام. أشعر بأني بالكاد أراكِ».

«حسنًا، أنت دومًا تتدرّب. بأيٍّ حال، إنه مال جيد، باتريك. أنا لن أرفض العمل الإضافي».

لم يتمكَّن من الاعتراض على ذلك.

كنت أتقاضى مرتبًا أكبر من أي مرتَّب تقاضيته في حياتي. ضاعفت

المبلغ الذي أعطيه لوالديَّ، وادَّخرت القليل في حساب توفير شهري، وكان يبقى معي مبلغ كبير لا أستطيع إنفاقه. من ناحية هذا كان لأني عملت لساعات طويلة فلم أكن بعيدة عن منزل غرانتا عندما كانت المتاجر تفتح أبوابها. ومن ناحية أخرى لأنني ببساطة لم أكن أملك الرغبة في الإنفاق. وأما ما تبقى من السَّاعات فقد كنت بدأت أقضيها في المكتبة أبحث عن أمور على شبكة الإنترنت.

كان هناك عالم بكامله متاح لي من خلال ذلك الحاسوب، طبقة فوق طبقة، وكان قد بدأ يمارس إغواءه علي.

بدأ الأمر مع رسالة الشُّكر. بعد يومين من الحفل الموسيقي، قلت لويل إني أعتقد بأن علينا أن نكتب رسالة شكر إلى صديقه عازف الكمان.

قلت: «اشتريت بطاقة جميلة في طريقي إلى هنا، قل لي ماذا تريد أن تقول وسوف أكتب. وقد جلبت قلمًا جيدًا أيضًا».

قال ويل: «لا أريد ذلك».

«ماذا؟».

«سمعتيني».

«لا تريد ذلك؟ قدَّم لنا ذلك الرَّجل مقاعد المقدِّمة. قلت بنفسك إنها كانت ساحرة. أقل ما يمكنك فعله هو أن تشكره».

كان فك ويل ثابتًا لا يتزعزع.

وضعت قلمي: «أو أنك فقط معتاد على أن يعطيك الناس أشياء لا تشعر بأن عليك اقتناءها؟».

«ليس لديك فكرة، كلارك، كم هو محبط أن تعتمدي على شخص آخر ليدوِّن كلماتك عنك. العبارة «مكتوبة بالنيابة عن»... مُذلّة».

تبرَّمت: «نعم؟ حسنًا، لا تزال أفضل من لا شيء. سأشكره، بأيِّ حال. لن أذكر اسمك، إذا كنت تريد حقًّا أن تكون مهملًا بشأنه».

كتبت البطاقة وأرسلتها. لم أقل شيئًا عن الأمر. لكن ذلك المساء، وكلمات ويل لا تزال تتردَّد في رأسي، وجدت نفسي أتوجَّه إلى المكتبة. بحثت ما إذا كانت هناك أي وسائط يمكن أن يستعملها ويل ليكتب بنفسه. توصَّلت خلال ساعة إلى ثلاث منها - برنامج يتعرَّف إلى الصَّوت، نوع آخر من برنامج يعتمد على رفَّة العين، وكما ذكرت أختي إنه جهاز للنقر يمكن أن يضعه ويل على رأسه. كان متكبرًا بشكل متوقَّع إزاء جهاز الرأس، لكنه اعترف بأن برنامج التَّعرف إلى الصَّوت قد يكون مفيدًا، وخلال أسبوع تمكنَّا بمساعدة نايثن من وصله على حاسوبه وإجلاس ويل في وضعية مستقيمة، ومع تثبيت حامل الحاسوب إلى كرسيّه لم يعد بحاجة لأن يكتب شخص آخر بالنيابة عنه. كان خجولًا في البداية، لكن بعد أن علّمته أن يبدأ كل شيء بقول: «دوِّني رسالة آنسة كلارك» تجاوز الأمر.

حتى السَّيدة ترينر لم تتمكّن من إيجاد ما تشتكي منه. قالت وشفتاها لا تزالان مزمومتين كما لو أنها لم تتمكّن من تصديق أن هذا قد يكون أمرًا جيدًا صراحة: «أعلمينا إذا كان هناك أي جهاز آخر تظنين أنه قد يكون مفيدًا».

بعد ثلاثة أيام تمامًا، وأنا متوجِّهة إلى العمل، سلَّمني ساعي البريد رسالة. فتحتها في الحافلة ظنًّا مني أنها قد تكون بطاقة تهنئة مبكِّرة بعيد ميلادي. كانت الرسالة في نص منضَّد على الحاسوب:

عزيزتي كلارك،

هذه لأريكِ أني لست أنانيًا متكبرًا بالكامل. وأقدِّر جهودك.

شكرًا لكِ. ويل

ضحكت بشدة حتى إن سائق الحافلة سألني إذا كنت قد ربحت ورقة يانصيب.

***

بعد سنوات في غرفة المخزن تلك، حيث كان عليّ أن أعلّق ثيابي على

مشجب في الرِّواق خارجها، بدت غرفة نوم ترينا فخمة. الليلة الأولى التي أمضيتها فيها فردتُ ذراعيَّ أتمتّع فقط بحقيقة أني لم أتمكن من مسِّ الجدران بشكل متزامن. ذهبت إلى متجر DIY واشتريت طلاءً وستائر جديدة ومصباحًا جانبيًّا جديدًا أيضًا وبعض الرفوف التي ثبَّتها بنفسي. ليس لأني أجيد القيام بتلك الأمور، لكن أظن بأني أردت فقط أن أرى إذا كان في وسعي فعل ذلك.

بدأت بتجديد الديكور، أطلي لمدة ساعة ليلًا عندما أعود إلى البيت من العمل، وعند نهاية الأسبوع حتى والدي كان عليه أن يعترف بأني أبليت بلاء حسنًا بالفعل. حدَّق قليلًا بقصاصات القماش مشيرًا إلى السَّتائر التي وضعتها بنفسي وحطَّ يده على كتفي وقال: «كان هذا العمل سبب نجاحك لو».

اشتريت غطاءً جديدًا، وبساطًا، وبعض الوسائد الكبيرة فقط في حال دخل أحد وأحبَّ أن يستلقي. وهذا ما لم يحدث. علَّقت الروزنامة على الباب المطلي حديثًا. لم يرها أحد سواي، ولن يعرف أحد ماذا تعني بأي حال.

ذهبت إلى العمل يوميًا وأنا أفكِّر بأماكن أخرى أستطيع أن أصحب ويل إليها. لم يكن لدي أي خطة على العموم، أنا فقط ركَّزت كلَّ يوم على إخراجه من المنزل ومحاولة إسعاده. كان هناك بعض الأيام أصعب من سواها عندما كانت أطرافه تحرقه، أو عندما تصيبه عدوى فيستلقي بائسًا ومحمومًا في السَّرير، لكن تمكَّنت في الأيام الجيدة من إقناعه عدة مرات بالخروج إلى شمس الربيع المشرقة. عرفت الآن أن واحدًا من أكثر الأمور التي كرهها ويل كانت شفقة الغرباء، لذا قدته إلى مواقع جميلة قريبة حيث يمكننا أن نكون لساعة تقريبًا بمفردنا. تنزَّهنا وجلسنا على أطراف الحقول نستمتع بالنَّسيم وببعدنا عن الملحق.

قلت له في الأصيل وأنا أقطع شطيرة الجبن والمخلل: «صديقي يريد

أن يلتقيك». كنّا قد تجاوزنا البلدة بأميال نحو التلة ورأينا القلعة عبر الوادي المقابل تفصلها عنّا حقول ترعى فيها الخراف.

«لماذا؟».

«يريد أن يعرف مع من أمضي كل تلك الليالي».

بغرابة، رأيت أنه وجد هذا مبهجًا للغاية.

«العدَّاء».

«أظن أن والديَّ يرغبان في ذلك أيضًا».

«أتوتر عندما تقول فتاة إنها تريدني أن ألتقي بوالديها. كيف حال والدتك بأي حال؟».

«على حالها».

«وعمل والدك؟ هل من أنباء؟».

«لا. هم يقولون له الآن الأسبوع القادم. بأي حال، سألاني إذا كنت أرغب بدعوتك إلى عشاء عيد ميلادي يوم الجمعة؟ دعوة غير رسمية. فقط عشاء عائلي، حقًا. لكن لا بأس... إن كنت لا ترغب بالقدوم».

«من قال إني قد لا أرغب بذلك؟».

«أنت تكره الغرباء، لا تحب تناول الطعام في حضرة الناس، ولا تحب صوت صديقي. لا تبدو لي أنها مهمّة سهلة لك».

كنت قد فهمته الآن، أفضل طريقة لكي تجعل ويل يفعل أي شيء كان أن تقول له إنك تعلم بأنه قد لا يرغب به. جزء عنيد، معاكس موجود فيه، أو ربما أوجده فيه مرضه.

مضغ ويل لبعض الوقت: «لا. سآتي إلى عيد ميلادك. هذا سيمنح والدتك شيئًا تنشغل به، إن لم تجد شيئًا آخر».

«حقًّا، يا إلهي، إذا أخبرتها سوف تبدأ بالمسح ونفض الغبار منذ هذا المساء».

«هل أنت واثقة من أنها أمك البيولوجية؟ ألا يفترض أن يكون هناك نوع من التشابه الجيني. شطيرة من فضلك، كلارك. والمزيد من المخلل في اللقمة التالية».

أصيبت أمي بحيرة تامة لفكرة استضافة مصاب بشلل رباعي. وضعت يديها على خديها ثم بدأت ترتّب الأشياء على الخزانة كما لو أنه كان سيصل خلال دقائق من إخباري لها.

«لكن ماذا لو احتاج أن يدخل إلى المرحاض؟ نحن لا نملك حمامًا في الطَّابق الأرضي ولا أظن أن والدك سيكون قادرًا على حمله إلى الأعلى. يمكنني المساعدة لكن لن أعرف أين أضع يدي وقد أشعر ببعض الارتباك، هل يفعل باتريك هذا؟».

«لا داعي للقلق بهذا الشَّأن. حقًّا».

«وماذا عن طعامه؟ هل يتوجَّب أن يكون طعامه قابلًا للهرس؟ هل هناك شيء لا يستطيع تناوله؟».

«لا، هو فقط يحتاج إلى مساعدة في تلقيمه إياه».

«من سيفعل ذلك؟».

«أنا سأفعل. اهدئي، أمي. إنه لطيف. ستُعجَبين به».

وهكذا رُتّب الأمر. سوف ينقل نايثن ويل ويوصله ثم يعود بعد ساعتين ليعيده إلى البيت ثانية ويقوم بالروتين الليلي. عرضت أن أفعل هذا لكنهما أصرّا بأنه عليَّ أن «أكون مستريحة» في عيد ميلادي. من الواضح أنهما لم يقابلا والديَّ!!

عند السَّاعة السَّابعة والنصف تمامًا، فتحت الباب لأجد ويل ونايثن على الشُّرفة الأمامية. كان ويل يرتدي قميصه الجميل وسترة. لم أعرف ما إذا كان عليَّ أن أسرّ لأنه بذل جهدًا، أو أقلق من أن أمي ستمضي الآن السَّاعة الأولى من الليل مضطربة لأنها لم ترتدِ ثيابًا أنيقة بما يكفي.

«مرحبًا».

خرج والدي إلى الرِّواق من خلفي.

«آها. هل كان المنحدر جيدًا يا شباب؟». كان والدي قد أمضى الأصيل يصنع منحدرًا من أجل الدرج الخارجي.

تمكَّن نايثن من إدخال كرسي ويل نحو رواقنا الضَّيِّق بعناية.

قال نايثن وأنا أغلق الباب من خلفه: «لطيف، لطيف جدًا، لقد رأيت أسوأ منه في المشافي».

مدَّ أبي يده وصافح نايثن: «برنارد كلارك» ومدَّها نحو ويل قبل أن ينترها ثانية بومضة مفاجئة من الإحراج، وبدأ يتلعثم: «برنارد، آسف لا أعرف كيف أحيي، لا يمكنني أن أصافح».

«قد تكون انحناءة احترام ممتازة».

حدَّق والدي به ثم عندما أدرك أن ويل كان يمزح أطلق ضحكة عظيمة من الارتياح وقال: «هاه!» وربَّت على كتف ويل. «نعم انحناءة لطيفة هاه!».

كُسر الجليد، غادر نايثن بتلويحة وغمزة، ودفعت كرسي ويل إلى المطبخ. كانت أمي لحسن الحظ تمسك بطبق خزفي مما أعفاها من الإحراج.

«أمي هذا ويل، ويل هذه أمي جوزفين».

«جوسي من فضلك، سعيدة بلقائك أخيرًا يا ويل». ابتسمت له وقفازات الفرن تصل حتى مرفقيها.

قال: «سررت بلقائك».

وضعت الطبق وذهبت يدها إلى شعرها، وتلك كانت دومًا إشارة جيّدة من أمي. كان مخجلًا أنها لم تتذكر أن تخلع القفازات أولًا.

قالت: «آسفة، عشاء مشوي، كل شيء يجب أن يحضر في وقته، كما تعلم».

قال ويل: «ليس حقًّا، أنا لست طاهيًا، لكني أحب الطَّعام الجيِّد لهذا كنت أتطلَّع إلى هذه الليلة».

فتح والدي الثَّلاجة: «إذًا كيف نفعل هذا؟ هل لديك كوبًا خاصًا بالبيرة، يا ويل؟».

قلت لويل: «إذا كان الأمر يتعلّق بأبي، فلسوف يصنع كوبًا معدّلًا للبيرة قبل أن يمتلك كرسيًا متحرّكًا».

قال أبي: «عليك الحصول على أولوياتك بطريقة صحيحة».

فتَّشت في حقيبة ويل حتى وجدت كوبه.

«البيرة ستكون ممتازة. شكرًا لك».

ارتشف رشفة ووقفت في المطبخ، انتبهت فجأة إلى منزلنا الصغير الرَّث بورق الجدران الذي يعود إلى الثّمانينات وخزائن المطبخ المثقوبة. كان بيت ويل مؤثثًا بأناقة، ديكوره جميل ومقتصد. بدا منزلنا كما لو أن 90 ٪ من محتوياته مشتراة من المتجر المحلي ذي الأسعار الرخيصة. غطَّت رسومات توماس زوايا كل سطح فارغ من الجدران. لكن إن كان ويل قد لاحظ ذلك فهو لم يقل شيئًا، سرعان ما وجدا، هو وأبي، موضوعًا مشتركًا لحديثهما، واتضح أنه سلبياتي أو حماقاتي عمومًا. لم أمانع فقد أسعدتهما.

«هل تعلم، هي مرة قادت إلى الوراء فاصطدمت بصندوق البريد وأقسمت أنه كان خطأ صندوق البريد...».

«يجب أن تراها وهي تخفض سلَّمي. إنه يبدو مثل «سكي ساندي[1]» يخرج من تلك السَّيارة أحيانًا...».

---

(1) برنامج تلفزيوني عن الرياضات الشتائية.

انفجر أبي ضاحكًا.

تركتهما وخرجت. تبعتني أمي قلقة. وضعَت صينية الكؤوس على المائدة، ثم نظرت إلى السَّاعة: «أين باتريك؟».

قلت: «كان سيأتي مباشرة من التَّدريب، ربما تأخّر».

«ألا يمكنه أن يدعه فقط يوم عيد ميلادك؟ هذه الدَّجاجة سوف تتلف إذا تأخر مزيدًا من الوقت».

«أمّي، سيكون على خير ما يرام».

انتظرت حتى وضعت الصينية، ثم زلقت ذراعيَّ من حولها وعانقتها. كانت متصلّبة بالقلق. سرت بي موجة مفاجئة من الحنو عليها. لم يكن من السَّهل عليها أن تكون أمي.

«حقًّا، سيكون على خير ما يرام».

تركتني، قبَّلت رأسي، ومسحت يديها بمئزرها: «أتمنى لو أن أختك هنا. يبدو أن من الخطأ أن نحتفل من دونها».

لم يكن مكتوبًا لي أن أستمتع في كوني مركز الاهتمام، ولو لمرة واحدة. قد يبدو الأمر طفوليًّا لكنها الحقيقة. أحببت أن يضحك ويل وأبي عليّ. أحببت أن كل طبق من أطباق العشاء من الدجاج المحمَّص إلى الشوكولا المائع كانت من الأكلات المفضّلة لدي، أحببت أن أكون ما أريد من دون أن يذكّرني صوت أختي بمن كنت سابقًا. رنَّ الجرس وأمي صفَّقت بيديها: «ها هو، لو لماذا لا تبدئي بتقديم الطعام؟».

كان باتريك لا يزال متوردًا من جهوده في التدريب.

قال: «عيد سعيد حبيبتي»، وتوقَّف ليقبّلني. كانت تفوح منه رائحة كولونيا ما بعد الحلاقة ومزيل رائحة التعرق وبشرة دافئة مغسولة مؤخرًا.

أومأت نحو غرفة الجلوس: «من الأفضل أن تذهب مباشرة. أمي منهارة بسبب تأخرك».

نظر إلى ساعته: «أوه. آسف. لا بد أني نسيت التنبّه للوقت».

«ليس وقتك، على كل حال، إيه؟».

«ماذا؟».

«لا شيء».

كان أبي قد نقل الطّاولة الكبيرة إلى غرفة الجلوس. وبناء على تعليماتي نقل أيضًا إحدى الأرائك إلى الجدار الآخر فيكون بمقدور ويل أن يدخل الغرفة من دون معوِّقات. تمكّن ويل من دفع كرسيه إلى المكان الذي أشرت إليه ثم رفع نفسه قليلًا ليكون بمستوى الجميع. جلست إلى ميسرته وجلس باتريك قُبالتي، هو وويل وجدي أومأوا بالتحية. كنت قد حذّرت باتريك من محاولة مصافحة ويل، حتى وأنا جالسة شعرت بأن ويل يمعن النّظر في باتريك وتساءلت ما إذا كان سيجده صديقي ساحرًا كما حصل مع والدي.

أمال ويل رأسه نحوي: «إذا نظرتِ في ظهر الكرسي هناك شيء صغير من أجل العشاء».

انحنيت إلى الخلف ومددت يدي في حقيبته، سحبتها ثانية وأخرجت زجاجة شمبانيا تحمل علامة «لورنت-بيرير» التجارية.

قال: «يجب أن يكون هناك شمبانيا دومًا في عيد ميلادك».

قالت أمّي وهي تسكب الطّعام في الأطباق: «أوه انظروا إلى ذلك كم هو جميل، لكن ليس لدينا كؤوس خاصة بالشمبانيا».

قال ويل: «هذه ستكون جيّدة».

«سأفتحها». تناولها باتريك، حلَّ السّلك ووضع إبهاميه تحت الفلينة، ظلّ يتفرّس بويل كما لو أن ويل لم يكن ما توقعه على الإطلاق.

علّق ويل: «إذا كنت ستفعل ذلك، سوف تملأ المكان». رفع ذراعه

مسافة إنش تقريبًا، يومئ على نحو غامض. «أرى أن إمساك الفلينة وبرم الزُّجاجة سيكون أكثر أمانًا بقليل».

قال أبي: «ها هو رجل يعرف الشَّمبانيا خاصته، هيًّا باتريك».

قال باتريك: «أعرف، هذا ما كنت أنوي فعله».

فُتحت زجاجة الشَّمبانيا بأمان وفرقعت وصُبَّت وشربنا نخب عيد ميلادي.

نادى جدِّي بشيء ربما قد يكون: «موافقون، موافقون».

نهضت وانحنيت. كنت أرتدي ثوبًا قصيرًا ضيقًا من الأعلى وواسعًا من الأسفل، أصفر اللون على طراز ما كان سائدًا في السِّتينات اشتريته من متجر التَّوفير. اعتقدت المرأة أنه قد يكون من ماركة «بيبا» على الرغم من أن شخصًا كان قد قطع البطاقة.

قال أبي: «لعل هذه السَّنة تكون السَّنة التي تنضج فيها ابنتنا لو أخيرًا، كنت سأقول «لعل شيئًا في حياتها»، لكن يبدو كما لو أنها فعلت أخيرًا. عليَّ أن أقول، ويل، منذ أن حصلت على العمل معك هي.. حسنًا هي تغيَّرت حقًا».

قالت أمي: «نحن فخورون جدًا، وممتنُّون لك على توظيفها».

قال ويل: «الامتنان كله منصبّ عليّ». ازورَّ نحوي.

قال أبي: «نخب لو. ونجاحها المتواصل».

قالت أمي: «ونخب الغائبين».

قلت: «مدهش، عليَّ أن أقيم حفل عيد ميلاد مرات كثيرة. إذ معظم الأيام أنتم جميعًا تسيئون معاملتي».

بدأوا يتحدّثون، يروي أبي قصَّة عني جعلته وأمي يضحكان بصوت مرتفع. كان جيدًا أن تراهما يضحكان. بدا أبي مرهقًا للغاية في الأسابيع الأخيرة وكانت أمي تائهة تحيط بعينيها هالات سود كما لو أن ذاتها

الحقيقية كانت دومًا في مكان آخر. أردت أن أستمتع بتلك اللحظات وهما غافلَان عن مشكلاتهما في نكات وحماقات عائلية، فقط للحظة أدركت بأني لم أكن لأمانع لو كان توماس هنا، أو ترينا أيضاً.

كنت غارقة للغاية في أفكاري فاستغرقني دقيقة لألاحظ ملامح باتريك. كنت أطعم ويل وأنا أقول شيئًا لجدي، أثني قطعة من السَّلمون المدخَّن بين أصابعي وأضعها في فم ويل. كان هذا الجزء الغافل من حياتي اليومية الآن، حتى إني لم أنتبه إلى حميمية الحركة إلّا عندما رأيت وجه ويل المصدوم.

قال ويل شيئًا لأبي وحدَّقت أنا بباتريك كي يغيِّر ملامحه. على يساره كان جدّي يتناول من طبقه ببهجة نهمة مطلقًا ما سميناه «ضجيج طعامه» - حركات صغيرة وتمتمات التَّلذذ.

قال ويل لأمي: «سلمون لذيذ، حقًّا نكهة رائعة».

قالت مبتسمة: «حسنًا، إنه ليس شيئًا قد نتناوله كل يوم. لكننا رغبنا أن نجعل اليوم مميّزًا».

قلت لباتريك بصمت: «كفَّ عن التحديق».

أخيرًا تلقَّف نظرتي وأشاح ببصره. بدا حانقًا. لقّمت ويل قطعة أخرى، ثم بعض الخبز عندما رأيته ينظر إليه. أدركت في تلك اللحظة، أني كنت قد اعتدت على حاجات ويل فبالكاد كان يلزمني نظرة إليه لأعرف ما يريد.

قال ويل وقد أحس بانزعاجي ربما: «باتريك، قالت لي لويزا إنك مدرِّب شخصي ماذا يتضمّن ذلك؟».

تمنَّيت لو أنه لم يسأل. بدأ باتريك بكلامه المعسول، كل شيء حول التَّحفيز الشَّخصي وكيف أن الجسم السَّليم في العقل السَّليم، ثم تحوَّل إلى برنامج التَّدريب من أجل سباق الـ«إكستريم فايكنغ». أنا عمومًا تجاهلته

عند هذا الحد، لكنّ كل ما استطعت التّفكير فيه الآن وويل بجانبي، هو إلى أي درجة لم يكن كلامه مناسبًا. لماذا لم يقل فقط شيئًا مبهمًا واكتفى بذلك؟

«في الواقع، عندما قالت لو إنك قادم، فكرت بأن ألقي نظرة على كتبي وأرى إذا كان هناك من علاج فيزيائي أستطيع أن أنصح به».

غصصت بالشّمبانيا وأنا أقول: «إنه أمر تخصّصي تمامًا باتريك، أنا لست واثقة من أنك قد تكون الشّخص المناسب لذلك».

«يمكنني أن أكون اختصاصيًا، أنا أفعل لإصابات رياضية، لديّ تدريب طبي».

«هذا ليس كاحلًا ملتويًا بات».

«هناك رجل عملت معه منذ سنتين كان لديه زبون مصاب بالشّلل تعافى كلّيًّا تقريبًا الآن على حد قوله، هو يشارك بسباقات الترياثلون وكل شيء».

قالت أمي: «ساحر».

«وجّهني نحو هذا البحث الجديد في كندا الذي يقول إنّه يمكن تدريب العضلات لتتذكّر نشاطًا سابقًا. إذا جعلتها تعمل بما يكفي كل يوم، إنها مثل مشبك عصبي دماغي - يمكنه أن يعود. أراهن إذا أخضعناك إلى حمية غذائية جيدة حقًا، يمكنك أن تلاحظ فرقًا في ذاكرة عضلاتك في النهاية. لو تقول لي إنك كنت رجلًا نشيطًا للغاية في السّابق».

قلت بصوت مرتفع: «باتريك أنت لا تعرف شيئًا عن الأمر».

« كنت أحاول فقط».

«حسنًا لا تفعل حقًّا».

ران الصّمت على الطاولة. سعل والدي واعتذر. حدّق جدّي بالطاولة في صمت ضَجِر. همّت أمي بتقديم المزيد من الخبز للجميع، ثم بدا أنها تغيّر رأيها. عندما تحدّث باتريك ثانية كان في صوته نبرة استعطاف: «إنه مجرد بحث اعتقدت أنه قد يكون مفيدًا لكن لن أقول المزيد».

رفع ويل بصره وابتسم بوجه مهذَّب خالٍ من التعبير: «بالتأكيد سأضع هذا في بالي».

نهضت لأرفع الأطباق رغبة في الهروب من الطاولة، لكن أمّي أنَّبتني وطلبت مني الجلوس.

قالت: «أنت صاحبة عيد الميلاد يا فتاة»، كما لو أنها سبق أن سمحت لأي شخص بفعل أي شيء. «برنارد. لماذا لا تذهب وتجلب الدَّجاجة؟».

مرَّت بقية الوجبة بسلام. رأيت أن والديَّ كانا مسحورين تمامًا بويل. باتريك على نحو أقل ولم يتبادل هو وويل كلمة أخرى إلّا بالكاد. في وقت ما لم أعد قلقة عندما قدَّمت أمِّي البطاطا المشوية وقام أبي كعادته بمحاولة أخذ المزيد. كان أبي يطرح على ويل كلَّ أنواع الأسئلة عن حياته السَّابقة وحتى عن الحادثة، وبدا ويل مرتاحًا بما يكفي ليجيبه مباشرة. في الواقع علمت ما لم يخبرني إياه. بدا عمله على سبيل المثال مهمًّا للغاية حتى لو أنه قلَّل من شأنه، اشترى الشَّركات وباعها وكان واثقًا من الربح كلما فعل ذلك.

استغرق أبي عدة محاولات ليفهم منه أن تعريفه للربح كان يعني مبلغًا مؤلفًا من ستَّة أو سبعة أرقام. وجدت نفسي أحدِّق بويل، أحاول أن أوفِّق بين الرجل الذي عرفته وبين رجل الأعمال القاسي الذي أتعرّف إليه الآن. حدَّثه والدي عن الشَّركة التي كانت على وشك أن تتولّى إدارة مصنع الأثاث، وعندما قال الاسم أومأ ويل معتذرًا تقريبًا قائلًا إنه يعرفها، وربما طريقة قوله لم تبدُ مبشّرة لعمل والدي. اكتفت أمِّي بملاطفة ويل، وأحدثت جلبة كبيرة من حوله. أدركت وأنا أشاهد ابتسامتها أنه عند حدٍّ معين أثناء الوجبة أصبح رجلًا ذكيًّا يجلس إلى مائدتها وحسب. لا عجب أن باتريك كان حانقًا.

قال جدِّي عندما بدأت أمي برفع الأطباق: «كعكة عيد الميلاد؟». كان واضحًا ومفاجئًا جدًا، حتى إن أبي وأنا حدّقنا ببعضنا البعض مصدومين. ران الصَّمت على الطاولة برمَّتها.

درت حول الطاولة وقبلته: «لا.. لا جدي آسفة لكنه الشُّوكولا الذائب الذي تحبه».

أومأ مستحسنًا. كانت أمي مشرقة، لا أظن أيًّا منا قد يحظى بهدية أفضل.

وصل الـ«موس» إلى الطاولة، ومعه هدية كبيرة مربَّعة الشَّكل بحجم دليل الهاتف تقريبًا ملفوفة بقماش.

قال باتريك: «هل هي هدية؟ إليكِ، هذه هديتي». ابتسم لي وهو يضعها وسط الطاولة.

ابتسمت له. هذا لم يكن وقتًا للجدال في النهاية.

قال أبي: «هيًّا، افتحيها».

فتحت هديتهم أولًا، أزيل الورق بعناية كي لا يتمزّق. كان ألبوم صور فوتوغرافية، وعلى كلِّ صفحة كان يوجد صورة من سنة من حياتي أنا عندما كنت طفلة، أنا وترينا فتاتين بوجهين بدينين رزينين، أنا في يومي الأول في المدرسة الثانوية، وملاقط الشَّعر والتنانير الكبيرة الحجم. كانت أحدث صورة لِي ولباتريك، الصُّورة التي كنت أقول له فيها أن يغرب عني. كنت أرتدي تنُورة رمادية، يومي الأول في عملي الجديد. كان هناك بين الصَّفحات صور لعائلتنا التقطها توماس، رسائل احتفظت بها أمي من رحلاتنا المدرسية، يحكي خطِّي الطُّفولي عن أيام على الشَّاطئ، آيس كريم مهدور، ونوارس لصوص. تصفَّحته وفقط تردّدت قليلًا عندما رأيت الفتاة ذات الشَّعر الطَّويل الدَّاكن المربوط إلى الخلف وقلبت الصفحة.

قال ويل: «هل يمكنني أن أرى؟».

قالت له أمي وأنا أقلِّب له الصفحات: «إنها لم تكن السَّنة الأفضل. أعني نحن بخير وكل شيء، لكن أنت تعلم الأشياء هي ما هي عليه. ثم رأى الجدّ شيئًا على التلفاز عن صنع الهدايا، وفكّرت أنه كان شيئًا، قد يكون له معنى، كما تعلم».

«إن له معنى يا أمي»، امتلأت عيناي بالدموع. «لقد أحببته. شكرًا لكم».

قالت: «انتقى جدُّك بعض الصُّور».

قال ويل: «إنها جميلة».

قلت ثانية: «أحببتها».

نظرة الارتياح الكلّي التي تبادلتها مع أبي كانت أكثر ما رأيته إثارة للحزن.

«هديتي هي التالية». دفع باتريك علبة صغيرةً عبر الطاولة. فتحتها ببطء ينتابني الذعر على نحو غامض للحظة من أنها قد تكون خاتم خطوبة. لم أكن مستعدَّة، بالكاد كنت استوعبت أمر امتلاكي لغرفتي. فتحت العلبة الصَّغيرة وهناك على مخمل أزرق داكن كانت سلسلة ذهبية رفيعة تتدلى منها نجمة صغيرة. كانت حلوة ورقيقة لكن لا تشبهني ولو بقدر ضئيل. لم أتزيّن بهذا النوع من المجوهرات أبدًا.

تركت عينيّ تستقران عليها بينما أفكر ماذا سأقول.

قلت: «إنها جميلة». وانحنى باتريك عبر الطاولة وعلَّقها حول عنقي.

قال باتريك: «سررت لأنها أعجبتك» وقبَّلني على فمي. أقسم بأنه لم يقبلني هكذا أمام والديّ من قبل. راقبني ويل بوجه هادئ.

قال والدي: «حسنًا، أظنُّ أنَّ علينا أن نتناول الحلوى الآن، قبل أن تصبح ساخنة جدًا»، ضحك عاليًا على نكتته، رفعت الشمبانيا معنوياته بما لا يقاس.

قال ويل بهدوء: «هناك شيء في حقيبتي من أجلك أيضًا. الحقيبة التي خلف كرسيي ملفوفة باللون البرتقالي».

سحبت الهدية من حقيبة ويل.

توقفت يد أمي، وهي تحمل ملعقة السَّكب في يدها: «جلبت للو هدية ويل؟ هذا لطف منك. أليس هذا لطف منه برنارد؟».

«من دون شك».

كان ورق اللف مزين بأشكال كيمونو صيني زاهي الألوان. لم يكن عليّ أن أنظر إليه لأعلم بأني سأحتفظ به. ربما حتى أن أستوحي منه شيئًا لأرتديه. أزلت الشَّريطة ووضعتها جانبًا. فتحت الورق ثم المنديل الورقي بداخله وهناك كانت تحدق بي خطوط صفراء وسوداء مألوفة بغرابة. سحبت القماش من الصُّرة لأجد بين يدي جوربًا طويلًا مخططًا بالأسود والأصفر، بمقاس كبير من صوف ناعم جدًا انزلق بين أصابعي تقريبًا.

بدأت أضحك. أمر غير متوقّع مفرح، قلت: «لا أصدق! يا إلهي، من أين حصلت عليها؟».

«لقد أوصيت عليها. سوف يسعدك أن تعرفي بأني أعلمت امرأة بواسطة برنامج التَّعرف إلى الصَّوت الجديد».

قال أبي وباتريك في وقت واحد: «جوارب طويلة؟».

«أفضل زوج من الجوارب الطويلة على الإطلاق».

حدَّقت أمي بها: «تعلمين لويزا أنا واثقة من أنه كان لديك مثلها عندما كنت صغيرة جدًا».

تقاطعت نظراتنا أنا وويل.

لم أتمكّن من التَّوقف عن الابتسام قلت: «أريد أن أرتديها الآن».

قال أبي وهو يهز رأسه: «يا إلهي سوف تبدو مثل «ماكس وول» في خليّة نحل».

«آه برنارد، إنه عيد ميلادها. بالتأكيد، يمكنها أن ترتدي ما تريد».

ذهبت إلى الغرفة وارتديتها في الرِّواق. مددت أصابع قدمي معجبة بحماقتهم. لا أظن أن هناك هدية جعلتني سعيدة في حياتي مثل هذه.

عدت وهتف ويل مشجعًا، خبط جدِّي بيده على الطَّاولة، انفجر والدي بالضَّحك، واكتفى باتريك بالتحديق.

قلت: «لا يمكنني أن أصف لك كم أحببتها. شكرًا لك، شكرًا بحق».

مددت يدي ولمست كتفه.

قال: «هناك بطاقة أيضًا، افتحيها في ما بعد».

***

حدثت جلبة كبيرة لدى مغادرة ويل. وظلَّ أبي الذي كان ثملًا يشكره على توظيفي وأخذ منه وعدًا بالعودة.

قال: «إذا خسرت عملي ربما تأتي وتشاهد مباراة كرة قدم معي ذات يوم».

قال ويل: «أحبُّ ذلك»، ولو أني لم أره يومًا يشاهد مباراة كرة قدم.

وضعت أمي بعض ما بقي من حلوى الشوكولا الذائب في وعاء وأعطته له قائلة: «بالنَّظر إلى أنك أحببته كثيرًا».

ظلّا يتحدثان عنه طوال ساعة بعد مغادرته ويكرران: «يا له من رجل نبيل، رجل نبيل حقًّا».

خرج باتريك إلى الرِّواق، يداه في جيبيه، بدا كما لو أنه يكبح الرغبة في مصافحة ويل، هذا ما استنتجته لو افترضت حسن النية.

قال ويل: «سعيد لرؤيتك باتريك، وشكرًا لك على النَّصيحة».

قال: «أوه، فقط أحاول أن أساعد صديقتي لتحصل على الأفضل من أجل عملها، هذا كلُّ شيء». كان هناك تأكيد واضح على ياء الملكية في صديقتي.

قال ويل عندما بدأ نايثن بإخراجه: «حسنًا، أنت رجل محظوظ، هي بالتأكيد تجيد عمل حمَّام في السَّرير»، خرجت الكلمات بسرعة حتى إن الباب كان مغلقًا قبل أن يدرك باتريك ما قاله.

***

«أنتِ لم تقولي لي يومًا إنك كنت تحمّمينه في السَّرير».

عدنا إلى منزل باتريك وهو شقة مبنية حديثًا على طرف البلدة يبعت باعتبارها «عليّة للتخزين» مع ذلك أطلّت على ساحة البيع بالتجزئة ولم يكن ارتفاعها يزيد على ثلاثة طوابق.

«ماذا يعني هذا؟ هل غسلتِ له قضيبه؟».

«أنا لا أغسل قضيبه». التقطت المنظِّف الذي كان واحدًا من الأشياء القليلة التي كان مسموحًا لي أن أحتفظ بها في بيت باتريك وبدأت أزيل مكياجي بضربات واسعة النِّطاق.

«هو قال إنك فعلت».

«إنه يغيظك. وبعد أن واصلت الحديث عن أنه كان رجلًا نشيطًا لا ألومه».

«إذًا ما الذي تفعلينه له بالتحديد؟ واضح أنك لم تكوني تحكي لي القصة الكاملة».

«أحمّمه أحيانًا لكن فقط حتى سرواله الداخلي».

بدأ باتريك يتحدَّث بوضوح، أخيرًا أشاح ببصره عني وخلع جوربيه ورماهما في سلّة الغسيل.

«عملك ليس مقصود منه هذا، لم تكن هناك أمور طبية كما يقال، ليس هناك أمور حميمة، لم يكن جزءًا من عملك». خطرت له فكرة مفاجئة «أظن أن في وسعك أن ترفعي دعوى تسريح رابحة عندما يغيرون شروط عملك».

«لا تكن سخيفًا. وأنا أفعل ذلك لأن نايثن لا يمكنه دومًا التَّواجد، ومن المزعج لويل أن يكون لديه شخص غريب كليًّا من الوكالة ليتعامل معه، علاوة على ذلك أنا معتادة على هذا الآن، إنه حقًّا لا يزعجني».

كيف يمكنني أن أشرح له - كيف يمكن لجسد أن يصبح مألوفًا للغاية لك؟ يمكنني أن أغير أنابيب ويل بحرفية تامّة، وأن أحممه باستخدام

إسفنجة وهو عاري الجذع من دون أن نتوقّف عن تبادل الأحاديث. أنا حتى لم أعد أنفر من ندوب ويل الآن. لفترة كان كل ما كنت قادرة على رؤيته انتحار محتمل، الآن كان فقط ويل المثير، المتقلّب المزاج، الذَّكي، المسلِّي الذي تفضَّل عليَّ وأحبَّ أن يلعب دور البروفيسور هيغنز لـ«إليزا دوليتل» خاصّتي. كان جسده فقط جزءًا من سلَّة كاملة، شيء نتعامل معه بين حين وآخر قبل أن نعود إلى التَّحدث. أخال أنه أصبح الجزء الأقل إثارة للاهتمام.

«أنا فقط لا أستطيع أن أصدّق بعد كل ما مررنا به.. كم استغرقك كي تسمحين لي بالاقتراب منك، وها أنت على نحو غريب سعيدة تمامًا في أن تكوني قريبة منه».

«هل يمكن ألا نتحدث في هذا الأمر الليلة باتريك؟ إنه عيد ميلادي».

«لستُ من بدأ الحديث عن حمَّام السَّرير وهذه الأشياء».

قلت: «هل لأنه يبدو وسيمًا؟ هل هذا هو السبب؟ هل سيكون الأمر أسهل لك لو بدا مثل - كما تعلم - شخصًا بليدًا؟».

«إذًا أنت ترينه وسيمًا».

خلعت فستاني، وبدأت أخلع جواربي بعناية، تبخَّرت بقايا مزاجي الجيد أخيرًا.

«لا أستطيع أن أصدِّق أنك تفعل هذا، لا أستطيع أن أصدّق أنك تغار منه».

كانت نبرت صوته رافضة: «أنا لا أغار منه. كيف يمكنني أن أغار من كسيح؟».

مارس باتريك الحبَّ معي تلك الليلة، ربما عبارة «مارس الحب» فضفاضة قليلًا. مارسنا الجنس، جلسة ماراثون بدا مصممًا على أن يظهر فيها نشاطه، وقوته وهمّته. استمرَّت لساعات. لو استطاع فيها أن يلوحني

في الهواء لكان فعل. كان لطيفًا أن تشعر بأنك مرغوب جدًّا، أن تجد نفسك في مركز اهتمام باتريك بعد شهور من شبه انفصال. لكن ظلَّ جزء صغير مني متحفِّظًا أثناء ذلك. شككت بأنه لم يكن من أجلي في النهاية، عرفت بسرعة تامة أنَّ هذا العرض الصَّغير كان لمصلحة ويل.

«كيف كان ذلك؟». لفَّ نفسه حولي في ما بعد، تفوح من جلدنا رائحة العرق قليلًا وقبَّل جبهتي.

قلت: «عظيم».

«أحبُّكِ، حبيبتي».

وراضيًا تكوَّر، رمى ذراعًا على رأسه ونام خلال دقائق.

عندما لم يوافيني النَّوم نهضت من السَّرير ونزلت إلى الأسفل، وفيما كنت أنقِّب في حقيبتي، باحثة عن كتاب قصص «فلانري أوكونر» القصيرة سقط مغلف. حدَّقت في بطاقة ويل. لم أفتحها على الطاولة. فعلت هذا الآن، تبدو اسفنجية بشكل غريب في وسطها. زلقت البطاقة بعناية من مغلفها وفتحتها. كان في داخلها أوراق مالية مجعدة تعد خمسين جنيهًا أحصيتها مرتين غير قادرة على تصديق ما أراه مكتوبًا في الداخل:

مكافأة عيد الميلاد. لا تثوري. إنها مطلب مشروع. و...

14

كان شهر أيار شهرًا غريبًا. الصُّحف والتِّلفاز تعجُّ بعناوين عما اصطلحوا على تسميته «الحقّ في الموت». امرأة تعاني من مرض تنكُّسي سألت إذا كان القانون يحمي زوجها، إذا كان عليه أن يرافقها إلى «ديجنتاس» عندما أصبحت معاناتها لا تطاق. انتحر لاعب كرة قدم شاب بعد إقناع والديه بأخذه إلى هناك. كانت الشُّرطة متورّطة. ونقاشًا كان سيعقد في مجلس اللوردات.

شاهدت التقارير الإخبارية وأصغيت إلى النِّقاشات القانونية من كتّاب وفلاسفة أخلاقيين محترمين، ولم أعرف تمامًا أن أتخذ موقفًا من أيٍّ منها. وبشكل غريب بدت كلها غير متعلّقة بويل. نحن في هذه الأثناء زدنا تدريجيًا نزهات ويل - والمسافة التي كان معدًا لقطعها. ذهبنا إلى السِّينما، وخرجنا لنرى راقصي «الموريس» على الطريق (ظلَّ ويل محافظًا على وجه رصين وهو ينظر نحو أجراسهم ومناديلهم، لكنه تورَّد قليلًا مما بذله من جهد)، ذهبنا ذات مساء إلى حفل موسيقي في الهواء الطلق في مكان فخم قريب (شيء يشبهه أكثر مما يشبهني)، ومرة ذهبنا إلى صالة السينما، حيث بنتيجة البحث غير الوافي من جهتي، انتهينا بمشاهدة فيلم عن فتاة مصابة بمرض قاتل.

لكن عرفت أنه رأى العناوين في الصُّحف أيضًا. كان قد بدأ باستعمال

الحاسوب أكثر منذ أن حصلنا على البرنامج الجديد، وعرف كيف يحرك الفأرة بجرٍّ إبهامه على وسادة رقيقة. مكَّنه هذا التمرين المرهق من قراءة الصحف اليومية على شبكة الإنترنت. جلبت له ذات صباح كوب شاي فوجدته يقرأ عن لاعب كرة القدمِ الشَّاب - رواية مفصَّلة عن الخطوات التي مرَّ بها ليتسبب بموته. أطفأ الشَّاشة عندما أدرك أني كنت أقف خلفه. ذلك التَّصرف الصَّغير خلق كتلة في مكان مرتفع في صدري استغرقت نصف ساعة لتمر.

راجعت المقالة نفسها في المكتبة. كنت قد بدأت أقرأ الصُّحف. وعرفت أيًّا من نقاشاتها نحت نحو العمق - وأن المعلومات لم تكن دومًا ملخَّصة على نحو مفيد، مجرد وقائع هيكلية.

هوجِم والدا لاعب كرة القدم بعنف في الصُّحف الشَّعبية المصوَّرة. **كيف تمكَّنا من تركه يموت؟** صرخت العناوين. لم أتمكن إلّا من الشُّعور بالطريقة نفسها. لم يكن «ليو ماكلنيرني» يتجاوز عمره أربعةً وعشرين عامًا.

كان قد عاش مع إصابته لما يقارب ثلاث سنوات، أي ليس أكثر من ويل بكثير. بالتأكيد كان صغيرًا جدًّا ليقرر أنه لم يبق من شيء ليعيش من أجله؟ ثم قرأت ما قرأه ويل - ليست مقالة رأي، لكن رواية متقصًّى عنها بعناية عمَّ حدث بالفعل في حياة هذا الشَّاب. بدا أن الكاتب تمكن من التحدّث إلى والديه.

تقول إن ليو لعب كرة القدم منذ أن كان في الثالثة من عمره، كانت كرة القدم تشكّل حياته برمَّتها. أصيب في ما سموه حادث «مليون إلى واحد»[1] عندما تكون لعرقلة أثناء اللعب نتائج سيئة. جربوا كل شيء لتشجيعه، ليمنحوه معنى بأن حياته لا تزال قيِّمة. لكنه كان منسحبًا نحو الاكتئاب. كان رياضيًّا، ليس فقط لا يمارس نشاطًا رياضيًا، لكنه عاجز عن الحركة

(1) مستحيلة أو نادرة الحدوث.

أيضًا، أو التنفس من دون مساعدة في بعض الأحيان. لم يجنِ أي بهجة من أي شيء بالتأكيد. كانت حياته مؤلمة، تمزِّقها الالتهابات، وتعتمد على مساعدة دائمة من الآخرين. افتقد أصدقاءه، لكنه رفض رؤيتهم. قال لصديقته إنه لا يرغب في رؤيتها. ردَّد على مسامع والديه يوميًا إنه لا يريد أن يعيش. قال لهم إن مشاهدة أناس آخرين يعيشون ولو نصف الحياة التي كان قد خطط لها لم تكن محتملة، عذاب من نوع ما.

حاول الانتحار مرتين بتجويع نفسه ما استدعى نقله إلى المستشفى، وعندما أعيد إلى البيت تضرَّع إلى والديه أن يخنقاه في نومه. عندما قرأت ذلك، جلست في المكتبة وألصقت كرتي يدي في عيني إلى أن تمكّنت من التنفس من دون نشيج.

***

خسر والدي عمله. كان شجاعًا للغاية بهذا الشَّأن. جاء إلى البيت ذلك الأصيل، غيَّر ملابسه وارتدى قميصًا وربطة عنق، وعاد إلى البلدة في الحافلة التَّالية، ليسجِّل في مركز العمل.

قال لأمي إنه قرر التقدُّم إلى أيِّ شيء، على الرغم من كونه صنائعي ماهر لديه سنوات من الخبرة.

قال متجاهلًا احتجاجات أمي: «لا أظنُّ بأننا نستطيع تحمُّل أن نكون مدقّقين للغاية في الوقت الرَّاهن».

كان من الصَّعب الحصول على وظيفة، كانت الفرص لرجل يبلغ من العمر خمسة وخمسين عامًا لم يعمل في حياته إلّا عملًا واحدًا أكثر صعوبة. قال يائسًا عندما عاد إلى البيت من جولة أخرى من المقابلات إنه لم يتمكَّن من الحصول على عمل كأمين مستودع أو حارس شخصي. قد يوظّفون شابًا في عمر السَّابعة عشرة غير جدير بالثقة وغير متمرِّس لأن الحكومة قد تعوِّض مرتباتهم، لكنهم لن يوظفوا رجلًا ناضجًا بسجل عملٍ يثبت قدراته.

بعد أسبوعين من الرَّفض، اعترف هو وأمي أن عليهما التَّقدّم بطلب المعونة، فقط لتساعدهما في وقت الشِّدة، وأمضيا أمسياتهما يتأمَّلان استمارات مؤلفة من خمسين صفحة غامضة تسأل عن عدد الأشخاص الذين يستعملون غسالاتهم، ومتى كانت آخر مرة غادرا فيها البلاد (فكَّر أبي أنها ربما تكون عام 1988).

وضعت النقود التي هداني إياها ويل يوم عيد ميلادي في «المطمورة» في خزانة المطبخ. فكَّرت أن معرفتهما بأنهما يمتلكان القليل من النُّقود قد تجعلهما يشعران بتحسُّن. عندما استيقظت في الصَّباح، كانت مدفوعة من تحت بابي في مغلَّف.

جاء السُّياح، والبلدة بدأت تمتلئ. قلَّ تواجد السَّيد ترينر شيئًا فشيئًا الآن، طالت ساعات عمله مع تنامي عدد زوَّار القلعة. رأيته في البلدة ذات أصيل يوم ثلاثاء، عندما كنت عائدة إلى البيت مرورًا بمحل التنظيف الجاف. لم يكن لهذا أن يكون أمرًا استثنائيًا في حدّ ذاته، إلّا بالنسبة لواقعة أنه كان يلف ذراعه حول امرأة صهباء من الواضح أنها لم تكن السَّيدة ترينر. عندما رآني أخفضها محرجًا. التفتُّ عنه متظاهرة بأني أحدِّق في واجهة متجر، غير واثقة إذا أردت أن يعلم بأني رأيتهما، حاولت جاهدة ألا أفكِّر في الأمر ثانية.

يوم الجمعة بعد أن خسر والدي عمله، تلقَّى ويل دعوة إلى حفل زفاف أليسيا وروبرت. حسنًا، جاءت الدَّعوة على وجه التَّحديد من قبل والديّ أليسيا، الكولونيل تيوموتي ديوار وزوجته، يدعوان ويل للاحتفال بزواج ابنتهما من روبرت فريشويل. وصلت في مغلف ثقيل من الرِّق مع برنامج الاحتفال، وقائمة كبيرة مطويَّة من الأمور التي يمكن للناس أن يشتروها لهما من متاجر لم يسبق أن سمعت بها.

«لقد امتلكت بعض الشَّجاعة»، علَّقت متفحصة الأحرف المذهَّبة، والبطاقة السَّميكة المذهبة الحواف. «هل تريدني أن أرميها؟».

«افعلي ما تريدين». كان جسد ويل مثالًا للامبالاة واضحة.

حدَّقت بالقائمة: «ما هو الكوسكوزير[1] بأيِّ حال؟».

لسبب ما لم أرمها، ربما كان شيئًا يتعلّق بالسُّرعة التي التفّت بها ويدأ يتشاغل بلوحة مفاتيح حاسوبه. أو نبرة صوته. وضعتها بعناية في ملف أوراقه في المطبخ.

أعطاني ويل مجموعة أخرى من القصص القصيرة، كتاب طلبه من موقع «أمازون»، ونسخة من «الملكة الحمراء». عرفت أنه لن يكون النوع الذي أحبه من الكتب على الإطلاق.

قلت بعد تفحُّص غلاف الكتاب الخلفي: «لا توجد فيه ولو قصَّة».

أجاب ويل: «إذًا؟ تحدَّي نفسك قليلًا».

حاولت – ليس لأني حقًّا لدي شهيّة لعلم الوراثة – لكن لأني لم أتمكَّن من تحمُّل فكرة أن ويل سوف يصر عليَّ إن لم أفعل. كان هكذا الآن. في الواقع متنمّرًا بعض الشَّيء. وبشكل مزعج حقًّا، كان ليختبرني ليعرف كم قرأت من الصفحات من كتاب ما فقط ليتأكد من أني فعلت حقًّا.

كنت أتأفَّف: «أنت لست مُدرِّسي».

كان يجيب بلطف: «حمدًا لله».

هذا الكتاب الذي كان سهل القراءة على نحو مفاجئ كان يتحدَّث عن معركة للبقاء على قيد الحياة. زعم أن النساء لا يخترن الرجال لأنهن يحبوهم على الإطلاق. قال إن أنثى الأنواع قد تتجه دومًا نحو الذكر الأقوى، لكي تمنح لذريتها أفضل الفرص. لا يمكنها أن تمنع نفسها إذ تقودها غريزتها. لم أتفق مع هذا. ولم أحب النِّقاش. كان هناك اتجاه خفي غير مريح لما كان يحاول أن يقنعني به. كان ويل ضعيفًا جسديًا، مدمَّرًا، في عيون هذا الكاتب. هذا جعله غير مقبول بيولوجيًّا. لقد جعل حياته باطلة.

---

(1) قدر يستخدم لتحضير الكُسكس.

كان يتابع أكثر وأكثر حول هذا لشطر طويل من الأصيل عندما تدخّلت وقلت: «هناك أمر واحد لم يأخذه في الاعتبار مات ريدلي هذا».

رفع ويل بصره عن شاشة حاسوبه: «أوه نعم؟».

«ماذا لو أن الذَّكر المتفوّق وراثيًا هو فظٌّ بالفعل؟».

***

في السَّبت الثالث من شهر أيَّار، جاء كلٌّ من ترينا وتوماس إلى البيت. كانت أمي عند الباب وعلى درب الحديقة قبل أن يبلغا منتصف الطريق. أقسمت وهي تمسك بتوماس أن قامته طالت عدة إنشات في الوقت الذي أمضياه بعيدًا عن البيت. لقد تغيَّر، وكبر، بدا كأنه رجل صغير. قصَّت ترينا شعرها وبدت مفتقدة لبساطتها على نحو غريب. كانت ترتدي سترة لم أرها من قبل وتنتعل صندلًا. وجدت نفسي أتساءل بخسَّة من أين أتت بالنقود.

سألت: «إذًا كيف الحال؟»، بينما تجوَّلت أمي مع توماس حول الحديقة تريه الضَّفادع في البركة الصَّغيرة. كان أبي يشاهد مباراة كرة قدم مع جدِّي ويهتف في خيبة خفيفة على فرصة أخرى مفترضة تم تفويتها.

«عظيم. حقًّا جيّد. أعني، من الصَّعب ألا تحصلي على أي مساعدة مع توماس، واستغرقه فترة ليستقر في دار الحضانة». انحنت إلى الأمام. «مع أنه ليس عليك أن تخبري أمي - قلت لها إنه بخير».

«لكنك تحبّين المقرّر التعليمي».

افترَّ وجه ترينا عن ابتسامة: «إنه الأفضل. لا يمكنني أن أخبرك يا لو عن مدى الفرح، فقط لاستعمالك دماغك ثانية. أشعر كما لو أنه كان كتلة كبيرة مفقودة مني منذ دهور... وكما لو أني وجدتها ثانية. هل هذا يبدو أحمق؟».

هزرت رأسي. كنت بالفعل مسرورة من أجلها. أردت أن أخبرها عن

المكتبة والحواسيب وعما فعلته من أجل ويل. لكنّي فكرت بأن هذه قد تكون ربما لحظتها. جلسنا على الكراسي القابلة للطي، تحت مظلّة بالية، وشربنا الشاي. لاحظت أن أصابعها كانت تنضح بالحياة.

قلت: «هي تفتقدك».

«سنعود معظم عطل نهاية الأسبوع منذ الآن فصاعدًا. أنا فقط كنت بحاجة.. لو، لم يكن الأمر فقط يتعلّق باستقرار توماس. كنت بحاجة إلى بعض الوقت لأكون بعيدة عن كلّ شيء. احتجت إلى الوقت لأكون شخصًا مختلفًا».

بدت شخصًا مختلفًا إلى حدٍّ ما. كان غريبًا. فقط بضع أسابيع بعيدة عن البيت استطاعت أن تمسح الألفة عن شخص ما. شعرت كما لو أنها كانت في طريقها لتصبح شخصًا لم أكن واثقة منه تمامًا. شعرت بغرابة كما لو أني كنت متروكة.

«قالت لي أمي إن رجلك المعوّق جاء للعشاء».

«إنه ليس رجلي المعوّق. إنه يدعى ويل».

«آسفة. ويل. إذًا الأمور تسير على ما يرام، قائمة - الأشياء التي لن أفعلها - القديمة؟».

«نصف نصف. بعض الرِّحلات كانت أكثر نجاحًا من سواها».

حدَّثتها عن كارثة سباق الخيل، والنجاح غير المتوقَّع للحفل الموسيقي. حدَّثتها عن نزهاتنا، وضحكت عندما حكيت لها عن عشاء عيد ميلادي.

«هل تظنين...». رأيتها تحاول أن تصيغها بأفضل طريقة: «هل تظنين بأنك ستكسبين؟»، كما لو أنها كانت منافسة.

سحبت فرعًا من نبتة العسلية وبدأت أقطف أوراقه. «لا أعرف. أظن

بأني سوف أحتاج لرفع مستوى لعبتي». أخبرتها عما قالته السيدة ترينر لي حول الذَّهاب إلى الخارج.

«لا يمكنني تصديق أنك ذهبت إلى حفل موسيقي، مع ذلك. أنتِ، من بين جميع الناس!».

«أحببته». رفعت حاجبها. «لا. حقًّا فعلت. كان... عاطفيًّا».

نظرت إليَّ بعناية: «أمي تقول إنه لطيف حقًّا».

«إنه لطيف حقًّا».

«ووسيم».

«الإصابة في النُّخاع الشَّوكي لا تعني أن تتحولي إلى كازيمودو». قلت لها في صمت، من فضلك لا تقولي أي شيء عن كون علاقتي به عبارة عن تضييع مأساوي للوقت. لكن ربما كانت أختي أذكى من ذلك. بأي حال. كانت متفاجئة قطعًا. أظن بأنها كانت تحضِّر نفسها لترى كازيمودو.

قلت: «هذه هي المشكلة، ترينا، هكذا هم الناس دومًا». ورميت بقية الشَّاي على حوض الزُّهور.

***

كانت أمِّي مبتهجة على العشاء تلك الليلة. طهت اللازانيا، وجبة ترينا المفضَّلة، وسُمح لتوماس بأن يسهر على سبيل الهدية. تناولنا الطعام وضحكنا وتحدثنا عن أمور مثل فريق كرة القدم، وعملي، وزملاء ترينا كيف كانوا. لا بد أن أمي سألت ترينا مائة مرة إذا كانت واثقة من أنها تتدبّر أمرها بمفردها على ما يرام، وما إذا كان هنا شيء تحتاجه لتوماس - كما لو أن في وسعهم أن يعطوها أيَّ شيء إضافي. كنت مسرورة لأني حذَّرت ترينا عن مدى إفلاسهما. قالت لا، بلطافة وعن قناعة. فقط فكّرت في ما بعد أن أسأل إذا كانت تلك هي الحقيقة.

تلك الليلة أيقظني عند منتصف الليل صوت بكاء. كان توماس

في غرفة المخزن. سمعت ترينا تحاول تهدئته وطمأنته، صوت إطفاء المصباح وإعادة تشغيله والسَّرير يعاد ترتيبه. استلقيت في العتمة، أشاهد ضوء المصباح يتسلّل عبر ستائري على سقفي المطلي حديثًا، وانتظرت أن يتوقّف. لكن العويل الخفيف بدأ ثانية. عند الثَّانية هذه المرة سمعت صوت أمي عبر الرواق ومحادثة خفيضة، ثم أخيرًا صمت توماس ثانية.

استيقظت عند الرَّابعة على صوت بابي ينفتح. طرفت بنعاس، والتفت نحو الضَّوء. وقف توماس عند عتبة الباب، بيجامته الكبيرة فضفاضة حول ساقيه، غطاؤه شبه مكوَّر على الأرض. لم أتمكن من رؤية وجهه، لكنه وقف هناك غير واثق، كما لو أنه لا يعرف ماذا يفعل.

همست: «تعال هنا، توماس». وزحف نحوي، رأيت أنه كان لا يزال شبه نائم. كانت خطواته متردّدة، إبهامه مقحم في فمه، غطاؤه ممسوك إلى جانبه. فتحت اللحاف وصعد إلى السَّرير بجانبي، رأسه ذو الشَّعر المخصَّل مخبأ في الوسادة الأخرى، وتكوّر على شكل كرة جنينية. غطّيته باللحاف واستلقيت أنظر إليه وأتعجب من ثبوت نومه وسرعته.

همست: «ليلة سعيدة حبيبي»، وقبَّلته على جبينه، ويد صغيرة سمينة زحفت وأمسكت بكنزتي في قبضتها كما لو لتطمئن نفسها من أني لن أبتعد.

***

«ما أفضل مكان زرته؟».

كنَّا جالسَين تحت مظلة ننتظر أن تهدأ عاصفة سريعة مفاجئة، فنتمكن من السَّير في الحدائق الخلفية للقلعة. لم يحب ويل الذَّهاب إلى المنطقة الرئيسة - كثير من الناس يحدّقون فيه. لكن البساتين كانت واحدة من ثرواتها المخفيّة، لم يزرها إلّا القليل. كانت كرومها المنعزلة وبساتين الفاكهة منفصلة بدروب مفروشة بالحصى الناعم بحجم حبة البازلاء، حيث يمكن لويل أن يتدبر أمر كرسيه لحسن الحظ.

«من أي ناحية؟ وما هذا الذي تطعمينه لي؟».

سكبت بعض الحساء من دورق وقرّبته من فمه: «طماطم».

«حسنًا. يا إلهي، هذا حار. أعطني دقيقة». نظر نحو البعيد «تسلَّقت جبل كليمنجارو عندما كنت في الثلاثين. هذا كان لا يصدَّق».

«كم ارتفاعه؟».

«أكثر بقليل من تسعة عشر ألف قدم إلى ذروة قمة أوهورو. لذلك صعدت الألف قدم الأخيرة زحفًا تقريبًا. العلو يضربك بقسوة شديدة».

«هل كان الجو باردًا؟».

ابتسم لي: «لا. إنه ليس مثل إفرست. ليس في الوقت من السَّنة الذي ذهبت فيه، بأيِّ حال».

نظر إلى البعيد وغرق في تذكُّره: «كان جميلًا. يسمّونه سقف أفريقيا، عندما تكونين هناك في الأعلى، كما لو أنك تستطيعين رؤية نهاية العالم فعليًّا».

صمت ويل للحظة. راقبته أتساءل أين كان حقًّا. عندما تجاذبنا هذه الأحاديث أصبح مثل ذلك الفتى في صفِّي، الفتى الذي أبعد نفسه عنَّا بالمغامرة بعيدًا.

«وأي الأماكن أحببت أيضًا؟».

«خليج ترو دو دوس، موريشيوس. أناس طيبون، شواطئ جميلة، غطس عظيم. تسافو ناشيونال بارك، كينيا، الأرض حمراء وحيوانات برية. يوزيميت. كاليفورنيا. وجوه صخرية طويلة جدًا، دماغك لا يمكن أن يدرك ارتفاعها».

حكى لي عن ليلة أمضاها في تسلُّق الصُّخور، جثم على صخرة بارزة من الجبل على ارتفاع عدَّة مئات من الأقدام، كان عليه أن يثبت نفسه إلى كيس النَّوم، ويربطه بوجه الصَّخرة، لأن التقلّب في نومه قد يكون كارثيًّا.

«أنت بالفعل وصفت للتو كابوسي الأسوأ».

«أحب المدن الكبيرة أيضًا. سيدني، أحببتها. البلاد الشَّمالية. أيسلندا. هناك مكان ليس ببعيد عن المطار حيث يمكنك الاستحمام في الينابيع البركانية. إنها مثل منظر غريب نووي. أوه، والقيادة عبر الصِّين الوسطى. ذهبت إلى هذا المكان في رحلة لمدة يومين من عاصمة مقاطعة سيشوان، والسُّكان المحليّون بصقوا عليَّ لأنهم لم يروا شخصًا أبيض من قبل».

«هل هناك أي مكان لم تذهب إليه؟».

ارتشف رشفة أخرى من الحساء: «نعم كوريا الشمالية؟»، تأمّل: «أوه، لم أذهب إلى ديزني لاند. هل هذا يحسب؟ ليس حتى ديزني لاند باريس».

قلت: «مرة حجزت بطاقة إلى أستراليا ولم أذهب مع ذلك».

التفت نحوي متفاجئًا.

فأضفت: «أمور تحدث. لا بأس. ربما سأذهب ذات يوم».

«ليس «ربما». عليك أن تذهبي من هنا، كلارك. عديني بأنك لن تمضي بقية حياتك عالقة في هذه المحاكاة السَّاخرة لممسحة الأرجل».

«أعدك؟ لماذا؟». حاولت أن أجعل من صوتي لطيفًا: «وأنت إلى أين ستذهب؟».

«أنا فقط لا أستطيع تحمّل فكرة أن تبقي هنا إلى الأبد».

ازدرد ريقه وقال: «أنت نبيهة للغاية. مثيرة للاهتمام». أشاح ببصره عني. «فقط امضي في الحياة. في الواقع واجبك أن تعيشيها بكل أبعادها قدر مستطاعك».

قلت بحذر: «حسنًا، إذًا قل لي أين يجب أن أذهب. أين ستذهب إذا استطعت الذَّهاب؟».

«الآن؟»

«نعم، الآن. وليس مسموح لك أن تقول كنيمنجارو. يجب أن يكون مكانًا يمكنني تخيل الذَّهاب إليه أنا أيضًا».

عندما استرخى وجه ويل بدا مثل شخص مختلف كليًا. استقرَّت ابتسامة على وجهه وانثنت عيناه بالسُّرور.

«باريس. كنت لأجلس أمام مقهى في «لو ماريه» وأشرب القهوة وأتناول طبقًا من الكرواسان السَّاخنة مع الزبدة غير المملحة ومربَّى الفراولة».

«لو ماريه؟».

«إنه حيٌّ صغير وسط باريس. مليء بالشَّوارع المعبَّدة بالحصى ومبانٍ سكنية متمايلة ورجال مثليون ويهود أرثوذكس ونساء ناضجات كنَّ في وقت ما يشبهن بريجيت باردو. إنه المكان الأمثل للإقامة».

التفتّ لمواجهته وأخفضت صوتي وقلت: «يمكننا الذهاب. يمكننا أن نفعل على متن طيران اليوروستار. سيكون سهلًا. لا أظن أننا سنحتاج لأن نطلب من نايثن المجيء. لم أذهب يومًا إلى باريس. أحب أن أذهب حقًا. أحب أن أذهب. لا سيما مع شخص يعرف طريقه. ماذا تقول ويل؟».

رأيت نفسي في ذلك المقهى. كنت هناك إلى تلك الطاولة، ربما أعجب بحذاء فرنسي جديد، اشتريته من متجر صغير أنيق، أو أتناول المعجنات بأظافر باريسية حمراء. تذوَّقت القهوة، وشممت الدُّخان من سيجارة غولواز يدخِّنها شخص إلى الطاولة المجاورة.

«لا».

«ماذا؟». استغرقني لحظة لأبعد نفسي عن طاولة الرصيف تلك.

«لا».

«لكنك أخبرتني للتوّ برغبتك».

«أنت لم تفهمي، كلارك. لا أريد أن أذهب إلى هناك في هذا الشَّيء».

أومأ إلى الكرسي، وأخفض صوته. «أريد أن أكون، أنا القديم، في باريس. أريد أن أجلس في كرسي، استند إلى الوراء مرتديًا ثيابي المفضَّلة وفتيات فرنسيات جميلات ينظرن إليَّ كما قد ينظرن إلى أي شخص آخر جالس هناك. لا يُشحن ببصرهن سريعًا لأني رجل في عربة أطفال».

«لكن يمكننا أن نحاول»، تجاسرت، «لا يحتاج...».

«لا. لا، لا نستطيع. لأنه في هذه اللحظة يمكنني أن أغمض عينيّ وأعرف بالضبط كيف يمكن أن تكون في شارع فرانس بورجوا، سيجارة في اليد، وعصير الكليمونتين في كأس طويل بارد أمامي، ورائحة اللحم المقلي، وصوت درَّاجة آلية في البعيد، أعرف كل إحساس». ابتلع: «يوم نذهب وأنا في هذه العربة اللعينة، كل تلك الذكريات، والأحاسيس، سوف تتلاشى، تّمحي بالعذاب الذي قد أعانيه لكي أجلس إلى الطاولة، أصعد وأنزل عن الأرصفة الباريسية، سائقو سيارات الأجرة الذين يرفضون أن يقلُّونا، ومحوّل التيار الكهربائي الخاص بالكرسي المتحرك لا يتناسب مع المقابس الفرنسية. حسنًا؟».

أصبح صوته جامدًا. أعدت الغطاء إلى القارورة الفارغة. تفحَّصت حذائي بعناية وأنا أفعل هذا، لأني لم أرغب أن يرى وجهي.

قلت: «حسنًا».

ردّد «حسنًا». وأخذ نفسًا عميقًا.

تحتنا توقَّفت حافلة لتنزل عددًا آخر من الزوار عند بوابات القلعة. راقبناهم في صمت وهم يخرجون منها ويدخلون نحو الحصن القديم في طابور طيِّع، ملقين بنظرة نحو خرائب عصر آخر.

ربما أدرك أني كنت مقهورة قليلًا لأنه انحنى نحوي قليلًا. ورقَّ وجهه.

«إذًا كلارك يبدو أن المطر توقف، أين سنذهب هذا الأصيل، إلى المتاهة؟».

«لا». خرجت أسرع مما أردت ورأيت النظرة التي رمقني ويل بها.

«هل تعانين من رهاب الأماكن المقفلة؟».

«شيء من هذا القبيل». بدأت أجمع أشياءنا. «لنعد إلى المنزل».

***

عطلة نهاية الأسبوع التالية نزلت منتصف الليل لأشرب الماء، كنت أعاني من مشكلات في النَّوم، ووجدت أن النهوض أفضل قليلًا من الاستلقاء في سريري وأنا أبعد كتلة أفكاري المدوِّمة.

لم أحب كوني مستيقظة ليلًا. لم أتمكَّن إلّا من التساؤل ما إذا كان ويل مستيقظًا، على الجانب الآخر من القلعة، وخيالي ظلَّ يحاول أن يشق طريقه نحو أفكاره، كان مكانًا مظلمًا للذهاب إليه.

وها هي حقيقة الأمر: لم أكن أصل معه إلى مكان. كان الوقت ينفد. لم أتمكَّن حتى من إقناعه بالذهاب في رحلة إلى باريس. وعندما أخبرني عن السَّبب كان من الصَّعب أن أجادله. كان يملك سببًا مقنعًا لرفض كل رحلة اقترحتها عليه تقريبًا. ومن دون أن أخبره لماذا كنت مهتمة جدًّا لاصطحابه، كنت أملك القليل من التأثير عمومًا.

كنت أمرُّ بغرفة الجلوس عندما سمعت الصَّوت - سعال مكتوم، أو ربما هتافًا. توقَّفت، انقلبت على عقبيَّ، ووقفت في العتبة. دفعت الباب برفق. على أرض غرفة الجلوس، رتِّبت وسائد الأريكة على شكل سرير اعتباطي، استلقى والداي تحت لحاف الضُّيوف، رأسيهما بمستوى مدفأة الغاز. حدَّقنا ببعضنا للحظة في ضوء جزئي. كأسي جامد في يدي.

«ماذا تفعلان هناك؟».

دفعت أمي نفسها على مرفقها: «صِهِ. لا ترفعي صوتك. نحن...»، نظرت إلى أبي: «أحببنا التغيير».

«ماذا؟».

«أحببنا التغيير». نظرت أمي إلى أبي طلبًا للمساعدة.

قال أبي: «أعطينا ترينا سريرنا». كان يرتدي كنزة قديمة زرقاء مفتوق كتفها، وشعره ملتصق إلى جانب واحد: «هي وتوماس، لم تتسع لهما غرفة المخزن. قلنا إن في وسعهما أن يأخذا غرفتنا».

«لكن لا يمكنكما النَّوم هنا! لا يمكن أن تكونا مرتاحَين هكذا».

قال أبي: «نحن بخير، حبيبتي، حقًّا».

ثم وأنا واقفة، أجاهد في صمت كي أفهم، أضاف: «فقط في العطلات. ولا يمكنك النَّوم في غرفة المخزن. تحتاجين إلى النوم. فأنتِ...»، ازدرد ريقه. «أنتِ الوحيدة من بيننا التي تعمل وكل شيء...». لم يستطع والدي العظيم أن ينظر في عينيّ.

«عودي إلى السرير الآن لو هيّا نحن بخير». طردتني أمي عمليًّا.

عدت إلى الطَّابق الأعلى، قدماي الحافيتان صامتتين على السَّجادة، واعية على نحو باهت للتمتمة في الأسفل.

ترددتُ أمام غرفة أمي وأبي أسمع الآن ما لم أسمعه من قبل - شخير توماس المكتوم في الدَّاخل. ثم مشيت ببطء على سفرة الدَّرج نحو غرفتي، وأغلقت الباب بعناية من خلفي. استلقيت في سريري الكبير وحدَّقت في النافذة نحو أضواء الشَّارع البرتقالية حتى جلب لي الفجر أخيرًا بعض ساعات ثمينة من النَّوم مشكورًا.

***

بقي تسع وسبعون يومًا على روزنامتي. بدأت أشعر بالقلق ثانية. ولم أكن وحيدة.

انتظرت السَّيدة ترينر إلى أن كان نايثن يعتني بويل ذات ظهيرة، ثم طلبت مني مرافقتها إلى المنزل الكبير. جلست في غرفة الجلوس وسألتني عن رأيي في مجرى الحوادث.

قلت: «حسنًا، نحن نخرج أكثر بكثير».

أومأت موافقة.

«هو يتحدّث أكثر من السَّابق».

«معك، ربما». ضحكت ضحكة صغيرة. لم تكن ضحكة حقًّا على الإطلاق. «هل ذكرتِ له السَّفر إلى الخارج؟».

«ليس بعد. سأفعل. إنه فقط.. تعلمين كيف هو».

قالت: «أنا حقًّا لا أمانع، إذا كنت تريدين الذَّهاب إلى أي مكان. أعرف نحن ربما لم نكن المدافعين الأكثر حماسة عن فكرتك، لكن تحدّثنا كثيرًا ووافقنا نحن الاثنان...».

جلسنا هناك في صمت. كانت قد جلبت لي القهوة في فنجان وصحن. ارتشفت منه. وأنا أوازن الصَّحن في حجري أشعر دومًا كأني أبلغ الستين من عمري.

«إذًا - قال لي ويل إنه ذهب إلى منزلك».

«نعم، كان عيد ميلادي. كان والداي يحضّران عشاء مميّزًا».

«كيف كان؟».

«جيّد. حقًّا جيّد. كان رقيقًا مع أمي». لم أتمكّن إلّا من أن أبتسم عندما فكّرت في الأمر. «أعني هي حزينة قليلًا لأن أختي وابنها انتقلا. وهي تفتقدهما. أظن أنه أراد أن يخفّف عنها».

بدت السَّيدة ترينر متفاجئة: «هذا كان حُسن انتباه منه».

«هذا ما اعتقدته أمي أيضًا».

حركت قهوتها: «لا أستطيع أن أتذكّر آخر مرة وافق فيها ويل على تناول العشاء معنا».

استخبرت أكثر قليلًا. لم تطرح سؤالًا مباشرًا، بالتَّأكيد تلك لم تكن طريقتها. لكني لم أتمكّن من منحها الأجوبة التي أرادتها. في أيام اعتقدت

أن ويل كان أكثر سعادة -خرج معي من دون جلبة، ضاحَكني، بدا منخرطًا أكثر قليلًا مع العالم خارج الملحق -لكن ما الذي أعرفه حقًّا؟ مع ويل أحسست بوجود منطقة نائية داخلية فسيحة، عالم خاص لن يمنحني حتى ولو نظرة سريعة عليه. كنت أشعر في الأسبوعين الأخيرين بعدم الارتياح من أن المنطقة النائية كانت تزداد اتساعًا.

قالت: «هو يبدو أكثر سعادة بقليل». بدا تقريبًا كما لو أنها تحاول أن تؤكِّد لنفسها:

«أظنُّ ذلك».

«كان مجزيًا كثيرًا»، ومضت نظرتها نحوي: «أن أراه أقرب قليلًا لما كان في السَّابق. أنا واعية تمامًا أن كل هذه التطورات بسببك».

«ليست كلّها».

«لم أتمكَّن من الوصول إليه. لم أتمكّن من الاقتراب منه ولو قليلًا». وضعَت فنجانها والصَّحن على ركبتها. «إنه شخص متفرِّد ويل. منذ أن بلغ المراهقة، كان عليَّ دومًا أن أقاتل الشعور أني في عينيه قد ارتكبت إثمًا بطريقة ما. لم أكن واثقة تمامًا يومًا ما هو». حاولت أن تضحك، لكن لم يكن حقًّا ضحكًا على الإطلاق، تنظر نحوي ثم تشيح ببصرها.

تظاهرت بأني أشرب قهوتي مع أن فنجاني كان فارغًا.

«هل تتعاملين جيِّدًا مع أمك لويزا؟».

قلت: «نعم»، ثم أضفت: «أختي هي التي تغضبني».

حدَّقت السَّيدة ترينر من النوافذ حيث بدأت الحديقة تزهر، أزهارها خليط شاحب ودالٌّ على حسن الذَّوق من الوردي والبنفسجي الزاهي والأزرق.

تحدثت من دون أن تدير رأسها: «لدينا فقط شهران ونصفٌ».

وضعتُ فنجان القهوة على الطاولة. فعلت هذا بعناية فلم يصدر صوت: «أنا أفعل أفضل ما في وسعي يا سيدة ترينر».

أومأت، وأردفت: «أعلم، أعلم هذا يا لويزا».

وخرجت.

***

توفي ليو ماكلنيرني في الثاني والعشرين من شهر أيار في غرفة مجهولة في شقة في سويسرا، يرتدي قميصه الرياضي المفضَّل، ووالداه إلى جانبه. رفض أخوه الأصغر المجيء لكن أصدر بيانًا يقول فيه إنه ما من أحد يمكن أن يكون محبوبًا ومدعومًا أكثر من أخيه.

شرب ليو المحلول الحليبي من عقار الباربيتورات القاتل عند السَّاعة الثَّالثة وسبع وأربعين دقيقة من بعد الظُّهر ليغرق في نوم عميق. أعلنت وفاته بُعيد السَّاعة الرابعة ذلك الأصيل من قبل مشرف شهد الأمر برمته جنبًا إلى جنب مع آلة تصوير فيديو لاستباق أي كلام عن الإيذاء.

اقتبس قول أمه: «بدا في سلام، هذا هو الأمر الوحيد الذي يمكنني التمسُّك به».

هي ووالد ليو تم استجوابهما ثلاث مرات من قبل الشُّرطة وواجها التهديد بالادعاء. أرسل بريد حاقد إلى منزلهما. بدت الأم أكبر بعشرين سنة من عمرها الحقيقي. ومع ذلك كان هناك شيء آخر في قسماتها عندما تكلّمت، أنه إلى جانب الحزن والغضب والقلق والإنهاك، ينبئ عن ارتياح عميق للغاية.

« وأخيرًا بدا يشبه ليو القديم مرة ثانية».

15

«إذًا هيَّا، كلارك. ما الذي خططت للقيام به هذا المساء من حوادث مثيرة؟».

كنَّا في الحديقة. وكان نايثن يعالج ويل فيزيائيًا، يحرك بلطف ركبتيه أعلى وأسفل نحو صدره، بينما استلقى ويل على بطانية، مديرًا وجهه نحو الشَّمس، فاردًا ذراعيه كما لو أنه كان يأخذ حمامًا شمسيًّا. جلست على العشب على مقربة منهما وتناولت شطائري. لم أعد أخرج لاستراحة الغداء إلّا لمامًا.

«لماذا؟».

«فضول. يهمني أن أعرف كيف تقضين وقتك عندما لا تكونين هنا».

قلت: «حسنًا... الليلة نوبة سريعة من فنون قتالية متطوّرة، ثم تحملني مروحية إلى «مونت كارلو» لتناول العشاء. ثم قد أحتسي شرابًا في «كان» في طريق العودة إلى البيت. إذا رفعت بصرك - أوه - الثانية صباحًا، سألوّح لك في طريقي»، فتحت شطيرتي أتحقّق من الحشوة. «ربما أنهي كتابي».

نظر ويل نحو نايثن وقال مكشّرًا: «عشرة جنيهات».

مدَّ نايثن يده إلى جيبه وقال: «كلَّ مرة».

حملقت فيهما وقلت عندما وضع نايثن النقود في يد ويل: «كل مرة ماذا؟».

«قال إنك قد تقرئين كتابًا. قلت إنك قد تشاهدين التلفاز. هو يكسب دائمًا».

جمدت شطيرتي عند شفتي: «دومًا؟ كنتما تتراهنان على حياتي! إلى أي حدّ هي مملة؟».

قال ويل: «لم نكن لنستعمل تلك الكلمة»، غير أن النظرة المذنبة في عينيه قالت لي العكس.

اعتدلت في جلستي: «دعني أضع الأمور في نصابها، أنتما الاثنان تتراهنان بنقود حقيقية أنني في ليلة الجمعة قد أكون في البيت إما أقرأ كتابًا أو أشاهد التلفاز؟».

قال ويل: «لا، راهنت رهانًا «متعدد الاتجاه» على أنك تلتقين بالرجل العدّاء عند المضمار».

أفلت نايثن ساق ويل. ثم مدَّ ذراعه وبدأ يدلّكها صعودًا من الرسغ.

«ماذا لو قلت إني كنت أفعل شيئًا مختلفًا كليًّا؟».

قال نايثن: «لكنك لم تفعلي يومًا».

«في الواقع، سآخذ تلك». ونترت النقود من يد ويل. «لأنكما الليلة مخطئان».

قال معترضًا: «قلت إنك كنت ستقرئين كتابك!».

قلت ملوِّحة بورقة العشرة جنيهات: «الآن لدي هذه، وهكذا سأذهب إلى السِّينما. هناك قاعدة «النتائج غير المتصوّرة»، أو أيًّا يكن ما تسمّيها».

نهضت، ووضعت النقود في جيبي، وأقحمت ما بقي من غدائي في كيسه الورقي البنّي اللون. كنت أبتسم وأنا أبتعد عنهما، لكن على نحو غريب، ولسبب لم أتمكّن من فهمه في الحال، كانت عيناي تغرورقان.

كنت قد أمضيت ساعة في العمل على الروزنامة قبل أن آتي إلى منزل غرانتا ذلك الصَّباح. في أيام كنت أجلس وأحدّق فيها من سريري، وقلم التلوين في يدي، أحاول أن أعرف ما يمكنني أن أفعله وإلى أين أصطحب ويل. لم أكن مقتنعة بعد بأني أستطيع أن أصطحبه إلى أمكنة بعيدة، وحتى بمساعدة نايثن بدت فكرة زيارة ليلية مهولة.

دققت في الصَّحيفة المحلية، أنظر إلى مباريات كرة القدم وكرنفالات قروية، لكن كنت متخوفة بعد فشل السِّباق من أن يعلق كرسي ويل في العشب. كنت قلقة من أن الازدحام قد يمنحه شعورًا بأنه مكشوف. كان عليَّ استبعاد جميع النشاطات المتعلّقة بالخيول التي هي في منطقة مثل منطقتنا من أهم الحوادث في الهواء الطلق. عرفت أنه لن يرغب بمشاهدة باتريك يجري، والكريكت والركبي جعلتاه يشعر بالبرد. بعض أيام شعرت بالعجز من عدم قدرتي على استنباط أفكار جيّدة.

ربما كان ويل ونايثن محقَّين. ربما كنت مملّة. ربما كنت أقل الأشخاص في العالم قدرةً على أن أتعامل مع أشياء قد تلهب شهوة ويل للحياة.

كتاب، أو التلفاز.

وربما كان من الصَّعب تصديق أي شيء مختلف.

***

بعد مغادرة نايثن، عثر عليَّ ويل في المطبخ. كنت جالسة إلى الطَّاولة الصغيرة، أقشر البطاطا كي أعدَّ وجبته المسائية، ولم أرفع بصري عندما وضع كرسيه في المدخل. راقبني طويلًا حتى تورَّدت أذناي من طول التأمل.

قلت أخيرًا: «هل تعلم، كان في وسعي أن أكون رهيبة معك هناك، ربما كنت لأشير إلى أنك لا تفعل شيئًا أيضًا».

قال ويل: «أنا لست واثقًا من أن نايثن كان ليعرض عليّ فرصًا جيّدة على وجه الخصوص للخروج من أجل الرقص».

واصلت وأنا أرمي قشرة بطاطا طويلة: «أعلم أنها مزحة، لكنك جعلتني أشعر حقًا كأني تافهة. إذا كنت ستراهن على حياتي المملة، هل كان من الضروري أن تجعلني أعرف بذلك؟ ألم تتمكّنا أنت ونايثن أن تجعلا منها مزحة سرّية؟».

التزم الصَّمت لفترة قصيرة. كان يراقبني عندما رفعت بصري أخيرًا، وقال: «آسف».

«لا تبدو آسفًا».

«حسنًا... حسنًا... ربما أردتك أن تسمعيها. أردت منك أن تفكري في ما تفعلينه».

«تقصد كيف أترك حياتي تمرّ...؟».

«نعم، بالفعل».

«يا إلهي ويل. أتمنّى أن تكفّ عن إخباري بما عليَّ أن أفعل. ماذا لو أني أحبُّ مشاهدة التلفاز؟ ماذا لو أني لا أحب أن أفعل شيئًا آخر عدا قراءة كتاب؟». كان صوتي قد أصبح ثاقبًا. «ماذا لو أني أكون متعبة عندما أعود إلى البيت؟ ماذا لو أني لست بحاجة لأن أملأ أيامي بنشاط أرعن؟».

قال بهدوء: «لكن ذات يوم سوف تتمنّين لو أنك فعلت. هل تعلمين ماذا كنت لأفعل لو كنت مكانك؟».

وضعت قشارة البطاطا: «أشك أنك سوف تخبرني».

«نعم وأنا لست محرجًا أبدًا من إخبارك. كنت لأتسجل في مدرسة مسائية. سأتدرب على الخياطة أو تصميم الأزياء أو أي شيء يتطابق مع ما تحبينه حقًّا». نظر إلى ثوبي القصير، فستان من وحي الستينات مصنوع من قماش ستائر غرفة جدّي.

عندما رآه أبي أول مرة أشار إليَّ صارخًا: «هيه، لو، استعيدي رباطة جأشك!».

استغرقه خمس دقائق ليتوقّف عن الضَّحك.

واصل ويل: «سأكتشف ما أستطيع فعله ولا يكلّف الكثير - ممارسة الرياضة، السِّباحة، التطوّع، أيًّا يكن، سأتعلم الموسيقى أو أذهب في نزهات طويلة مع كلب شخص آخر أو...».

قلت بعصبية: «حسنًا، حسنًا، وصلت الرسالة، لكن أنا لست أنت، ويل».

«هذا من حسن حظك».

جلسنا هناك قليلًا. دخل ويل ورفع أعلى كرسيه فتواجهنا على الطاولة.

قلت: «حسنًا، ماذا كنت تفعل بعد العمل؟ كان ذلك غنيًّا جدًّا؟».

«حسنًا، لم يكن هناك الكثير من الوقت بعد العمل، لكني حاولت أن أفعل شيئًا كل يوم. تسلُّق الصخور في مركز داخلي، ألعب السكواش، وارتاد الحفلات الموسيقية وأجرّب مطاعم جديدة...».

احتجّيت: «من السَّهل أن تفعل هذه الأمور لو كنت تملك المال».

قال عندما رفعت حاجبي: «وذهبت للجري. نعم حقًّا. وجربت تعلم لغات جديدة لأماكن فكّرت بأني قد أزورها ذات يوم. ورأيت أصدقائي - أو أناس ظننتهم أصدقائي...»، تردّد للحظة: «وخطّطت لرحلات. بحثت عن أماكن لم أزرها يومًا، أمور قد تخيفني أو تدفعني إلى أقصى حدّ. سبحت قاطعًا القناة مرة. نعم، أعلم أن الكثير من هذه الأشياء بحاجة إلى المال لكن الكثير منها لا تحتاج، ثم كيف تظنّين أني كسبت المال؟».

«تسلب الناس من خلال عملك؟».

«عرفت ما قد يجعلني سعيدًا، وعرفت ما أردت فعله، ودرَّبت نفسي على القيام بالعمل الذي قد يجعل هذين الأمرين يتحققان».

«تتحدّث كما لو أنه يبدو بسيطًا للغاية».

قال: «إنه بسيط، الأمر هو أنه أيضًا يستلزم الكثير من العمل الشَّاق والناس لا ترغب أن تقوم بالكثير من العمل».

أنهيت تقشير البطاطا، رميت القشور في السلَّة، ووضعت المقلاة على الفرن لتكون جاهزة لاحقًا. استدرت ورفعت نفسي مستعملة ذراعيَّ فكنت جالسة على الطاولة بمواجهته، وساقاي متدليتين.

«حظيت بحياة غنيّة، أليس كذلك؟».

«نعم فعلت». اقترب مني ورفع كرسيه فصرنا على مستوى واحد: «لهذا أنت تغضبين مني كلارك. لأني أرى كل هذه الموهبة كل هذه...»، تململ: «هذه الطاقة وهذا الإشراق...».

قاطعته: «لا تقل هذه الإمكانات...».

«إمكانات. نعم. ولا يمكنني بسبب ما عشته أن أفهم كيف يمكنك أن تكوني قانعة بعيش هذه الحياة الصَّغيرة. هذه الحياة التي سوف تجري حوادثها تقريبًا في محيط خمسة أميال، ولن يكون فيها أحد سوف يفاجئك أو يدفعك أو يريك الأشياء التي ستترك رأسك يدور وغير قادرة على النوم ليلًا».

«هذه طريقتك لتقول لي إن عليَّ أن أفعل شيئًا أكثر جدارة من تقشير البطاطا».

ابتسم لي: «أنا أقول لك إن عالمًا كاملًا موجودًا هناك في الخارج. لكن سأكون ممتنًا للغاية إذا قشّرت لي بعض البطاطا أولًا». لم أستطع إخفاء ابتسامتي.

نظرت نحوه وقلت: «ألا تظن...»، ثم توقفت.

«تابعي».

«ألا تظن أنه أصعب بالنسبة لك أن تتكيّف؟ أعني لأنك قمت بكل تلك الأمور؟».

«هل تسألينني إذا كنت أتمنّى لو لم أفعلها؟».

«أنا فقط أتساءل إذا كان سيجعل الأمر أهون عليك لو كنت عشت حياة أقل إثارة أو غنى..، أن تعيش مثل هذه أعني...»، صمتّ للحظات: «سوف لن أندم أبدًا على شيء قمت به. لأنه إذا كنت تمرّين في واحد من هذه الأيام الصعبة لا يمكنك الذهاب سوى إلى الأماكن التي في ذاكرتك». ابتسم. كانت ابتسامة متوتّرة كما لو أنها كلّفته جهدًا. «إذًا إذا كنت تسألينني إذا كنت أفضل الاستغراق في ذكريات عن مشهد القلعة من الميني مارت، أو من صف المتاجر أسفل الدوَّار، أقول لا. كانت حياتي ممتازة، شكرًا».

نزلت عن الطاولة. لم أكن واثقة تمامًا كيف، لكني شعرت ثانية كما لو أني كنت بطريقة ما محشورة في زاوية. تناولت لوح التقطيع.

«وأنا آسف، لو، بشأن مسألة الرّهان».

«نعم حسنًا». التفتّ وبدأت أغسل لوح التَّقطيع تحت صنبور الماء: «لا تظن أن هذا من شأنه أن يعيد إليك الجنيهات العشرة».

***

بعد يومين دخل ويل المستشفى مصابًا بالتهاب. سمّوها إجراءات احتياط، على الرغم من أنه كان واضحًا للجميع أنه كان يعاني ألمًا كبيرًا. بعض المصابين بالشَّلل الرباعي كانوا فاقدين لأي إحساس، لكن بينما كان ويل منيعًا على الحمى، كان حتى صدره يشعر بالألم وباللمس. دخلت لأراه مرتين، أجلب له الموسيقى وأشياء طيبة ليتناولها، وأعرض أن أبقى برفقته. لكن بطريقة غريبة شعرت وأدركت بسرعة أن ويل لا يرغب بمزيد من الاهتمام هناك. طلب مني الذَّهاب إلى البيت والاستمتاع ببعض الوقت أخصّصه لنفسي.

من سنة، كنت لأبدّد أيام الإجازة هذه، قد أتصيَّد المتاجر، ربما أذهب للقاء باتريك إلى الغداء. أشاهد التلفاز في النَّهار، وربما أقوم بمحاولة

غامضة لترتيب ملابسي. وربما أنام كثيرًا. بأي حال شعرت الآن بالضجر والتشوّش. افتقدت أن يكون لديّ سبب لأنهض باكرًا، هدف ليومي.

استغرقني نصف فترة الصباح لأعرف أن هذا الوقت قد يكون مفيدًا. ذهبت إلى المكتبة وبدأت أبحث. نظرت في كل موقع استطعت إيجاده عن المصابين بالشلل الرباعي، واشتغلت على أمور يمكننا القيام بها عندما تتحسّن حال ويل. كتبت قوائم ورحت أضيف لكل بند العدة أو الشيء الذي قد أحتاج إليه واضعة كل حدث محتمل باعتباري.

عثرت على غرف محادثة للمصابين إصابات في النخاع الشَّوكي، ووجدت أن آلاف الرجال والنساء مثل ويل - يعيشون حياة مخفية في لندن، وسيدني، وفانكوفر، أو على الطريق - يقودهم أصدقاء أو أقارب أو أحيانًا بمفردهم على نحو مفجع. لم أكن الجليسة الوحيدة المهتمة بهذه المواقع. كان هناك صديقات تسألن كيف يمكنهن مساعدة شركائهن في كسب الثقة للخروج ثانية، أزواج يطلبون النصح حول آخر المعدّات الطبية. وكانت هناك إعلانات عن كراسٍ متحركة يمكن أن تسير على الرمل أو على الطريق، ورافعات ذكية، وأدوات مساعدة للاستحمام قابلة للنفخ.

كانت هناك رموز لمحادثاتهم. عرفت أن (إ ن ش) كانت تعني إصابة في النخاع الشوكي، (ص ج) تعني صحيح الجسم، (ع م ب) عدوى المسالك البولية. رأيت أن إصابة الفقرتين الرابعة والخامسةكانت أقسى بكثير من إصابة الفقرتين الحادية عشرة والثانية عشرة التي بدت أنها تسمح غالبًا باستعمال الأذرع أو الجذع. كانت هناك قصص حب وخسران، عن شركاء يكافحون لمساعدة زوجات معوّقات أو أطفال صغار. كانت هناك زوجات شعرن بالذنب لأنهن صلين كي يتوقف أزواجهن عن ضربهن - ثم وجدوا أنهم لن يفعلوا ذلك ثانية. كان هناك أزواج أرادوا أن يهجروا زوجات معوّقات لكنهم كانوا خائفين من رد فعل محيطهم.

كان هناك إرهاق ويأس، والكثير من الروايات المضحكة المبكية - نكات عن انفجار أكياس القسطرة، بلاهة أناس آخرين حسني النية، أو حوادث سكر. بدا أن السُّقوط عن الكراسي أمر شائع. وكانت هناك مواضيع عن الانتحار - هؤلاء الذين أرادوا، وهؤلاء الذين شجعوهم ليمنحوا أنفسهم مرة أخرى، أن يتعلّموا أن ينظروا إلى حياتهم بطريقة مختلفة. قرأت كل موضوع وشعرت كما لو أني كنت أحصل على سرٍّ في دماغ ويل. أخذت نفَسًا وكتبت رسالة:

مرحبًا - أنا صديقة/ جليسة مصاب بشلل رباعي في الفقرتين الخامسة والسَّادسة وهو يبلغ من العمر خمسة وثلاثين عامًا. كان ناجحًا للغاية وحيويًا في حياته السَّابقة، وهو يعاني صعوبة في التلاؤم مع حياته الجديدة. في الواقع أعرف أنه لا يريد أن يعيش، وأنا أحاول التفكير بسبل لتغيير رأيه. من فضلكم هل يمكن لأحد منكم أن يخبرني كيف يمكنني فعل هذا؟ هل من أفكار عن أمور قد يستمتع بها أو سُبُل يمكن أن تجعله يفكّر على نحو مختلف؟ ممتنة لكل نصيحة تقدمونها.

سمّيت نفسي بيزي بي. ثم استندت إلى الوراء في كرسيَّ، قضمت ظفر إبهامي لفترة قصيرة، وأخيرًا ضغطت زرَّ إرسال.

***

عندما جلست في المحطة صباح اليوم التالي كان لدي أربعة عشر ردًا. دخلت إلى غرفة المحادثة وطرفت عندما رأيت قائمة الأسماء، الإجابات التي جاءت من أناس من شتى أنحاء العالم خلال النهار والليل. قال الأول:

عزيزتي بيزي بي،

أهلًا بك في موقعنا. أنا واثق من أن صديقك سيكسب الكثير من الراحة من أن يكون لديه شخص يعتني به.

فكَّرت، أنا لست واثقة من ذلك.

معظمنا هنا في مرحلة من حياتنا قمنا بعمل سيئ. من المحتمل أن

يكون صديقك قد قام بذلك. لا تدعيه يبعدك عنه. حافظي على إيجابيتك. وذكِّريه أنها ليست مهمته أن يقرر متى ندخل ومتى نرحل عن هذا العالم. وأن هذا شأن الرب. هو قرر أن يغيّر حياة صديقك، بحكمته، وربما يكون هناك درس في أنه...

انتقلت إلى الرد التالي.

عزيزتي بي،

ما من سبيل لتجاوزه، أن تكون مشلولًا أمر سيئ للغاية. إذا كان فتاكِ لاعبًا أيضًا، إذًا سوف يجد صعوبة إضافية. تلك هي الأشياء التي ساعدتني. الكثير من الصُّحبة، حتى عندما لم أشعر برغبة بها. طعام مغذٍّ، أطباء جيدون، أدوية جيدة، أدوية مضادة للاكتئاب عند الحاجة. أنت لا تقولين من أين أنت، لكن إذا كان في وسعك أن تجعليه يتحدّث مع آخرين من مجموعة المصابين في النُّخاع الشَّوكي فهذا قد يساعد. كنت معارضًا في البداية (أظن أن جزءًا مني لم يرغب بالاعتراف بأني كنت مشلولًا فعلًا)، لكن ساعدني أن أعرف أني لست وحيدة هناك.

أوه، ولا تدعيه يشاهد أي فيلم يشبه فيلم «قناع الغوص والفراشة»، أكبر مسبِّب للاكتئاب!

أعلمينا كيف تتقدّمين.

أفضل الأمنيات،

ريتشي

بحثت عن فيلم «قناع الغوص والفراشة»، قال الموقع إنها قصَّة رجل تلقى ضربة سببت له الشَّلل، ومحاولاته للاتصال بالعالم الخارجي». دوَّنت العنوان على مفكِّرتي، غير واثقة ما إذا كنت أفعل هذا لأتأكد من ألّا يراه ويل أو لأذكِّر نفسي بمشاهدته.

كانت الإجابتان التاليتان من أعضاء من «كنيسة السبتية»، ورجل لم

تكن طرقه المقترحة التي يمكنني من خلالها أن أبهج ويل مشمولة في عقد عملي بالتأكيد. تورّدت وبسرعة انتقلت إلى سواها خائفة من أن شخصًا ما قد ينظر إلى الشّاشة من خلفي. ثم تردّدت عند الرد التالي.

مرحبًا يا بيزي بي،

لماذا تظنّين بأن على صديقك / مسؤوليتك/ أن يغير رأيه؟ لو استطعت سبيلًا إلى الموت بكرامة، ولو لم أعرف أنه سوف يدمّر عائلتي، لكنت سلكته. أنا عالق في هذا الكرسي منذ ثماني سنوات، وحياتي حلقة مفرغة من الخزي والخيبات. هل يمكنك أن تضعي نفسك في مكانه؟ هل تعلمين كيف هو الشّعور عندما لا تكونين قادرة على إفراغ أحشائك من دون مساعدة؟ أن تعرفي أنه إلى الأبد سوف تكونين عالقة في سريرك غير قادرة على تناول الطعام، ولا ارتداء الملابس، ولا التواصل مع العالم الخارجي من دون شخص ما يساعدك؟ وأنك لن تمارسي الجنس ثانية؟ يلاحقك خطر الإصابة بالتقرّحات واعتلال الصحة وحتى جهاز التنفس الاصطناعي؟ يبدو أنك لطيفة وأنا واثق من أن نيتك حسنة. لكن قد لا تكونين أنت من يعتني به الأسبوع القادم. قد يكون شخصًا يحبطه، أو حتى لا يعجبه كثيرًا. ذلك مثل أي شيء آخر خارج عن سيطرته. نحن جماعة المصابين في النخاع الشّوكي نعرف أن القليل جدًّا هو تحت سيطرتنا - من يطعمنا ويلبسنا ثيابنا ويغسلنا ويفرض أدويتنا... العيش مع تلك المعرفة صعب جدًّا.

لذا أظن أنك تطرحين السُّؤال الخطأ. من يكون صحيح الجسم ليقرر ما يجب أن تكون عليه حياتنا؟ إذا كان صديقك يرى أن هذه حياة خاطئة، ألا يجب أن يكون السُّؤال كيف يمكن أن أساعده على إنهائها؟

أفضل الأمنيات،

جي فورس، ميزوري، أميركا

حدّقت بالرسالة، جمدت أصابعي على لوحة المفاتيح. ثم انتقلت

إلى سواها. كانت الرسائل القليلة التالية من معوّقين آخرين، ينتقدون جي فورس على كلماته الكئيبة، محتجّين بأنهم وجدوا طريقًا للتقدم، وأن حياتهم كانت حياة تستحق أن تُعاش. ثم جدالات حول ذلك لم تكن تتعلّق بويل إلّا قليلًا.

كانت هناك مقترحات عن مضادات للاكتئاب، تدليك، شفاءات أعجوبية، قصص عن حياة أعضاء منحت قيمة جديدة. أيضًا بعض المقترحات العملية: تذوق النبيذ، الموسيقى، الفن، لوحات مفاتيح معدلة خصيصًا.

قالت غريس 31 من برمينغهام:

«مطلوب رفيق، إذا كان لديه الحب، سوف يشعر بأنه يستطيع المضيّ. من دون ذلك، كنت أفقد الأمل عدة مرات».

تردّدت هذه العبارة في رأسي طويلًا بعد أن غادرت المكتبة.

***

خرج ويل من المستشفى يوم الخميس. أجلسته في السَّيارة المعدّلة، وأعدته إلى المنزل. كان شاحبًا ومنهَكًا، وحدَّق من النافذة بخمول طوال الرحلة.

شرح عندما سألته إذا كان بخير: «لا نوم في تلك الأماكن. هناك دومًا شخص يتأوه في السَّرير المجاور».

قلت إن لديه عطلة نهاية الأسبوع استراحة ليتعافى، لكن بعد ذلك لدي سلسلة من المخططات. قلت إني كنت أعمل بنصيحته وجرّبت أشياء جديدة، وعليه أن يجرّب معي. كنت أراهن على أنها كان الطريقة الوحيدة التي أستطيع من خلالها أن أقنعه بمرافقتي.

في الواقع كنت قد ابتكرت جدولًا مفصَّلًا للأسبوعين القادمين. كل حدث كان مشروحًا بعناية على روزنامتي باللون الأسود، أحطت

بقلم أحمر إجراءات الاحتياط التي يجب أن أتخذها، وباللون الأخضر المتعلّقات التي قد أحتاجها. كل مرة نظرت إلى الباب شعرت ببعض بريق من الحماسة، لأني كنت منظَّمة للغاية، وأن واحدًا من هذه الحوادث قد يكون الأمر الذي قد يغير رؤية ويل للعالم.

أختي هي دماغ عائلتنا كما يردّد والدي دومًا. لم تصمد رحلة المعرض الفني سوى أقل من عشرين دقيقة. ومن ضمنها القيادة حول العمارة ثلاث مرات بحثًا عن مكان مناسب لركن السَّيارة. ذهبنا إلى هناك وتقريبًا قبل أن أغلق الباب من خلفه قال إن كلَّ الأعمال كانت رهيبة. سألته عن السَّبب، وقال إني إذا لم أتمَّكن من رؤيته فليس في وسعه أن يشرح الأمر. تخلينا عن السِّينما بعد أن أخبرنا العاملون هناك معتذرين أن مصعدهم خارج الخدمة. نزهات أخرى من مثل المحاولة الفاشلة في الذَّهاب للسباحة، تطلَّبت مزيدًا من الوقت والتنظيم - الاتصال بحوض السِّباحة سلفًا، حجز نايثن لوقتٍ إضافي - من ثمَّ عندما وصلنا إلى مركز التسلية، رفض ويل الدخول بإصرار بعد أن شربنا قارورة من الشوكولا السَّاخنة بصمت في موقف السَّيارات. ذهبنا مساء الأربعاء التالي لسماع مغنٍ كان قد حضر له حفلًا في نيويورك. تلك كانت رحلة جيّدة.

ثمَّ في اليوم التَّالي صحبته إلى حفل تذوُّق للنَّبيذ، على جانب حدثٍ دعائي أقامته مزرعة للعنب في متجر متخصص بالخمور. كان عليَّ أن أعدَ نايثن بأني لن أعيده ثملًا. أمسكت كل كأس لويل كي يستنشقه، وعرف ما كان قبل أن يتذوَّقه. حاولت جاهدة ألا أطلق شخرة عندما بصقه ويل في الكوب (لقد بدا مضحكًا حقًّا)، ونظر إليَّ قائلًا إني طفلة تمامًا. تحوَّل صاحب المتجر من كونه مرتبكًا بغرابة لأن لديه رجلًا في كرسي متحرك في متجره إلى كونه متأثر تمامًا. مع مضي الأصيل جلس وبدأ يفتح زجاجات أخرى، يتناقش مع ويل حول المنطقة والكرمة، بينما تجوّلت جيئة وذهابًا أنظر إلى الطاولات وأصبح ضجري صريحًا بعض الشيء.

قال وهو يومئ لي لأجلس بجانبه: «هيَّا كلارك تعلَّمي».

«لا أستطيع. قالت لي أمي إنَّه من الفظاظة أن أبصق».

نظر الرجلان بعضهما إلى بعض كما لو أنني مجنونة. ومع ذلك لم يبصق في كل مرة. راقبته وكان ثرثارًا على نحو مثير للريبة بقية الأصيل - سريع الضَّحك وحتى أكثر شراسة من المعتاد.

ثم في طريق العودة إلى البيت كنا نمر في بلدة لا نمر بها عادةً، ونحن جالسين في زحمة المرور نظرت ورأيت صالة للوشم.

قلت: «لطالما أحببت الوشم».

كان عليَّ أن أعرف أنه ليس في وسعك أن تقول أشياء مثل تلك في حضرة ويل. هو لم ينبس بكلمة. أراد أن يعرف في الحال لماذا لم أصنع واحدًا.

«والدي يكرهها».

«كم عمرك، ثانيةً؟».

«باتريك يكرهها أيضًا».

«وهو، ألم يفعل يومًا شيئًا قد لا تحبينه؟».

«قد أصاب برهاب الأماكن المغلقة. وقد أغيِّر رأيي بعد أن أفعل».

«حينها يمكنك أن تزيليه بواسطة الليزر، طبعًا؟».

نظرت إليه في المرآة العاكسة للخلفية. كانت عيناه ضاحكتين.

قال: «هيَّا، إذًا، ماذا ستشمِّين؟».

أدركت أني كنت أبتسم: «ليس أفعى. أو اسم أحد».

«لم أكن أتوقَّع قلبًا مكتوبًا في داخله (أمي)».

«هل تعد بألا تضحك؟».

«أنت تعلمين أني لا أستطيع أن أفعل ذلك. أوه يا إلهي، أنت لن تشمي

مقولة هندية باللغة السنسكريتية أو ما شابه، هل ستفعلين؟ ما لا يقتلني يقوّيني».

«لا. سأشم نحلة. نحلةً صغيرة سوداء وصفراء. أحبُّ النَّحل».

أومأ، كما لو أن رغبتي كانت أمرًا معقولًا تمامًا.

«وأين ستشمّينها؟ إذا كان لي أن أسأل؟».

تململت: «لا أعرف. على كتفي؟ أو تحت وركي؟».

قال: «أوقفي السيارة».

«لماذا، هل أنت بخير؟».

«فقط توقّفي. يوجد مكان هناك. انظري، على يسارك».

ركنتُ السَّيارة عند الرَّصيف ونظرت إليه في الخلف.

قال: «هيًا، اذهبي إذًا، ليس لدينا شيء آخر اليوم».

«أذهب إلى أين؟».

«إلى صالون الوشم».

بدأت أضحك: «نعم. صحيح».

«لم لا؟».

«كنت تبتلع بدلًا من أن تبصق».

«لم تجيبي على سؤالي».

التفتُّ في مقعدي. كان جدّيًا.

«لا يمكنني الذهاب والحصول على وشم. فقط هكذا».

«لم لا؟».

«لأن...».

تطلّعت نحو الطريق عند واجهة صالون الوشم. كان معروضًا في

النَّافذة الكئيبة إلى حدٍّ ما مصباح نيون على شكل قلب كبير، وبعض الصُّور المؤطَّرة لانجلينا جولي وميكي رورك.

داهم صوت ويل حساباتي: «حسنًا، سأفعل إذا كنت ستفعلين».

التفت إليه: «ستحصل على وشم؟».

«إذا كان يقنعك لمرة واحدة أن تخرجي من صندوقك الصغير».

أطفأت المحرك وجلسنا نصغي إلى تكتكته حتى انطفأ.

«سيكرهه باتريك».

«إذًا ظلّي قولي ذلك».

التفتّ إلى ويل: «وسوف نصاب ربما بالتهاب الكبد من الإبر الملوثة. ونموت ببطء موتًا رهيبًا مؤلمًا، هم ربما لن يكونوا قادرين على فعلها الآن، ليس الآن بالضبط».

«ربما لا، لكن هل لنا أن ندخل ونسأل؟».

***

خرجنا بعد ساعتين من صالون الوشم، دفعت ثمانين جنيهًا وكنت أحمل رقعة جراحية على وركي حيث كان الحبر لا يزال يجف. قال فنَّان الوشم إن حجمه صغير نسبيًا وهذا عنى أن في وسعهم أن يرسموه ويلوّنوه في زيارة واحدة وقت كنت هناك. انتهى بي الأمر أحمل وشمًا. أو ندبة مدى الحياة، كما قد يقول باتريك بلا شك. تحت ذلك الفستان الأبيض جلست نحلة صغيرة زنَّانة منتقاة من مجلد للصور مكوَّن من صفحات موصولة عبر حلقة ناولني إياه فنان الوشم عندما دخلنا. شعرت بهستيريا من الإثارة. ظللت أتناوله لألقي بنظرة خاطفة إلى أن طلب مني ويل أن أتوقّف.

كان ويل مسترخيًا وسعيدًا هناك، غريبًا بما فيه الكفاية. هم لم يمنحوه نظرة ثانية. قالوا إنهم رسموا وشمًا لبعض المقعدين، ما فسَر السُّهولة التي

تعاملوا بها معه. كانوا متفاجئين عندما قال ويل إنه يمكن أن يشعر بالإبرة. منذ ستة أسابيع أنهوا تحبير رسمٍ ثلاثي الأبعاد لمصاب بالشَّلل على امتداد جانب ساقه.

كان رسَّام الوشم والدبوس يتخلل أذنه قد أخذ ويل إلى الغرفة المجاورة وبمساعدة رسام وشوم، وضعه على طاولة خاصة وكل ما استطعت أن أراه من خلال الباب المفتوح كان أسفل ساقيه. سمعت صوت الرجلين يتمتمان ويضحكان بصوت يعلو على صوت إبرة الوشم، رائحة المطهر حادّة في منخريَّ.

عندما دخلت الإبرة في جلدي أولًا عضضت على شفتي مصممة ألا أجعل ويل يسمع صراخي. أبقيت عقلي على ما كان يفعله في الغرفة المجاورة، أحاول أن أسترق السَّمع لمحادثته، أتساءل عما كان يشمّه.

قلت وأنا أفتح باب السَّيارة وأخفض المنحدر: «أنت لك تأثير سيئ عليَّ يا ويل ترينر». لم أتمكّن من التوقّف عن التكشير.

«أرني».

نظرت إلى الشَّارع ثم التفت ورفعت قليلًا الفستان عن وركي.

«إنها عظيمة. أحب نحلتك الصغيرة حقًّا».

«سوف يكون عليَّ أن أرتدي بنطالًا عالي الخصر حين أكون مع أهلي لبقية حياتي». ساعدته كي يحرك كرسيه على المنحدر ويرفعه: «انتبه، إذا وصل إلى مسامع أمك أنك حصلت على واحد أيضًا...».

«سوف أقول لها إنَّ الفتاة من المجلس البلدي قادتني إلى الضَّلال».

«حسنًا إذًا ترينر، أرني وشمك».

حدق بي بثبات نصف مبتسم: «سيكون عليك أن تضعي له ضمادة جديدة عندما نصل إلى البيت».

«نعم كما لو أن هذا يحدث لأول مرّة. هيا أنا لن أقود حتى تفعل».

«ارفعي قميصي إذًا إلى اليمين، يمينك».

انحنيت عبر المقاعد الأمامية وسحبت قميصه، أرفع قطعة الشَّاش تحته. كان هناك لون قاتم على جلده الشَّاحب، مستطيل مخطط بالأبيض والأسود صغير بما يكفي حتى إني نظرت مرتين قبل أن أعرف ما كتب فيه.

أفضل قبل 19 آذار 2007

حدَّقت فيه. ضحكت نصف ضحكة، ثم اغرورقت عيناي. هل ذلك الـ...».

«تاريخ الحادثة. نعم». رفع عينيه إلى السَّماء. «أوه، يا إلهي، لا تأخذك العاطفة، كلارك. كان المقصود منه التسلية».

«إنه مسلٍّ بطريقة سيئة جدًا».

«سوف يستمتع نايثن به. أوه هيَّا لا تنظري هكذا. إنه ليس كما لو أني أدمر جسدي المثالي».

أعدت قميص ويل ثم أدرت المحرك. لم يكن لدي فكرة عما أقول. لم أعرف ما يعني أيٌّ من هذا. هل كان من أجل أن يتجاوز صعوبة حالته؟ أو فقط طريقة أخرى ليبدي ازدراءه لجسده؟

قال وأنا على وشك أن أنطلق: «هيه، كلارك، اسدي لي معروفًا، تناولي الحقيبة من أجلي. الجيب ذو السَّحاب».

نظرت إلى المرآة الخلفية، وتوقفت ثانية. انحنيت عبر المقاعد الأمامية ووضعت يدي في الحقيبة، أنقّب فيها بحسب تعليماته.

«تريد مسكِّنًا؟». كنت على بعد إنشات عن وجهه الذي بدا معافى أكثر من أي وقت منذ أن عاد من المستشفى.

«لدي البعض في..».

«لا. واصلي البحث».

أخرجت ورقة نقدية ورجعت. كانت ورقة عشرة جنيهات مطوية.

«الآن امضِ. عشرة جنيهات للأزمات».

«إذًا؟».

«إنها لك».

«لماذا؟».

كشَّر: «ذلك الوشم. إلى أن جلست في ذلك الكرسي لم أفكِّر لدقيقة في أنك كنت حقًا ستفعلينها».

16

لم تنجح ترتيبات النوم بأيِّ حال من الأحوال. ما إن تعود ترينا في نهاية كلِّ أسبوع إلى البيت، حتى تبدأ عائلة كلارك بلعب لعبة الأسرَّة الموسيقية. بعد العشاء ليلة الجمعة كان والداي يقدمان غرفة نومهما، وكانت ترينا تقبل بها بعد أن يؤكّدا لها أنهما ليسا منزعجين ولو قليلًا، وأنه كم من الأفضل لتوماس النَّومْ في غرفة يألفها. وقالا إنَّ هذا قد يعني أن يحظى الجميع بنوم هانئ.

لكن نوم أمِّي في الطَّابق الأرضي أيضًا اقتضى حاجتها هي وأبي إلى لحافهما ومخدتَيْهما، وحتى شرشفهما، لم تكن أمي لتستطيع أن تنام كما ينبغي إلَّا إذا كان سريرها كما أحبّته تمامًا. لذا بعد العشاء كانت هي وترينا تجرِّدان سرير والديَّ وتضعان طقمًا نظيفًا من الملاءات، مع واقٍ للحشيَّة، في حال حدث لتوماس أي طارئ. كان يطوى غطاء سرير أمي وأبي في هذه الأثناء ويوضع في زاوية غرفة الجلوس، حيث قد يغوص توماس فيه وعليه ويربط الشَّرشف عبر كراسي المائدة محولًا إياها إلى خيمة.

قدَّم جدِّي غرفته، لكن لم يأخذها أحد. كانت تعبق برائحة نُسخ مصفرَّة من صحيفة ريسينغ بوست وتبغ أولد هولبُرن، وسوف يستغرق أمر إفراغها العطلة بطولها. كنت أشعر دوريًّا بالذَّنب - هذا كله كان خطأي في النهاية - وأنا مدركة بأني لن أعرض العودة إلى غرفة المخزن.

لقد أصبحَت شبحًا بالنسبة إلي، تلك الغرفة الصَّغيرة الخانقة الخالية من النَّوافذ. جعلت فكرة النوم فيها ثانية صدري يضيق. كنت في عمر السَّابعة والعشرين. وكنت المعيل الأساسي للعائلة. لن أتمكن من النوم في ما كان بشكل أساسي خزانة.

في إحدى العطلات عرضت أن أنام في منزل باتريك، وبدا الجميع مرتاحًا في سرِّه. لكن حينها، بينما كنت خارج المنزل، وضع توماس أصابعه الدَّبقة على ستائري الجديدة ورسم على غطاء لحافي الجديد بقلم لا يمكن محوه، عند هذا الحد قرر والداي أنه سيكون من الأفضل أن يناما في غرفتي، بينما تدخل ترينا وتوماس إلى غرفتهما، حيث في الظَّاهر لم يهم.

صرَّحت أمي قائلة إنه بمجرد أن تحمَّلت مسؤولية تعرية السَّرير الإضافية والغسيل، لم يشكل إمضائي ليلتي الجمعة والسَّبت في شقَّة باتريك الكثير من العون على الإطلاق.

من ثم كان باتريك الآن رجلًا مهووسًا. أكل وشرب وعاش وتنفَّس الاكستريم فايكنغ. كانت شقته بطبيعة الحال مؤثَّثة باقتصاد ونظيفة، تنتظم فيها جداول التَّدريب وصفحات أنظمة الحمية الغذائية. كان يملك درَّاجة جديدة خفيفة الوزن موضوعة في الرِّواق ولم يكن مسموحًا لي أن أمسَّها، خوفًا على مقدَّراتها السِّباقية خفيفة الوزن المتوازنة بدقة. وكان نادرًا ما يتواجد في البيت حتى في ليلتَيْ الجمعة أو السَّبت.

بسبب تدريبه وساعات عملي بدا أننا أصبحنا معتادين على قضاء وقت أقل معًا. قد ألحق به إلى المسار أراقبه وهو يدفع نفسه في حلقات حتى ينهي عدد الأميال المطلوب، أو قد أبقى في البيت لأشاهد التِّلفاز بمفردي متكوِّرة في زاوية أريكته الجلدية العريضة. لم يكن هناك طعام في الثلاجة غير شرائح لحم صدر الحبش ومشروبات الطاقة التافهة التي لها قوام بيض الضفدع. ترينا وأنا كنا قد جربناها واحدة مرة وبصقناها نتقيأ كالأطفال على نحو مؤثِّر.

كانت حقيقة الأمر أني لم أحبّ شقَّة باتريك. كان قد اشتراها منذ عام عندما شعر أخيرًا بأن أمه قد تكون بخير بمفردها. كان عمله جيدًا، وقد أخبرني أنه من المهم أن يرتقي أحدنا سلَّم الملكية. أخال أنَّ ذلك كان له أن يكون الإيعاز لنا لنتحدث عن ما إذا كنا سنعيش معًا، لكن بوجه من الوجوه لم يحدث، ولم يكن أحد منا من النوع الذي يفتح المواضيع التي تجعلنا نشعر بالانزعاج ولو قليلًا.

نتيجة لذلك، لم يكن هناك شيء منّي في تلك الشِّقة، على الرغم من السَّنوات التي أمضيناها معًا. لم أكن قادرة يومًا على إخباره، إلّا أني كنت أفضِّل السُّكنى في منزلي، بكلِّ ضجته وفوضاه، على أن أعيش في غرفة العازب الرتيبة عديمة الحيوية تلك بأمكنتها المخصصة لركن السَّيارات وإطلالتها المميزة على القلعة. وعلاوة على ذلك، كانت موحشة بعض الشَّيء.

كان ليقول لي: «عليَّ أن ألتزم بالجدول حبيبتي. إذا عدوت أقل من ثلاثة وعشرين ميلًا في هذه المرحلة من اللعبة، سوف لن أنتهي في الموعد المحدَّد». ثم يقدم لي آخر المستجدَّات عن الألم في ساقيه، أو يطلب مني أن أمرر له الرذاذ السَّاخن. عندما لم يكن يتدرب، كان في اجتماعات متواصلة مع أعضاء آخرين من فريقه، يقارنون المعدات وينجزون ترتيبات السَّفر. وكان الجلوس بينهم كما لو أنك مع مجموعة من متحدّثين كوريين. لم يكن لدي فكرة عن معنى أي من كلامهم، ولا رغبة لي في أن أدمج نفسي.

وكان يفترض بي أن أذهب معهم إلى النروِيج خلال سبعة أسابيع. لم أكن قد عرفت بعد كيف أخبر باتريك بأني لم أطلب من آل ترينر إجازة. كيف يمكنني؟ مع وقت الفايكنغ اكستريم، سيكون هناك أقل من أسبوع واحد على انتهاء عقدي. أفترض أني كنت أرفض بشكل طفولي التعامل

مع الأمر كلّه، لكن بصدق، كان كل ما رأيته ويل وساعة تتكتك. لم يبدُ أن هناك شيئًا آخر ألتفت إليه.

كانت السُّخرية الكبرى من بين كل هذا أني لم أنم جيدًا في شقَّة باتريك. لا أعلم السَّبب، لكني ذهبت إلى العمل من هناك يرافقنِي شعور كما لو أني كنت أتحدث عبر إناء زجاجي، وأبدو كما لو أني تلقَّيت لكمات على عيني. بدأت أضع مخفي العيوب على الظِّلال القاتمة كيفما اتفق.

* * *

قال ويل: «ما الذي يجري، كلارك؟».

فتحت عينيّ. كان بجانبي بالضبط، رأسه مائل إلى أحد الجانبين، يراقبني. شعرت بأنه ربما كان هناك منذ بعض الوقت. ارتفعت يدي تلقائيًا إلى فمي لأرى إن كان لعابي يسيل.

كان الفيلم الذي كان يفترض أني أشاهده الآن سلسلة من الحركات البطيئة.

«لا شيء. آسفة. فقط الجو دافئ هنا». دفعت نفسي إلى الأعلى.

«إنها المرة الثانية التي تنامين فيها خلال ثلاثة أيام». أمعن النظر في وجهي. «وتبدين رهيبة».

فأخبرته. حدّثته عن أختي، وعن تدابير نومنا، وكيف لم أرغب في أن أحدث جلبة لأني كلما نظرت في وجه والدي رأيت يأسه المخفي بالكاد من أنه لا يستطيع أن يقدم لعائلته منزلًا نستطيع جميعنا أن ننام فيه.

«لم يجد أي شيء حتى الآن؟».

«لا. أظن بسبب عمره. لكن لم نتحدّث في الأمر. إن...»، تململت وترددت: «الأمر مزعج للغاية للجميع».

بدا إخبار ويل عن مشكلاتي خاطئًا بوجه من الوجوه. كانت مشكلاتي تافهة على نحو مربك نسبة لمشكلاته.

قلت: «سأعتاد على الأمر، سيكون بخير حقًّا».

بدا ويل منشغلًا بقية الأصيل. غسلت، ثم جئت ووضعت له الحاسوب. عندما جلبت له شرابًا، أدار كرسيه نحوي.

قال كما لو أننا كنا نتحدث: «الأمر بسيط جدًّا. يمكنك أن تنامي هنا في العطلة. هناك غرفة إضافية».

توقفت. الكوب في يدي.

«لا يمكنني فعل ذلك».

«لم لا؟ سوف لن أدفع لك عن السَّاعات الإضافية التي تمضينها هنا».

وضعت الكوب في مقبضه. «لكن ماذا الذي ستفكّر فيه والدتكَ؟».

«ليس لدي فكرة».

لا بدَّ أني بدوت مربكة لأنه أضاف: «لا بأس. أنا آمنٌ».

«ماذا؟».

«إذا كنتِ قلقة من أن لدي خطة سرّية منحرفة لإغوائك، يمكنك فقط أن تنزعي قابسي».

«مضحك».

«جدّيًّا. فكِّري في الأمر. يمكنك أن تجعلي منها خيارك الاحتياط. الأمور قد تتغير بأسرع مما تظنين. قد تقرّر أختك أنها لا تريد أن تمضي كل نهاية عطلة في البيت في النهاية. أو قد تلتقي بشخص ما. مليون أمر قد يتغير».

وأنت قد لا تكون هنا خلال شهرين، قلت في نفسي، وفي الحال كرهت نفسي للتفكير بذلك.

قال وهو يغادر الغرفة: «قولي لي شيئًا، لماذا لا يقدِّم لك العدّاء منزله؟».

قلت: «أوه، لقد فعل».

نظر إليَّ، كما لو أنه كان على وشك أن يواصل المحادثة ثم بدا أنه غيّر رأيه: «مثلما قلتُ العرضُ قائمٌ».

***

«رأيتِ والدي في البلدة الأسبوع الماضي».

«أوه. نعم». كنت أعلّق الغسيل على الحبل. كان الحبل نفسه مخفيًّا في ما سمّته السّيدة ترينر حديقة المطبخ. أظنُّ أنها لم ترغب أن يدنس شيء دنيوي كالغسيل إطلالة حدودها العُشبية. ثبّتت أمي غسيلها الأبيض كعلامة مميزة من الفخر. كان مثل تحدٍّ لجيرانها: أؤكد لكنَّ هذا يا سيدات! كان كل ما في وسع والدي أن يفعله أن يوقفها عن وضع مجفّفة ثياب ثانية دوّارة في الباحة الأمامية.

«سألني إذا قلت شيئًا عن الأمر».

«أوه»، تعمّدت أن يكون وجهي خاليًا من التعبير. ثم لأنه بدا ينتظر: «بصراحة لا».

«هل كان مع شخص؟».

أعدت آخر ملقط إلى كيس الملاقط. لففته ووضعته في سلَّة الغسيل الفارغة. والتفتّ إليه:

«نعم».

«إمرأة».

«نعم».

«صهباء؟».

«نعم».

فكَّر ويل في هذا لدقيقة.

قلت: «أنا آسفة إذا كنت تظن بأنه كان عليَّ أن أخبرك، لكنه... لم يبدُ أنه من شأني».

«وهي ليست محادثة مريحة أبدًا يمكن القيام بها».

«لا».

قال: «إذا كان من عزاء، لكِ كلارك، إنها ليست المرة الأولى»، ودخل إلى المنزل.

***

كل يوم بينما كان يشاهد التلفاز، أو منشغلًا بطريقة أخرى، جلست أمام جهاز حاسوب ويل وعملت على استنباط الحدث السَّاحر الذي قد يجعل ويل سعيدًا. لكن مع مرور الوقت، وجدت أن ما هو موجود على قائمتي من الأمور التي لا يمكننا القيام بها، والأماكن التي لا يمكننا الذهاب إليها، بدأ يتجاوز أفكاري عن تلك التي يمكننا القيام بها بفارق ملحوظ. عندما تجاوز الرقم الأول الرقم الثاني عدت إلى مواقع غرف المحادثة وطلبت النُّصح.

قال ريتشي:

«ها! أهلًا بك في عالمنا أيتها النحلة».

من خلال المحادثات اللاحقة علمت أن للثمالة في كرسي متحرك مخاطرها بما في ذلك كوارث تتعلّق بالقسطرة، تقوُّض المكابح، وأن يقودك سكارى آخرون إلى البيت الخطأ. علمت أن الأصحاء كانوا على درجة واحدة في كل مكان بالنسبة لتقديم العون، لكن كانت باريس مفردة على أنها أقل الأماكن ألفة مع الكرسي المتحرك من أي مكان في العالم. هذا كان مخيّبًا بعد أملٍ متفائلٍ صغير في داخلي بأننا قد نذهب إلى هناك.

بدأت أعدُّ قائمة جديدة – أشياء لا يمكنك أن تفعلها مع مصاب بالشَّلل الرباعي. ركوب قطار الأنفاق (معظم المحطات التحت أرضية لا تحتوي على مصاعد)، ما استبعد إلى حدٍّ كبير نشاطات في وسط لندن إلّا إذا أردنا أن ندفع لسيارات الأجرة. وما كنت قادرة على أن أقود في العاصمة.

الذَّهاب للسباحة من دون مساعدة، إلّا إذا كانت درجات الحرارة مرتفعة بما يكفي لإيقاف الارتعاش اللاإرادي خلال دقائق. حتى غرف تغيير الملابس الخاصة بالمقعدين ليست ذات نفع كبير من دون رافعة الحوض. ولن يسمح ويل على حدٍّ علمي بأن يوضع في رافعة حوض. الذهاب إلى السِّينما إلّا إذا ضمنت مقعدًا في المقدمة، أو ضمنت أن نوبات ويل ستكون قليلة ذلك اليوم. لقد أمضيت على الأقل عشرين دقيقة من فيلم «النَّافذة الخلفية» على يدي وركبي التقط الفشار الذي طيَّرته انتفاضات ركبة ويل غير المتوقعة في الهواء.

الذهاب إلى الشَّاطئ، إلّا إذا كان كرسيك مزودًا بـ«عجلات شحمية» لم يكن يملكها كرسي ويل.

الذَّهاب للتسوّق، إلّا إذا كانت كل المتاجر تضع أرصفتها المنحدرة في مكانها. الكثير من المحلات المنتشرة حول القلعة ادعى أصحابها أنهم لم يستطيعوا تركيب تلك الأرصفة المنحدرة لأنها لم تكن ملائمة. بعضهم كان يقول الحقيقة.

الذهاب إلى أي مكان حارٍّ جدًّا أو باردٍ جدًّا.

الذهاب إلى أي مكان ارتجالًا (كان يجب حزم الحقائب، ويجب التحقّق مرتين من الطرقات لمعرفة إمكانية الوصول). الذهاب لتناول الطَّعام في الخارج إلّا إذا كان يشعر بالخجل من أن يتم إطعامه من قبل شخص آخر، أو يخجل من الاعتماد على القسطرة - إذا كان يتوجَّب النزول إلى دورة مياه المطعم عبر درج.

الذَّهاب إلى منازل أصدقاء إلّا إذا كان لديهم منحدرات خاصَّة بالكرسي المتحرك. معظم المنازل فيها أدراج. معظم الناس ليس لديهم منحدرات. قال ويل إنه ليس لديه مَنْ يريد أن يراه بأيٍّ حال. الذهاب إلى أي مكان شديد الانحدار في المطر الغزير (المكابح لم تكن دومًا آمنة، والكرسي ثقيل جدًّا عليَّ). الذهاب إلى أي مكان كان من المحتمل أن

تشمل فيه. كان ويل جاذبًا للسَّكارى. قد يحيطون به ينفثون الدُّخان من حوله، وينظرون بعيون متَّسعة شفوقة وأحيانًا قد يحاولون أن يدفعوه.

الذَّهاب إلى أي مكان قد يكون مزدحمًا. هذا معناه أنه مع اقتراب الصَّيف، كانت النزهات حول القلعة تزداد صعوبة، ونصف الأمكنة التي اعتقدت أننا قد نتمكّن من الذهاب إليها - معارض، مسارح في الهواء الطلق، حفلات موسيقية - كانت مستبعَدة. بينما كنت أكافح بحثًا عن الأفكار سألت المشلولين على الخط عن أكثر الأشياء التي يحبّون القيام بها في العالم، كان الجواب دومًا تقريبًا «ممارسة الجنس». حصلت على تفاصيل كثيرة غير مطلوبة عن ذلك الأمر. لكن بشكل أساسي لم تكن عونًا كبيرًا. كان أمامنا ثمانية أسابيع وكنت قد استنفدت الأفكار.

***

بعد يومين من مناقشتنا تحت حبل الغسيل، عدت إلى البيت لأجد أبي واقفًا في الرِّواق. هذا قد يكون غير عادي حينها (بدا في الأسابيع الأخيرة أنه ينكفئ نحو الأريكة في النَّهار، ظاهريًّا ليبقى برفقة جدِّي)، وكان حليقًا ويرتدي قميصًا مكويًّا، وكان الرواق عبقًا برائحة عطر «أولد سبايس». أنا واثقة أنه اشترى زجاجة بعد الحلاقة منذ عام 1974.

«ها أنت».

أغلقت الباب خلفي: «ها أنا ذا».

كنت أشعر بالتعب وبالقلق. طوال رحلة الحافلة إلى البيت كنت أتحدّث على هاتفي النَّقال مع وكيل سفر عن أماكن يمكن أن أصحب ويل إليها، لكن كان كلانا مربكَيْن.

«هل يمكنك البقاء بمفردك الليلة؟».

«بالتأكيد. قد أنضمّ إلى باتريك في الحانة لاحقًا، لماذا؟». علَّقت معطفي على علاقة فارغة. كان المشجب فارغًا مع غياب معاطف ترينا وتوماس.

«سأصحب والدتك لتناول العشاء».

قمت بعملية حسابية سريعة: «هل فوَّتّ عيد ميلادها؟».

«لا، نحن نحتفل». أخفض صوته كما لو أنه كان سرًّا «لقد حصلت على عمل».

«حقًّا!»، الآن فهمت الأمر، جسده كله خف وزنه. كان واقفًا باستقامة ثانية، وجهه مجدول بالابتسامات. بدا أصغر سنًا بسنوات.

«أبي، هذا رائع».

«أعلم. أمك في غاية السعادة. وكما تعلمين لقد قاست أشهرًا مع ما يجري مع ترينا وجدّك وكل شيء. لذا أريد أن أصحبها الليلة لأمتّعها قليلًا».

«وما هو العمل؟».

«سأكون مشرفًا على الصِّيانة في القلعة».

طرفت: «لكن ذلك...».

«السَّيد ترينر. هذا صحيح. اتصل بي وقال إنه كان يبحث عن شخص، ورجلك، ويل قال له إني كنت متاحًا. ذهبت هذا الأصيل وأريته ما يمكنني فعله، وسأكون لمدة شهر تحت الاختبار. أبدأ السَّبت».

«هل ستعمل لصالح والد ويل؟».

«حسنًا، قال إنه لا بد أن أخضع للتمرين مدة شهر من أجل إنهاء الإجراءات المناسبة، لكنه قال إنه لا يستطيع أن يجد سببًا يمنعني من الحصول على العمل».

قلت: «عظيم». اختلَّ توازني على نحو غريب بسبب الأخبار. «أنا لم أعرف حتى بوجود فرصة عمل».

«ولا أنا. هذا عظيم، مع ذلك. إنه رجل يقدِّر الجودة، لو. تحدثت إليه

عن البلوط الأخضر، وأراني بعض العمل المنفَّذ من قبل الرجل السَّابق. لن تصدِّقي الأمر. صادم. قال إنه كان متأثِّرًا للغاية بعملي».

كان متحمسًا كما لم أره منذ أشهر.

ظهرت أمي بجانبه. كانت تضع حمرة شفاه، وتنتعل حذاءها الجيّد ذا الكعب العالي.

«هناك شاحنة. حصل على شاحنته الخاصة. والراتب جيد، لو. إنه أكثر مما كان يحصل عليه والدك في مصنع الأثاث».

كانت تنظر إليه كما لو أنه بطل فاتح. عندما التفتت إلي عرفت من ملامحها أن عليَّ أن أفعل المثل. قد يحتوي مليون رسالة وجه أمي وهذه المرة أخبرني إنه من حق أبي أن يفرح.

«هذا عظيم، أبي. حقًّا». تقدَّمت وعانقته.

«حسنًا، عليك أن تشكري ويل. يا له من رجل باهر. أنا ممتن للغاية لأنه فكَّر بي».

***

أصغيت إليهما وهما يغادران المنزل، صوت جلبة أمي أمام المرآة، طمأنة والدي المتكرّرة بأنها تبدو جميلة وأنها كانت ممتازة كما هي. سمعته يربِّت على جيوبه بحثًا عن المفاتيح، المحفظة، الفكَّة، متبوعًا بانفجار من الضَّحك. صُفق الباب. سمعت ضجيج السَّيارة وهي تبتعد، ثم كان هناك صوت بعيد للتلفاز في غرفة جدِّي. جلست على الدَّرج. ثم أخرجت هاتفي واتصلت برقم ويل. استغرقه وقتًا ليجيب، تصورته يتوجّه نحو الجهاز يضغط الزر بإبهامه.

«مرحبًا؟».

«هل هذا من صنعك؟».

وقفة قصيرة، ثم أجاب: «هل هذه أنت، كلارك؟».

«هل حصلت لوالدي على عمل؟».

بدا لاهثًا قليلًا. تساءلت بذهن شارد، إن كان يجلس بطريقة مريحة.

«اعتقدت أنك ستكونين مسرورة».

«أنا مسرورة. إنه فقط... لا أعرف. أشعر بالغرابة».

«ليس عليك. احتاج والدك إلى عمل. ووالدي احتاج إلى رجل ماهر يعمل في الصيانة».

«حقًّا؟». لم أتمكن من إبعاد التشكيك عن نبرة صوتي.

«ماذا؟».

«هل لهذا علاقة له بما سألتني عنه البارحة؟ عنه وعن المرأة الأخرى؟».

مرّت لحظات صمت. رأيته هناك، في غرفة الجلوس، يتطلّع من خلال النّوافذ الفرنسية.

كان صوته حذرًا عندما انبثق: «هل تظنين أني أبتزُّ والدي بمنح والدك عملًا؟».

وصفه بتلك الطريقة بدا مستبعَدًا.

«آسفة. لا أعرف. إنه غريب فقط. التوقيت. كل شيء متزامن قليلًا».

«إذًا كوني مسرورة، كلارك. إنها أخبار جيدة. سيكون والدك عظيمًا. وهذا يعني...». تردّد.

«يعني ماذا؟».

«أنه ذات يوم يمكنك أن ترحلي وتفردي جناحيك دونما قلق من كيف سيتدبر والداك أمرهما».

كان كما لو أنه ضربني. شعرت برئتيَّ تفرغان من الهواء.

«لو؟».

«نعم؟».

«أنت هادئة على نحو مرعب».

«أنا...». ازدردت ريقي: «آسفة. صرفني أمر ما. جدّي يناديني. لكن نعم. شكرًا على التوصية به».

كان عليَّ أن أغلق الهاتف لأنني شعرت فجأة بأني أختنق ولم أكن واثقة بأني أستطيع قول شيء آخر.

***

مشيت إلى الحانة. كان الهواء مثقلًا برائحة الأزهار، والناس ابتسموا وهم يمرّون بي في الشَّارع. لم أتمكن من ردِّ التحية. عرفت أني لا أستطيع البقاء في ذلك المنزل، وحيدة مع أفكاري. وجدت جميع أعضاء الترياثلون تيررز في الحانة المكشوفة، كانت الطاولتان المخصصتان لهم مقرّبتين من بعضهما البعض في زاوية ظليلة، تخرج أذرع وسيقان عن الأطراف في زوايا زهرية اللون قوية. تلقيت الإيماءات المهذبة (ليس من النسوة) وباتريك وقف متيحًا لي مكانًا صغيرًا بجانبه. أدركت بأني تمنيت لو كانت ترينا هنا.

«لم أكن أتوقّع مجيئك. هل تودّين شرابًا؟».

«بعد قليل»، أنا فقط أردت أن أجلس هناك، وأدع رأسي يرتاح على باتريك. أردت أن أشعر كما اعتدت أن أشعر - عادية، آمنة. أردت ألا أفكّر بالموت.

«حطّمت أفضل رقم لي اليوم. خمسة عشر ميلًا في 79.2 دقيقة».

«عظيم».

قال شخص: «الأداء بكفاءة عالية الآن، إيه، بات؟». ضمَّ باتريك قبضتيه وأصدر صوت ضجيج محرك بفمه.

«هذا عظيم حقًّا». حاولت أن أبدو مسرورة من أجله. شربت كأسًا ثم أخرى. أصغيت إلى حديثهم عن المسافة بالميل، عن الركب المسلوخة

ومسابقات السِّباحة في درجات حرارة منخفضة. التفتُّ وشاهدت الآخرين في الحانة، أتساءل عن حياتهم. قد يكون لدى كل واحد منهم حوادث عظيمة في عائلته - أطفال محبوبون وبائسون، أسرار خفيّة، أفراح عظيمة ومآسٍ. إذا استطاعوا وضعها في منظور، إذا استطاعوا أن يستمتعوا بمساء مشمس في حانة مكشوفة، إذًا بالتأكيد يجب عليَّ أن أفعل أيضًا.

ثم حدَّثت باتريك عن عمل والدي. بدا وجهه قليلًا مشابهًا لوجهي كما تخيّلته. كان عليَّ التكرار فقط لأكون واثقة من أنه سمعني على نحو صحيح.

«هذا... سريح جدًّا. أنتما الاثنان تعملان لديه».

أردت أن أخبره حينها، حقًّا أردت. أردت أن أشرح أن الكثير من كل شيء كان يتعلّق بمعركتي للمحافظة على حياة ويل. أردت أن أخبره كم كنت خائفة من أن ويل بدا أنه يحاول أن يشتري لي حريتي. لكنني عرفت بأني لا أستطيع أن أقول شيئًا. ربما بهذه الطريقة أحصل على ما تبقى منه طالما كان في وسعي ذلك.

«ليس هذا هو الأمر الوحيد. هو يقول إني أستطيع النوم هناك عندما أريد، في الغرفة الاحتياطية. لأتجاوز مشكلة السَّرير في البيت برمتها».

نظر باتريك إلي: «هل ستقيمين في منزله؟».

«ربما أفعل. إنه عرض لطيف يا بات. أنت تعلم كيف هو الحال في البيت. وأنت لست هنا أبدًا. أحب أن آتي إلى منزلك لكن... حسنًا لأصدقك القول هو لا يبدو كأنه بيت».

كان لا يزال يحدق بي: «إذًا اجعلي منه بيتًا».

«ماذا؟».

«انتقلي. اجعلي منه بيتًا. ضعي أشياءك. اجلبي ملابسك. حان الوقت لنعيش معًا».

لم أدركْ إلّا في ما بعد، عندما فكرت في الأمر، بأنه بدا حقًّا تعيسًا وهو يقول هذا. ليس مثل رجل عرف أخيرًا بأنه لا يستطيع أن يعيش من دون أن تكون صديقته قريبة منه، وأراد أن يجمع شمل حياتينا ببهجة. بدا مثل شخص شعر بأنه مهزوم.

«هل تريدني حقًّا أن أنتقل؟».

فرك أذنه: «نعم. بالتأكيد. أعني، أنا لا أقول لنتزوج أو أي شيء. لكنه منطقي، صحيح؟».

«أيها الرومانسي العتيق».

«عنيته، لو. حان الوقت. ربما كان يجب أن يحدث منذ زمن طويل، لكني أظن أني كنت منشغلًا في أمر أو بآخر. انتقلي سيكون جيدًا».
عانقني: «سيكون جيّدًا حقًّا».

استأنف من حولنا الترااياثلون تيررز حديثهم على نحو دبلوماسي. تصاعد هتاف صغير عندما التقطت مجموعة من السُّياح اليابانيين الصُّورة التي أرادوها. غرَّدت الطيور، والشَّمس غابت، انقلب العالم. أردت أن أكون جزءًا منه، ألّا أعلق في غرفة صامتة، وأقلق على رجل في كرسي متحرك.

قلت: «نعم. سيكون ذلك جيّدًا».

17

أسوأ ما في العمل كجليسة ليس ما قد يخيل إليك. ليس الحمل والتنظيف، الأدوية والمسح، ورائحة المطهِّرات البعيدة، لكن المدرَكة دومًا بوجه من الوجوه. هو ليس حتى واقعة أن معظم الناس يحسبون أنك تفعل ذلك فقط لأنك لست ذكيًّا حقًّا بما فيه الكفاية لتفعل أي شيء آخر. إنها حقيقة أنك عندما تمضي اليوم بطوله قرب شخص ما، ما من مناص من مزاجه. أو من مزاجك.

كان ويل باردًا معي طوال فترة الصَّباح، منذ أن حدثته أول مرة عن خططي. لم يكن هناك أحد يمكنه أن يعرف السَّبب، لكن كانت هناك نكات أقل، وربما حديث أكثر رسمية. لم يسألني شيئًا عن محتويات صحف اليوم.

«هذا ما تريدين القيام به؟»، طرفت عيناه، لكن وجهه لم ينمّ عن شيء.

تململت. ثم أومأت مؤكّدة. شعرت بأنه كان هناك شيء ملتبس بشكل طفولي في جوابي.

قلت: «حان الوقت حقًّا. أقصد، أنا في السَّابعة والعشرين من عمري».

طالع وجهي. مشدود الفك. شعرت فجأة بتعب لا يطاق. شعرت بهذا الدَّافع الغريب للاعتذار، ولم أكن واثقة على ماذا أعتذر.

أومأ إيماءة طفيفة وابتسم قائلًا: «مسرور لأنك أوضحت كل شيء»، ودفع نفسه نحو المطبخ.

كنت قد بدأت أشعر بالسّخط منه حقًّا. لم يسبق أن شعرت أبدًا بأني مُنتقدة من قبل أحد كما شعرت الآن من قبل ويل. كان كما لو أن قراري في الإقامة مع صديقي جعلني أقل إثارة لاهتمامه. كما لو أنه لم يعد ممكنًا أن أكون موضوعه الأثير. لم أتمكَّن من قول أي من هذا له، بالتأكيد، لكنني كنت باردة معه كما كان معي. كان بصراحة مضنيًا.

في الأصيل، سمعت قرعًا على الباب الخلفي. أسرعت في الممر، لا تزال يداي رطبتين من الغسيل، وفتحته لأجد رجلًا واقفًا هناك في بدلة داكنة، يحمل حقيبة يد.

قلت بحزم: «أوه لا. نحن بوذيُّون»، وأغلقت الباب عندما بدأ الرجل يحتج.

قبل أسبوعين احتجز اثنان من شهود يهوه ويل عند الباب الخلفي لما يقرب من خمس عشرة دقيقة، بينما كافح ليعكس كرسيه فوق ممسحة الأرجل المزاحة من مكانها. عندما أغلقت الباب أخيرًا صاحا قائلين: «إنه هو أكثر من أيِّ شخص يجب أن يفهم ماذا يوجد ليتطلع إليه في الحياة الآخرة».

قال الرجل: «أنا هنا لأرى السَّيد ترينر؟»، وفتحت الباب باحتراس. طوال الوقت في منزل غرانتا لم يأت أحد لرؤية ويل من الباب الخلفي.

قال ويل وقد ظهر من خلفي: «دعيه يدخل، أنا طلبت إليه المجيء». ثم أضاف عندما كنت لا أزال واقفة هناك: «لا بأس، كلارك... إنَّه صديق».

خطا الرجل فوق الممسحة ومد يده وصافحني قائلًا: «مايكل لاولر».

كان على وشك أن يقول شيئًا آخر، لكن ويل حرّك كرسيه بيننا، بصورة فعلية ليمنع أي محادثة إضافية.

«سنكون في غرفة الجلوس. هل يمكن أن تصنعي لنا القهوة، ثم تدعينا لفترة؟».

«حسنًا».

ابتسم لي السَّيد لاولر بارتباك إلى حدٍّ ما، وتبع ويل إلى غرفة الجلوس. عندما دخلت بعد بضع دقائق، أحمل صينية القهوة كانا يناقشان لعبة الكريكيت. تواصلت المحادثة عن السِّيقان والجري حتى لم يبق لي سبب للتربُّص. استقمت أنفض غبارًا غير مرئيٍّ عن تنورتي وقلت: «حسنًا. سوف أدعكما».

«شكرًا لك لويزا».

«هل أنت واثق من أنك لا تريد شيئًا آخر؟ وجبة خفيفة؟».

«شكرًا لك لويزا».

لم يسبق أن ناداني ويل بلويزا. ولم يقصني عن أي شيء في السَّابق.

بقي السَّيد لاولر ساعة تقريبًا. قمت بأعمالي الروتينية، ثم تجوَّلت في المطبخ، أتساءل إذا ما كنت أمتلك الشَّجاعة الكافية لأسترق السَّمع. لم أكن. جلست، تناولت كأس بوربون كريم وقضمت أظافري، أصغيت إلى همهمة صوتيهما الخفيضة وتساءلت للمرة الخامسة عشرة لماذا طلب ويل من هذا الرجل ألّا يستعمل المدخل الرئيس.

لم يبدُ طبيبًا أو مستشارًا. ربما يكون مرشدًا ماليًا، لكنه بطريقة ما لم يمتلك المظهر المناسب. هو بالتأكيد لم يبدُ مثل أخصائي في العلاج الطبيعي، أو معالج مهني، أو أخصائي حميات - أو واحد من جموع النَّاس الغفيرة الموظفين من قبل السُّلطة المحلية ليتوقفوا باستمرار ويقيِّموا حاجات ويل المتغيّرة أبدًا. يمكنك أن تعرف هؤلاء من على بعد ميل. بدوا دومًا مرهقين، لكن مرحين بنشاط على نحو لا يقبل الجدل.

ارتدوا ثيابًا صوفية ذات ألوان خالية من النقوش، وأحذية رصينة، وقادوا سيارات مغبرة كبيرة مليئة بالملفات وصناديق المعدات. كان السَّيد لاولر يملك سيارة بي إم دبليو زرقاء اللون لم تكن سيارة تابعة للسُّلطة المحلية.

خرج السَّيد لاولر أخيرًا. أغلق حقيبته وسترته معلَّقة على ذراعه. لم يعد الارتباك باديًا عليه. كنت في الرواق خلال ثوانٍ.

«آه هل لك أن تدلّيني على الحمام؟». فعلت ذلك بصمت، ووقفت هناك أتململ حتى خرج.

«صحيح. إذًا هذا كل شيء الآن».

«شكرًا لك، مايكل». لم ينظر ويل إليّ. «سأنتظر منك ردًّا».

قال السيد لاولر: «لا بد أن أتواصل معك في وقت لاحق من هذا الأسبوع».

«بريد إلكتروني سيكون أفضل من مكتوب - على الأقل الآن».

«نعم. بالتأكيد».

فتحت الباب الخلفي ليخرج. ثم عندما اختفى ويل في غرفة الجلوس تبعت لاولر إلى الفناء وقلت بخفة: «إذًا هل عليك أن تسافر بعيدًا؟».

كانت ملابسه جميلة التفصيل، حملت لمسة المدنية في خياطتها، وبدت أنها باهظة الثمن.

«لندن، لسوء الحظ. مع ذلك، آمل ألّا تكون حركة السَّير سيئة جدًّا في هذا الوقت من الأصيل».

كانت الشَّمس في كبد السَّماء وكان عليَّ أن أنظر بتركيز شديد كي أراه.

«إذًا... أين تقيم في لندن؟».

«ريجينت ستريت».

«ريجينت ستريت؟ ظريف».

«نعم. ليس مكانًا سيئًا. صحيح. شكرًا لك على القهوة، آنسة...».

«كلارك. لويزا كلارك».

توقَّف حينها ونظر نحوي للحظة وتساءلت فيما إذا كان قد لاحظ محاولاتي غير الملائمة لمعرفة من يكون.

قال: «آنسة كلارك»، عادت ابتسامته المهنية بسرعة. «شكرًا لك، بأيِّ حال».

وضع حقيبته بعناية في المقعد الخلفي، ركب السَّيارة وذهب.

عرَّجت تلك الليلة على المكتبة في طريقي إلى بيت باتريك. كان في وسعي استعمال حاسوبه لكني كنت لا أزال أشعر بأني مضطرَّة لطلب الإذن وهذا بدا أسهل. جلست وكتبت في محرك البحث: «مايكل لاولر»، و«ريجينت ستريت لندن». قلت له بصمت، **المعرفة قوة، ويل.**

كان هناك 3.290 نتيجة، النتائج الثَّلاثة الأوائل التي كشفت عن «مايكل لاولر، محام، مختص في الوصايا، إثبات صحَّة الوصية، وكيل مفوَّض» مقيم في الشَّارع نفسه. حملقت بالشَّاشة بضع دقائق، ثم كتبت اسمه ثانية، هذه المرة في محرِّك البحث عن الصُّور، وكان مايكل لاولر هناك، يجلس في حفلة رسمية إلى دائرة مستديرة في بدلة داكنة - مختص في الوصايا وإثبات صحَّة الوصية، إنه الرجل الذي أمضى ساعة مع ويل.

انتقلت إلى منزل باتريك تلك الليلة خلال الفترة الممتدة لساعة ونصف بين إنهائي عملي وخروجه للتدريب. أخذت كل شيء ما عدا سريري والسَّتائر الجديدة. وصل بسيارته وحملنا أمتعتي في أكياس النِّفايات. خلال رحلتين جلبناها كلها إلى شقته - ما عدا كتبي المدرسية في العلّية.

بكت أمي، ظنَّت أنها كانت ترغمني على الخروج.

قال لها والدي: «بحقِّ الله يا حبيبتي. حان الوقت لتتقدّم. إنها تبلغ سبعة وعشرين عامًا».

قالت: «إنها لا تزال طفلتي»، وهي تضغط علبتين من كعكة الفاكهة وسلَّة كبيرة من المنظفات في ذراعي.

لم أعرف ماذا أقول لها. أنا لا أحبُّ كعكة الفاكهة.

كان وضع أمتعتي في شقة باتريك سهلًا على نحو مفاجئ. لم يكن يملك شيئًا تقريبًا ولم يكن لديَّ شيء منذ أن أقمت في غرفة المخزن. الأمر الوحيد الذي تشاجرنا عليه كانت مجموعة أقراصي المضغوطة التي في ما يبدو لم يكن ممكنًا أن تنضم إلى مجموعته إلّا بعد أن وضعت لُصاقة على ظاهرها وصنّفتها بحسب التسلسل الأبجدي.

ظل يقول: «خذي راحتك»، كما لو أني ضيفة. كنا متوترَيْن ومربَكَيْن بغرابة مع بعضنا البعض، مثل شخصين في موعدهما الأول. بينما كنت أفرغ حاجياتي جلب لي الشاي وقال: «اعتقدت أن هذا قد يكون كوبك». ودلّني على مكان كل شيء في المطبخ، ثم قال عدة مرات: «بالتأكيد، ضعي الأشياء أينما تريدين. لا أمانع».

كان قد أفرغ درجين وخزانة الملابس في غرفة الاحتياط. كان الدُّرجان الآخران ممتلئين بملابسه الرياضية. لم أعرف أنه كان هناك الكثير من البدائل من الألبسة المصنوعة من القماش المطاطي والصُّوف. ثيابي الملونة بوحشية تركت مسافة عدة أقدام من الخزانة فارغة، تخشخش العلّاقات بشكل حزين.

قلت وأنا أنظر إلى الخزانة: «سيتوجّب عليَّ شراء المزيد من الأشياء فقط لأملأها».

ضحك بتوتر: «ما هذا؟».

نظر إلى روزنامتي المثبَّتة على جدار غرفة الاحتياط، بأفكارها الملونة بالأخضر وحوادثها المخطط لها باللون الأسود. عندما ينجح شيء ما (موسيقى، تذوّق النبيذ)، كنت أضع وجهًا مبتسمًا بجانبه. عندما لم يحدث (سباق الخيول، معارض فنية)، كان يبقى فارغًا. كان هناك القليل

للأسبوعين القادمين - أصبح ويل ملولًا من الأماكن القريبة، وحتى الآن لم أتمكّن من إقناعه بأن يغامر بعيدًا. نظرت نحو باتريك. رأيته يعاين تاريخ 12 آب الذي كان الآن موضوعًا تحته خط مع إشارات تعجُّب بالأسود.

«إنها فقط تذكّرني بعملي».

«ألا تظنين بأنهم سوف يجدّدون عقدك؟».

«لا أعرف، باتريك».

تناول باتريك القلم من مشبكه، نظر إلى الشَّهر القادم، وخربش تحت الأسبوع الثامن والعشرين. وقت بدء البحث عن عمل.

قال: «لهذا أنت حجبت عني أيًّا مما يحدث»، قبّلني وتركني.

فرشت مراهمي بعناية في الحمَّام، رتبت شفرات الحلاقة، ملطِّف البشرة، والحشوات القطنية بأناقة في خزانته ذات المرآة. وضعت بعض الكتب في صفٍّ منتظم على طول أرض الغرفة الإضافية تحت النَّافذة، بما فيها العناوين الجديدة التي طلبها لي ويل من موقع أمازون. وعد باتريك أن يضع بعض الرُّفوف عندما يتسنّى له الوقت.

ثم عندما غادر ليركض، جلست وتطلعت عبر المنطقة الصِّناعية نحو القلعة، وتمرَّنت على قول كلمة بيت، في صمت همسًا.

***

أنا بائسة للغاية في كتمان الأسرار. تقول ترينا إني أمسُّ أنفي حالما أفكّر بالكذب. إنه إفشاء سر غير مقصود تمامًا. والداي لا يزالان يضحكان من ملاحظات كتبتها لنفسي بعد تغيبي عن المدرسة. تقول: «الآنسة العزيزة تروبريدج، من فضلك اعفي لويزا كلارك من دروس اليوم لأني بائسة جدًّا في مشكلات النِّساء». كافح أبي ليحافظ على وجه رصين حتى عندما كان يُفترض به أن يعاقبني.

إخفاء خطَّة ويل عن عائلتي كان أمرًا - كنت جيّدة في كتمان الأسرار

عن والديَّ (إنه واحد من الأمور التي تعلمناها ونحن نكبر، في النهاية) - لكن التغلّب على القلق كان أمرًا آخر كليًّا.

أمضيت الليلتين التاليتين أحاول معرفة ما كان يمكن لويل أن يفعله وما يمكن أن أفعله لإيقافه، تدور أفكاري حتى عندما كنا نتبادل الأحاديث أنا وباتريك، أو نطهو معًا في المطبخ الصغير. (كنت أكتشف أشياء جديدة عنه من مثل أنه حقًّا عرف وصفات مختلفة كثيرة لطهو صدر الحبش). مارسنا ليلًا الحب - بدا إلزاميًا في اللحظة، كما لو أن علينا أن نستغل حريتنا. كان كما لو أن باتريك شعر بطريقة ما أني مدينة له بشيء، بالنظر إلى قربي المستمر جسديًّا من ويل. لكن ما إن كان يخلد إلى النوم حتى كنت أغرق في أفكاري ثانية.

كان قد بقي فقط سبعة أسابيع.

وكان ويل يضع الخطط حتى لو لم أكن أفعل. الأسبوع التالي، لم يقل ويل شيئًا إذا كان قد لاحظ أني مشغولة. مارسنا ما يستدعيه روتيننا اليومي - صحبته إلى نزهات قصيرة في الريف، طهوت له وجباته، اعتنيت به عندما كنًّا في منزله. لم يعد يلقي النُكات عن الرجل العداء بعد الآن. تحدّثت معه عن الكتب الأخيرة التي نصح بها: ناقشنا «المريض الإنكليزي» (أحببت هذا)، ورواية سويدية مثيرة (لم تعجبني). كنا مراعيين لشعور بعضنا البعض، وتقريبًا شديدي التهذيب. افتقدت إهاناته، تعكُّر مزاجه - أضيف غيابها إلى الإحساس الواضح بالتهديد الذي توعّدني.

راقبَنا نايثن كما لو أنه كان يراقب نوعًا جديدًا من المخلوقات.

سألني ذات يوم في المطبخ وأنا أفرد الخضار: «هل تشاجرتما؟».

قلت: «من الأفضل أن تسأله».

«هذا بالضَّبط ما قاله».

نظر إليَّ جانبيًّا، وتوارى في الحمَّام ليفتح خزانة أدوية ويل.

في هذه الأثناء، صبرت ثلاثة أيام بعد زيارة مايكل لاولر قبل أن أتصل بالسَّيدة ترينر. سألت إذا كان في وسعي اللقاء بها في مكان بعيد عن المنزل، واتّفقنا أن نلتقي في مقهى صغير افتتح على أرض القلعة. لسخرية القدر كان المقهى نفسه الذي خسرت بسببه عملي.

كان أكثر جمالًا من الباترد بان - خشب بلوط مطلي بالكلس وطاولات خشبية مبيَّضة وكراسٍ. يبيع حساءً منزلي الصنع مليء بالخضار، وكعكًا مزينًا. ولا يمكنك شراء قهوة عادية، فقط اللّاتيه، الكابوتشينو، الماكياتو، لم يكن هناك بناؤون أو فتيات من صالونات الحلاقة. جلست أشرب الشّاي، وتساءلت عن السَّيدة ديندليون وما إذا كانت ستشعر بالراحة في الجلوس هنا وقراءة الصَّحيفة كل صباح.

دخلت كاميلا ترينر بسرعة، تتأبّط حقيبتها، وترتدي قميصًا حريريًّا رماديًّا وبنطالًا أزرق نيليًّا. قالت: «لويزا، آسفة على التأخر». قاومت الرَّغبة الملحَّة في النهوض. «اضطررت للتأخر في المحكمة».

«آسفة أن أخرجك من عملك، أعني. أنا فقط... حسنًا، لم أكن واثقة من أن الأمر يمكن أن ينتظر».

رفعت يدها وقالت شيئًا للنادلة. ثم جلست قبالتي. شعرت بنظرتها المحدّقة كما لو أنها تخترقني.

قلت: «زار ويل محام في المنزل، عرفت أنه متخصّص في الوصايا وإثبات صحة الوصية». لَم أجد طريقة ألطف لفتح حديث مثل هذا.

بدت كما لو أني صفعتها على وجهها. أدركت متأخرة جدًّا أنها بالفعل لديها فكرة بأن لديّ أمرًا حسنًا أقوله لها.

«محامٍ؟ هل أنت واثقة؟».

«بحثت عنه على شبكة الإنترنت. إنه مقيم في شارع ريجينت. في لندن»، أضفت على غير حاجة: «يدعى مايكل لاولر». طرفت بشدَّة، كما لو أنها تحاول أن تستوعب الأمر. «هل قال ويل لك هذا؟».

«لا. لا أظن أنه أرادني أن أعرف. أنا حصلت على اسمه وبحثت عنه».

وصلت قهوتها وضعتها النادلة على الطاولة أمامها، لكن لم يبد على السَّيدة ترينر أنها لاحظت.

قالت الفتاة: «هل تريدين أيَّ شيء آخر؟».

«لا، شكرًا لك».

«لدينا كعكة الجزر بسعر مخفَّض اليوم. صنعناها هنا بأنفسنا. محشوة بكريم الزبدة اللذيذ».

«لا». كان صوت السيدة ترينر حادًّا. «شكرًا لك».

وقفت الفتاة هناك وقتًا كافيًا لنعلم أنها أهينت ثم مشت متشامخة تتأرجح مفكّرتها بشكل واضح في إحدى يديها.

قلت: «أنا آسفة، قلت لي سابقًا أن عليَّ أن أعلمك عن أي أمر مهم. بقيت مستيقظة شطرًا طويلًا من الليل أفكر إذا كان من الواجب أن أخبركِ».

بدا وجهها شاحبًا تمامًا. عرفت كيف شعرت.

«كيف حاله؟ هل توصَّلتما... إلى أي أفكار أخرى؟ نزهات؟».

«هو ليس متحمِّسًا». أخبرتها عن باريس، وعن قائمتي بالأمور التي كنت قد جمعتها.

وأثناء تحدثي رأيت عقلها يعمل، يحسب، يقيم.

قالت أخيرًا: «أي مكان، سأموّله، أي رحلة تريدين. سأدفع عنك. عن نايثن. فقط انظري إذا كنت تستطيعين الحصول على موافقته».

أومأت.

«إذا كان هناك شيء آخر يمكنك التفكير فيه فقط لكسب بعض الوقت سأدفع راتبك ما بعد الأشهر الستة».

« المسألة ليست هنا حقًّا».

أنهينا شرب قهوتنا في صمت غارقتين في أفكارنا. وأنا أراقبها خفية، لاحظت أن تسريحة شعرها المتقنة كانت الآن مشوبة بالرمادي، عيناها مظللتين كعيني. أدركت بأني لم أشعر بأي تحسن بإخبارها، بتمرير قلقي المضاعف إليها - لكن أي خيار كنت أملك؟ كانت المخاطر ترتفع مع كل يوم يمر. بدا صوت السَّاعة تدق الثانية أنه ينبّهها من ركودها.

«أتصور أن عليَّ العودة إلى العمل. من فضلك أعلميني بأي شيء يمكنك التوصل إليه لويزا. ربما يكون من الأفضل إذا تبادلنا هذه الأحاديث بعيدًا عن الملحق».

نهضت وقلت: «هذا رقمي الجديد. لقد انتقلت للتو».

وأضفت في ما كانت تخرج قلمًا من حقيبتها: «انتقلت للعيش مع صديقي باتريك».

لا أعرف لماذا فاجأتها هذه الأخبار كثيرًا. بدت مجفلة، ثم ناولتني قلمها.

«لم أكن أعلم بأن لديك صديقًا».

«لم أعرف بأن عليَّ أن أخبرك».

وقفت، إحدى يديها استقرت على الطاولة: «ذكر ويل منذ أيام أنك... هو اعتقد بأنك قد تنتقلين إلى الملحق في عطل نهاية الأسبوع».

دوَّنت رقم هاتف باتريك الأرضي.

«حسنًا، اعتقدت أنه قد يكون أكثر عدلًا من أجل الجميع إذا انتقلت للسكن مع باتريك». ناولتها القصاصة الورقية. وأكملت: «لكني لست بعيدة جدًا. قرب المنطقة الصناعية. لن يؤثر ذلك على ساعات عملي. أو دقة مواعيدي».

وقفنا هناك. بدت السَّيدة ترينر مضطربة، مرّرت يدها في شعرها، ثم

أمسكت بالسلسلة المحيطة بعنقها. أخيرًا قالت متعجّلة كما لو أنها لم تتمكّن من منع نفسها: «هل يضيرك أن تنتظري فقط بضعة أسابيع؟».

«عذرًا؟».

«ويل... أظن أن ويل مولع بك كثيرًا»، عضَّت على شفتها. «لا يمكنني أن أرى... كيف يساعد هذا».

«انتظري. هل تقولين لي إنه لم يكن عليَّ الانتقال إلى منزل صديقي؟».

«أنا أقول فقط إن التوقيت ليس مثاليًا. ويل في حالة حرجة جدًّا. نحن نقوم ما بوسعنا لنبقيه متفائلًا وأنت...».

«أنا ماذا؟». رأيت النادلة تراقبنا. لا تزال مفكّرتها في يدها. «أنا ماذا؟ تجرّأت أن تكون لي حياة بعيدًا عن العمل؟».

أخفضت صوتها: «أنا أفعل كل ما في وسعي لويزا لأوقف هذا الأمر. أنت تعلمين المهمّة التي نواجهها. وأنا فقط أقول إني أتمنى - بالنظر لحقيقة أنه مولع بك - أنه كان عليك أن تنتظري فترة أطول قليلًا قبل أن تزعجيه بسعادتك».

لم أستطع تصديق ما سمعته. شعرت بأن وجهي يتضرّج بالدماء، وأخذت نفسًا عميقًا قبل أن أتكلّم ثانية.

«كيف تجروئين أن تلمّحي بأني قد أفعل أي شيء لأتسبب بجرح مشاعر ويل. لقد فعلت كل شيء»، همست. «لقد فعلت كل ما يمكن أن يخطر في بالي. لقد استنبطت أفكارًا، أخرجته، تحدّثت إليه، قرأت له، اعتنيت به». انفجرت كلماتي الأخيرة من صدري. «لقد نظفت له، غيرت قسطرته اللعينة، أضحكته، فعلت أكثر مما فعلت عائلتك».

وقفت السَّيدة ترينر ساكنة للغاية، شدَّت من قامتها ووضعت حقيبتها تحت إبطها.

«أظن أن هذه المحادثة انتهت على الأرجح، يا آنسة كلارك».

«نعم. نعم، يا سيدة ترينر. أظنّها انتهت على الأرجح».

التفتت، وخرجت بعجلة من المقهى.

عندما انصفق الباب بعنف أدركت أني أنا أيضًا كنت أرتجف.

***

جعلتني تلك المحادثة مع السَّيدة ترينر متوترة ليومين آخرين. بقيت أسمع كلماتها، فكرة أني كنت أزعجه بسعادتي. لم أظن أن ويل قد يكون متأثّرًا بأي شيء فعلته. عندما بدا مستنكرًا لقراري في الانتقال إلى شقة باتريك، فكرت أنه كان بسبب عدم إعجابه بباتريك وليس بسبب أي مشاعر يملكها تجاهي. والأكثر أهمية، لم أظن بأني بدوت سعيدة على وجه الخصوص.

لم أتمكّن في البيت من التخلص من هذا الشُّعور بالقلق. كان مثل تيار منخفض المستوى يجري عبري، مغذّيًا كل ما فعلته.

سألت باتريك: «هل كنا فعلنا ذلك لو لم تكن أختي بحاجة إلى غرفتي في البيت؟».

نظر إليَّ كما لو أني معتوهة. انحنى وجذبني إليه، قبلني على رأسي ثم نظر أسفل. «هل عليك ارتداء هذه البيجامة؟ أكرهك في البيجامة».

«إنها مريحة».

«إنها تبدو شيئًا يليق بأمي أن ترتديه».

«أنا لن أرتدي مشدًا كل ليلة فقط لأسعدك. ثم إنك لم تجب على سؤالي».

«لا أعرف. ربما. نعم».

«لكننا لم نتحدّث في الأمر، هل تحدَّثنا؟».

«لو، معظم الناس ينتقلون للسكن مع بعضهم البعض لأنه أمر معقول. يمكنك أن تحبي شخصًا ومع ذلك تفكّري بالفوائد المالية والعملية».

«أنا فقط لا أريدك أن تفكر بأني تسببت بحدوث هذا. لا أريدك أن تشعر كما لو أني جعلت هذا يحدث».

تنهّد وانقلب على ظهره: «لماذا على النساء دومًا التفكير بوضع ما إلى أن يصبح مشكلة؟ أحبك وتحبينني، نحن معًا منذ سبع سنوات تقريبًا ولم يكن هناك مكان في منزل والديك. الأمر بسيط للغاية بالفعل».

لكنه لم يبدُ بسيطًا.

شعرت كما لو أني أعيش حياة لم أحظ بفرصة للتطلع إليها. يوم الجمعة ذاك أمطرت طوال النهار - مطرًا دافئًا مدرارًا كما لو أننا في المناطق المدارية، ما جعل الميزاب يخرخر ويحني جذوع الشُّجيرات المزهرة كما لو تتضرّع. حدَّق ويل من النافذة مثل كلب رفض نزهة. جاء نايثن وذهب، يضع كيسًا بلاستيكيًا على رأسه. شاهد ويل وثائقيًا عن البطارق، وفي ما بعد بينما عمل على حاسوبه، شغلت نفسي، فلم يكن علينا أن نتحدّث مع بعضنا. شعرت بانزعاجنا معًا بشدة، وزاد في الأمر سوءًا تواجدنا في الغرفة نفسها طوال الوقت.

أخيرًا بدأت أفهم ما يمنحه التنظيف من عزاء. مسحت، نظّفت النوافذ، وغيّرت اللحاف. كنت في دوامة مستمرّة من النشاط. ما من غبار قد يفلت من ناظري، ما من حلقة شاي تفلت من انتباهي. كنت أزيح الجير عن حنفيات الحمام باستعمال المناديل الورقية المنقوعة بالخلِّ (تعلَّمت ذلك من أمي) عندما سمعت صوت كرسي ويل من خلفي.

«ماذا تفعلين؟».

كنت مائلة على حوض الاستحمام. لم ألتفت. «أنظف حنفياتك».

شعرت بأنه يراقبني.

قال بعد قليل: «قولي ذلك ثانية».

«ماذا؟».

«قولي ذلك ثانية».

استفهمت: «لماذا؟ أتعاني من نقص في السَّمع؟ أنظف حنفياتك».

«لا، فقط أريدك أن تصغي إلى ما تقولينه. ليس هناك سبب لتنظيف الحنفيات، كلارك. أمي لن تلاحظ ذلك، وأنا لا أهتم، وهذا يجعل للحمام رائحة سمك كريهة ومتجر بيع رقائق البطاطا المقلية. ثم إني أحب أن أخرج».

أزحت خصلة شعرٍ عن وجهي. كان صحيحًا. كانت هناك نفحة واضحة من سمك الحدُّوق الكبير في الجو.

«هيا. توقف المطر أخيرًا. لقد تحدّثت للتو مع أبي. قال إنه سيعطينا مفاتيح القلعة بعد السَّاعة الخامسة حالما يخرج السُّياح».

لم أشعر شعورًا جيدًا لفكرة أن نحظى بمحادثة مهذّبة ونحن نتنزّه في السَّاحات. لكن كانت فكرة كوني خارج الملحق جذابة.

«حسنًا أعطني خمس دقائق. أحتاج أن أتخلّص من رائحة الخل على يدي».

***

كان الفرق بين أن تكبر كما كبرت وأن تكبر كما كبر ويل أنه اكتسب شعوره بالاستحقاق رويدًا. أظن أنه إذا ترعرعت كما فعل، مع والدين ثريين، في منزل جميل، وإذا التحقت بمدارس جيدة ومطاعم جيدة كأمر بديهي، فربما يتولّد لديك الإحساس بأن الأشياء الجيدة ستحدث كما لو أن ذلك هو المسار الطبيعي للأمور، وأن مكانتك العالية مستحقةٌ سلفًا.

قال ويل إنه تسلل إلى ساحات القلعة الفارغة طوال طفولته. سمح له والده أن يتجوَّل في المكان، وتعهد إليه بألَّا يمس شيئًا. بعد الخامسة

والنصف مساء عندما عندما ذهب آخر السُّياح، عندما بدأ البساتنة يرتبون ويهندمون، وعمال النظافة أفرغوا السّلال وجمعوا علب الشَّراب الفارغة وحلوى التوفي التَّذكارية، أصبحت القلعة باحته الخاصة.

قال: «أول قبلة لفتاة كانت أمام الجسر المتحرّك»، وكان يبطء لينظر نحوه ونحن نمشي على طول الدرب المفروش بالحصى.

«هل أخبرتها أنه كان ملكًا لك؟».

«لا. ربما كان عليَّ أن أفعل. هي تخلّصت مني بعد أسبوع من أجل فتى عمل في المتجر».

استدرت ونظرت إليه مصدومة.» ليس تيري رولاندز؟ ذا الشَّعر الأسود والوشم على مرفقيه؟».

رفع حاجبيه: «هذا هو».

«هو لا يزال يعمل هناك كما تعلم في المتجر إذا كان هذا يجعلك تشعر بأي تحسُّن».

قال ويل: «أنا لست واثقًا من أنه يشعر بالحسد لما انتهيت إليه»، وتوقف عن الكلام ثانية.

كان من الغريب رؤية القلعة بهذا الشَّكل، في صمت، نحن الشخصان الوحيدان هناك بمعزل عن البستاني الوحيد في البعيد. بدلًا من التحديق بالزوار تائهين في لكناتهم وحيواتهم الغريبة، وجدت نفسي أنظر إلى القلعة للمرة الأولى ربما، بدأت أستغرق في تاريخها. انتصبت جدرانها الحجرية هناك منذ ما يزيد على ثمانمائة عام. ولد الناس وماتوا هناك. قلوب امتلأت وتحطمت. الآن في الصمت يمكنك أن تسمع أصواتهم ووقع خطواتهم على الدَّرب.

قلت: «حسنًا، حان وقت الاعتراف، هل مشيت هنا متظاهرًا في السِّر أنك كنت أميرًا محاربًا؟».

نظر ويل جانبيًا نحوي: «صدقًا؟».

«بالتأكيد».

«نعم. حتى إني ذات مرة اقترضت أحد السُّيوف عن الجدران من القاعة الكبرى. كان يزن طنًا. أتذكر أني خفت من أني لن أكون قادرًا على رفعه إلى مستقرِّه».

كنا قد وصلنا إلى منحدر التلة، ومن هنا أمام الخندق المائي نظرنا نحو الجرف الطويل من العشب نحو الجدار المدمّر الذي رسم الحدود. خلفه كانت البلدة، لافتات النيون وطوابير حركة السير، الضجيج الذي يميّز ساعة الذروة. هنا كان المكان صامتًا عدا عن تغريد الطيور والدمدمة الناعمة لكرسي ويل.

أوقف الكرسي بلا تطويل وأداره على محوره فنظرنا نحو السّاحات.

قال: «أنا متفاجئ من أننا لم نلتقِ يومًا هنا، أقصد لا بد أن دروبنا تقاطعت عندما كنت أكبر».

«لماذا علينا ذلك؟ نحن لم نتحرّك بالضبط في الدوائر نفسها. وأنا كنت الطفلة التي مررت بها في عربة الأطفال بينما كنت تلوّح بسيفك».

«آه. نسيت - أنا عتيق بكل تأكيد مقارنة بك».

قلت: «ثماني سنوات لا بد أنها أهّلتك لتكون مثل (رجلٍ مسنٍّ)، حتى عندما كنت مراهقة، والدي لم يكن ليسمح لي بالخروج مع رجل مسن».

«حتى لو كان يملك قلعته الخاصة؟».

«حسنًا، هذا قد يغيّر الأمور».

ارتفعت رائحة العشب المحببة من حولنا ونحن نمشي، عجلات ويل تهسهس عبر البرك الفارغة على الدرب. شعرت بالارتياح. لم تكن محادثتنا تمامًا كما كانت، لكن ربما كان ذلك متوقّعًا. كانت السَّيدة ترينر على حق - سيكون دومًا من الصَّعب على ويل أن يشاهد أناسًا آخرين

يتحرّكون في حيواتهم. سجّلت ملاحظة عقلية لأفكر بعناية أكبر حول كيف قد تؤثّر تحركاتي في حياته. لم أرغب بأن أكون غاضبة بعد الآن.

«لنذهب إلى المتاهة. لم أفعل منذ زمن طويل».

انسحبت من أفكاري. «أوه، لا شكرًا» رفعت بصري ولاحظت فجأة أين كنا.

«لماذا؟ هل أنتِ خائفة من الضَّياع؟ هيا كلارك سيكون تحدّيًا لك. لنرَ إذا كان في وسعك تذكّر الطريق الذي تأخذنيه ثم تسلكين الطريق المعاكس للخروج. سوف أحسب لك الوقت، اعتدت أن أفعل هذا طوال الوقت».

نظرت نحو المنزل: «أفضل ألا أفعل». حتى الفكرة انعقدت في معدتي.

«آه عدم المخاطرة ثانية».

«ليس هذا هو الأمر».

«لا مشكلة. سوف ننهي نزهتنا الصَّغيرة المملة ونعود إلى الملحق الصغير الممل».

عرفت أنه كان يمزح. لكنَّ شيئًا في نبرته نال مني حقًّا. فكرت بوالديَّ، أختي وحياتها الجديدة الكبيرة. كانت حياتي لتكون الحياة الصغيرة، بطموحات تافهة. نظرت نحو المتاهة، إلى سياجها المظلم الثخين، كنت سخيفة. ربما كنت أتصرّف بسخافة لسنوات. كان كل شيء قد انتهى في النهاية. وكنت أتقدّم.

«فقط تذكّري أي انعطافة تسلكين ثم اعكسيها لتخرجي. ليس صعبًا كما يبدو حقًّا».

تركته على الممر قبل أن أتمكن من التفكير في الأمر. أخذت نفسًا، ودخلت مرورًا باللافتة التي تحذّر من اصطحاب الأطفال، أهرول بخفة بين الأسيجة الرطبة المظلمة التي لا تزال تتلألأ بقطرات المطر.

ليس سيّئًا جدًّا، ليس سيئًا جدًّا، وجدت نفسي أتمتم. إنها فقط مجموعة من أسيجة قديمة. انعطفت إلى اليمين، ثم إلى اليسار عبر فجوة في السِّياج. انعطفت إلى اليمين ثانية، إلى اليسار، وبينما أنا ذاهبة مرنت رأسي على عكس الحركة. يمين. يسار. فجوة. يمين. يسار.

بدأ نبض قلبي يرتفع قليلًا، فتمكَّنت من سماع ضخ الدم في أذني. أرغمت نفسي على التفكير بويل على الجانب الآخر من السِّياج، وهو ينظر إلى ساعته. كان اختبارًا سخيفًا. لم أعد تلك الشَّابة السَّاذجة. كنت في السَّابعة والعشرين من عمري. أعيش مع صديقي. لدي عمل موثوق، كنت شخصًا مختلفًا. التفتّ ومضيت مباشرة والتفتّ ثانية.

من ثم تصاعد الذُّعر في داخلي من دون سبب تقريبًا مثل غضب. اعتقدت بأني رأيت رجلًا يندفع من نهاية السِّياج. مع ذلك قلت لنفسي إنه كان خيالي وحسب، فعل طمأنة نفسي جعلني أنسى تعليماتي المعكوسة. يمين يسار فجوة يمين يمين؟ هل هو الطريق الخطأ؟ شعرت بغصّة في حلقي. أرغمت نفسي على التقدم فقط لأدرك أني ضيّعت تمامًا اتجاهاتي. توقّفت ونظرت من حولي باتجاه الظلال أحاول أن أعرف في أي اتجاه كان الغرب.

وأنا واقفة هناك خطر لي أني لا أستطيع فعلها. لم أتمكَّن من البقاء هناك. ذرعت المكان أمشي في ما اعتقدت أنه اتجاه جنوبي. قد أخرج. كنت في عمر السَّابعة والعشرين. كان ممتازًا. لكن حينها سمعت أصواتهم، صيحات الاستهجان، الضحك السَّاخر، رأيتهم يخرجون ويدخلون من الفجوات في السِّياج، شعرت بقدميَّ تتأرجحان بثمالة تحت كعبي العالي، شوك السِّياج القاسي عندما سقطت عليه أحاول أن أثبت نفسي.

قلت لهم بصوت غير واضح وغير ثابتٍ: «أريد الخروج الآن. لقد اكتفيت يا شباب».

واختفوا جميعًا. كان الصَّمت يخيّم على المتاهة، فقط همسات بعيدة،

ربما كانوا على الجانب الآخر من السِّياج أو أن الريح تزحزح الأوراق.

قلت: «أريد الخروج الآن»، وبدا صوتي غير واثق حتى بالنسبة لي. كنت قد نظرت إلى السَّماء، مختلة التوازن بالفضاء الأسود الفسيح المرصَّع الذي يعلوني. ثم قفزت عندما أمسك بي شخص داكن الشَّعر من خصري، الشخص الذي كان في أفريقيا.

قال: «لا يسعك الخروج بعد، سوف تفسدين اللعبة».

كنت قد عرفت حينها، فقط من ملمس يديه على خصري. كنت قد أدركت أن بعض التوازن قد انزاح، وأن القمع في السلوك كان قد بدأ يتبخّر قليلًا. وضحكت، دفعت يديه كما لو أنها كانت مزحة، غير راغبة أن أدعه يعرف أني أعرف، سمعته يصيح لأصدقائه. وتفلَّتُّ منه وعدوت فجأة أحاول أن أشقّ طريقي نحو المخرج، قدماي تغرقان في العشب الندي. سمعتهم جميعًا من حولي، أصواتهم المرتفعة، أجسادهم غير المرئية، وشعرت بحلقي ينقبض ذعرًا. كنت مشوَّشة للغاية فلم أعرف مكاني. ظلّت الأسيجة الطويلة تتأرجح، وتنطرح نحوي. واصلت المضي أشق طريقي حول الزوايا، أتعثر وأنحني في الفرجات، أحاول أن أتخلّص من أصواتهم. لكن المخرج لم يأتِ أبدًا. أينما التفتّ لم يكن هناك سوى امتداد آخر للسياج وصوت آخر ساخر.

تعثرت في فرجة، مبتهجة لأني كنت أقترب من الحرية. لكن حينها رأيت أني كنت في وسط المتاهة ثانية من حيث بدأت. تمايلت عندما رأيتهم جميعًا واقفين هناك كما لو أنهم كانوا ينتظرونني ببساطة.

قال أحدهم عندما أمسك بذراعي: «هيا امضِ. قلت لكم كانت قادرة على ذلك، هيا لولو أعطني قبلة، وسأريك طريق الخروج». كان صوته ناعمًا ومتشدّقًا.

«أعطنا جميعًا قبلة وسنريك طريق الخروج».

كانت وجوههم مضبَّبة.

«أنا فقط أريد منك أن...».

«هيا لو أنت معجبة بي، ألستِ كذلك؟ كنت طوال المساء جالسة في حضني، قبلة واحدة هل هذا صعب كثيرًا؟».

سمعت ضحكة مكبوتة.

«وسوف تريني طريق الخروج؟»، بدا صوتي مثيرًا للشفقة حتى بالنسبة إليَّ.

«فقط واحدة». واقترب أكثر.

شعرت بفمه على فمي، يد تعصر فخذي. ابتعد وسمعت حركة تنفسه تتغيّر.

«والآن دور جاك».

لا أعرف ما قلت حينها. شخص ما أمسك بذراعي، سمعت الضَّحك، شعرت بيد في شعري وفم آخر على فمي، ملحٌّ ومقتحم ثم...

«ويل...».

كنت أنشج الآن جاثمة على نفسي. «ويل...»، كنت أردّد اسمه مرارًا وتكرارًا بصوت ممزقٍ يخرج من مكان ما في صدري. سمعته من مكان بعيد خلف السياج.

«لويزا؟ لويزا أين أنت؟ ما المشكلة؟».

كنت في الزاوية تحت السِّياج قدر مستطاعي. الدموع غشت عينيّ، ذراعاي التفّا بشدة من حولي، لم أتمكن من الخروج، كنت لأبقى عالقة هنا إلى الأبد وسوف لن يجدنيَ أحد.

«ويل...».

«أين أنت...».

وكان هناك أمامي.

قلت وأنا أرفع بصري ووجهي ملوي من الألم: «أنا آسفة، أنا آسفة لا أستطيع فعلها».

رفع ذراعه مسافة إنشين – أقصى ما يستطيعه. «أوه يا إلهي، ما الأمر، تعالي كلارك». تقدّم ثم نظر إلى ذراعه في خيبة. «شيء عديم الفائدة... لا بأس. فقط تنفّسي، تعالي إلى هنا، فقط تنفسي ببطء».

مسحت عينيّ. بدأ يخمد الذعر لمرآه. نهضت مترنّحة وحاولت أن أسوّي وجهي. «أنا آسفة، لا أعرف ما حدث».

«هل تعانين من رهاب الأماكن المغلقة؟». كان وجهه على بعد إنشات من وجهي مجدولًا بالقلق. «رأيت أنك لا تريدين الدخول، أنا فقط اعتقدت أنك كنت...».

أغمضت عيني: «أريد الذهاب الآن».

«أمسكي بيدي. سنخرج».

أخرجني من هناك خلال دقائق. عرف طريق العودة في المتاهة، صوته هادئ مطمئن. قال لي ونحن نمشي أنه كان تحدّيًا له كصبي ليتعلّم طريق الخروج منها. شبكت أصابعي مع أصابعه وشعرت بدفء يده كشيء معزٍّ. شعرت بالحماقة عندما أدركت كم كنت قريبة من المدخل.

توقفنا عند مقعد في الخارج تمامًا، وبحثت خلف كرسيه عن منديل. جلسنا هناك في صمت أنا على طرف المقعد بجانبه ننتظر أن يهدأ لهاثي. وهو ينظر نحوي برفق بطرف عينيه. قال أخيرًا عندما بدا أنني أستطيع التكلّم من دون أن أنهار ثانية: «إذًا...؟ هل تريدين أن تخبريني ماذا يجري؟».

طويت منديلي في يدي: «لا أستطيع».

أطبق فمه.

ازدردت ريقي وقلت بسرعة: «إنه أمر لا يخصك، لم أتحدّث إلى شخص عن... إنه حماقة. ومنذ وقت طويل لم أظن أن علي...».

شعرت بعينيه عليّ وتمنّيت لو أنه لا ينظر. يداي لن تتوقفا عن الارتعاش، ومعدتي بدت كما لو أنها كانت مصنوعة من مليون عقدة.

هززت رأسي أحاول أن أقول له إن هناك أمورًا لا أستطيع قولها. أردت أن أمسك بيده ثانية لكني لم أشعر بأني أستطيع. كنت واعية لنظرته واستطعت أن أسمع أسئلة غير منطوقة. توقفت تحتنا سيارتان قرب البوابات. خرج شخصان، من هنا كان يستحيل أن تحدد من هما - وتعانقا. وقفا هناك لبضع دقائق ربما يتحدّثان ثم عادا إلى سيارتهما وانطلقا في الاتجاه المعاكس. راقبتهما لكني لم أستطع أن أفكر. بدا عقلي متجمّدًا، لم أعرف ماذا أقول عن أي شيء.

قال أخيرًا: «حسنًا هذا هو الأمر، سأخبرك شيئًا لم أخبره لأي شخص. لا بأس؟». والتفتُّ لكنه لم يكن ينظر إليّ وقلت:

«لا بأس». كوّرت المنديل الورقي في يدي أنتظر. أخذ نفسًا عميقًا.

«لقد شعرت بالخوف حقًّا، مما سيحدث». وترك هذا يعلق في الهواء بيننا، ثم واصل في صوت خفيض هادئ: «أعرف أن معظم الناس يظنّون أن العيش مثلي هو تقريبًا أسوأ ما يمكن أن يحدث. لكن ممكن أن يزداد سوءًا. يمكن أن أنتهي عاجزًا عن التنفّس بنفسي، وغير قادر على الكلام. يمكن أن أعاني من مشكلات تتعلّق بالدورة الدَّموية مما يستوجب بتر أطرافي. يمكن أن أنقل إلى المستشفى لأجل غير مسمًّى. هذه ليست حياة، يا كلارك. لكن عندما أفكّر بكم من الممكن أن يزداد الأمر سوءًا أتمدد لیالي في سريري ولا أستطيع التَّنفس». ازدرد ريقه: «وهل تعرفين ماذا؟ لا أحد يريد أن يسمع ذلك. لا أحد يريد أن يتحدّث عن كوني خائفًا أو متألمًا أو جزعًا من الموت بسبب عدوى حمقاء عارضة. لا أحد يريد أن يعرف كيف يبدو أن تعرف بأنك لن تمارس الجنس ثانية، ولن تتناول طعامًا صنعته بيديك، ولن تحمل طفلك. لا أحد يريد أن يعرف أنني أحيانًا أشعر برهاب الأماكن المغلقة، لكوني في هذا الكرسي، أنا أريد أن أصرخ

مثل مجنون لفكرة إمضاء يوم آخر فيه. أمّي لديها بارقة أمل ولا تستطيع أن تغفر لأني ما زلت أحب والدي. أختي تنقم عليَّ لأني تفوّقت عليها من جديد - وبسبب إصابتي لا تستطيع أن تكرهني، كما كانت تفعل منذ أن كنا طفلين. والدي يريد أن ينتهي كل هذا!. في النهاية هم يريدون أن ينظروا إلى الجانب المشرق. هم بحاجة إلى أن أنظر إلى الجانب المشرق». توقَّف. «هم يحتاجون أن يصدقوا بوجود جانب مشرق».

طرفت في الظلمة وقلت بهدوء: «هل أفعل ذلك؟».

«أنت كلارك»، نظر إلى يديه، «الشخص الوحيد الذي شعرت بأني قادر على التَّحدّث إليه منذ أن انتهيت في هذا الشيء اللعين».

وهكذا أخبرته.

تناولت يده، نفس اليد التي أخرجتني من المتاهة، ونظرت مباشرة نحو قدميَّ وأخذت نفسًا وأخبرته عن الليلة برمتها، وكيف سخروا مني وجعلوا مني أضحوكة وكيف كنت ثملة ومخمورة وكيف أغمي عليَّ. ولاحقًا قالت أختي إنه قد يكون من الجيد نسيان كل ما فعلوه، لكن كيف طاردتني نصف السَّاعة تلك من الجهل منذ ذلك الحين. ملأتها كما ترى. بضحكهم، بأجسادهم، وكلماتهم. بخزيي. قلت له كيف رأيت وجوههم كل مرة غادرت فيها البلدة، وكيف أصبح باتريك وأمي وأبي وحياتي الصغيرة جيدين من أجلي، مع كل مشكلاتهم ومحدوديتهم. جعلوني أشعر بالأمان.

مع انتهائنا من التحدّث بدأت السَّماء تظلم، وكان هناك أربع عشرة رسالة على هاتفي النقال تسأل عن مكاننا.

قال بهدوء: «أنت لست بحاجة أن أقول لك إنه لم يكن خطأك».

كانت السماء فوقنا قد أصبحت لا متناهية ومطلقة. طويت المنديل في يدي. «نعم حسنًا أنا لا أزال أشعر بالمسؤولية. أنا ثملت كثيرًا لأتباهى. كنت عابثة رهيبة. كنت..».

«ليس خطأكِ. هم المسؤولون».

لم يسبقَ أن قال أحد تلك الكلمات جهارًا لي. حتى نظرة ترينا المشفقة كانت تحمل في طيّاتها بعض الاتهام المكتوم. حسنًا، إذا ثملت وكنت سخيفة مع الرجال لا تعرفين...

عصرت أصابُعه أصابعي. حركة خفيفة لكنها كَانت.

«لويزا، لم تخطئي».

بكيت حينها. ليس نشيجًا هذه المرّة. انهمرت الدموع مني بصمت، وقالت لي شيئًا آخر كان يغادرني. ذنب، خوف، أشياء أخرى لم أعرف كيف أسمّيها. أحنيت رأسي برفق على كتفه وأمال رأسه إلى أن استراح على رأسي.

«صحيح، هل تصغين إلي؟».

تمتمت بنعم.

قال: «إذًا سأخبرك بشيء جيّد»، ثم انتظر كما لو أنه أراد أن يتيقن من أنه يحظى بانتباهي. «لبعض الأخطاء... نتائج أعظم من الأخرى. لكن ليس عليك أن تسمحي لتلك الليلة أن تكون الشيء الذي يميّزك».

شعرت برأسه لا يزال يضغط على رأسي.

«أنت، كلارك تملكين خيار ألّا تدعي ذلك يحدث».

التنهيدة التي ندَّت عني كانت طويلة وراجفة. جلسنا هناك في صمت، تاركين الكلمات تغرق. كان في وسعي أن أبقى هناك طوال الليل، فوق بقية العالم، دفء يد ويل في يدي، أشعر بأن أسوأ ما فيَّ بدأ ينحسر ببطء.

قال أخيرًا: «من الأفضل أن نعود قبل أن يتَّصلوا بفرقة بحث».

حررت يده ووقفت على مضض بعض الشَّيء، أشعر بالنَّسائم العليلة على جلدي. ثم تقريبًا بترف مددت ذراعيَّ عاليًا فوق رأسي. وتركت

أصابعي تستقيم في هواء المساء، تراخى توتر أسابيع وأشهر وربما سنوات قليلًا وأطلقت نفسًا عميقًا.

ومضت تحتي أضواء البلدة، حلقة من ضوء وسط الريف الأسود تحتنا.

نظرت نحوه: «ويل؟».

«نعم؟».

بالكاد كان في وسعي رؤيته في الضوء الشَّاحب لكني عرفت أنه كان يراقبني: «شكرًا لك على القدوم لإخراجي».

هزَّ رأسه وأدار كرسيه نحو الدرب.

18

«عالم ديزني جيّد».

«قلت لك، لا أريد مدن ملاهٍ».

«أعلم أنك قلتِ ذلك، لكن إنها ليست مجرد أفعوانيات وفناجين شاي دوّارة. في فلوريدا لديك الاستديوات السِّينمائية والمركز العلمي. إنها بالفعل تعليمية تمامًا».

«لا أظن أن مدير شركة سابق بعمر الخامسة والثلاثين بحاجة إلى التعلّم».

«هناك دورات مياه للمقعدين في كل زاوية. ومجموعة الموظفين مهتمة بشكل لا يصدق. لا شيء يسبّب الكثير من الإزعاج».

«ستقول إن هناك نزهات خاصة بالمعوّقين، أليس كذلك؟».

«إنها تلائم الجميع. لماذا لا تجربين فلوريدا، يا آنسة كلارك؟ إذا لم تعجبك يمكنك الذهاب إلى عالم البحر. والطّقس جميل».

«بين ويل والحوت المفترس أظن بأني أعلم من له أن يكون الأسوأ».

لم يبدُ عليه أنه سمعني.

«وهي واحدة من أهم الشّركات للتعامل مع الإعاقة. هل تعلمين أنهم يقومون بالكثير من الأشياء «مؤسسة تمنّى أمنية» من أجل المحتضرين؟».

«إنه لا يحتضر». أنهيت الاتصال مع وكيل السَّفر عند دخول ويل. تلمَّست السَّماعة أحاول أن أعيدها إلى مكانها، وأغلقت مفكّرتي سريعًا.

«هل كل شيء على ما يرام، كلارك؟».

ابتسمت بابتهاج: «على أحسن ما يرام».

«جيّد. حصلت على فستان جميل؟».

«ماذا؟».

«ماذا تفعلين يوم السَّبت؟».

كان ينتظر مترقّبًا. كان دماغي لا يزال مرابطًا عند الحوت المفترس ضد وكيل سفر.

«لا شيء. باتريك لديه يوم كامل من التدريب. لماذا؟».

انتظر بضع ثوانٍ فقط قبل أن يقول، كما لو أن ذلك منحه بالفعل بعض المتعة كي يفاجئني.

«سنذهب إلى حفل زفاف».

***

في ما بعد، لم أكن يومًا واثقة تمامًا من السبب الذي دعا ويل لتغيير رأيه بشأن زفاف روبرت وأليسيا. ظننت أن هناك ربما جرعة كبيرة من معارضة طبيعية في قراره - لم يتوقَّع أحد منه أن يذهب، أظن أقلَّهم أليسيا وروبرت شخصيًا. ربما كان على وشك أن ينتهي أخيرًا. لكني أظن أنها في الشهرين الأخيرين كانت قد فقدت القدرة على جرحه.

رأينا أننا نستطيع الذَّهاب من دون مساعدة نايثن. اتَّصلت لأتأكد من أن الخيمة كانت مناسبة لكرسي ويل، وبدت أليسيا مربكة للغاية عندما أدركت أننا لم نرفض الدعوة حتى إنه خطر لي أن خطابها المزدان بالنقوش كان في سبيل المظاهر حقًّا.

«حسنًا... هناك درجة صغيرة جدًّا للدخول إلى الخيمة، لكني أخال أن الأشخاص الذين ينصبونها قالوا إن في وسعهم تأمين منحدر...»، توقّفت.

قلت: «ذلك سيكون لطيفًا، إذًا. شكرًا لك. نراك يوم الزّفاف».

اخترنا هدية الزفاف عن طريق شبكة الإنترنت. أنفق ويل مبلغ 120 جنيهًا استرلينيًّا ثمنًا لإطار صورة فضّي، ومزهرية قال إنها كانت «وضيعة لا محالة» مقابل 60 جنيهًا استرلينيًّا. صدمت من أنه يمكن ينفق هذا الكم من النقود على شيء لم يعجبه حتى، لكنّي عرفت خلال أسابيع من وظيفتي عند آل ترينر أنهم يفكرون بالنقود على نحو مختلف عن طريقتي في التفكير.

قررت ارتداء فستاني الأحمر، من ناحية لأني عرفت أنه نال إعجاب ويل (وفهمت اليوم أنه سيكون بحاجة إلى كل الدعم الثانوي الذي يمكنه الحصول عليه) - لكن أيضًا لأني لا أملك حقًّا فساتين أخرى شعرت بالشّجاعة الكافية لارتدائها في مثل هذا الحفل. لم يكن ويل يعرف شيئًا عن الخوف الذي ساورني لفكرة الذّهاب إلى زفاف للطبقة الراقية، ناهيك عن كوني «الجليسة». كل مرة فكرت بالأصوات المزعجة، والنظرات التخمينية باتجاهنا، أردت أن أمضي اليوم في مراقبة باتريك يركض في حلقات بدلًا من ذلك. ربما كانت ضحالة مني أن أهتم، لكنّي لم أتمكن من تجاوز ذلك. كانت فكرة أن هؤلاء الضيوف ينظرون إلينا تحكم وثاق معدتي الآن.

لم أقل شيئًا لويل، لكنني كنت خائفة عليه. بدا الذهاب إلى زفاف حبيبة سابقة تصرّفًا متلذّذًا بالألـم في أفضل الأوقات، لكن الذّهاب إلى تجمّع عام، قد يكون مليئًا بأصدقائه القدامى وزملاء العمل، أن يشاهدها تتزوج من صديقه السّابق، بدا لي طريقًا موثوقًا نحو الاكتئاب. حاولت تقديم اقتراحات كثيرة في اليوم السّابق لموعدنا لكنه رفض بخشونة.

قال: «إذا كنت أنا لست قلقًا بهذا الشَّأن، كلارك، لا أظن أن عليك أن تقلقي».

اتصلت بترينا وأخبرتها.

كان كل ما قالته: «تحقّقي من كرسيه من أجل الجمرة الخبيثة والذَّخيرة الحربية».

«إنها المرة الأولى التي آخذه فيها إلى مكان بعيد عن البيت وسوف تكون كارثة لعينة».

«ربما هو يريد أن يذكِّر نفسه أن هناك أمورًا أسوأ من الموت؟».

«مضحك».

«حسنًا. استمتعي. أوه، ولا ترتدي ذلك الفستان الأحمر. إن صدره مكشوف كثيرًا».

***

انبلج صباح الزفاف مشرقًا ومنعشًا، كما علمت سرًّا أنه سيكون. فتيات مثل أليسيا ينجحن دومًا.

قال ويل عندما أخبرته: «هذه مرارة لافتة منك، كلارك».

«نعم، حسنًا، تتلمذت على يد الأفضل».

جاء نايثن باكرًا ليجهز ويل بحيث يمكننا مغادرة المنزل عند السَّاعة التاسعة. كان عليّ القيادة لمدة ساعتين، بما في ذلك أوقات الاستراحة، خططت طريقنا بعناية لنضمن توفير أفضل التَّسهيلات الممكنة. جهّزت نفسي في الحمام، وارتديت الجوارب على ساقي الحليقتين حديثًا، ووضعت الماكياج ثم مسحته ثانية خوفًا من أن يعتقد الزوار المترفون أني أبدو مثل مومس. لم أجرؤ على وضع وشاح حول عنقي، لكني جلبت شالًا يمكنني استعماله كغطاء إذا شعرت بأني عرضة للنظر.

«ليس سيئًا، ها؟». تراجع نايثن وكان هناك ويل في بدلة سوداء،

وقميص بلون زهرة الذُّرة الأزرق، وربطة عنق. كان حليقًا، وسمرة خفيفة على وجهه. جعل القميص عينيه تبدوان حيويتين بطريقة غريبة. بدا فجأة أن فيهما وميض الشَّمس.

قلت: «ليس سيِّئًا»، لأني على نحو غريب لم أرغب أن أقول كم بدا وسيمًا: «ستكون آسفة بالتـأكيد لأنها تتزوج من دلو شحم الخنزير النَّاهق، بأيِّ حال».

رفع ويل عينيه نحو السَّماء: «نايثن، هل كل شيء في الحقيبة؟».

«نعم. كل شيء جاهز»، التفت نحو ويل: «ما من تقبيل للوصيفات!!».

قلت: «كما لو أنه يريد ذلك. ستكون أطواق الكلاب حول أعناقهن وتفوح منهن رائحة الخيل».

خرج والدا ويل لوداعه. شككت أنهما كانا قد تشاجرا للتو، حيث وقفت السيدة ترينر أبعد ما يكون عن زوجها كما لو أنهما موجودان بالفعل في مقاطعتين منفصلتين. أبقت ذراعيها متصالبتين بحزم. حتى عندما أعدت السَّيارة إلى الخلف من أجل أن يركب ويل، لم تنظر إليَّ.

قالت وهي تنفض نُسالة خيط متخيَّلة عن كتف ويل: «لا تدعيه يثمل كثيرًا، لويزا».

قال ويل: «لماذا؟ لست أنا مَنْ يقود».

قال والده: «أنت على حق، ويل، أنا لطالما احتجت إلى كأس أو اثنتين من الشَّراب لأحضر حفل زفاف».

تمتمت السَّيدة ترينر: «حتى زفافك»، مضيفة على نحو مسموع أكثر: «تبدو جميلًا جدًّا، عزيزي»، انحنت تسوِّي حاشية بنطال ويل: «أنت حقًّا، جميل جدًّا».

«وأنتِ كذلك»، قال السَّيد ترينر وهو ينظر إليَّ باستحسان وأنا أخرج من مقعد السائق. «ملفتة للنظر كثيرًا. دوري من أجلنا لويزا».

دار ويل في كرسيه: «ليس لديها الوقت، أبي. لنمض كلارك. أنا أظن أنه شكل سيّئ أن تدفع نفسك في كرسي خلف العروس».

عدت إلى السَّيارة بانشراح. وكرسي ويل مؤمّن في الخلف، وسترته الجميلة معلّقة بإتقان فوق مقعد المسافر كي لا تتجعد، انطلقنا.

***

كنت لأصف لك منزل والدَيْ أليسيا حتى قبل أن نصل إليه. في الواقع، استطعت تخيله إلى حدٍّ بعيدٍ، حتى إن ويل سألني لماذا كنت أضحك عندما أبطأت السَّيارة. بيت كاهن كبير جورجي، نوافذه جميعًا محجوبة جزئيًا بأغصان الويستريا الشَّاحبة، دربه مفروش بحصى بحجم حبة البازلاء بلون الكراميل، كان المنزل المثالي لكولونيل. يمكنني تصورها وهي تترعرع فيه، شعرها مضفور في ضفيرتين شقراوين أنيقتين وهي تمتطي منفرجة السَّاقين مهرها السَّمين الأول على المرج.

كان رجلان يرتديان سترة الفارس الفضيّة اللامعة يوجّهان حركة السَّير نحو ساحة تقع بين المنزل والكنيسة التي تقع بالقرب منه. أنزلت النافذة.

«هل هناك موقف للسَّيارات بجانب الكنيسة؟».

«الزُّوار من هذا الطَّريق، سيدتي».

قلت: «لكنْ لدينا كرسي متحرك، وسوف يغوص في العشب هنا، نحتاج أن نكون بجانب الكنيسة تمامًا. سأذهب إلى هناك بالضبط».

تبادل الرجلان النظرات، وتمتما بشيء في ما بينهما. قبل أن يتمكّنا من قول أي شيء آخر، قدت لأركن في البقعة المنعزلة بجانب الكنيسة. ها قد بدأنا، قلت لنفسي، وأنا أنظر في عيني ويل في المرآة عندما أطفأت المحرك.

قال: «لا تقلقي، كلارك. كل شيء سيكون على خير ما يرام».

«أنا مسترخية تمامًا. لماذا قد تظن أني لست كذلك؟».

«أنت شفافة على نحو سخيف. زيدي على ذلك أنك قضمت أربعة من أظافرك وأنت تقودين».

«إذًا... كيف ستتصرف اليوم؟».

ويل تبع خط رؤيتي: «صدقًا؟».

«نعم. أريد أن أعرف. ومن فضلك لا تقل «السَّيطرة السَّريعة»، هل تخطط لأمر رهيب؟».

تقاطعت نظراتنا. حزينة، متعذَّر فهمها. حطَّت غمامة صغيرة من الفراشات في معدتي.

«سوف نحسن التَّصرف بشكل لا يصدَّق، كلارك».

بدأت أجنحة الفراشات تخبط بعنف، كما لو أنها احتجزت في قفصي الصَّدري. شرعت بالكلام غير أنه قاطعني.

قال: «انظري، سوف نفعل فقط كل ما يجب لنجعله مسليًّا».

تسلية. كما لو أن الذَّهاب إلى زفاف حبيبة سابقة يمكن أن يكون أقل إيلامًا من جراحة تهيئة القناة الجذرية. لكن كان خيار ويل. يوم ويل. أخذت نفسًا، أحاول أن أستعيد رباطة جأشي.

قلت وأنا أسوي الدِّثار حول كتفي للمرة الرابعة عشرة: «استثناء واحد».

«ماذا؟».

«سوف لن تقلّد كريستي براون. إذا فعلت ذلك سوف أعود إلى البيت وأتركك عالقًا هنا مع هذه الناس المتحذلقة العجيبة».

عندما التفت ويل وبدأ يشق طريقه نحو الكنيسة، اعتقدت بأني سمعته يهمهم: «مفسدة للملذّات».

جلسنا خلال الاحتفال من دون مشكلات. بدت أليسيا جميلة بسخف كما عرفت أنها قد تكون، بشرتها مطلية بلون الكراميل الشَّاحب، الحرير الأبيض الموروب القَصَّة ينزلق عن بدنها النحيل كما لو أنه لم يجرؤ على

البقاء هناك من دون إذن. تطلّعت فيها عندما مشت برشاقة في الممر، أتساءل كيف يكون الشُّعور أن تكون ممشوقة القوام طويلة السَّاقين وتبدو مثل شيء معظمنا لم يره سوى في الملصقات الملونة. تساءلت إذا كانت ترتدي مشدًّا. بالتأكيد لا. ربما كانت لترتدي كتلة صغيرة شاحبة من شيء مخرّم - سروال داخلي للنساء اللواتي لا ضرورة لتسنيد أي شيء عندهن، ويكلّف ثمنه أكثر من أجر أسبوع.

بينما تحدَّث الكاهن بنبرة رتيبة، وتلخبطت وصيفات الشَّرف الصغيرات بأحذية الباليه في مقاع دهنّ، نظرت من حولي نحو الضُّيوف الآخرين. كان هناك بالكاد امرأة لم تبدُ كما لو أنها تتحضّر لصورة قد تظهر على صفحات مجلة صقيلة. بدت أحذيتهن، التي كانت ملائمة للون ملابسهن، كما لو أنهن لم ينتعلنها من قبل.

وقفت الشَّابات من بينهن بأناقة في كعوب بارتفاع أربعة أو خمسة Y نشات، وبأظافر أقدام مطلية بإتقان. النساء الأكبر سنًا، كنَّ بكعوب واطئة، وقد ارتدين بدلات مُخاطة من قماش سميك بأكتاف محشوة وبطانات من الحرير بألوان مضادة، وقبعات بدت كما لو أنهن يتحدّين بها الجاذبية.

كان الرجال أقل إثارة للاهتمام، لكن كان يحيط بهم جميعًا تقريبًا الجو نفسه من البحبوحة والاستحقاق الذي كنت ألحظه أحيانًا عند ويل - إحساس أن الحياة تسير من حولهم على نحو متناغم. تساءلت عن الشَّركات التي يديرونها، والعوالم التي سكنوها. تساءلت إذا كانوا قد لاحظوا أناسًا مثلي، أولئك الذين ربّوا أطفالهم، أو خدموهم في المطاعم. أو رقصوا لزملائهم في العمل رقصات مثيرة. فكّرت متذكّرة مقابلاتي في مركز العمل.

كانت عائلتنا كل من العروس والعريس في حفلات الزفاف التي ذهبت إليها عادة منفصلة خوفًا من أن ينقض شخص شروط ميثاقهم.

ثم انتهى. كان ويل الآن يشقّ طريقه نحو مخرج الكنيسة. شاهدت

رأسه من الخلف، منتصبًا ووقورًا بصورة غريبة، وأردت أن اسأله إذا كان مجيئنا خاطئًا. أردت أن اسأله إذا كان لا يزال يكنُّ لها المشاعر. أردت أن أقول لها إنه كان جيدًا للغاية بالنسبة لتلك المرأة الكراميل السَّخيفة، لا يهم ما قد توحي به المظاهر وأنه... لم أعرف ماذا أريد أن أقول له أيضًا. فقط أردت أن أجعله أفضل.

قلت وأنا ألحق به: «هل أنت بخير؟».

لا بد أنه كان هو مع آخر الخارجين.

طرف عدة مرات قال: «بخير». وأطلق زفيرًا صغيرًا، كما لو أنه كان يحبسه. ثم نظر إلي.

«هيا، لنذهب ونشرب شرابًا».

كانت الخيمة منصوبة في حديقة مسوَّرة، بوابتها المصنوعة من الحديد المطوّع متشابكة مع أكاليل من الزهور الوردية الشاحبة اللون. كان البار الموضوع عند الطرف القصيّ، مزدحمًا سلفًا، لذا اقترحت أن ينتظر ويل في الخارج وذهبت وجلبت له شرابًا. ترنَّحت في طريقي عبر الطاولات المتَّشحة بمفارش من قماش اللينين الأبيض ومثقلة بكثير من الأواني الزجاجية وأدوات المائدة كما لم يسبق أن رأيت في حياتي. كانت مساند الكراسي مطلية بالذَّهب، مثل تلك التي تراها في عروض الأزياء، وفوانيس بيضاء تدلّت فوق كل زينة مائدة مؤلفة من زهور الفريزيا والسَّوسن. كان الهواء مثقلًا برائحة الورد، إلى حد أني وجدته تقريبًا خانقًا.

قال السَّاقي عندما وصلت إليه: «بيمز؟».

«أمم...». نظرت من حولي، وأنا أرى أن هذا كان بالفعل المشروب الوحيد المتوفّر. «أوه. حسنًا. اثنان، من فضلك».

ابتسم لي: «المشاريب الأخرى تأتي لاحقًا. لكن الآنسة ديوار أرادت أن يبدأ الجميع بمشروب البيمز». كانت النظرة التي رمقني بها تآمرية بعض الشَّيء. أخبرني بحاجبه المرفوع قليلًا عما فكّر بهذا الشَّأن.

حذَّقت بمشروب الليمونادة الوردي. قال والدي إن أغنى الناس دومًا هم الأكثر تماسكًا، لكنني كنت مندهشة من أنهم لم يبدأوا حتى حفل زفاف بشرب الكحول.

قلت: «أظن بأن هذا ما عليّ فعله إذّان»، وأخذت منه الكأسين.

عندما وجدت ويل، كان هناك رجل يتحدث إليه. شاب، يرتدي نظارة، كان يجلس القرفصاء تقريبًا، يضع إحدى ذراعيه على ذراع كرسي ويل. كانت الشَّمس الآن في كبد السَّماء، وتوجب عليّ أن أحرف نظري لأراهما جيدًا. عرفت فجأة فائدة تلك القبَّعات عريضة الحافة كلها.

كان يقول: «سعيد جدًا لرؤيتك ثانية ويل، المكتب ليس نفسه من دونك. لا ينبغي عليّ أن أقول ذلك... لكنه ليس نفسه. هو ليس كذلك».

بدا مثل محاسب شاب - نوع من الرجال الذين لا يرتاحون إلّا بارتداء بدلة.

«لطف منك أن تقول ذلك».

«كان ذلك غريبًا جدًّا. كما لو أنك تسقط من جرف صخري. ذات يوم كنت هناك تدير كل شيء وفي اليوم التالي كان يفترض بنا أن...».

رفع بصره عندما لاحظني واقفة هناك قال: «أوه»، وشعرت بأن عينيه استقرّتا على صدري. «مرحبًا».

«لويزا كلارك، أعرفك على فريدي ديروانت».

وضعت كأس ويل في حاملها وصافحت الشَّاب. سوَّى خط نظره. «أوه»، قال ثانية. «و...».

قلت: «أنا صديقة ويل»، ثم تركت يدي تستقر على كتف ويل ولست واثقة تمامًا لماذا.

قال فريدي ديروانت: «إذًا الحياة ليست سيئة تمامًا»، مطلقًا ضحكة كانت أشبه بكحّة. تورّد قليلًا وهو يتحدّث: «بأي حال... يجب أن نختلط.

أنت تعرف تلك الأمور - في ما يبدو، نحن علينا أن نراه مثل فرصة لإدامة العلاقات. لكنْ جيد أن نراك، ويل. حقًا. و... وأنت، يا آنسة كلارك».

قلت ونحن نبتعد: «بدا لطيفًا». رفعت يدي عن كتف ويل وارتشفت رشفة طويلة من الشَّراب. كان ألذ مما بدا عليه. كنت متخوفة قليلًا من وجود الخيار فيه.

«نعم. نعم، هو ولد لطيف».

«ليس أحمق للغاية، إذًا».

«لا». ومضت عينا ويل لتتلقفا عيني. «لا، كلارك، إنه ليس أحمق للغاية».

كما لو أنهم تحرّروا بمرأى فريدي ديروانت وهو يفعل هذا، خلال السَّاعات العديدة التالية اقترب عدة أشخاص من ويل ليسلموا عليه. وقف البعض بعيدًا قليلًا عنه، كما لو أن هذا أحلَّهم من ورطة المصافحة، بينما رفع آخرون ركبة بنطالهم وقرفصوا تقريبًا عند قدميه. وقفت بجانب ويل وقلت القليل. راقبته يتصلَّب قليلًا لاقتراب اثنين منهم.

واحد منهم - رجل ضخم منتفخ يدخن سيجارًا - بدا بالفعل أنه لا يعرف ما يقول عندما كان هناك أمام ويل، واستقر على أن قال: «زفاف لطيف، أليس كذلك؟ اعتقد بأن العروس بدت بهية».

خمَّنت أنه لم يكن يعرف عن ماضي أليسيا الرومانسي.

الآخر بدا أنه منافس لويل في العمل أطلق ملحوظة أكثر دبلوماسية، لكن كان هناك شيء في تحديقته المباشرة للغاية، أسئلته الصَّريحة عن وضع ويل، رأيت أنها جعلت ويل يتوتّر. كانا مثل كلبين يحومان حول بعضهما البعض، يقرران ما إذا كانا سيكشران عن أنيابهما.

قال ويل عندما رحل الرجل أخيرًا ملوحًا: «المدير التنفيذي الجديد

لشركتي القديمة، أظن أنه كان يتأكد من أني لن أحاول أن أعود لتولّي الأمر».

أليسيا، تطوف حول الحديقة - منظرها أخّاذ، ترسل قبلات في الهواء وتحيي الموجودين. لم تقترب منا.

راقبت ويل يتجرّع كأسين من البيمز وكنت مسرورة في قرارة نفسي.

***

قُدِّم الغداء عند السَّاعة الرابعة من بعد الظُّهر. اعتقدت أن هذا وقت غريب للغاية لتقديم الغداء، لكن كما أشار ويل كان حفل زفاف. بدا أن الوقت قد امتد وأخذ يصبح بلا معنى، تخلّلته مشاريب متواصلة ومحادثات متعرجة. لا أعرف إذا كان ذلك بسبب الحرارة أو الجو، لكن مع وقت وصولنا إلى طاولتنا شعرت بأني ثملة تقريبًا. عندما وجدت نفسي أثرثر على نحو غير متناسق مع رجل مسن جالس إلى يساري، أدركت أن ذلك كان بالفعل واردًا.

قلت لويل بعد أن كنت قد قلّبت محتويات مملحة المائدة في حجري: «هل يوجد كحول في البيمز؟».

«تقريبًا يوجد فيه، يعادل ما يوجد في كأس النبيذ.».

حدّقت فيه مرعوبة. كلاهما. «أنت تمزح. فيه فاكهة! اعتقدت بأن هذا يعني أنه خالٍ من الكحول. كيف سأقود إلى البيت؟».

قال مندهشًا: «يا لك من جليسة، هل عليَّ ألا أخبر أمي؟».

اندهشت من ردِّ فعل ويل على النَّهار بطوله. كنت قد اعتقدت بأني سأحظى بويل الكتوم، السَّاخر. أقل ما يمكن ويل الصَّامت. لكنه كان ساحرًا للجميع. حتى وصول الحساء عند الغداء لم يقلقه. فقط سأل بتهذيب إذا كان من أحد يرغب أن يبادل حساءه بالخبز، ورمت فتاتان إليه

بقطع الخبز من الجانب القصي للطاولة - وقد أعلنتا أنهما «لا تحتملان القمح».

وكلما ازداد قلقي حول كيف سأصحو من الثمالة، كلما أصبح ويل مرتاح البال. تبيّن أن المرأة المسنَّة الجالسة على يمينه برلمانية سابقة أدارت حملة تتعلّق بحقوق ذوي الإعاقة، وكانت واحدة من القلّة الذين رأيتهم يتحدّثون إلى ويل من دون أدنى انزعاج. رأيتها تطعمه لفافة رولاد[1]. عندما نهضت قليلاً لتغادر الطاولة، تمتم قائلاً إنها تسلَّقت مرة جبل كليمنجارو.

قال: «أحب الطيور المسنّة هكذا، يمكنني تصورها مع بغل وسلّة من الشَّطائر. متينة مثل حذاء قديم».

كنت أقل حظًّا مع الرجل الجالس على يساري. تحدَّث نحو أربعين دقيقة - موجز من امتحان عمن أكون، وأين عشت، ومن أعرف هناك - ليكتشف أنه ليس لدي ما قد يكون مثيرًا لاهتمامه. استدار نحو المرأة التي تجلس عن يساره، وتركني لأكمل بصمت ما تبقَّى من وجبتي.

عند حدٍّ معيّنٍ، عندما بدأت أشعر بالحرج كما ينبغي لي، شعرت بذراع ويل تزلق الكرسي إلى جانبي، وحطَّ يده على ذراعي. رفعت بصري وغمزني. أخذت يده وعصرتها، ممتنة لأنه لاحظ الأمر. ثم أعاد كرسيه إلى الخلف مسافة ستة إنشات، وأشركني في محادثة مع ماري راولينسن.

قالت: «ويل أخبرني إنك تعملين معه». كان لها عينان زرقاوان ثاقبتان، وتغضُّنات تحكي عن حياة منيعة على مغريات العناية بالبشرة.

قلت وأنا أرمقه: «أحاول».

«وهل عملت دومًا في هذا المجال؟».

---

(1) طبق يغطى فيه ألوان من الطعام بالصلصة أو تحشى ثم تلف قبل طهوها فتكون لكل شريحة منها شكل حلزوني.

«لا. أنا كنت... أعمل في مقهى». لم أكن أتصوّر أني قد أخبر شخصًا آخر في هذا الزفاف عن ذلك، لكن ميري راولينسن أومأت باستحسان.

افترَّ ثغرها: «لطالما فكَّرت بأن ذلك قد يكون عملًا مثيرًا للاهتمام. لو كنت تحبين الناس، ومنهم الفضوليون مثلي».

أعاد ويل ذراعه إلى كرسيه: «أنا أحاول تشجيع لويزا على أن تفعل شيئًا آخر، أن توسِّع أفقها قليلًا».

سألتني: «ماذا في بالك؟».

قال ويل: «هي لا تعرف. لويزا واحدة من أذكى الأشخاص الذين أعرفهم، لكن لا أستطيع أن أجعلها ترى قدراتها».

رمقته ميري راولينسن بنظرة حادَّة وقالت: «لا تتفضّل عليها عزيزي. أظنّها قادرة تمامًا على الإجابة بنفسها».

طرفت. ثم أضافت: «أظن أنك من بين كل الناس عليك أن تعرفي أنه...»، بدا ويل كما لو أنه على وشك أن يقول شيئًا، ثم أطبق فمه. حدَّق بالطاولة وهزَّ رأسه قليلًا، لكنه كان يبتسم. «حسنًا، لويزا، أتخيَّل أن عملك في الوقت الرَّاهن يستلزم الكثير من الطاقة الذهنية. ولا أتصوَّر أن هذا الشَّاب أسهل الزبائن».

«معك حق».

«لكن ويل محق تمامًا بشأن رؤية الإمكانات. هاكِ بطاقتي. أنا عضو في مجلس إدارة منظَّمة خيرية تشجّع على إعادة التأهيل. ربما تودّين أن تفكري بشيء مختلف في المستقبل؟».

«أنا سعيدة للغاية بالعمل مع ويل، شكرًا لك».

مهما يكن أخذت البطاقة التي قدَّمتها، مندهشة قليلًا من أن هذه المرأة قد يكون لديها أدنى اهتمام بما فعلته في حياتي. لكن حتى عندما أخذتها، شعرت بأني مخادعة. لم يكن واردًا أن ترك العمل، حتى لو كنت أعرف ما

أردت تعلّمه. لم أكن مقتنعة بأني كنت شخصًا يتناسب مع إعادة التّدرّب. وعلاوة على ذلك، كان إبقاء ويل حيًّا أولوية عندي. كنت تائهة للغاية في أفكاري حتى إني توقّفت عن الإصغاء لكليهما بجانبي.

«...جيّد جدًا أنك تجاوزت الأزمة، إذا جاز القول. أعرف أنه يمكن أن يكون مدمّرًا أن يكون عليك أن تتأقلم مع حياتك على نحو درامي للغاية بخصوص توقّعات جديدة».

حدّقت بما بقي من السّلمون المسلوق. لم أسمع أحدًا يتحدث مع ويل بتلك الطريقة.

استدار نحوها قال بهدوء: «أنا لست واثقًا من أني تجاوزت الأزمة».

عاينَته للحظة ثم نظرت إليّ.

تساءلت إذا كان وجهي قد أفشى ما أفكّر فيه.

قالت وهي تضع يدها على ذراعه: «كل شيء يستغرق وقتًا، ويل. وجيلك يجد من الصعوبة بمكان أن يتواءم مع هذا. أنتم جميعكم نشأتم وأنتم تتوقّعون أن تأتيكم الأشياء جاهزةً على الفور تقريبًا. تتوقعون جميعكم أن تعيشوا الحياة التي تختارونها. لا سيما شاب ناجح مثلك. لكن الأمر يستغرق وقتًا».

قال: «سيدة راولينسن -ميري- أنا لا أتوقّع أن أتعافى».

قالت: «أنا لا أتحدّث عن التعافي الجسدي، أنا أتحدّث عن تعلّم اعتناق حياة جديدة».

وأنا أنتظر أن أسمع ما سيقوله ويل، كان هناك خبط بالملعقة على كأس، وساد السُّكون الغرفة لسماع الخطابات.

بالكاد سمعت ما قالوه. بدا لي أنه رجل متعجرف في بدلة بَطريق. واحدًا تلو آخر، كانوا يتحدّثون عن أناس وأماكن لم أعرفها، ويثيرون ضحكًا مهذبًا. جلست ومضغت الشوكولا الداكنة التي كانت قد وصلت

في سلال فضية إلى الطاولة، وشربت ثلاثة أكواب من القهوة على التَّوالي بسرعة فكنت أشعر بالإضافة إلى الثمالة بالعصبية والتوتر. كان ويل، من ناحية أخرى، صورة للسكون. جلس وشاهد الضيوف يصفِّقون لصديقته السَّابقة، وأصغى إلى روبرت يتغنى بإليسا امرأته الرائعة بكل معنى الكلمة. لم يعترف أحد بويل.

لا أعرف إذا كان ذلك لأنهم أرادوا أن يتناسوا مشاعره، أو لأن وجوده هناك كان بالفعل مسببًا لبعض الإحراج. بين الحين والآخر انحنت ميري راولينسن وتمتمت بشيء في أذنه وأومأ بخفة بدت كأنها موافقة.

عندما انتهت الخطابات أخيرًا، ظهر جيش من العمال وبدأوا يفرغون وسط الغرفة للرقص. انحنى ويل نحوي.

«ذكَّرتني ميري أن هناك فندقًا ممتازًا على الطريق. اتصلي بهم وانظري إذا كان في وسعنا أن نمضي ليلتنا هناك»

«ماذا؟».

ناولتني ميري اسمًا ورقم هاتف مكتوبَيْن على منديل.

قال بهدوء بصوت بالكاد يُسمع: «لا بأس كلارك، سأدفع. هيا، ثم يمكنك أن تكفّي عن القلق حول الكمية التي شربتها. خذي بطاقتي من حقيبتي. ربما سوف يريدون الرقم».

أخذتها وذهبت إلى أبعد مكان في الحديقة وبيدي هاتفي النَّقال. قالوا إن لديهم غرفتين متاحتين، - مفردة ومزدوجة في الطَّابق الأرضي. نعم كان الفندق مناسبًا لوصول ذوي الإعاقة. قلت: «رائع»، ثم كان عليَّ أن أبتلع صرخة صغيرة عندما أخبروني عن التَّكلفة. أعطيتهم رقم بطاقة ويل، أشعر ببعض الغثيان وأنا أقرأ الأرقام.

قال عندما عدت: «إذًا؟».

«لقد قمت بذلك، لكن»، وسألته كم بلغت تكلفة الغرفتين.

قال: «هذا ممتاز، الآن اتصلي برجلك لتقولي له إنك ستمضين الليل في الخارج ثم اشربي شرابًا آخر، في الواقع اشربي ستة. سوف يسرني إلى أبعد حد أن أراك تزيدين فاتورة والد أليسيا».

***

وهذا ما فعلته.

حدث شيء ما ذلك المساء. انطفأت الأضواء. فصارت طاولتنا الصَّغيرة أقل وضوحًا، كان شذا الزهور الطاغي ملطفًا بنسيم المساء، والموسيقى والنبيذ والرقص يعني أننا في أكثر الأماكن المستبعدة، بدأنا جميعنا نمتّع أنفسنا. كان ويل أكثر استرخاء من أي وقت مضى. محشور بيني وبين ميري، تحدَّث وابتسم لها، وكان هناك شيء سعيد في مرآه صدَّ هؤلاء الناس الذين قد ينظرون إليه شزرًا، أو يرمقونه بنظرات الشَّفقة. هذا جعلني أنزع شالي وأجلس باستقامة. خلعت له سترته وفككت ربطة عنقه، وكلانا حاولنا ألا نقهقه لمرأى الرقص. لا يمكنني أن أقول لك كم شعرت بتحسّن عندما رأيت كيف يرقص المترَفون. بدا الرجال كما لو أنهم كانوا مصعوقين، وجّهت النساء أصابع صغيرة نحو النجوم وبدون خجلات على نحو رهيب حتى عندما دُرنَ.

تمتمت ميري راولينسن عدة مرات: «يا إلهي». نظرت إليّ. كانت لغتها قد ازدادت حدّة مع كل كأس شربته. «أنت لا تريدين أن ترقصي لويزا؟».

«يا إلهي، لا».

«تعقّل مبهج منك. لقد رأيت رقصًا أفضل في نادي المزارعين للديسكو».

عند التاسعة تلقّيت رسالة نصيّة من نايثن.

هل كل شيء على ما يرام؟

أجبت:

نعم. جميل، صدِّق أو لا تصدق. ويل يحظى بوقت عظيم.

وكان كذلك. راقبته يضحك بشدة على أمر قالته ميري، وشيء فيَّ أصبح غريبًا ومشدودًا. بدا لي أنه قد ينجح. يمكن أن يكون سعيدًا، إذا كان محاطًا بالأناس المناسبين، إذا سُمح له أن يكون ويل، بدلًا من الرجل في الكرسي المتحرك، وقائمة الأعراض، وموضوع الشَّفقة.

عند السَّاعة العاشرة مساء، بدأت رقصات السّلو. راقبنا روبرت يقود أليسيا إلى ساحة الرقص، تصفيق مهذَّب من قبل الحضور. كان شعرها قد بدأ يتراخى، ولفَّت ذراعيها حول عنقه كما لو أنها كانت بحاجة إلى دعم. طوَّقها روبرت بذراعيه واستراحت يداه على مؤخرتها الصَّغيرة. جميلة وثريّة كما هي، شعرت ببعض الأسف عليها، اعتقدت أنها ربما لم تكن لتدرك ما خسرته حتى بعد فوات الأوان.

في منتصف الأغنية انضم راقصون إليهما فصارا غير مرئيين إلى حد ما، وانصرفت بحديث ميري عن أجور مقدّمي الرعاية إلى أن رفعت بصري فجأة وكانت هناك واقفة أمامنا تمامًا، عارضة الأزياء في فستانها الحرير الأبيض. سكن قلبي في حنجرتي.

أومأت أليسيا بتحية لميري، وانحنت قليلًا من خصرها كي يتمكن ويل من أن يسمعها فوق صوت الموسيقى. كان وجهها متوترًا قليلًا، كما لو أنه كان عليها أن تهيئ نفسها للقدوم.

«شكرًا على قدومك، ويل. حقًّا». نظرت جانبيًا نحوي ولكن لم تقل شيئًا.

قال ويل بلطف: «هذا من دواعي سروري. تبدين فاتنة أليسيا، كان يومًا عظيمًا».

عبرت ومضة من المفاجأة وجهها. ثم شوق شاحب.

«حقًّا؟ هل تظن ذلك؟ أظن... أعني، هناك الكثير الذي أودّ قوله..».

قال ويل: «لا داعي، هل تتذكرين لويزا؟».

«أتذكرها».

كان هناك صمت وجيز.

رأيت روبرت يحوم في الخلفية، ينظر نحونا بحذر شديد. نظرَت إليه ثم رفعت يدها في نصف تلويحة.

«حسنًا، شكرًا لك بأي حال ويل. أنت نجم النجوم لمجيئك. وشكرًا على الـ..»،

«مرآة».

«بالتأكيد. أنا أحببت المرآة». وقَفَتْ وعادت إلى زوجها الذي استدار مبتعدًا، مطوّقًا ذراعها سلفًا. راقبناهما عبر ساحة الرقص.

«لم تشترِ لها مرآة!».

«أعرف».

كانا لا يزالان يتحدّثان، نظرة روبرت تومض نحونا. كان كما لو أنه لم يستطع تصديق أن ويل كان لطيفًا ببساطة. وأؤكد لك أني أنا لم أستطع تصديق ذلك.

قلت له: «هل.. هل أزعجك؟».

أشاح ببصره عنهم. قال: «لا»، وابتسم لي.

كانت ابتسامته مائلة قليلًا بسبب الشَّراب وكانت عيناه حزينتين وحالمتين في الوقت نفسه.

عندما فرغت ساحة الرقص لوقت قصير بانتظار الرقصة التالية، وجدت نفسي أقول: «ماذا تقول، ويل؟ هل تمنحني دورة؟».

«ماذا؟».

«هيا. لنمنَّ على الملاعين بشيء يتحدثون عنه».

قالت ميري وهي ترفع كأسًا: «أوه هذا جيّد، مدهش للغاية».

«هيا. بينما الموسيقى بطيئة. لأني لا أظن أنك تستطيع أن تقفز في ذلك الشيء».

لم أمنحه فرصة. جلست بحذر على حجر ويل، ورميت ذراعي حول عنقه لأثبت في المكان. نظر في عينيَّ لدقيقة، كما لو أنه يحاول أن يعرف ما إذا كان في وسعه أن يرفضني. ثم على نحو مدهش، جرَّنا ويل نحو ساحة الرقص، وبدأ يدور في حلقات صغيرة تحت أضواء المرايا الكروية المتألقة. شعرت في الوقت نفسه بخجل شديد، وبقليل من الهستيرية. كنت جالسة في زاوية جعلت فستاني يرتفع عن فخذيَّ قليلًا.

تمتم ويل في أذني: «دعيه».

«هذا..».

«هيا، كلارك. لا تحبطيني».

أغمضت عيني وطوقت عنقه بذراعي وتركت خدّي على خدّه أتنفّس رائحة الليمون لعطر ما بعد الحلاقة. شعرت به يدندن مع الموسيقى.

قال: «هل ارتعبوا بعد؟»، فتحت عينيَّ ونظرت في الضوء الكابي.

كان عدد من الأشخاص يبتسمون مشجعين، لكن الغالبية بدوا أنهم في حيرة من أمرهم. حيّتني ميري بكأسها. ثم رأيت أليسيا تحدق بنا، ووجهها منخفض قليلًا. عندما رأتني أنظر التفتت وتمتمت بشيء لروبرت. هَزّ رأسه كما لو أننا كنا نقترف شيئًا شائنًا.

شعرت بابتسامة عابثة تصعد على وجهي. قلت: «أوه نعم».

«هاه. اقتربي أكثر. رائحتك ساحرة».

«وأنت أيضًا. على الرغم من أنك لو واصلت الدَّوران في حلقات يسارية قد أتقيأ».

غيّر ويل الاتجاه. ثبّت ذراعي حول عنقه، عدت للوراء قليلًا لأنظر

إليه، لم أعد خجلة. نظر إلى صدري. لأكون منصفة، لم يكن بمستطاعه النَّظر إلى مكان آخر بجلوسي حيث كنت. رفع عينيه عن نهدي وتمتم مندهشًا: «هل تعلمين، ما كنت لتدعي هذين النهدين يقتربان مني لو لم أكن في كرسي متحرك».

نظرت إليه بثبات: «ما كنت لتنظر إلى نهديَّ لو لم تكن في كرسي متحرك».

«ماذا؟ بالتأكيد كنت لأفعل».

«لا. كنت لتكون شديد الانشغال بالنظر إلى فتيات شقراوات ضامرات هيفاوات بسيقان طويلة وشعر طويل، الفتيات اللواتي بوسعهن شم رائحة الثراء على بعد أربعين خطوة. وبأي حال لم أكن لأكون هنا. كنت لأكون أقدّم الشَّراب هناك. واحدة من غير المرئيات».

طرف بعينه.

«حسنًا؟ أنا على حق، ألست كذلك؟».

نظر ويل نحو البار ثم عاد إلي: «نعم. لكن، كلارك، كنت أحمق».

انفجرت بالضحك بشدّة حتى إن المزيد من الناس نظروا باتجاهنا.

حاولت أن أسوِّي وجهي. غمغمت: «آسفة، أظن بأني أصبح هستيرية».

«هل تعلمين شيئًا؟».

تطلّعت في وجهه طوال الليل. كيف تغضَّنت عيناه في الزوايا. ذلك المكان حيث لاقى عنقه كتفي.

«ماذا؟».

«أحيانًا كلارك، أنت إلى حد بعيد، الشَّيء الوحيد الذي يجعلني أريد أن أنهض في الصَّباح».

«إذًا لنذهب إلى مكان ما»، خرجت الكلمات تقريبًا قبل أن أعرف ما أردت قوله.

«ماذا؟».

«لنذهب إلى مكان ما. لنذهب لمدة أسبوع إلى حيث نتسلّى فقط. أنت وأنا. لا أحد من هؤلاء...».

«الحمقى؟».

«حمقى. نعم، ويل. هيا».

لم تتحوّل عيناه عن عينيَّ.

لا أعرف ما كنت أقول له. لا أعرف من أين جاء كل هذا. أنا فقط عرفت أني لو لم أجعله يوافق الليلة، والنجوم والشراب والضَّحك وميري، حينها لن تكون لدي فرصة على الإطلاق.

«من فضلك».

بدت الثواني قبل أن يجيب أنها تستغرق الأبد.

قال: «حسنًا».

19

نايثن

لقد اعتقدا أن ليس في وسعنا أن نعرف. عادا من الزفاف أخيرًا في اليوم التالي عند موعد الغداء تقريبًا، وكانت السَّيدة ترينر غاضبة جدًّا فلم تتمكّن من الكلام إلّا بالكاد.

قالت: «كان في وسعكما الاتصال».

كانت قد بقيت في البيت فقط لتتأكّد من أنهما بخير. كنت أنصت لصوت خطواتها وهي تذرع الممر القرميدي المجاور جيئة وذهابًا منذ أن وصلَت إلى هناك عند السَّاعة الثامنة صباحًا.

«لا بد أني اتصلت بكما أو أرسلت لكما رسالة على الهاتف النقال ثماني عشرة مرة. إلى أن تمكنت من الاتصال بمنزل آل ديوارز وأخبرني شخص ما إن «الرجل في الكرسي المتحرك» ذهب إلى فندق. حينها تأكّدت من أنكما لم تصابا في حادث مروِّع على الطريق السريع».

علّق ويل: «(الرجل في الكرسي المتحرك). هذا لطيف».

لكن مع ذلك رأيت أنه لم يكن متضايقًا. كان مسترخيًا ومرتاح البال، يتعافى من آثار الخمرة بروح مرحة، ولو أني شعرت بأنه كان يتألّم قليلًا. فقط عندما بدأت والدته تلتفت إلى لويزا توقّف عن الابتسام. هاجم وقال

إنه إذا كان لديها ما تودُّ قوله عليها أن تقوله له، لأنه كان هو صاحب قرار البقاء أثناء الليل، ولويزا سايرته في هذا.

«وبقدر ما يمكنني أن أرى، يا أمي، باعتباري رجلًا يبلغ من العمر خمسة وثلاثين عامًا أنا لست مطالبًا أبدًا تجاه أي شخص عندما يتعلَّق الأمر باختيار أن أمضي ليلة في فندق. حتى لوالديَّ».

كانت قد حملقت بهما. تمتمت بشيء عن «قلَّة أدب»، ثم غادرت الغرفة.

بدت لويزا مرتجَّة قليلًا لكنه مضى نحوها وتمتم قائلًا لها بشيء وعندئذٍ تورَّدَت وضحكت تلك الضِّحكة التي تطلقها عندما تعلم أن ليس عليك أن تضحك. ضحكة تشي بمكيدة.

حينها التفت ويل نحوها وقال لها أن ترتاح بقية اليوم. «اذهبي إلى البيت، غيّري ملابسك، ربما تتلقّفين أربعين غمزة.

لا يمكنني السَّير حول القلعة مع شخص تبدو هيئته كمن أمضى ليلة ساخنة».

«ليلة ساخنة؟»، لم أتمكَّن من أن أمنع الاستغراب عن صوتي.

قالت لويزا: «ليست ليلة ساخنة بالمعنى الذي تعرفه»، وهي تنقفني بوشاحها، وتناولت معطفها للمغادرة.

قال لها: «خذي السَّيارة، ستسهّل عليك أمر العودة».

شاهدت عينَيْ ويل تتبعانها طوال الطريق نحو الباب الخلفي.

من تلك النظرة بمفردها أراهنك على تطوّر مشاعره تجاهها.

انكمش قليلًا بعد مغادرتها. كان كما لو أنه كان يتماسك إلى أن غادرت أمه ولويزا الملحق. كنت أراقبه بعناية الآن، وما إن غادرت ابتسامته وجهه حتى أدركت أني لا أحب النظر إليه. كان جلده ملطّخًا بلطخ شاحبة، جفل

مرتين عندما ظنَّ أن أحدًا كان ينظر، ورأيت من هنا أنه كان يقشعرّ. بدأ صوت جرس إنذار صغير بعيد لكنه ثاقب يرن داخل رأسي.

«هل أنت بخير، ويل؟».

«أنا بخير لا تهتاج».

«هل تريد أن تقول لي أين يؤلمك؟».

بدا مستسلمًا قليلًا حينها، كما لو أنه علم بأني رأيت عبره مباشرة. فقد عملنا معًا وقتًا طويلًا.

«حسنًا. بعض الصُّداع. و...أحتاج لتغيير الأنابيب...».

كنت قد نقلته من كرسيه إلى سريره والآن بدأت أجمع المعدَّات معًا.

«في أي وقت غيّرتها لو هذا الصَّباح؟».

جفل وبدا كأنه يشعر بالذنب قليلًا: «لم تفعل. أو ربما فعلت الليلة الماضية».

«ماذا؟».

جسست نبضه، وتلقفت جهاز قياس ضغط الدَّم. واثقًا بما يكفي من أنه كان مرتفعًا جدًّا. كان على يدي بريق باهت من العرق عندما رفعتها عن جبهته. ذهبت إلى خزانة الأدوية، وسحقت بعض الحبوب الموسِّعة للأوعية الدموية. أعطيتها له في الماء، وحرصت أن يبتلعه حتى آخر قطرة. ثم سندته ووضعت ساقيه على طرف السَّرير، وغيرت أنابيبه بسرعة، وراقبته طوال الوقت.

«إنه فرط المنعكسات؟».

«نعم. ليست حركتك الأكثر اتزانًا، ويل».

كان فرط المنعكسات أسوأ كوابيسنا. كان ردّ الفعل المفرط لجسد ويل إزاء الألم، الانزعاج - أو لنقل، القسطرة غير المفرَّغة - عقم نظامه

العصبي التَّالف ومحاولة مضلِّلة للبقاء تحت السَّيطرة. يمكن أن تحصل فجأة وتودي بجسده إلى الانهيار. بدا شاحبًا، وتنفسّه مجهَدًا.

« كيف حال جلدك؟».

«واخز قليلًا».

«بصرك؟».

«ممتاز».

«يا رجل. هل تظن أننا بحاجة إلى مساعدة؟».

«أعطني عشر دقائق، نايثن. أنا واثق من أنك فعلت كلَّ ما نحن بحاجة إليه. أعطني عشر دقائق».

أغمض عينيه. قست ضغط دمه ثانية، أتساءل كم من الوقت عليَّ أن أنتظر قبل أن أتصل بالإسعاف، أخاف فرط المنعكسات لأنك لا تعرف أبدًا أي منحى سيأخذ. حدث له هذا من قبل عندما بدأت العمل معه، وانتهى في المستشفى ليومين.

« نايثن. سأخبرك إذا ظننت أننا في مشكلة».

تنهَّد، وساعدته ليعود إلى الوراء فكان متكئًا على لوح السَّرير العلوي.

قال لي إن لويزا كانت ثملة جدًّا ولم يرغب أن يجازف في السَّماح لها بأن تفكّ معدّاته.

وأضاف شبه ضاحك: «يعلم الله أين كانت ستعلِّق الأنابيب اللعينة». قال إن لويزا استغرقت نصف ساعة تقريبًا لتخرجه فقط من كرسيّه إلى السَّرير. وقعا كلاهما على الأرض مرتين.

«من حسن الحظ أننا كنا ثملين حينها ولا أظن أن أحدنا شعر بشيء». كان لديها حضور البديهة للاتصال بالاستقبال، وطلبت من الحارس أن يساعدها في رفعه.

«رجل لطيف. أتذكَّر على نحو غامض إلحاحه على لويزا أن تنفحه بقشيشًا قدره أربعين جنيهًا عرفت أنها كانت ثملة لأنها وافقت على ذلك».

عندما غادرت غرفته أخيرًا كان ويل يخشى من أنها لن تذهب إلى غرفتها. كان لديه تصوّرات عنها متكوّرة في كرة حمراء صغيرة على الدَّرج.

كانت نظرتي للويزا كلارك في تلك اللحظة لا تنم عن تقدير كبير لها.

«ويل، يا رفيق، أظن ربما في المرة القادمة عليك أن تهتم أكثر قليلًا بنفسك، صحيح؟».

«أنا بخير، نايثن. أنا بخير. أشعر بتحسن الآن».

شعرت وأنا أقيس نبضه بعينيه عليَّ.

«حقًّا. لم يكن خطأها».

كان ضغط دمه منخفضًا. ولونه يعود إلى طبيعته قبالتي. أطلقت نفسًا ولم أكن قد أدركت بأني كنت أحبسه. ثرثرنا قليلًا نناقش حوادث اليوم السَّابق، ونزجي الوقت بينما يستقر كل شيء. هو لم يبدُ منزعجًا ولو قليلًا من حبيبته السابقة. لم يقل الكثير لكن كان من الواضح أنه منهَك، وقد بدا بخير.

تركت معصمه: «وشم ظريف، بالمناسبة».

نظر إليَّ نظرة ساخرة.

«كن واثقًا من ألا تضيف عليه «انتهى بـ«، صحيح؟».

على الرغم من العرق والألم والالتهاب، بدا كما لو أن هناك شيئًا آخر في عقله سوى الأمر الذي يستنفده. لم أتمكن إلّا في التفكير أنه إذا عرفت السَّيدة ترينر بهذا ربما لم تكن لتغضب كما فعلت.

***

لم نخبرها بشيء عما جرى وقت الغداء - طلب ويل مني أن أمنحه

وعدًا بألا أفعل -لكن عندما عادت لو لاحقًا ذلك الأصيل كانت هادئة. بدت شاحبة وقد غسلت شعرها ورفعته كما لو أنها كانت تحاول أن تبدو رصينة.

لكن اتَّضح بعد فترة أنها لم تكن الثمالة وحدها التي كدَّرتها.

واظب ويل على سؤالها عن سبب هدوئها الشَّديد ثم قالت: «نعم حسنًا اكتشفت أنه ليس الأمر الأكثر تعقّلًا البقاء خارجًا طوال الليل عندما تكون قد انتقلت للتو للسكن مع صديقك».

كانت تبتسم وهي تقول هذا لكنها كانت ابتسامة متكلِّفة وعرفت أنا وويل أنه في ما قالته كلمات جدّيّة.

لم أستطع إلقاء اللائمة على الرجل. لم أكن لأرغب أن تمضي شريكتي الليل في الخارج مع شخص، حتى لو كان مقعدًا. وهو لم يرَ كيف كان ينظر ويل إليها.

لم نفعل الكثير ذلك الأصيل. أفرغت لويزا حقيبة ويل كاشفة عن كل ما استطاعت وضع يدها عليه من الفندق، الشَّامبو، البلسم، عدَّة الخياطة، وقبعة للاستحمام. قالت: («لا تضحك، لقد دفع ويل ثمن مصنع شَّامبو لعين»). شاهدنا فيلم رسوم متحرّكة ياباني قال ويل إنه مثالي للثمالة، وأنا بقيت هناك - من ناحية لأني أردت أن أبقي عيني على ضغط دمه ومن ناحية، لأكون صادقًا، لأني كنت عابثًا أردت أن أرى ردَّ فعله عندما أعلنت عن أني سأبقى بصحبتهما.

قال: «حقًّا؟ تحب ميازاكي؟».

ثم تدارك نفسه في الحال، قائلًا إنني بالطبع سأحبه... كان فيلمًا عظيمًا... إلخ. وكنت مسرورًا من أجله. كان قد فكّر بأمر واحد لوقت طويل، ذلك الرجل.

وهكذا شاهدنا الفيلم. أنزلت الستائر، ورفعت سماعة الهاتف، وشاهدت فيلم الرسوم المتحرّكة الغريب هذا عن فتاة تنتهي في عالم آخر، مع كل تلك المخلوقات الغريبة، نصفهم لا تستطيع أن تعرف إذا كانوا أخيارًا أم أشرارًا. جلست لو قرب ويل، تناوِلُه شرابه أو أحيانًا تمسح عينه عندما يدخل فيها شيء. كان عذبًا حقًّا، على الرغم من أني تساءلت ما الذي كان يجري ليؤدّي إلى هذا. وعندما رفعت لويزا السَّتائر وحضَّرت لنا الشاي، تقاطعت نظراتهما مثل شخصين يتساءلان ما إذا يخبرانك بسر، وحدَّثاني عن فكرة الذَّهاب. عشرة أيام. لست واثقًا إلى أين بعد، لكن ربما ستكون مسافة بعيدة وقد تكون جيدة.

هل سآتي للمساعدة؟

نعم.

كان عليَّ أن أبدي إعجابي بالفتاة. لو أخبرتني منذ أربعة أشهر أننا سنأخذ ويل في إجازة طويلة - اللعنة، وأننا سوف نخرجه من هذا المنزل - لكنت قلت لك إن ذكاءك مشكوك فيه. أؤكّد لك، كان ليكون لي معها كلمة عن وضع ويل وحاجته للعناية قبل أن نذهب. لم يكن في وسعنا احتمال حدوث فوضى مثل تلك ثانية لو كنا عالقين في وسط اللامكان.

هم حتى قالوا للسيدة ترينر عندما ظهرت، وكانت لويزا تغادر. قال ويل ذلك كما لو أنه لم يكن أكثر أهمية من ذهابه في نزهة حول القلعة.

يجب أن أخبرك، كنت مسرورًا حقًّا. التهم موقع البوكر عبر الإنترنت ذاك نقودي عن آخرها، ولم أكن أخطّط لإجازة هذه السَّنة. سامحت لويزا على حماقتها التي جعلتها تصغي لويل عندما قال إنه لم يكن راغبًا أن تقوم بإفراغ أنابيبه. وصدّقني، كنت غاضبًا جدًّا بهذا الشَّأن. لذا كان كل شيء يبدو عظيمًا، وكنت أصفِّر عندما ارتديت معطفي، الآن أتطلع نحو رمال بيضاء وبحار زرقاء. كنت أحاول أن أعرف ما إذا كان في وسعي أن أقوم بزيارة قصيرة لموطني في أوكلاند.

وحينها رأيتهما - السَّيدة ترينر واقفة عند الباب الخلفي بينما لو انتظرت لتنطلق في الطريق. لا أعرف الحديث الذي دار بينهما، لكنهما بدتا كئيبتين.

أنا فقط سمعت الجملة الأخيرة. لكن، لأكون صادقًا، كانت تلك كافية بالنسبة إليَّ.

«آمل أنك تعرفين ماذا تفعلين لويزا».

20

«أنت ماذا؟».

كنا على التلال خارج البلدة عندما أخبرته. كان باتريك يعدو مسافة ستة عشر ميلًا وأراد مني أن أوقِّت له وأنا أتبعه على الدرَّاجة الهوائية. ولما كانت خبرتي في قيادة الدرَّاجة أقل بقليل من خبرتي في الفيزياء، فقد تضمّن هذا الكثير من الشَّتائم والانحرافات من قبلي والكثير من الصُّراخ الغاضب من قبله.

عندما وصلنا إلى شيبكوت هيل، كنت ألهث، وساقاي مثل الرصاص، فقررت أن أقذف بالخبر هناك. عرفت أنه لا يزال أمامنا عشرة أميال إلى البيت ليستعيد مزاجه الجيّد.

«أنا لن آتي إلى سباق الاكستريم فايكنغ».

لم يتوقَّف، لكنه اقترب. أدار وجهه نحوي، ساقاه لا تزالان تتحركان تحته وبدا مصدومًا للغاية حتى إني كدت أرتطم بشجرة.

«ماذا؟ لماذا؟».

«أنا... أعمل».

عاد إلى الطريق وحثَّ خطاه. كنَّا قد وصلنا إلى حافّة التَّلة، وكان عليَّ أن أطبق أصابعي على الفرامل قليلًا لأتوقَّف عن اللحاق به.

«متى قررتِ هذا؟». تفصَّدت قطرات العرق على جبهته، وبرزت أوتار على ربلتي ساقيه. لم أنظر إليه طويلًا وإلّا كنت سأبدأ بالترنّح.

«في عطلة نهاية الأسبوع. أنا فقط أردت أن أتأكد».

«لكننا حجزنا لرحلتك وكل شيء».

«إنها شركة إيزي جيت. سوف أعوّضك بتسعة وثلاثين جنيهًا إذا كان هذا يزعجك».

«ليست مسألة التّكلفة. اعتقدت بأنك ذاهبة لمساندتي. قلت إنك قادمة لتدعميني».

يمكن لباتريك أن يبدو عابسًا. عندما كنا معًا في البداية اعتدت أن أمازحه بهذا الشّأن. أطلقت عليه اسم «السَّيد. بنطال غاضب». أضحكني وهو غاضب جدًّا حتى أنه كفَّ عن العبوس فقط ليسكتني.

«أوه، هيا. أنا بالكاد لا أدعمك الآن، هل أفعل؟ أكره ركوب الدرَّاجة باتريك. أنت تعرف ذلك. لكني أدعمك».

قطعنا ميلًا آخر قبل أن يتحدّث ثانية. ربما كنت تحدثت، لكن خفق قدمَيْ باتريك على الطريق بدا أنه يأخذ نبرة حازمة كئيبة. كنا فوق البلدة الصغيرة الآن، أنا ألهث على امتداد قمَّة التلة، أحاول وأتلكأ لأوقف سرعة نبض قلبي كلما مرَّت سيارة. كنت أركب دراجة أمي القديمة (باتريك لن يدعني أقترب من شيطان سباقه)، ولم يكن فيها تروس، لذا كنت بين الحين والآخر في إثره.

نظر خلفه، وأبطأ خطواته قليلًا فتمكّنت من اللحاق به.

قال: «لماذا لا يمكنهم جلب شخص من الوكالة؟».

«شخص من الوكالة؟»

«أقصد ليأتي إلى منزل ترينر إذا كنت هناك لمدة ستة أشهر يجب أن تستحقّي إجازة».

«الأمر ليس بهذه البساطة».

«لا أفهم السَّبب، فأنت بدأت العمل هناك وأنت لا تعرفين شيئًا في النهاية».

التقطت أنفاسي، هذا كان شديد الصُّعوبة بالنَّظر إلى أني كنت مقطوعة الأنفاس من ركوب الدرَّاجة.

«لأنه يحتاج الذَّهاب في رحلة».

«ماذا؟».

«يحتاج الذهاب في رحلة. وهم يحتاجون إليَّ وإلى نايثن هناك لمساعدته».

«نايثن؟ من يكون نايثن؟».

«مقدّم الرعاية الطبية. الرجل الذي التقيته عندما جاء ويل إلى بيتنا وقبل أن تسأل أوضح أنني لست على علاقة مع نايثن».

أبطأ، ونظر إلى الطريق المسفلت، حتى أضحى يهرول في المكان عمليًّا.

«ما هذا لو؟ لأنه... يبدو لي أن هناك خطًا غير واضح هنا بين ما هو عمل وما هو..»، مستهجنًا «طبيعي».

«إنه ليس عملًا عاديًا، أنت تعرف ذلك».

«لكن يبدو أن ويل ترينر له الأولوية على كل شيء هذه الأيام».

رفعت يدي عن مقود الدرَّاجة وأومأت نحو قدميه المتبدلتين: «أوه، وهذه لا؟».

«هذا مختلف. هو يتّصل، فتأتين راكضة».

«أنا أركض، وأنت تركض أيضًا»، حاولت أن أبتسم.

«مضحك جدًّا»، أشاح عني.

«إنها ستة أشهر، بات. ستة أشهر. كنت أنت من شجّعني على أن ألتحق بهذا العمل في النهاية. لا يمكنك أن تعارض لأني آخذه على محمل الجد».

«لا أظن... لا أظن أن الأمر يتعلّق بالعمل... أنا فقط أظن أن هناك شيئًا تكتمينه عني».

تردّدت إلى حين.

«هذا ليس صحيحًا».

«لكن أنتِ لن تأتي إلى الفايكنغ».

«لقد قلت لك».

هزَّ رأسه قليلًا كما لو أنه لم يسمعني جيّدًا. ثم بدأ يركض في الطريق بعيدًا عني. عرفت من شكل ظهره شدَّة غضبه.

«أوه، هيا باتريك، ألا يمكننا أن نتوقّف لدقيقة ونناقش هذا؟».

كانت نبرته عنيدة: «لا. سوف أضيّع وقتي».

«إذًا لنتوقف السَّاعة. فقط خمس دقائق».

«لا. عليَّ أن أفعل هذا في ظروف حقيقية».

بدأ يركض أسرع كما لو أنه اكتسب دفعة جديدة.

«باتريك؟»، قلت وأنا أكافح فجأة لمجاراته. انزلقت قدماي على الدوّاستين، وشتمت وأنا أركل الدواسة إلى الخلف لأحاول أن أنطلق ثانية. «باتريك؟ باتريك!»،

حدّقت في ظاهر رأسه وكانت الكلمات على فمي تقريبًا قبل أن أعرف ما كنت أقوله.

«حسنًا. ويل يريد أن يموت، هو يريد أن ينتحر. وهذه الرحلة هي محاولتي الأخيرة لتغيير رأيه».

تردّدت خطوة باتريك ثم أبطأ. توقف على الطريق مستقيم الظَّهر ولا يزال ملتفتًا عني. التفت ببطء، وأخيرًا توقَّف عن الهرولة.

«قولي هذا ثانية».

«هو يريد الذَّهاب إلى «ديجينتاس» في شهر آب، وأنا أحاول أن أغيّر رأيه. هذه الفرصة الأخيرة لديّ».

كان يحدّق بي كما لو أنه لم يعرف إذا كان عليه أن يصدّقني.

«أعرف أنه يبدو جنونًا. لكن عليَّ أن أغيّر رأيه. لذا لا يمكنني المجيء إلى الفايكينغ».

«لماذا لم تخبريني بهذا من قبل؟».

«كنت قد قطعت لعائلته عهدًا بأني لن أخبر أحدًا. سيكون رهيبًا بالنسبة لهم إذا انتشر الخبر. رهيبًا. أنظر، حتى هو لا يعرف بأني أعرف. كان كل شيء مخادعًا. أنا آسفة». مددت يدي له: «كنت لأخبرك لو كنت أستطيع».

لم يجب. بدا كسيرًا كما لو أنه اقترف شيئًا رهيبًا. ظهرت تقطيبة خفيفة على وجهه وازدرد ريقه مرتين بصعوبة.

«بات...».

«لا. فقط أنا فقط أحتاج للركض الآن لو بمفردي». ركض ويده على شعره. «حسنًا؟».

ازدردت ريقي: «حسنًا».

بدا للحظة كما لو أنه نسي سبب تواجدنا هناك. ثم انطلق ثانية وراقبته يختفي في الطريق أمامي، رأسه نحو الأمام بتصميم وتنهب ساقاه الطَّريق من تحته.

***

كنت قد وضعت الطلب في اليوم التالي لعودتنا من الزواج.

هل في وسع أحد أن يخبرني عن مكان جيِّد للذهاب حيث يمكن

لمصاب بشلل رباعي أن يحظى فيه بمغامرات؟ أنا أبحث عن أشياء يمكن لشخص صحيح البنية القيام بها، أشياءٍ قد تجعل صديقي اليائس ينسى لفترة أن حياته محدودة. لا أعرف حقًا بماذا آمل، لكن كل الاقتراحات مقبولة بامتنان. هذا طارئ. بيزي بي

وبعد أن سجلت الدخول وجدت نفسي أحدق بالشَّاشة غير مصدقة. كان هناك تسعة وثمانون إجابة. تصفَّحت الشَّاشة صعودًا ونزولًا غير واثقة أولًا فيما إذا يمكن أن تكون جميعها ردودًا على طلبي. ثم أجلت النَّظر من حولي نحو مستخدمي الحواسيب الأخرى في المكتبة مستقتلة لينظر إليَّ واحد منهم لأتمكّن من إخبارهم. تسعة وثمانون ردًا على سؤال واحد!

كانت هناك حكايات عن القفز لمصابين بالشّلل الرباعي، عن السِّباحة، التَّجديف، حتى عن ركوب الخيل بمساعدة هيكل خاص. (عندما شاهدت الشَّريط المصوَّر المقرون بها، شعرت بقليل من الخيبة لأنَّ ويل قال إنه لا يطيق الخيول. بدت ضربة).

كان هناك سباحة مع الدَّلافين، وغطس تحت الماء مع مساعدين. كانت هناك كراسٍ عائمة قد تسمح له أن يذهب للصيد، ودرَّاجات معدلة للمشلولين قد تسمح له بالقيادة. نشر بعض منهم صورًا أو أشرطة مصوَّرة لأنفسهم وهم يشاركون في هذه النَّشاطات. تذكَّر بعض منهم بمن فيهم ريتشي منشوراتي السَّابقة وأراد أن يعرف كيف حال ويل.

هذه كلها تبدو أخبارًا جيدة. هل يشعر بتحسّن.

كتبت في ردٍّ سريعٍ:

ربما. لكني آمل أن تحدث هذه الرحلة فرقًا.

أجاب ريتشي:

يا فتاة! إذا حصلت على التمويل لتنفيذ كل شيء، فإن حدودك السماء!

كتبت سكوتغيرل:

كوني واثقة من أن تنشري بعض الصُّور له في طقم الحبال. أحب أن أنظر في وجوه الرجال عندما يكونون رأسًا على عقب!

أحببتهم هؤلاء المشلولين وجلسائهم - لشجاعتهم ورحابة صدرهم ووسع خيالهم. أمضيت ساعتين ذلك المساء أدوِّن اقتراحاتهم وأتتبّع روابط لمواقع إلكترونية ذات صلة جربوها واختبروها، حتى التَّحدث إلى البعض في غرف المحادثة. عند مغادرتي كان عندي وجهة سوف نذهب إلى كاليفورنيا، إلى الـ«فور وايندز رَنش»، مركز تخصصي قدم مساعدة مجربة «بطريقة ستجعلك تنسى بأنك احتجت إلى مساعدة»، بحسب موقعهم الإلكتروني. العزبة نفسها مبنى خشبي واطئ واقع في ساحة غابة قرب يوزيميت، بناه ممثل بديل سابق رفض أن يدع إصابته في العمود الفقري تحدُّ من الأشياء التي يستطيع القيام بها، وسجل الزوار على الخط كان مليئًا بزوار ممتنين وسعداء أقسموا أنه غيَّر مشاعرهم تجاه عجزهم وتجاه أنفسهم. على الأقل ستة من رواد غرفة المحادثة كانوا هناك وكلهم قالوا إنها قلبت حياتهم.

كان كرسيًّا متحّركًا - سهل الاستعمال لكن مع كل ما قد تتوقعه من التَّسهيلات في فندق باذخ. كانت هناك أحواض استحمام خارجية غائرة مع آلات رافعة غير بارزة للعيان ومحترفي تدليك. كانت هناك مساعدة طبية متدرّبة في الموقع وصالة سينما فيها أماكن للكراسي المتحركة بالإضافة إلى المقاعد العادية. كان هناك حمَّام مياه ساخنة في الهواء الطلق يمكن الوصول إليه، يمكنك أن تجلس فيه وتحدِّق بالنجوم. قد نمضي أسبوعًا هناك ثم بضعة أيام على السَّاحل في مجمَّع فندقي حيث يمكن لويل أن يسبح ويحظى بمنظر جيد على الخط السَّاحلي المتعرّج. كان أفضل ما في الأمر أني وجدت ذروة للإجازة سوف لن ينساها ويل - القفز من الطائرة، بمساعدة معلمي القفز بالمظلة كانوا مدربين لمساعدة المشلولين على القفز. لديهم معدَّات خاصَّة يمكن أن يربط إليها ويل (في ما يبدو كان الأمر الأكثر أهمية تأمين سيقانهم فلا تطير ركبهم وتضرب وجوههم).

كنت لأريه الكتيّب الخاص بالفندق لكني لم أكن لأخبره عن هذا. كنت سأذهب معه فقط وأشاهده يفعل ذلك. أثناء تلك الدقائق الثمينة سوف يكون ويل حرًّا وخفيفًا. سوف يتخلَّص من الكرسي الرهيب ويفلت من الجاذبية.

طبعت كل المعلومات وأبقيت تلك الصفحة في الأعلى. كلما نظرت إليها شعرت ببذرة الهياج تنمو لفكرة أنها رحلتي الطويلة الأولى ولفكرة أن هذا يمكن أن يتحقّق. هذا يمكن أن يكون الأمر الذي قد يغيّر رأي ويل.

***

صباح اليوم التالي كنت ونايثن منكبّين خلسة على قهوتنا في المطبخ كما لو أننا كنا نفعل شيئًا سرّيًّا. قلَّب الأوراق التي طبعتها.

«لقد تحدّثت مع معوّقين آخرين حول القفز بالمظلات. ليس هناك سبب طبي يمنعه من فعله. والغطس من مكان مرتفع. لديهم عدة خاصة للتخفيف من نقاط الضغط على عموده الفقري».

تفحّصت وجه نايثن بقلق. عرفت أنه لم يثمِّن قدراتي عندما كان الأمر يتعلّق باحتياجات ويل الطبية. كان مهمًا بالنسبة لي أنه كان سعيدًا بما خططت له.

«المكان هنا فيه كل شيء قد نحتاجه. يقولون إنه إذا اتصلنا مسبقًا وجلبنا وصفة طبّية، يمكنهم الحصول على أي أدوية عامة قد نحتاجها، وبالتأكيد لن نقع في النَّقص».

تجهّم وقال أخيرًا: «لقد قمتِ بعمل عظيم».

«هل تظن أنه سيعجبه؟».

تململ: «ليس لدي فكرة لكن...»، ناولني الأوراق: «لقد فاجأتني كثيرًا لو». ومع ابتسامة ماكرة وعريضة: «ما من سبب يمنعك من فعل ذلك ثانية».

عرضتها على السَّيدة ترينر قبل أن أغادر في المساء.

كانت للتو قد توقّفت في الدَّرب بسيارتها. توقَّفتْ بعيدًا عن مرأى نافذة ويل قبل أن أقترب منها.

قلت: «أعلم أن هذا مكلف، لكن... أظن بأنها تبدو فكرة رائعة. أنا حقًّا أظن أن ويل سوف يمضي وقتًا جيّدًا للغاية. إذا كنت تعلمين ما أعنيه».

نظرت في الأوراق بصمت ثم تفحّصت البنود التي جمعتها.

«سأدفع عن نفسي، إذا كنت تحبّين. من أجل السَّفر والإقامة. لا أريد لأي شخص أن يفكّر..».

قالت وهي تقاطعني: «إنها ممتازة، افعلي ما عليك فعله. إذا كنت تظنين بأن في وسعك أن تقنعيه بالذهاب ثم احجزي..».

فهمت ما كانت تقوله. لم يكن هناك وقت كثير.

قالت: «هل تظنين بأن في وسعنا إقناعه؟».

«حسنًا... سأقول له «ازدردت ريقي» إنه من أجلي. هو يظن بأني لم أفعل يومًا ما يكفي مع حياتي. ويقول لي إنَّ عليَّ أن أسافر... وأخرج وأفعل أمورًا كهذه».

نظرت إليَّ بعناية شديدة وأومأت: «نعم. هذا يبدو شبيهًا بويل». وناولتني الأوراق.

«أنا أقصد...»، التقطت أنفاسي ثم لمفاجأتي وجدت أني لم أستطع الكلام. ازدردت ريقي بصعوبة مرتين وأضفت: «ما قلته من قبل. لم أقصد أبدًا... سعادة ويل هي المهمة بالنسبة إليَّ. أنا...».

لم تبد أنها تريد أن تنتظرني لكي أتحدّث. حنت رأسها، وامتدت أصابعها الرفيعة نحو السلسلة حول عنقها.

«نعم. حسنًا، من الأفضل أن أدخل. سأراك غدًا. دعيني أعرف رأيه».

***

لم أعد إلى منزل باتريك ذلك المساء. كنت قد نويت ذلك، لكنّ شيئًا قادني بعيدًا عن المنطقة الصناعية، وبدلًا من ذلك عبرت الطريق وركبت الحافلة التي تذهب إلى البيت. مشيت الخطوات المائة والثمانين إلى منزلنا، ودخلت. كان مساءً دافئًا، وكانت كل النوافذ مفتوحة في محاولة لالتقاط النسيم. كانت أمي تطهو وتغنّي في المطبخ. وكان أبي على الأريكة يشرب كوبًا من الشَّاي، وجدّي غافيًا في كرسيه، رأسه متدلّيًا إلى أحد الجانبين. كان توماس يرسم برأس قلم أسود على حذائه. قلت مرحبًا، وعبرت بهم أتساءل كيف سريعًا صرت أشعر كما لو أني لم أعد أنتمي إلى هنا بعد الآن.

كانت ترينا تعمل في غرفتي. قرعت الباب ودخلت لأجدها منكبَّة على كومة من الدفاتر، وتضع على أنفها نظارة. لم أعرفها. كان غريبًا أن أراها محاطة بالأشياء التي اخترتها لنفسي وصور توماس تخفي الجدرانَ التي طليتها بعناية شديدة، وأثر خربشته لا يزال ظاهرًا على زاوية ستارتي. كان عليَّ أن أستجمع أفكاري فلا أشعر بالاستياء الفطري.

نظرت من فوق كتفها نحوي وقالت: «هل تريدني أمّي؟»، ورفعت بصرها إلى السَّاعة. «اعتقدت بأنها كانت ستحضّر لتوماس الشَّاي».

«هي تفعل. إنه يتناول أصابع سمك».

نظرت إليَّ ثم خلعت النظارة.

«هل أنت بخير؟ تبدين مريعة».

«وأنت كذلك».

«أعلم. لقد اتبعت هذه الحمية الحمقاء لإزالة السُّموم. لقد أصابتني بطفح جلدي». رفعت يدها إلى ذقنها.

«أنت لا تحتاجين إلى الحمية».

«نعم. حسنًا... هناك رجل يعجبني. إنه في السَّنة الثانية. اعتقدت بأني

يمكن أن أبدأ ببذل الجهد. طفح جلدي هائل على وجهك دومًا منظر جيد، صحيح؟».

جلست على السّرير. كان لحافي. كنت قد عرفت أن باتريك سوف يكرهه برسومه المجنونة الهندسية، وتفاجأت من أن كاترينا لم تفعل.

أغلقت كتابها واستندت إلى الوراء في كرسيّها.

«إذًا ما الذي يجري؟».

عضضت على شفتي إلى أن سألتني ثانية.

«ترين، هل تظنّين أن في وسعي تعلّم مهارات جديدة؟».

«تعلم؟ ماذا؟».

«لا أعرف. شيء له علاقة بالموضة، التصميم أو ربما الخياطة».

«حسنًا... بالتأكيد. هناك دورات. أنا واثقة بأن جامعتي تنظّم بعضها. يمكنني تفقّدها لو تريدين».

«لكن هل يقبلون أشخاصًا مثلي؟ من ليس لديهم مؤهلات؟».

رمت قلمها في الهواء والتقطته.

«أوه، إنهم يحبون الطُّلاب الناضجين لا سيما طلابًا ناضجين مع سيرة عمل جيدة. ربما عليك أن تقومي بدورة محادثة لكني لا أفهم لماذا؟ ما الذي يجري؟».

«لا أعرف. إنه فقط أمر قاله ويل منذ فترة عما عليَّ أن أفعله في حياتي».

«و..؟».

«وأنا أفكر باستمرار... ربما حان الوقت لأفعل ما تفعلينه. الآن أبي يمكنه أن يدعم نفسه، ربما لست الوحيدة القادرة على صنع شيء من نفسها؟».

«سيكون عليك أن تدفعي».

«أعلم. كنت أدّخر».

«أظن ربما أكثر قليلًا مما استطعت ادّخاره».

«يمكنني أن أتقدم بطلب منحة. أو ربما قرضًا. لدي ما يكفي لأباشر وإن قليلًا. التقيت بامرأة عضو في البرلمان، وقالت إنها على علاقة مع وكالة يمكنها أن تساعدني. أعطتني بطاقتها».

قالت كاترينا وهي تدور في كرسيّها: «توقفي، لم أفهم هذا حقيقة. اعتقدت بأنك تريدين البقاء مع ويل، اعتقدت بأن الفكرة كلها كانت أنك أردت أن تبقيه حيًّا وتعملين معه».

«سأفعل، لكن...»، حدّقت بالسّقف.

«لكن ماذا؟».

«الأمر معقّد».

«كذلك عبارة (التيسير الكمّي). لكني لا أزال أفهم أنها تعني أوراقًا نقديّة مطبوعة».

نهضت من كرسيها ومشت لتغلق باب غرفة النوم. أخفضت صوتها كي لا يسمع أحد في الخارج.

«هل تظنين بأنك ستخسرين، هل تظنين بأنه...».

«لا»، قلت سريعًا. «حسنًا.. آمل أن لا. لدي خطط. خطط كبيرة، سوف أريك».

«لكن...».

مددت ذراعي فوقي، وطويت أصابعي معًا. «لكن، يعجبني ويل كثيرًا».

تفحّصتني. استخدمت الوجه المفكّر. لم يكن هناك شيء يخيف أكثر من أختي عندما تستخدم وجهها المفكّر وتنظر نحوك مباشرة.

«أوه، اللعنة».

«لا...».

قالت: «إذًا هذا مثير للاهتمام».

«أعلم». أخفضت ذراعيَّ.

«تريدين عملًا. لذا...».

«هذا ما قاله لي مقعَدون آخرون. الأشخاص الذين أتحدّث إليهم على الموقع الإلكتروني. لا يمكن أن تكوني الاثنين معًا، لا يمكن أن تكوني جليسة و...»، رفعت يدي لأغطّي وجهي.

شعرت بعينيها عليّ.

«هل يعلم؟».

«لا. أنا لست واثقة، أنا فقط...»، رميت نفسي على سريرها بوجهي أولًا، كانت له رائحة توماس مزوَّدة بنفحة باهتة من مأكولات مارمايت.

«لا أعلم بم أفكّر. كل ما أعلمه هو أنني معظم الوقت أفضِّل أن أكون معه أكثر من أي شخص آخر أعرفه».

«بمن فيهم باتريك؟».

وكانت هناك في الخارج. الحقيقة التي بالكاد اعترفت بها لنفسي.

شعرت بخديَّ يتضرّجان وقلت في اللحاف: «نعم. أحيانًا، نعم».

قالت بعد دقيقة: «اللعنة، وأنا التي اعتقدت أني أحببت أن أعقِّد حياتي».

استلقت بجانبي على السَّرير، وحدّقنا بالسَّقف. من الأسفل سمعنا صفير جدّي على نحو غير متناغم مصحوبًا بعويل توماس يقود عربة بجهاز تحكم جيئة وذهابًا. امتلأت عيناي بالدموع. بعد دقيقة، شعرت بذراع أختي تلفّني.

قالت: «أنت امرأة مجنونة»، وبدأنا نضحك.

«لا تقلقي»، قلت وأنا أمسح وجهي: «لن أرتكب أي حماقة».

«جيّد. لأني كلما تأمّلت الموضوع فكّرت بحراجة الوضع. إنه ليس حقيقيًا، إنه حدث درامي».

«ماذا؟».

«حسنًا، هذه مسألة حياة أو موت حقيقية في النهاية، وأنت محبوسة في حياة هذا الرجل اليومية، في سرِّه الغريب. هذا سوف يخلق نوعًا من حميمية زائفة. إما هذا أو أنك ستصابين بعقدة فلورنس نايتنغايل[1]».

«صدقيني، ليس هذا هو الأمر».

استلقينا هناك نحدِّق في السقف.

«لكنه مجنون قليلًا التفكير في حبِّ شخص لا يمكنه... أنت تعلمين.. أن يحبك. ربما هذا مجرّد رد فعل مذعور على حقيقة أنك وباتريك عشتما أخيرًا معًا».

«أعلم. أنتِ على حق».

«وأنتما الاثنان معًا منذ وقت طويل. لا بد أن تعجبي بأناس آخرين».

«لا سيما أن باتريك ممسوس بكونه رجل الماراثون».

«وأنت قد تنصرفي عن ويل ثانية. أعني، أتذكّر عندما فكرتِ في أنه أبله».

«لا أزال أراه كذلك أحيانًا».

تناولت أختي منديلًا ومسحت عينيّ ثم أشارت نحو شيء ما على خدّي.

---

(1) عقدة فلورنس نايتنغايل: وهي حالة يتعلّق فيها مقدم الرعاية الصحية بمريضه ويبدي تجاهه مشاعر رومانسية، وقد سميت على اسم ممرضة رائدة في مجال التمريض اشتهرت في النصف الثاني من القرن التاسع عشر.

«ومع ذلك فكرة الكلية جيّدة. لأنها، لنكن أقل حدة، سواء فشل كل هذا مع ويل أم لم يفشل، أنت لا تزالين بحاجة إلى عمل مناسب. أنت لا تطمحين أن تكوني جليسة إلى الأبد».

«سوف لن "يفشل" كما سميته، مع ويل. إنه... سيكون بخير».

«بالتأكيد».

كانت أمي تنادي توماس. سمعناها وهي تغنّي تحتنا في المطبخ: «توماس. توم توم نوم توماس...».

تنهّدت ترينا وفركت عينيها.

«هل ستعودين إلى منزل باتريك الليلة؟».

«نعم».

«إذًا هل تريدين أن تشربي شرابًا سريعًا في الـ«سبوتيد دوغ» وتطلعيني على هذه الخطط؟ سأرى إذا كانت أمي تؤوي توماس إلى السَّرير بدلًا عني. هيا، يمكنك أن تدعيني على حسابك بالنظر إلى أنك الآن تملكين ما يكفيك للذهاب إلى الكلية».

***

كانت السَّاعة العاشرة إلّا ربعًا مساءً عندما عدت إلى منزل باتريك. لاقت خططي للإجازة استحسان كاترينا الكامل على نحو مدهش. وهي لم تقم بالإضافة كعادتها، «نعم، لكن قد يكون من الأفضل لو..». كانت هناك لحظة حيث تساءلت إذا كانت تفعل هذا فقط لتكون لطيفة، لأنه من الواضح أني كنت سأجنّ بعض الشَّيء. لكنها ظلّت تقول أمورًا من قبيل: «واو، لا يمكنني أن أصدق أنك وجدت هذا! عليك أن تلتقطي الكثير من الصور له وهو يقفز». و«تخيّلي وجهه عندما تحكين له عن القفز بالمظلّات، سوف يكون رائعًا».

قد يظن أي شخص يراقبنا في الحانة أننا صديقتان معجبتان ببعضنا

البعض. دخلت بهدوء وكنت لا أزال أفكّر عميقًا في ذلك. كانت الشَّقة معتمة من الخارج وتساءلت إذا كان باتريك قد خلد إلى النوم كجزء من تدريبه المكثّف. رميت حقيبتي على الأرض في الردهة ودفعت باب غرفة الجلوس، أفكّر وأنا أفعل ذلك أنه كان لطفًا منه أن يترك ضوءًا من أجلي. ثم رأيته. كان جالسًا إلى طاولة مع مكانين وشمعة تومض بينهما. وقف عندما أغلقت الباب خلفي. كانت الشَّمعة تحترق مقتربة من القاعدة.

قال: «أنا آسف».

حدَّقت فيه.

« كنت أبله. أنت على حق. عملك هذا هو لستة أشهر فقط، وكنت أتصرَّف كطفل. يجب أن أكون فخورًا بأنك تقومين بشيء جدير بالأهمية للغاية، وآخذ كل هذا على محمل الجد. كنت فقط مضطربًا قليلًا لذا أنا آسف حقًّا».

مدَّ يده وأمسكت بها.

«جيد أنك تحاولين أن تساعديه. هذا مثار للإعجاب».

«شكرًا لك». شددت على يده.

تكلّم ثانية بعد أن التقط نفسًا قصيرًا، كما لو أنه تمكن بنجاح من إلقاء خطاب تمرّن عليه سابقًا.

«لقد صنعت عشاء. أخشى أنه سلطات مرة أخرى». مدَّ يده نحو الثلاجة وجاء بطبقَيْن. «أعد بأننا سوف نذهب إلى مكان ما لتناول وجبة سخية بعد أن ينتهي الفايكنغ. أو ربما عندما أكون في مرحلة تحميل الكربوهيدرات. أنا فقط..»، نفخ خديه: «أظن بأني لم أكن قادرًا على التفكير بأي شيء آخر مؤخّرًا. أظن هذا كان جزءًا من المشكلة. وأنت على حق. ليس هناك سبب يدعوك لأن تتبعيني. إنه أمر يخصُّني، لديك كل الحق في العمل بدلًا من ذلك».

قلت: «باتريك...».

«لا أريد أن أتجادل معك، لو. سامحيني؟».

كانت عيناه متلهفتين وكانت تفوح منه رائحة الكولونيا. استقبلت هذين الأمرين بثقل كبير.

قال: «اجلسي بأي حال، لنأكل، ثم... لا أعرف. نمتّع أنفسنا. نتحدّث عن شيء آخر. غير الركض». وضحك ضحكة مصطنعة.

جلست ونظرت إلى الطاولة. ثم ابتسمت قلت: «هذا لطيف حقًّا».

يمكن لباتريك أن يحضِّر مائة وصفة بصدر الحبش.

تناولنا سلطة الخضار وسلطة الباستا وسلطة ثمار البحر وسلطة فاكهة غريبة حضّرها كنوع من الحلوى، وشربت النبيذ وهو شرب المياه المعدنية. استغرقنا هذا فترة، لكننا بدأنا نسترخي. كان باتريك هناك أمامي كما لم أره منذ مدة. كان مسلّيًا ومنصتًا. حافظ على نفسه بصلابة فلم يقل شيئًا عن الركض أو الماراثون، وضحك كلما انتبه إلى أن المحادثة تنعطف في ذلك الاتجاه. شعرت بقدمه تلاقي قدمي تحت الطاولة وانجدلت ساقانا وببطء شعرت بشيء كان قاسيًا وغير مريح ينمو في صدري.

كانت أختي على حق. كانت حياتي قد أصبحت غريبة ومفكّكة عن كل من عرفتهم - غمرتني ورطة ويل وأسراره. كان عليَّ أن أتأكد من ألّا يغيب عن ناظريَّ أبدًا. بدأت أشعر بالذنب حول المحادثة السَّابقة مع أختي. لم يسمح لي باتريك بالنهوض، ليس حتى لمساعدته في غسل الأطباق. نهض عند السَّاعة الحادية عشرة والربع ونقل الأطباق إلى المطبخ الصغير وبدأ يضعها في الجلاية. جلست أصغي إليه وهو يتحدَّث معي من خلال العتبة الصغيرة. كنت أفرك نقطة التقاء عنقي بكتفي محاولةً أن أحرر شيئًا من العقد التي بدت منغرسة بحزم هناك. أغمضت عينيَّ أحاول أن أسترخي فمرت بضع دقائق قبل أن أدرك أن المحادثة توقّفت.

فتحت عينيّ. كان باتريك واقفًا يمسك ملف الإجازة. رفع عدة قصاصات من الأوراق.

«ما كل هذا؟».

«إنها الرحلة التي أخبرتك عنها».

راقبته يقلّب عبر الأوراق التي أريتها لأختي، مستغرقًا في برنامج الرحلة، والصور، وشاطئ كاليفورنيا.

عندما انبثق صوته بدا مخنوقًا بغرابة: «اعتقدت... اعتقدت أنك كنت تتحدّثين عن اللورد».

«ماذا؟».

«أو... لا أعرف... ستوك ماندفيل... أو مكان ما. اعتقدت عندما قلت بأنك لا تستطيعين المجيء لأن عليك مساعدته، كان عملًا فعليًا. علاج فيزيائي أو شفاء إيماني، أو شيء ما. هذا يبدو مثل...»، هز رأسه غير مصدّق: «هذه تبدو مثل إجازة العمر».

«حسنًا... هي شيء من هذا القبيل. لكن ليس من أجلي بل من أجله».

كشّر باتريك قال وهو يهزّ رأسه: «لا... أنت لن تستمتعي بهذا على الإطلاق. حمامات ساخنة تحت النجوم، السّباحة مع الدلافين... أوه، انظري: «ترف خمس نجوم»، و«خدمة غرف على مدى أربع وعشرين ساعة»..»، نظر نحوي: «هذه ليست رحلة عمل، هذا شهر عسل لعين».

«لا تكن سخيفًا».

«لكن هذه هي. أنت... حقًّا تتوقعين مني أن أجلس هنا وأنت تذهبين لتتسلّي مع رجل آخر في إجازة مثل هذه؟».

«مقدّم الرعاية الخاص به سيأتي معنا أيضًا».

«أوه. أوه نعم. نايثن. هذا يجعل الأمور على ما يرام إذًا».

«باتريك، هيا - الأمر معقّد».

«إذًا اشرحيه لي». رمى الأوراق نحوي. «اشرحيه لي لو، اشرحيه بِطريقة أستطيع فهمها».

«يهمني أن يرغب ويل في الحياة، وأن يرى أشياء جيدة في مستقبله».

«وهذه الأمور الجيدة أنت من ضمنها؟».

«هذا ليس منصفًا. أنظر، هل طلبت منك يومًا أن تتوقّف عن القيام بالعمل الذي تحب؟».

«عملي لا يتضمّن الحمّامات السَّاخنة مع رجال غرباء».

«حسنًا، لا أمانع لو كان يتضمّن ذلك. يمكنك أن تكون في الحمام السَّاخن مع رجال غرباء! قدر ما تحب! هناك!». حاولت أن أبتسم على أمل أن يفعل أيضًا. لكنه لم يكن يبتسم.

« كيف ستشعرين لو؟ كيف ستشعرين إذا قلت بأني كنت اتفقت مع لا أعرف – ليني من التيررز، للمحافظة على اللياقة لأنها احتاجت أن تبتهج؟».

«تبتهج؟»، فكّرت في ليني بشعرها الأشقر المهتز وساقيها الجميلتين وتساءلت بذهول لماذا فكّر باسمها أولًا.

«ثم كيف ستشعرين إذا قلت إنها وأنا كنا نذهب لنتناول الطعام معًا طوال الوقت، وربما نجلس في حمام ساخن أو نذهب في رحلة لأيام معًا. نحو وجهة تبعد ستة آلاف ميل فقط لأنها كانت محبَطة قليلًا. ألا يزعجك هذا؟».

«إنه ليس «محبَط» بات. هو يريد أن يقتل نفسه. هو يريد أن ينتحر في «ديجنتاس»، وينهي حياة جسده». سمعت دمي يخبط في أذني. «وأنت لا تستطيع أن تقلب الأمر بهذا الشَّكل. أنت كنت الشَّخص الذي سمّى ويل كسيحًا. كنت الشَّخص الذي لاحظت أنه لا يمكن أن يكون تهديدًا لك. قلت: «رب العمل المثالي». شخص لا يستحق القلق بشأنه».

أعاد المجلد على الطاولة.

«حسنًا، لو... أنا منزعج الآن».

وضعت وجهي بين يديّ وتركته هناك لدقيقة. سمعت من الممر صوت سلم يهتز وأصوات أناس يصعدون عندما انفتح باب وأنغلق من خلفهم. زلق باتريك يده ببطء جيئة وذهابًا على حافة الطاولة. ظهرت عضلة صغيرة في فكه.

«هل تعلمين كيف يبدو هذا لو؟ إنه كما لو أني أركض، لكني أشعر بأني دائمًا خلف البقية. أشعر كما...»، أخذ نفسًا عميقًا كما لو أنه كان يحاول أن يستعيد رباطة جأشه: «أشعر كما لو أن هناك شيئًا سيئًا خلف المنعطف، والجميع يبدو أنه يعرف إلّا أنا». رفع عينيه نحو عينيّ. «لا أظن أني غير منطقي. لكني لا أريدك أن تذهبي. لا أهتم إذا كنت لا تريدين أن تقومي بالفايكنغ، لكن لا أريدك أن تذهبي في هذه... الإجازة معه».

«لكن أنا...».

«تقريبًا سبع سنوات معًا. وأنت عرفت هذا الرجل، حصلت على هذا العمل، منذ خمسة أشهر. خمسة أشهر. إذا ذهبت معه الآن أنت تقولين لي شيئًا عن علاقتنا. عن شعورك بشأننا».

احتجّيت قائلة: «ليس هناك ما يتعلّق بشأننا».

«بل له علاقة إذا كنت أستطيع قول كل هذا وأنت لا تزالين راغبة بالذهاب».

بدت الشَّقة الصغيرة هادئة جدًّا من حولنا. كان ينظر نحوي بتعبير لم يسبق أن رأيته من قبل.

عندما انبثق صوتي كان مثل وشوشة: «لكنه يحتاجني».

أدركت حالما قلتها تقريبًا، سمعت الكلمات وكيف تلوَّت وانتظمت من جديد في الهواء، عرفت كيف سيكون شعوري إذا قال لي الأمر نفسه.

ازدرد ريقه، هزَّ رأسه قليلًا كما لو أنه كان يصعب عليه فهم ما قلته. جاءت يده لترتاح على جانب الطاولة، ثم رفع بصره إليَّ.

«أي إن ما قلته لن يحدث فرقًا، صحيح؟».

ذلك كان الأمر عن باتريك. هو كان دومًا أذكى مما قدّرت.

«باتريك، أنا..».

أغمض عينيه فقط للحظة ثم استدار وخرج من غرفة الجلوس تاركًا بقية الأطباق المتّسخة على صِوان السفرة.

21

ستيفن

انتقلت الفتاة أثناء عطلة نهاية الأسبوع. لم يقل ويل لي أو لكاميلا شيئًا، لكني دخلت إلى الملحق صباح يوم سبت وكنت لا أزال في ثياب النوم لأرى إذا كان ويل بحاجة إلى مساعدة، إذ كان نايثن قد تأخّر، وكانت هناك، تصعد الرواق ومعها وعاء مليء بحبوب الإفطار في يد والصَّحيفة في اليد الأخرى. تورَّدت عندما رأتني. لا أعرف السَّبب - كنت أرتدي ثياب النَّوم، بشكل لائق تمامًا. أفكّر بتلك الحقبة عندما كان من الطبيعي أن تجد شابات يتسلّلن من غرفة نوم ويل في الصَّباح.

قلت: «أنا فقط جئت لويل ببريده»، وكنت ألوّح به.

«لم يستيقظ بعد. هل ترغبين أن أوقظه؟». ذهبت يدها إلى صدرها، تستر نفسها بالصَّحيفة. كانت ترتدي كنزة عليها صورة ميكي ماوس وبنطالًا مطرزًا من النوع الذي ترتديه النساء الصِّينيات في هونغ كونغ.

«لا، لا. ليس إذا كان نائمًا. دعيه يرتاح».

عندما أخبرت كاميلا، اعتقدتُ بأنها سوف تسرّ. ففي آخر الأمر هي كانت مستهجنة للغاية انتقال الفتاة للسكن مع صديقها. لكنها فقط بدت متفاجئة بعض الشَّيء، ثم تبنَّت ذلك التعبير المتوتّر الذي عنى أنها كانت تتخيل سلفًا كل أنواع العواقب الممكنة وغير المرغوبة. لم تقل الكثير،

لكني كنت واثقًا من أنها لم تتحمّس للويزا كلارك. مع ذلك، لم أكن أعرف ما الذي كانت كاميلا تستسيغه في تلك الأيام. فقد بدا أن وضعها الطبيعي أصبح الاستهجان.

لم نكتشف يومًا حقيقة ما حضَّ لويزا على البقاء - قال ويل فقط: «مسائل عائلية» - لكنها كانت شيئًا صغيرًا منشغلًا. عندما لم تكن تعتني بويل، كانت مفعمة بالحيوية، تنظّف وتغسل، تنطلق جيئة وذهابًا إلى وكالة السَّفر وإلى المكتبة. كنت أتعرف إليها أينما رأيتها في البلدة لأنها كانت ماثلة للعيان جدًّا. ارتدت ثيابًا صارخة اللون لم يلبسها أحد خارج المناطق الاستوائية - فساتين صغيرة متعدّدة الألوان وأحذية غريبة الشَّكل.

كان لي أن أقول لكاميلا إنها أضفت على المكان بهجة. لكن لم أتمكن من إبداء ذلك النوع من الملاحظات لكاميلا أبدًا. يبدو أن ويل أخبرها أن في وسعها استخدام حاسوبه، لكنها رفضت، مفضِّلة استعمال تلك الحواسيب في المكتبة. لا أعرف إذا كانت تخشى من أن ينظر إليها باعتبارها مستغِلّة، أو لأنها ليست راغبة أن يرى ما كانت تفعل.

أيًّا كان، بدا ويل أكثر سعادة بقليل في وجودها. سمعت مرتين محادثتهما ترشح عبر نافذتي المفتوحة، وأنا واثق من أني سمعت ويل يضحك. تحدَّثت إلى برنارد كلارك، وتأكدت من أنه كان سعيدًا للغاية من الترتيب، وقال إن الأمر كان صعبًا إلى حدٍّ ما عندما انفصلت عن صديقها الذي كانت تربطها به علاقة طويلة الأمد، وبدا أن جميع الأمور يشوبها الغموض في بيتهم. هو ذكر أيضًا أنها تقدّمت إلى دورة تأهيل لتواصل دراستها. قررت ألا أخبر كاميلا بذلك. لم أرغب أن تفكّر بما قد يعنيه هذا. قال ويل إنها كانت تهتم بالموضة وهذا النَّوع من الأمور. بالتأكيد كانت أنيقة، ولها هيئة محببة -لكن، صدقًا، لم أكن واثقًا من قد يشتري أنواع الثياب التي ارتدتها.

مساء يوم الاثنين، طلبت مني ومن كاميلا أن ندخل مع نايثن إلى

الملحق. كانت قد بسطت على الطاولة الكتيّبات، وجدول مواعيد مطبوعًا، ووثائق تأمين، وأمورًا أخرى كانت قد طبعتها عن شبكة الإنترنت. كانت هناك نسخة لكل واحد منا موضوعة في مغلّف بلاستيك شفّاف. كان كل شيء منظّمًا إلى أبعد حد. قالت إنها أرادت أن تعرض لنا ولويل خططها الخاصّة بالإجازة. (كانت قد أعلمت كاميلا بأنها سوف تجعل الأمر يبدو كما لو أنها هي المستفيدة، لكن لا أزال أرى عيني كاميلا تصبحان فولاذيتين بعض الشيء وهي تروي بتفصيل جميع الأمور التي حجزتها من أجلهم).

كانت رحلة استثنائية بدا أنها تشتمل على كل أنواع النّشاطات المستغربة، أشياء لم أتخيل أن ويل يقوم بها حتى قبل الحادثة. لكن كلما أشارت إلى أمر - ركوب مياه النهر، أو القفز بواسطة الحبال - كانت ترفع وثيقة أمام عيني ويل، وتريه شبانًا آخرين مصابين يمارسونها، وتقول: «إذا كنت سأجرّب كل هذه الأمور التي لا تكف عن القول بأن عليَّ تجريبها، إذًا عليك أن تجرّبها معي».

عليَّ أن أعترف، كنت متأثرًا بها خفيةً. كانت فتاة صغيرة واسعة الحيلة. أصغى ويل إليها، ورأيته يقرأ الوثائق التي بسطتها أمامه.

قال أخيرًا: «أين عثرتِ على كلِّ هذه المعلومات؟».

رفعت حاجبيها له وقالت: «المعرفة قوة، ويل».

وابتسم ابني كما لو أنها قالت شيئًا ذكيًا ملفتًا.

قالت لويزا بعد أن طرحت جميع الأسئلة: «إذًا، سنغادر خلال ثمانية أيام. هل أنت سعيدة سيدة ترينر؟». كان يشوب نبرتها جو خفيف من المجابهة، كما لو أنها كانت تتحدّى كاميلا أن تجيب بلا.

قالت كاميلا: «إذا كان هذا ما تريدونه جميعًا، فأنا أجده ممتازًا».

«نايثن؟ ألا زلت مهتمًا به؟».

«بالتأكيد».

«و...ويل؟».

نظرنا جميعنا إليه. كان هناك وقت ليس ببعيد، عندما لم يكن أي من هذه النشاطات واردًا. كان هناك وقت عندما كان لويل أن يستمتع في قول لا، فقط ليزعج أمه. لطالما كان ابننا هكذا - قادرًا على فعل نقيض ما هو صحيح، ببساطة لأنه لم يرغب أن يُعتبر ممتثلًا بطريقة ما. لا أعرف من أين أتى هذا الدَّافع للتقويض. ربما هو ما جعل منه مفاوضًا ألمعيًا.

رفع بصره نحوي، عيناه غير مقروءتين، وشعرت بأن فكّي يتوتّر. ثم نظر إلى الفتاة وابتسم.

قال: «لم لا؟ أنا أتطلع لرؤية كلارك ترمي بنفسها نحو بعض المنحدرات».

بدت الفتاة أنها تنكمش بدنيًا قليلًا - بارتياح - كما لو أنها كانت تنتظر رفضه إلى حد ما.

إنه مسلٍّ. أعترف أنه عندما دخلت حياتنا في البداية كنت مرتابًا منها بعض الشَّيء. كان ويل، على الرغم من كل تبجّحه عرضة للهجوم. كنت أخشى من أن يتم التَّلاعب به. إنه شاب ثريّ على الرغم من كل شيء، وهرب أليسيا البائسة مع صديقه جعله يشعر بانعدام الجدوى، كما يمكن أن يشعر أي شخص في مكانه. لكنني رأيت كيف نظرت لويزا إليه ذلك اليوم وهي تستعرض الرحلة، على وجهها مزيج غريب من الفخر والامتنان، وكنت مسرورًا للغاية فجأة من وجودها. كان ابني، على الرغم من أننا لم نقل يومًا الكثير، في أشد الحالات التي لا تطاق. مهما يكن ما كانت تفعله، بدا أنه يعفيه لفترة قصيرة من ذلك.

لبضعة أيام ساد في المنزل مناخ احتفالي طفيف لكنه مؤكَّد. بدت كاميلا أنها مشجّعة بهدوء، على الرغم من أنها رفضت أن تعترف لي بحقيقة الأمر. عرفت ما بين السُّطور: بماذا علينا أن نحتفل، بعد أن قيل كل

شيء وتم تنفيذه؟ سمعتها على الهاتف تتكلّم مع جورجينا في وقت متأخر من الليل، تبرر موافقتها. كانت جورجينا، ابنة أمها، تبحث عن أي طريقة ربما تكون لويزا قد استغلّت من خلالها وضع ويل لصالحها.

قالت كاميلا: «لقد عرضت أن تدفع عن نفسها، جورجينا»، و«لا، عزيزتي. لا أظن أن لدينا خيارًا. لدينا وقت قصير جدًّا وويل وافق على الرحلة، لذا أنا سآمل فقط بالأفضل. أظنُّ أن عليك أن تفعلي المثل الآن».

عرفت كم يكلّفها أن تدافع عن لويزا، وأن تكون أيضًا لطيفة معها. لكنها احتملت تلك الفتاة لأنها عرفت مثلما عرفتُ، أن لويزا كانت فرصتنا الوحيدة لإسعاد ابننا ولو جزئيًا. أصبحت لويزا كلارك على الرغم من أن أحدنا لم يفصح عن ذلك، فرصتنا الوحيدة لإبقائه على قيد الحياة.

***

ذهبت لتناول الشَّراب مع ديلا الليلة الماضية. كانت كاميلا تزور أختها، مشينا بحذاء النهر في طريق العودة.

قلت: «سيذهب ويل في إجازة».

أجابت: «يا للروعة».

ديلا المسكينة. أراها تقاتل رغبتها الفطرية في سؤالي عن مستقبلنا - أن أفكّر كيف قد يؤثر عليه هذا التطور غير المتوقَّع - لكنني لم أَخَلْ أنها ستفعل يومًا. ليس قبل أن يحلّ هذا كلّه.

مشينا، نشاهد طيور التَّم، نبتسم للسُّياح يطرطشون الماء في مراكبهم في شمس باكورة المساء، وتحدّثت عن كيف أن هذا قد يكون بالفعل رائعًا لمصلحة ويل، وربما دلَّ على أنه حقًّا يتعلّم التكيُّف مع وضعه. كان لطفًا منها أن تقول ذلك، كما عرفت أنها، ببعض الصِّلة، قد أمِلت بنهاية لكل هذا على نحو مشروع. كان حادث ويل قد بتر خططنا في الحياة معًا في النهاية. لا بد أنها أملت في سرِّها أن تنتهي مسؤولياتي تجاه ويل ذات يوم وعندها يمكن أن أكون حرًّا.

ومشيت بجانبها، أشعر بيدها تستريح في طيَّة ذراعي، وأصغي إلى صوتها الرتيب. لم أتمكَّن من إخبارها بالحقيقة - الحقيقة التي لم يعلم بها إلّا القليل منا. إنه إذا فشلت الفتاة في المنتجعات والقفز من الأعالي والحمامات الساخنة وأيًّا يكن، ستكون بشكل متناقض قد حررتني. لأن الطريقة الوحيدة التي سأكون فيها قادرًا على مغادرة عائلتي هي إذا قرر ويل في النهاية أنه لا يزال مصمّمًا على الذهاب إلى مكانه اللعين في سويسرا.

عرفت ذلك، وكاميلا عرفته. حتى لو لم يعترف أيّ منا به لنفسه. فقط بموت ابني قد أكون حرًّا لأعيش حياة من اختياري.

قالت وهي ترى ملامحي: «لا تفعل».

عزيزتي ديلا. يمكنها أن تعرف ما كنت أفكّر فيه، حتى عندما لم أكن أعرف شخصيًا.

«إنها أخبار جيّدة ستيفن. حقًّا. أنت لا تعرف أبدًا، تلك قد تكون بداية لحياة كاملة جديدة مستقلّة لويل».

وضعت يدي على يدها. رجل أكثر شجاعة ربما قال لها ما فكَّرتُ فيه حقًّا. رجل أكثر شجاعة لكان تركها تذهب منذ وقت طويل - هي، وربما زوجتي أيضًا.

قلت وأنا أجبر نفسي على الابتسام: «أنت على حق. لنأمل بأن يعود مليئًا بأحاديث عن حبال القفز أو أي رعب يحب الشَّبان أن يلحقوه ببعضهم البعض».

وكزتني بمرفقها: «هو ربما يجعلك تعرض واحدًا في القلعة».

قلت: «ركوب الطَّوف في الخندق المائي؟ سوف أسجّله باعتباره كاحتمال ممكن من أجل موسم الصيف القادم».

مشينا نضحك أحيانًا في خفوت، طوال الطريق نحو مبنى إيواء القوارب متمسكين بهذا الأمل البعيد.

ثم أصيب ويل بذات الرئة.

22

هرعت إلى قسم الحوادث والطوارئ. كان عليَّ أن أسأل ثلاث مرات قبل أن يشير أحدهم نحو الاتجاه الصحيح. أخيرًا فتحت الأبواب المؤدية إلى الجناح س 12، متقطّعة الأنفاس لاهثة، وهناك في الممر كان نايثن جالسًا يقرأ صحيفة. رفع بصره عندما اقتربت منه.

«كيف حاله؟».

«على المنفسة. مستقر».

«لا أفهم. كان بخير ليلة الجمعة. كان يسعل قليلًا صباح السبت، لكن.. لكن هذا.. ماذا حدث؟».

كان قلبي يخفق. جلست للحظة أحاول التقاط أنفاسي. كنت أجري منذ ساعة عندما تلقّيت رسالة نايثن على هاتفي النَّقال. استقام في جلسته وطوى صحيفته.

«هذه ليست المرة الأولى، لو. هو يلتقط الجراثيم في رئتيه، آلية سعاله لا تعمل كما ينبغي، هو يتراجع بسرعة كبيرة، حاولت أن أجري له بعض تقنيات التَّصفية أصيل يوم السَّبت لكنه كان يتألم كثيرًا. أصابته الحمى فجأة، ثم عانى من ألمٍ حادٍّ في صدره. كان علينا أن نتصل بالإسعاف ليلة السَّبت. آسف - كان عليَّ الاتصال بك لكن ويل أصرَّ على ألا نزعجك».

قلت وأنا أنحني: «اللعنة، اللعنة. هل يمكنني الدخول؟».

«إنه متعَبٌ للغاية. لست واثقًا من أنك ستحصلين على الكثير منه كما أن السَّيدة ترينر معه».

تركت حقيبتي مع نايثن، نظَّفت يديّ بسائل مضاد للجراثيم، ثم دفعت الباب ودخلت.

كان ويل ممددًا على سرير المستشفى، جسده مغطى بغطاء أزرق اللون، موصول إلى منقِّط (مصل) ومحاط بآلات عدّة تطلق أصواتًا بشكل متقطع. كان وجهه محجوبًا جزئيًا بقناع أكسجين وعيناه مغمضتين. بدت بشرته شاحبة، يشوبها بياض مزرقّ جعل شيئًا فيَّ ينقبض. جلست السَّيدة ترينر قربه يدها مرتاحة على ذراعه المغطاة. كانت تحدِّق غير مبصرة في الجدار المقابل.

قلت: «سيدة ترينر».

لمحتني مجفلة: «أوه. لويزا».

«كيف... كيف حاله؟». أردت أن أذهب وأمسك بيد ويل الأخرى لكني لم أشعر بأني أستطيع الجلوس. حمت هناك عند الباب. كان على وجهها سيماء من الحزن لدرجة أنه حتى وجودي في الغرفة بدا كأنه اعتداء.

«أفضل قليلًا. اعطوه مضادات التهاب قوية».

«هل من شيء يمكنني فعله؟».

«لا أظن ذلك، لا. علينا أن ننتظر. سوف يمر الأخصائي خلال ساعة، سيكون قادرًا على أن يعطينا المزيد من المعلومات، هذا ما آمله».

بدا أن العالم توقّف. وقفت هناك مدة أطول قليلًا، تاركة صفير الآلات الثَّابت يحرق إيقاعًا في وعيي.

«هل تودِّين أن أبقى قليلًا؟ فيمكنك أن تحظي باستراحة؟».

«لا. أظن أني سأبقى».

بعض مني كان يأمل في أن يتمكَّن ويل من سماع صوتي. بعض مني كان يأمل في أن تنفتح عيناه فوق ذلك القناع البلاستيك، وأن يتمتم: «كلارك. تعالي واجلسي، بحقِّ الله أنت تجعلين المكان يبدو غير مرتب».

لكنه استلقى هناك.

مسحت وجهي: «هل تودِّين أن أجلب لك شرابًا؟».

رفعت السيدة ترينر بصرها: «كم الساعة؟».

«العاشرة إلّا ربعًا».

«حقًّا؟». هزَّت رأسها، كما لو أنها وجدت من الصَّعب تصديق ذلك.

«شكرًا لك لويزا. ذلك قد يكون لطف منك. أشعر بأنني كنت هنا منذ وقت طويل».

كنت في إجازة يوم الجمعة – من ناحية لأن عائلة ترينر أصرّوا أني كنت أدين لهم بيوم إجازة، لكن غالبًا لأنه لم يكن من سبيل للحصول على جواز سفر سوى بأن أتوجَّه إلى لندن على متن القطار وأصطف عند شارع بيتي فرانس. كنت قد عرَّجت على منزلهم ليل الجمعة في طريق عودتي لأري ويل مغانمي، ولأتأكد من أن جواز سفره لا يزال صالحًا. اعتقدت بأنه كان هادئًا قليّلا، لكن لم يكن هناك شيء خاص غير معتاد في ذلك. في بعض الأيام كان في حالة انزعاج أكثر من أيام أخرى. كنت قد افترضت أنه كان يومًا من تلك الأيام. إذا كنت صادقة، كان عقلي يعج بخطط سفرنا فلم يكن ممكنًا أن أفكّر بأي شيء آخر.

أمضيت صباح السَّبت وأنا أجلب حاجياتي من منزل باتريك يساعدني أبي، ثم ذهبت للتسوق في الشَّارع الرئيس مع أمي في الأصيل لأشتري لباس البحر وبعض الحاجيات الضرورية للإجازة، وبقيت في منزل والديَّ يومي السَّبت والأحد. كان ضغط شديد بوجود ترينا وتوماس هناك أيضًا. صباح يوم الاثنين نهضت عند السَّابعة جاهزة لأكون في منزل ترينر في السَّاعة الثامنة. وصلت إلى هناك لأجد أن المكان كله مغلق، البابان

الأمامي والخلفي مقفلان. لم يكن هناك ملحوظة. وقفت على الشُّرفة الأمامية واتصلت بنايثن ثلاث مرات من دون جواب. كان هاتف السَّيدة ترينر موضوعًا على البريد الصوتي. أخيرًا وأنا جالسة على الدرج لمدة خمس وأربعين دقيقة وصلت رسالة من نايثن.

أصيب ويل بذات الرئة. نحن في مستشفى المقاطعة. الجناح س 12.

ما إن وصلت إلى المستشفى حتى غادر نايثن وجلست أمام غرفة ويل ساعة أخرى. تصفَّحت المجلات التي تركها أحدهم على ما يبدو على الطاولة منذ العام 1982 ثم سحبت كتابًا من حقيبتي وحاولت أن أقرأ لكن كان مستحيًلا التركيز.

جاء الطبيب المختص لكني لم أشعر بأني أستطيع أن أتبعه إلى الغرفة بينما كانت والدة ويل هناك. عندما خرج بعد خمس عشرة دقيقة خرجت السَّيدة ترينر خلفه. أنا لست واثقة إذا كلمتني لأنها كان عليها أن تتحدّث إلى شخص وكنت الشَّخص الوحيد المتوفر، لكنها قالت بصوت غليظ بارتياح إن الطبيب كان واثقًا من أنه تمت السَّيطرة على العدوى. كانت نوعًا من سلالة جرثومية خبيثة على وجه الخصوص، وكان من حسن الحظ أن ويل ذهب إلى المستشفى عندما، أو... تلك الـ«أو...» علقت في الصَّمت في ما بيننا.

قلت: «إذًا ماذا نفعل الآن؟».

هزَّت كتفيها: «ننتظر».

«هل تودين أن أجلب لك الغداء؟ أو ربما أجلس مع ويل بينما تذهبين وتتناولين القليل؟».

فقط بين الحين والآخر عبر شيء مثل التفاهم بيني وبين السَّيدة ترينر. ارتاح وجهها بإيجاز ورأيت محل ذلك التعبير القاسي المألوف فجأة كم بدت متعبة على نحو يائس. أظنّ [أنها هرمت عشر سنوات في الأشهر التي أمضيتها معهم.

قالت: «شكرًا لك لويزا، أود أن أسرع إلي البيت لأغيّر ملابسي إن لم يكن لديك مانع من الجلوس معه، لا أريد حقًّا أن يُترك ويل وحيدًا الآن».

دخلت بعد أن ذهبت، أغلقت الباب خلفي، وجلست بجانبه. بدا غائبًا بغرابة كما لو أن ويل الذي أعرفه ذهب في رحلة قصيرة إلى مكان آخر وترك فقط صَدفة. تساءلت إذا كان ذلك ما يحدث عندما يموت الناس. ثم قلت لنفسي أن أتوقف عن التفكير بالموت. جلست وراقبت السَّاعة وسمعت أصواتًا تتمتم بين الحين والآخر في الخارج، وصرير أحذية خفيف على مشمع الأرضية. جاءت ممرضة مرتين وتأكدت من الوضع. ضغطت على عدة أزرار وقاست الحرارة، لكن ويل لم يتحرّك.

سألتها: «إنه بخير، أليس كذلك؟».

قالت بثقة: «إنه نائم، ربما هذا أفضل شيء من أجله الآن. حاولي ألّا تقلقي».

هذا أمر سهل قوله. لكن كان لديّ الكثير من الوقت للتفكير في غرفة المستشفى تلك. فكرت بويل والسُّرعة المخيفة التي مرض فيها على نحو خطر. فكرت بباتريك، وواقعة أنه على الرغم من أني جمعت حاجياتي من شقته، وطويت روزنامة الحائط، وحزمت الثياب التي وضعتها بعناية كبيرة في أدراجه، لم يكن حزني بالقدر الذي كان عليَّ توقّعه. لم أشعر بالهجر، أو الارتباك، أو أي من الأشياء التي عليك أن تشعر بها عندما تنفصل عمَّن كان لك حبيبًا منذ سنوات. شعرت بهدوء تام وببعض الحزن، وربما ببعض الذنب - من جهتي في الانفصال ومن حقيقة أني لم أشعر بالأمور التي عليَّ أن أشعر بها. كنت قد أرسلت له رسائل نصّية لأقول إني حقًّا آسفة وأني أملت بأن يبلي بلاء حسنًا في الفايكنغ اكستريم لكنه لم يجب.

انحنيت بعد ساعة ورفعت الغطاء عن ذراع ويل، وهناك كانت يده سمراء شاحبة إزاء الملاءة البيضاء، كانت إبرة موضوعة على ظاهرها مع لاصق طبي، عندما قلبتها كانت النُّدوب لا تزال واضحة على معصمه،

تساءلت إذا ما كانت ستزول ذات يوم أو إذا كان سيتذكّر بشكل دائم ما حاول فعله. أمسكت أصابعه بلطف في يدي وأغلقتها عليها. كانت دافئة، أصابع شخص حيٍّ جدًّا. كنت مطمئنة بغرابة لملمسها في يدي فأبقيتها، أحدّق فيها، بالجلد المتصلِّب الذي حكى عن حياة لم تعَش بكاملها وراء المكتب، في أظافر زهرية صدفية اللون تكون دومًا مشذَّبة من قبل شخص آخر. كانت يدا ويل يدي رجل، جيدتين وجذّابتين ومنبسطتين، بأصابع مربعة كان من الصعب أن تنظر إليها وتصدّق أنها عديمة القوة، وأنها لن تلتقط ثانية شيئًا عن طاولة، أو تضرب ذراعًا، أو تلكم. تتبعت مفاصل أصابعه بأصبعي. جزء صغير مني تساءل ما إذا عليَّ أن أصاب بالإحراج إذا فتح ويل عينيه الآن، لكنني لم أشعر بذلك. شعرت ببعض اليقين أنه من الجيد له أن يضع يده في يدي. على أمل أنه بطريقة ما، عرف هذا أيضًا من خلال حاجز نومه المخدّر. أغمضت عينيَّ وانتظرت.

***

استيقظ ويل بعيد السَّاعة الرابعة. كنت في الخارج في الممر مستلقية على الكراسي أقرأ صحيفة متروكة، وقفزت عندما خرجت السَّيدة ترينر لتقول لي... بدت مشرقة قليلًا عندما أشارت إلى أنه كان يتحدّث وأنه أراد أن يراني. قالت إنها ستنزل إلى الطابق الأرضي لتتصل بالسَّيّد ترينر. وحينها كما لو أنها لم تتمكن من ضبط نفسها أضافت: «من فضلك لا تتعبيه».

قلت: «بالتأكيد لا».

كانت ابتسامتي معبّرة.

قلت وأنا أختلس النظر من الباب: «هيه». أدار رأسه ببطء نحوي. «هيه أنت».

كان صوته مبحوحًا، كما لو أنه لم يكن قد أمضى آخر ست وثلاثين ساعة في النوم بل في الصراخ. جلست ونظرت إليه. عيناه طرفتا نحو الأسفل.

«هل تريد أن أرفع القناع لدقيقة؟».

أومأ. أخذته وبعناية رفعته على رأسه. كان هناك غشاوة رقيقة من البلل عند التقائه بجلده، وأخذت منديلًا ومسحت بلطف وجهه.

«كيف تشعر؟».

«صرت أفضل».

ارتفعت كتلة كبيرة غير مرغوبة إلى حلقي وحاولت أن أبتلعها.

«لا أعرف. أنت ستفعل أي شيء للفت الانتباه ويل ترينر. أراهن أن هذا كله كان..».

أغمض عينيه وقاطعني في منتصف الجملة. عندما فتحهما ثانية كان هناك لمحة من اعتذار.

«آسف كلارك. لا أظن أني أستطيع أن أكون ظريفًا اليوم».

جلسنا. تحدّثت، وتركت صوتي يجلجل في الغرفة الصَّغيرة الخضراء الشَّاحبة، أخبره عن استعادتي أشيائي من منزل باتريك - وكم كان أسهل الحصول على أقراصي المضغوطة من مجموعته بالنَّظر إلى إصراره على نظام فهرسة مناسب.

قال عندما انتهيت: «هل أنت بخير؟». كانت عيناه شفوقتين، كما لو أنه توقّع أن الأمر مؤلم أكثر مما تألمت حقًّا.

تململت: «نعم بالتأكيد. إنه ليس سيئًا للغاية، لديَّ أمور أخرى أفكر بها بأي حال».

كان ويل صامتًا.

قال أخيرًا: «الأمر هو، أنا لست واثقًا من أني سأقفز من علٍ في أي وقت قريب».

عرفت ذلك. لديَّ شبه توقّع منذ أن تلقيت نص نايثن. لكن سماع الكلمات تتساقط من فمه بدا مثل ضربة.

قلت وأنا أحاول أن أحافظ على صوتي مستويًا: «لا تقلق، لا بأس سنذهب في وقت آخر».

«أنا آسف أعرف أنك كنت تتطلّعين إليها».

وضعت يدي على جبهته ولاطفت شعره.

«صه، حقًّا ليس مهمًّا فقط كن بخير».

أغمض عينيه بإجفال خفيف. عرفت ماذا تقول تلك الخطوط حول عينيه، وذلك التعبير المستكين. قالت إنه لم يكن ضروريًا أن يكون هناك وقت آخر. قالت إنه فكر بأنه لن يكون بخير ثانية.

***

عرَّجت على منزل غرانتا في طريق عودتي من المستشفى. دعاني والد ويل للدخول، يبدو متعَبًا مثلما كانت السَّيدة ترينر. كان يحمل سترة بالية من القماش المشمع، كما لو أنه كان في طريقه للخروج. قلت له إن السَّيدة ترينر مع ويل ثانية وأن المضادات الحيوية كانت تعمل جيّدًا، لكنها طلبت مني أن أعلمه بأنها سوف تبات في المستشفى. ثانية، لماذا لا تخبره بنفسها لا أعرف. ربما لديها الكثير من الأمور التي تشغل تفكيرها.

« كيف يبدو؟».

قلت: «أفضل قليلًا من هذا الصَّباح، تناول شرابًا عندما كنت هناك. أوه، وقال شيئًا فظًا عن إحدى الممرضات».

«لا تزال له الروح المشاكسة نفسها».

«نعم، لا تزال له الروح المشاكسة نفسها».

رأيت فقط للحظة فم السَّيد ترينر ينضغط وعينيه تبرقان. أشاح ببصره نحو النافذة وثم عاد إليّ. لم أعرف إذا كان يفضّل لو أني أشحت ببصري.

«النوبة الثالثة خلال سنتين».

استغرقني دقيقة لكي أفهم: «التهاب الرئة؟».

أومأ: «أمر بائس، إنه شجاع حقًّا كما تعلمين. تحت كل ذلك التبجّح».

ازدرد ريقه وأومأ، كما لو، لنفسه. «من الجيّد أنك تستطيعين أن ترى ذلك لويزا».

لم أعرف ماذا أفعل. مددت يدي ولمست ذراعه: «إني أراه».

أومأ لي السَّيد ترينر ثم تناول قبعته عن المشجب في الردهة متمتمًا بشيء ربما كان شكرًا أو وداعًا، مرّ بي وخرج من الباب الرئيس.

بدا الملحق صامتًا على نحو غريب في غياب ويل. أدركت كم أصبحت معتادة على صوت كرسيه الآلي البعيد وهو يسير جيئة وذهابًا، محادثاته مع نايثن في الغرفة المجاورة، دمدمة المذياع المنخفضة. الآن كان الملحق ساكنًا كما لو أن الهواء أفرغ من حولي.

حزمت أثناء الليل حقيبة بكل الأشياء التي قد يرغب بها في اليوم التالي، بما في ذلك ثياب نظيفة، وفرشاة أسنانه، وفرشاة شعر، وأدوية، بالإضافة إلى سماعات تمكّنه من سماع الموسيقى. وفيما أنا أفعل هذا كان عليَّ أن أقاتل إحساسًا غريبًا بالرعب. ظلَّ صوت صغير مزعج يعلو في داخلي يقول، هكذا سيكون شعورك إذا كان ميتًا. محاولةً إسكاته، أدرت المذياع أحاول أن أبعث الحياة في الملحق. نظفت قليلًا، رتبت سرير ويل، بدّلت مفارشه بمفارش نظيفة، وجلبت بعض الزهور من الحديقة ووضعتها في غرفة الجلوس، ثم عندما جهَّزت كل شيء نظرت ورأيت ملف الإجازة على الطاولة.

كنت لأمضي اليوم التالي في التَّخلّص من كل الأوراق وإلغاء كل رحلة، وكل نزهة كنت قد حجزت لها. لم يكن هناك مجال عندما يتحسّن حال ويل للقيام بأيّ منها. أصرَّ الطبيب الأخصائي على أن عليه أن يرتاح، وأن ينهي دورة المضادات الحيوية، وأن يبقى دافئًا وجافًا. لم يكن الطوف في مياه النهر والغطس جزءًا من خطته للتماثل للشفاء.

حدَّقت في ملف أوراقي، في كل جهد وعمل وتخيّل استلزمني

لأجمعه. حدَّقت بجواز السَّفر الذي وقفت في طابور للحصول عليه، وتذكّرت إحساسي المتصاعد بالهياج حتى عندما جلست في القطار المتّجه إلى المدينة، وللمرة الأولى منذ باشرت العمل على خطتي، شعرت بالقنوط التام. بقيت ثلاثة أسابيع وفشلت. كان عقدي ينتظر انتهاءه، ولم أصل إلى ما يغيّر بشكل ملحوظ رأي ويل. كنت خائفة من أن أسأل السَّيدة ترينر أين نذهب من هنا. شعرت فجأة بأني مغلوبة. رميت رأسي بين يدي وفي صمت المنزل الصغير وتركته هناك.

«مساء الخير».

رفعت رأسي. كان نايثن واقفًا يملأ المطبخ الصغير بجسامته. كان يضع حقيبته على كتفه.

«جئت لأجلب بعض الأدوية من أجل عودته. هل أنتِ بخير؟».

مسحت عينيّ بسرعة: «آسفة فقط مثبطة قليلًا بشأن إلغاء هذا».

أنزل نايثن حقيبة ظهره عن كتفه وجلس قبالتي.

«إنه مثبط، هذا أكيد» التقط الملف، وبدأ يقلب في أوراقه. «هل تريدين مساعدة غدًا؟ هم لا يريدونني في المستشفى لذا يمكنني التوقف لساعة في الصَّباح أساعدك في المكالمات».

«هذا لطف منك. لكن لا. سأكون بخير».

صنع نايثن الشَّاي وجلسنا نحتسيه قبالة بعضنا البعض. أظن بأنها كانت المرة الأولى التي نتكلّم فيها أنا ونايثن من دون أن يكون ويل بيننا. حدّثني عن مريض سابق مصاب بالشلل الرباعي في الفقرتين الثالثة والرابعة مع أنبوب للتنفس، كان يمرض على الأقل مرة في الشَّهر طوال الوقت الذي عمل فيه معه. حدّثني عن نوبات ويل السَّابقة من ذات الرئة، الأولى كادت تقتله واستغرق أسابيع ليتعافى.

قال: «لديه هذه النظرة في عينيه... عندما يكون مريضًا. إنها مخيفة حقًّا. كما لو أنه يتراجع. كما لو أنه غير موجود تقريبًا».

«أعرف. أكره تلك النَّظرة».

«إنه...». بدأ، ثم فجأة أن عينيه انزلقتا عني وأغلق فمه.

جلسنا ممسكَين بأكوابنا. تفحّصت نايثن بطرف عيني، أنظر إلى وجهه الصَّريح الودود الذي بدا أنه انغلق. وأدركت أني كنت على وشك أن أطرح سؤالًا أعرف جوابه سلفًا.

«أنت تعلم، أليس كذلك؟».

«أعلم ماذا؟».

«ما يريد أن يفعله».

كان الصمت في الغرفة مباغتًا وعارمًا.

نظر نايثن إليَّ مليًّا، كما لو أنه يتبصّر في إجابته.

قلت: «أعلم، لم يقصد ذلك لكني أعلم. هذا ما كانت الإجازة من أجله وكل تلك النزهات.. أنا أحاول أن أغيّر رأيه».

وضع نايثن كوبه على الطاولة قال: «تساءلت، أنتِ بدوت كما لو أنك في مهمة».

«كنت كذلك».

هزَّ رأسه ربما ليقول إن ليس عليَّ أن أستسلم أو ليقول لي إنه ما من شيء يمكن فعله، لم أكن واثقة.

«ماذا سنفعل، نايثن؟».

مرت لحظة أو اثنتان قبل أن يتحدّث ثانية: «أتعلمين ماذا لو؟ أنا حقًّا معجب بويل. لا أمانع من أن أقول لك، أحب الرجل. أنا معه منذ سنتين. رأيته في أسوأ حالاته، ورأيته في أيامه الجيّدة، وكل ما يمكنني قوله لك هو إني لن أكون في مكانه مقابل كل أموال العالم».

احتسى رشفة من الشاي وقال: «مرّت أوقات عندما كان عليَّ البقاء ليلًا، يستيقظ ويل من نومه صارخًا لأنه في أحلامه كان لا يزال يمشي ويتزلج ويقوم بأشياء، فقط من أجل تلك الدقائق القليلة عندما تكون جميع دفاعاته معطلة وكل جسده يؤلمه، هو حرفيًّا لا يستطيع تحمّل فكرة أنه لن يفعل تلك الأشياء ثانيةً. لا يمكنه تحمّلها. جلست هناك معه ولم يكن لديّ ما أقوله للرجل، لا شيء سوف يجعل أي شيء أفضل. هو تعامل مع أسوأ ما يمكنك تخيّله، وهل تعرفين ماذا؟ نظرت إليه تلك الليلة وفكّرت في حياته وفي ما يمكن أن تؤول إليه... وعلى الرغم من أن لا شيء يعجبني في العالم أكثر من أن يكون الشّاب سعيدًا، لا يمكنني أن ألومه إزاء ما يرغب في فعله. إنه خياره. لا بد أن يكون خياره».

بدأ نفسي يعلق في حلقي: «لكن.. هذا كان سابقًا. اعترفتم جميعكم بأن هذا كان قبل قدومي. إنه مختلف الآن. إنه مختلف معي صحيح؟».

«بالتأكيد، لكن...».

«لكن إذا لم يكن لدينا الإيمان بأنه يمكن أن يشعر بتحسّن، حتى التحسّن حينها كيف يفترض به أن يحافظ على الإيمان بأن الأشياء الجيّدة قد تحدث؟».

وضع نايثن كوبه على الطاولة. نظر مباشرة في عيني.

«لو. هو سوف لن يتحسّن».

«أنت لا تعرف ذلك».

«أعرف. إلّا إذا كان هناك تقدمٌ مفاجئ كبير في أبحاث الخلايا الجذعية، قد ينتظر ويل عقد آخر من السَّنوات في ذلك الكرسي على الأقل. هو يعرف هذا، حتى لو أن والديه لا يريدان الاعتراف بهذا. وهذا نصف المشكلة. هي تريد أن تبقيه حيًّا مهما كلَّف الثَّمن. السَّيد ترينر يظن بأن في مرحلة ما علينا أن ندعه يقرّر».

«بالتأكيد عليه أن يقرر نايثن. لكنه عليه أن يرى خيارات أخرى محتمَلة».

ارتفع صوتي في الغرفة الصغيرة وأنا أضيف: «قد تقول إنه شاب ذكي، ويعلم بالضبط ما هي خياراته. لا. أنت مخطئ. قل لي إنه كان في المكان نفسه قبل قدومي. قل لي إنه لم يغيّر نظرته حتى قليلًا فقط من خلال وجودي هنا».

«لا أستطيع أن أرى أفكاره لو».

«أنت تعلم بأني غيّرت طريقة تفكيره».

«بل أعلم أنه سوف يبذل قصارى جهده ليجعلك سعيدة».

حدّقت فيه: «أنت تظن أنه سوف يفعل فقط ليجعلني سعيدة؟». شعرت بالغضب من نايثن، غضب منهم جميعًا.

«إذًا كنت لا تصدق أن أيًا من هذا سوف يكون جيّدًا، لماذا كنت ستأتي؟ لماذا تريد أن تأتي في هذه الرحلة؟ هل لأنها رحلة ظريفة؟».

«لا. بل لأني أريده أن يعيش».

«لكن...».

«لكني أريده أن يعيش إذا كان يريد أن يعيش. إذا لم يكن بإجباره على المضي. أنت، أنا، لا يهم كم نحبّه، نصبح فقط مجموعة مخادعة من الناس تقرّر عنه».

تردّدت كلمات نايثن في الصّمت. مسحت دمعة وحيدة عن خدي وحاولت أن أجعل نبض قلبي يعود إلى طبيعته. أحرجَت دموعي نايثن في ما يبدو، حكّ عنقه ثم بعد دقيقة ناولني منديلًا بصمت.

«لا يمكنني أن أدعه يحدث، نايثن».

ظلّ صامتًا.

«لا أستطيع».

حدَّقت بجواز سفري الموضوع على طاولة المطبخ. كانت صورة رهيبة. بدت مثل شخص آخر كليًّا. شخص تبدو حياته، وطريقته في الوجود، لا شيء يشبه حياتي فعليًّا، حدَّقت فيه.

«نايثن؟».

«ماذا؟».

«إذا تمكنت من تنظيم رحلة من نوع آخر، شيء قد يوافق الأطباء عليه هل ستأتي؟ هل ستأتي لمساعدتي؟».

«بالتأكيد سآتي». وقف، غسل كوبه ووضع حقيبته على كتفه. أدار وجهه قبل أن يغادر المطبخ. «لكن يجب أن أكون صادقًا لو، أنا لست واثقًا من أنك ستكونين قادرة على النَّجاح في هذه المهمة».

23

بعد عشرة أيام بالضَّبط، ترجَّلنا من سيارة والد ويل في مطار غيتويك، نايثن يضع حقائبنا بصعوبة على الحامل المتحرك، وأنا أتحقّق مرارًا من أن ويل كان مرتاحًا - حتى شعر بالسّخط.

قال السَّيد ترينر وهو يضع يده على كتف ويل: «اعتنوا بأنفسكم. وعسى أن تكون رحلتكم طيبة، لا تتشاقوا كثيرًا». وغمزني عندما قال هذا.

لم تكن السَّيدة ترينر قادرة على مغادرة العمل للمجيء أيضًا. شككت أن هذا عنى فعليًا أنها لم تكن راغبة أن تمضي ساعتين مع زوجها في سيارة.

أومأ ويل لكنه لم يقل شيئًا. كان هادئًا بشكل جذّاب في السَّيارة، يحدّق من النافذة بنظرته المصمتة، متجاهلًا إياي ونايثن عندما تجاذبنا أطراف الحديث حول حركة المرور وما كنا نعرفه وصار نسيًّا منسيًّا.

حتى عندما عبرنا ملتقى الممرات لم أكن واثقة من أننا كنا نقوم بالأمر الصَّائب. لم ترغب السَّيدة ترينر أن يذهب. لكن من يوم موافقته على خطتي المعدَّلة، عرفت أنها كانت تخشى أن تقول له إن عليه عدم الذهاب. بدا أنها خائفة من التَّحدث إلينا بتاتًا الأسبوع الماضي. جلست مع ويل صامتة، تتحدّث فقط إلى الأطباء المختصّين. أو شغلت نفسها في حديقتها تقطع النباتات بكفاءة مخيفة.

قلت ونحن نشقّ طريقنا إلى مكتب الوصول أقلّب في أوراقي: «يفترض أن ترسل شركة الطيران أحدًا لملاقاتنا. هم قالوا ذلك».

قال نايثن: «لا تقلقي. هم بالكاد سوف يرسلون شخصًا عند الأبواب».

«لكن الكرسي يجب أن يسافر باعتباره «أداة طبية سهلة الكسر». تحققت مع المرأة على الهاتف ثلاث مرات. ويجب أن نضمن أنهم لن يزعجونا بشأن عدَّة ويل الطبية المحمولة».

أعطتني مجموعة المصابين بالشَّلل الرُّباعي عبر شبكة الإنترنت كمًّا كبيرًا من المعلومات والتحذيرات والحقوق القانونية وقوائم المراجعة. قمت في ما بعد بالاتصال ثلاث مرات بشركة الطيَّران للتأكد من أنهم سيعطوننا مقاعد ذات فواصل للوقاية، وأن ويل سيصعد على متن الطائرة أولًا، ولن يتحرّك من كرسيّه الآلي إلى أن نكون عند البوابة فعليًا. سيظل نايثن على الأرض ليزيل عصا التحكم ويحوله إلى كرسي يدوي، ثم بعناية يربط ويسند الكرسي، مثبّتًا الدوَّاسات. سيشرف شخصيًا على تحميله ليحميه من الضَّرر. ربما يوضع عليه ملصق زهريّ اللون لتحذير حملة الأمتعة وتنبيههم. عينت لنا ثلاثة مقاعد في صفٍّ واحد فيمكن لنايثن أن يتولى أي مساعدة طبية يحتاجها ويل من دون أن نكون تحت أنظار الفضوليين. أكَّدت لي شركة الطَّيران أنَّ مسندي الذراعين مرفوعان فلن نخدش ردفي ويل عندما ننقله من الكرسي إلى مقعده في الطَّيارة. وقد نبقيه بيننا طوال الوقت. وسنكون أول من يُسمح لهم بالنزول من الطَّائرة.

كان كل هذا على قائمة «المطار». تلك كانت الورقة التي تسبق قائمة «الفندق» لكن تلي قائمة «اليوم قبل مغادرتنا» وبرنامج الرحلة. شعرت بالغثيان حتى مع كل هذه الاحتياطات.

كلَّما نظرت إلى ويل تساءلت إذا ما كنت قد قمت بالأمر الصَّائب. صرَّح له طبيبه العام بالخروج من المستشفى من أجل السَّفر فقط قبل ليلة واحدة. تناول القليل من الطعام وأمضى معظم الوقت نائمًا. لم يبدُ

ضجرًا من مرضه فقط، لكن منهك من الحياة، متعَب من تدخلنا، ومن محاولاتنا السَّعيدة في المحادثة، ومن تصميمنا القاسي على محاولة أن نجعل الأشياء أفضل من أجله. تحمَّلني، لكنني شعرت بأنه غالبًا أراد أن يُتَرَكَ بمفرده. لم يعرف أن هذا كان الأمر الوحيد الذي لا يمكنني فعله.

قلتُ عندما مشت فتاة بابتسامة مشرقة في زي رسمي تحمل ملفًّا بسرعة نحونا: «هناك امرأة من شركة الطيران».

تمتم نايثن: «حسنًا، ستكون مفيدة في النقل».

«لا يبدو عليها أنها تستطيع أن ترفع قريدس متجمّد. لكن سوف نتدبر الأمر، في ما بيننا، سوف نتدبر الأمر».

كان قد أصبح هذا شعاري منذ أن عرفت ما أردت أن أفعله. منذ محادثتي مع نايثن في الملحق، كنت مفعمة بحماسة متجددة لأثبت أنهم جميعًا على خطأ. فقط لأننا لم نتمكّن من القيام بالإجازة التي خطّطت لها هذا لا يعني أن ويل لا يمكنه أن يفعل شيئًا على الإطلاق.

توجّهت إلى منتديات النقاش على الانترنت، طرحت الأسئلة. أين يمكن أن يكون مكانًا جيّدًا ليتماثل ويل السَّقيم للشفاء؟ هل من أحد يعرف أين في وسعنا الذَّهاب؟ كانت درجة الحرارة في أولى أولوياتي - كان المناخ الإنكليزي متغيرًا جدًّا (لم يكن هناك شيء يبعث على اليأس أكثر من منتجع على السَّاحل الإنكليزي في الجو الماطر). كانت معظم بلدان أوروبا حارّة جدًّا أواخر شهر تمُّوز، استبعدت إيطاليا واليونان وجنوب فرنسا ومناطق ساحلية أخرى. كان لديّ رؤيا. رأيت ويل مستريحًا على البحر. كانت المشكلة أن ليس لديّ سوى عدد قليل من الأيام للتخطيط لها والمضي، وكانت هناك فرصة ضئيلة في تحقيقها.

كان هناك تعاطف من الآخرين، والكثير من القصص عن ذات الرئة. بدت أنها الشَّبح الذي طاردهم جميعًا. تلقيت بعض المقترحات عن أمكنة

يمكننا الذهاب إليها، لكن لم يلهمني واحد منها. أو الأهم أني لم أشعر بأنها ستلهم ويل أيضًا. لم أعرف حقًّا ما أريد، لكني راجعت مقترحاتهم عبر القائمة وعرفت أن لا شيء منها كان صحيحًا.

كان ريتشي، ذلك النشيط في غرفة المحادثة، من جاء لمساعدتي في النهاية. كتب في الأصيل الذي خرج فيه ويل من المستشفى:

أعطني بريدك الالكتروني. قريبي يعمل وكيل سفر. سأضعه في صورة الأمر.

اتّصلت بالرقم الذي أعطاني إياه وتحدَّثت إلى رجل متوسّط العمر له لهجة يوركشايرية واضحة. عندما قال لي ما كان في باله، رنَّ جرس صغير من التقدير في مكان ما عميق في ذاكرتي. وخلال ساعتين، نسَّقنا الأمر. كنت ممتنة للغاية له حتى إني كنت سأبكي.

قال: «لا تفكري في الأمر. فقط كوني على ثقة من أن يحظى رجلك بوقت طيِّب».

بنتيجة ذلك، كنت منهَكة مع وقت مغادرتنا بقدر ما كان ويل منهَكًا تقريبًا. كنت قد أمضيت أيامًا في مماحكات مع أدق حاجات سفر المصابين بالشَّلل الرباعي. وحتى صباح مغادرتنا لم أكن مقتنعة بأن ويل سوف يكون في حال جيدة تمكِّنه من القدوم. الآن، جالسة مع الحقائب حدَّقت فيه، منكمش على نفسه وشاحب في المطار، وتساءلت ثانية إذا ما كنت قد جانبت الصَّواب. كان لديّ لحظة مفاجئة من الذعر. ماذا لو اعتلَّ ثانية؟ ماذا لو كره كل دقيقة كما فعل عندما ذهبنا إلى سباق الخيل؟ ماذا لو أسأت فهم الوضع برمّته، وما كان ويل يحتاجه ليس رحلة ملحَمية بل عشرة أيام في البيت في سريره؟

لكننا لا نملك عشرة أيام لنستغني عنها. هذا كان الأمر، هذه كانت فرصتي الوحيدة.

قال نايثن وهو يتّجه نحونا عائدًا من السُّوق الحرَّة: «إنهم ينادون على رحلتنا». نظر إليَّ رافعًا حاجبيه، وأخذت نفسًا.

«حسنًا، لنذهب».

***

لم تكن الرحلة نفسها البلوى التي تخوَّفت منها على الرغم من أنها تمتد اثنتي عشرة ساعة في الهواء. أثبت نايثن مهارته في القيام بتغيير روتين ويل تحت غطاء. كان العاملون في شركة الطيران قلقين وكتومين واعتنوا بالكرسي كما وعدوا. حُمل ويل أولًا إلى مقعده من دون كدمات واستقرّ بيننا.

في غضون ساعة من الطيران أدركت بصورة غريبة فوق السَّحاب، أن مقدمة مقعده كانت مائلة ومحشوَّة بشكل كاف ليكون متوازنًا، كان ويل مثله مثل أي شخص في الحجرة. جالس أمام شاشة، لا مكان ليتحرّك فيه ولا شيء ليفعله، كان هناك القليل، على ارتفاع ثلاثين ألف قدم، يفصله عن أي مسافر آخر. تناول الطَّعام وشاهد فيلمًا ونام معظم الوقت.

نايثن وأنا تبادلنا الابتسامات باحتراس وحاولنا أن نتصرّف كما لو أن هذا كان ممتازًا، وجيّدًا جدًّا. حدَّقت من النافذة، اختلطت أفكاري كما اختلطت السُّحب من تحتنا، عاجزة عن التفكير بواقعة أن هذا لم يكن فقط تحدّيًا لوجستيًّا لكن مغامرة لي - ذلك أني أنا، لويزا كلارك، كنت في الواقع متوجِّهة إلى الجانب الآخر من العالم. لم أتمكن من رؤيته. لم أتمكن من رؤية أي شيء يتجاوز ويل حينها. شعرت مثلما شعرت أختي عندما ولّدت توماس. قالت وهي تحدّق في شكله الوليد: «إنه كما لو أني أنظر من خلال قمع، فقد انكمش العالم مقتصرًا علينا أنا وهو».

أرسلت إليَّ رسالة على الهاتف النقال عندما كنت في المطار.

يمكنك فعل هذا. أنا فخورة بكِ للغاية. قبلات

فتحتها الآن فقط لأنظر إليها وقد انتابتني عاطفة مفاجئة، ربما بسبب كلماتها المختارة. أو ربما لأني كنت متعَبة وخائفة ولا أزال أجد صعوبة في تصديق أني وصلت إلى هذا الحد. أخيرًا، لأتخلص من أفكاري، أدرت شاشة تلفازي الصَّغيرة أحدّق غير مبصرة بمسلسل أميركي كوميدي إلى أن أظلمت السَّماء من حولنا.

ثم استيقظت لأجد أن المضيف كان واقفًا فوقنا يحمل الفطور، وأن ويل كان يتحدّث مع نايثن عن فيلم شاهداه معًا لتوّهما، وأننا على نحو مدهش، وعلى الرغم من كل الظُّروف المضادة، كانت تفصلنا مدة أقل من ساعة عن الهبوط في جزيرة موريشيوس.

لا أظن بأني صدقت أنّ أيًّا من هذا يمكن أن يحدث حقًّا حتى وطئت أرض مطار السَّيد سيوساغور رامغولام الدُّولي. خرجنا مترنّحين عبر بوابة الوصول، لا نزال متّصلبين من الفترة التي أمضيناها في الجو، وكان يمكن أن أبكي من الارتياح لمرأى عامل سيارة الأجرة المعدَّلة خصيصًا. ذلك الصباح الأول، عندما أسرع السَّائق بنا نحو المنتجع، استعرضت بعض مشاهد الجزيرة. حقًّا بدت الألوان أكثر سطوعًا منها في إنكلترا، والسَّماء أكثر إشراقًا، والأزرق السَّماوي الذي اختفى للتو يزداد دكنة أكثر فأكثر نحو اللانهاية. رأيت أن الجزيرة كانت مورقة وخضراء، تحيط بها أراضٍ مزروعة بمحاصيل قصب السُّكر، والبحر مرئيّ مثل شريط من الزئبق عبر التلال البركانية. رائحة الدخان والزنجبيل تشوب الهواء. الشَّمس في كبد السَّماء حتى إنه كان عليَّ أن أضيّق عينيّ في الضَّوء الأبيض. في حالتي المنهكة كنت كما لو أن شخصًا أيقظني في صفحات مجلَّة صقيلة.

لكن حتى عندما تصارعت حواسي مع غير المألوف، عادت نظرتي مرارًا إلى ويل، إلى وجهه الشَّاحب المرهق، إلى الطريقة التي بدا فيها رأسه منخفضًا بغرابة على كتفيه. من ثم توقَّفنا في دربٍ تصطف فيه أشجار النَّخيل، توقَّفنا عند مبنى هيكلي منخفض، وقد ترجل السَّائق الآن

وكان ينزل حقائبنا. رفضنا عرضًا لشرب الشَّاي المثلَّج، وجولة حول الفندق، وتقريبًا قبل أن نرخي السَّتائر، عاد ويل إلى النوم ثانية. لقد كنا هناك، فعلتها. وقفت خارج غرفته محرّرة نفسًا عميقًا، بينما حدَّق نايثن من النافذة نحو الأمواج المتكسّرة البيضاء على الحيد المرجاني من خلفها. شعرت فجأة بأني دمعت، لا أعرف إذا كان بسبب الرحلة أو لأن هذا كان المكان الأكثر جمالًا الذي رأيته في حياتي.

قال نايثن وهو يرى ملامحي: «حسنًا». ثمَّ على نحو غير متوقَّع كليًّا تقدَّم مني وعانقني بشدَّة. «اهدئي، لو. سيكون كل شيء على ما يرام. حقًّا. لقد أبليتِ بلاء حسنًا».

***

مرَّت ثلاثة أيام تقريبًا قبل أن أبدأ بتصديق الأمر. نام ويل أول ثمانٍ وأربعين ساعة - بعدها بدأ مظهره يتحسَّن على نحو مدهش. استردَّ جلده لونه وتلاشت الظِّلال الزرقاء حول عينيه. خفَّت تشنجاته وبدأ يأكل ثانية، ينتقل بكرسيه ببطء على امتداد البوفيه الطَّويل ويخبرني ما يرغب بتناوله من طعام. عرفت أنه كان يشعر بأنه أكثر شبهًا بنفسه عندما أزعجني في إصراره على أن أتذوَّق أشياء لم أكن لآكلها أبدًا -كاري كريولي لاذع، ومأكولات بحرية لم أتعرَّف على أسمائها. وسرعان ما بدا أكثر ارتياحًا مني في هذا المكان. ولا عجب. كان عليَّ أن أذكِّر نفسي بأن معظم أيام حياته كان هذا ميدانه - هذه الأرض وهذه الشَّواطئ العريضة، وليس الملحق الصَّغير في ظلِّ القلعة.

كما وُعدنا كان الفندق قد أحضر كرسيًا متحرّكًا خاصًا ذا عجلات عريضة، ومعظم الصَّباحات نقل نايثن ويل إليه، وجميعنا نزلنا إلى الشَّاطئ، أنا أحمل مظلَّة كي أحميه من حرارة الشَّمس إذا اشتدَّت. لكنها لم تفعل أبدًا، كان ذلك الجزء الجنوبي من الجزيرة مشهورًا بنسائم البحر، وفي ذلك الوقت نادرًا ما ارتفعت درجات حرارة المنتجع أعلى من 75

درجة فهرنهايت. كنا نتوقف عند شاطئ صغير قرب الجرف الصَّخري، خارج مدى رؤية الفندق الرئيس. أفتح كرسيَّ، وأجلس قرب ويل تحت شجرة نخيل، ونشاهد نايثن وهو يحاول ركوب الموج أو التزلج على المياه نصرخ بين الحين والآخر مشجعين أو نصرخ بشتيمة، من موقعنا على الرمل.

في البداية أراد العاملون في الفندق أن يفعلوا أكثر مما ينبغي من أجل ويل، يعرضون دفع كرسيه، يقدّمون له باستمرار المشروبات الباردة. شرحنا لهم أننا لا نحتاج ذلك منهم، وهم تخلّوا بسرور. غير أنه كان من الجيد خلال الأوقات التي لم أكن فيها برفقته أن ترى العاملين في الحراسة أو في الاستقبال يتوقّفون ليتحدثوا معه، أو يحدّثونه عن مكان اعتقدوا بأن عليه الذهاب إليه. كان هناك شاب طويل القامة يدعى ناديل بدا أنه يأخذ على عاتقه أن يتصرّف على أنه جليس ويل غير الرسمي في غياب نايثن. ذات يوم خرجت لأجده وصديق ينزلان ويل بلطف عن كرسيه إلى سرير قابل للطي مزوَّد بوسادة ووضعه بجانب شجرتنا.

قال وهو يرفع إبهامه عندما مشيت على الرَّمل: «هذا أفضل. نادني عندما يرغب السَّيد ويل بالعودة إلى كرسيه».

كنت على وشك أن أحتجّ وأقول لهم إن ليس عليهم أن ينقلوه. لكن ويل أغمض عينيه واستلقى هناك مع نظرة من الرضا غير المتوقّع، حتى إني أطبقت فمي وأومأت. أما أنا عندما بدأ ينحسر قلقي على صحة ويل ببطء بدأت أشك بأني كنت حقًّا في الفردوس. لم يسبق لي أن تخيّلت في حياتي أبدًا بأني سأمضي وقتًا في مكان مثل هذا. استيقظ كل صباح على صوت البحر يتكسّر برفق على الشَّاطئ، وطيور غريبة تطلق تغريداتها من على الأشجار.

حدَّقت إلى سقفي أراقب ضوء الشَّمس يلعب عبر الأوراق، ومن الباب المجاور سمعت المحادثة التي علمت من خلالها أن ويل ونايثن

نهضا قبلي بفترة طويلة. ارتديت رداء السَّارونغ وثوب البحر، أستمتع بملمس الشَّمس الدافئة على كتفيَّ وظهري. أصبح جلدي منمّشًا، وحال لون أظافري، وبدأت أشعر بسعادة نادرة من المتع البسيطة لوجودي هنا - من التمشّي على الشَّاطئ، وتناول الأطعمة الغريبة، والسِّباحة في الماء الصَّافي الدَّافئ حيث أرى السَّمك الأسود تحت الصُّخور البركانية، أو أراقب الشَّمس تغرق حمراء نارية في الأفق. ببطء بدأت الأشهر الماضية تنزلق. ولخجلي لم أفكر في باتريك على الإطلاق.

اتَّخذت أيامنا لها شكلًا. نتناول نحن الثَّلاثة طعام الفطور معًا إلى طاولات مظلّلة بأناقة حول حوض السِّباحة. كان ويل يتناول عادة سلطة الفاكهة التي أطعمه إيَّاها بيدي، ويتبعها أحيانًا بفطيرة الموز بعدما انفتحت شهيَّته. بعدها ننزل إلى الشَّاطئ، حيث نجلس، أنا أقرأ وويل يستمع إلى الموسيقى، بينما يتدرَّب نايثن على مهارته في الرِّياضات المائيَّة. كان ويل يطلب مني طوال الوقت أن أجرِّب إحدى الرِّياضات أيضًا، لكن في البداية رفضت. أردت فقط أن أبقى بجانبه. عندما أصرَّ ويل، أمضيت صباحًا في ركوب الأمواج والزوارق، لكني كنت أكثر سعادة في تمضية الوقت بالقرب منه.

أحيانًا إذا كان ناديل في الجوار، وكان المنتجع هادئًا، كانا يُنزلان هو ونايثن ويل إلى الماء الدافئ في حوض السِّباحة الصَّغير، يسند نايثن رأسه فيمكنه العوم. لم يقل الكثير عندما فعلا هذا، لكنه بدا مسرورًا بهدوء كما لو أنَّ جسده كان يتذكَّر أحاسيس منسيَّة منذ زمن بعيد. صار جذعه الشَّاحب منذ مدة طويلة ذهبيًا. تفضَّضت ندوبه وأخذت تتلاشى. أصبح يجلس مرتاحًا من دون قميص.

عند وقت الغداء كنَّا ندفع كرسي ويل نحو أحد مطاعم المنتجع الثَّلاثة. كان سطح المجمَّع برمته مكسوًا بالآجر، مع عدد قليل من الدرجات الصغيرة ومنحدرات، فكان بمستطاع ويل أن يتحرّك في كرسيه باستقلاليَّة

تامة. كان أمرًا صغيرًا، لكن كونه قادرًا على أن يحصل لنفسه على شراب من دون مرافقة واحد منا لم يعن قسطًا كبيرًا من الراحة لي ولنايثن بل تجاوز واحدة من خيبات ويل اليومية - في كونه يعتمد على الآخرين كليًّا. لا أقصد أن أحدنا كان عليه الذهاب للحصول على شراب. أينما كنت، سواء على الشَّاطئ أو عند حوض السِّباحة أو حتى ينبوع المياه المعدنية بدا أن واحدًا من العاملين البشوشين سوف يظهر حاملًا شرابًا اعتقد بأنك قد ترغب بشربه مزينًا عادة بزهرة وردية شذيَّة. حتى وأنت مستلقٍ على الشَّاطئ قد تمرّ عربة خفيفة وسوف يقدم لك نادل مبتسم الماء أو عصير الفاكهة أو شرابًا أقوى.

في الأصائل، عندما تصل درجة الحرارة إلى أوجها، كان ويل يعود إلى غرفته وينام عددًا من السَّاعات. وأنا أسبح في حوض السَّباحة، أو أقرأ كتابي، ثم في المساء كان شملنا يلتئم من جديد لنتناول طعام العشاء في مطعم على الشَّاطئ. سرعان ما أصبح لديّ ذوق في المشروبات الكحولية. عرف ناديل أنه إذا منح لويل مصاصة بحجم مناسب ووضع كوبًا زجاجيًا طويلًا في حامله، لن يحتاجنا، أنا أو نايثن، على الإطلاق. عند الغروب نتجاذب أطراف الحديث عن طفولتنا وعن أولى علاقاتنا، وأول أعمالنا، وعن عائلاتنا، وعن الإجازات الأخرى التي ذهبنا إليها، وببطء رأيت ويل يعود من جديد.

ما عدا هذا كان ويل مختلفًا. بدا أن هذا المكان منحه سلامًا قد افتقده منذ أن عرفته.

قال نايثن عندما التقاني عند البوفيه: «إنه بخير، هاه؟».

«نعم، أظنه كذلك».

انحنى نايثن نحوي محاذرًا ألا يرانا ويل نتحدَّث عنه: «أنت تعلمين. أظن موضوع المزرعة وكل المغامرات كان لها أن تكون عظيمة، لكن

انظري إليه الآن، لا يمكنني إلّا أن أفكر بأن هذا المكان نجح على نحو أفضل».

لم أحدّثه عما كنت قد قررته عندما وصلنا في اليوم الأول، معدتي معقودة بالقلق، كنت أحسب عدد الأيام المتبقية قبل عودتنا إلى البلاد. كان عليَّ أن أحاول في كل واحد من هذه الأيام العشرة أن أنسى سبب وجودنا هناك بالفعل - عقد الأشهر الستة، روزنامتي الملوَّنة بعناية، وكل ما حدث سابقًا. كان عليَّ أن أعيش اللحظة وأحاول أن أشجّع ويل أن يفعل الأمر نفسه. كان عليَّ أن أكون سعيدة على أمل أن يَسعد ويل أيضًا. تناولت شريحة أخرى من الشَّمّام وابتسمت. «ثم ماذا عن لاحقًا؟ هل سنؤدي الكارايوكي؟ أو أن آذانك لم تتعافَ بعد من ليلة البارحة؟».

***

في الليلة الرابعة، أعلن نايثن محرَجًا بعض الشَّيء أن لديه موعدًا. كانت كارِن فتاة نيوزيلندية تقيم في الفندق المجاور، واتفق معها أن يرافقها إلى البلدة.

«فقط لأضمن أنها بخير، كما تعلمان.. أنا لست واثقًا إذا كان مكانًا جيدًا لها لتذهب بمفردها».

قال ويل مومئًا برأسه بتعقّل: «بالطبع، إنها شهامة منك يا نِت».

وعلّقت: «أظن بأن ذلك أمر متوقَّع منك أن تفعله. لطالما أعجبت بروح الإيثار عند نايثن. لا سيَّما عندما يتعلّق الأمر بالجنس اللطيف».

كشَّر نايثن: «إليكما عني أنتما الاثنان». واختفى.

سريعًا أصبح الموعد مع كارن ثابتًا. اختفى نايثن معها معظم الأمسيات، وعلى الرَّغم من عودته للقيام بالواجبات المتأخّرة منحناه ضمنًا وقتًا ليستمتع قدر الإمكان.

إلى جانب أني كنت مسرورة في سرِّي. أعجبت بنايثن وكنت ممتنَّة

لمجيئه، لكني فضَّلت أن أكون بمفردي مع ويل. أحببت الاختزال الذي بَدَونا أننا نسقط فيه عندما لم يكن هناك أحد سوانا، الحميمية المريحة التي انبثقت بيننا. أحببت طريقته عندما يدير رأسه وينظر إليَّ باستمتاع، كما لو اتضح له أني أكثر بكثير مما توقَّع.

في الليلة ما قبل الأخيرة، قلت لنايثن إني لا أمانع إذا أراد أن يعيد كارِن إلى المجمَّع. كان يمضي ليالي في فندقها، وعرفت أنه كان يمشي مسافة عشرين دقيقة لكي يغيِّر لِويل ليلًا.

«لا أمانع إذا كان هذا سوف يمنحك بعض الخصوصية».

كان مبتهجًا، غارقًا الآن في ترقُّب الليلة القادمة، ولم يمنحني فكرة أخرى، بل قال بحماسة: «شكرًا يا رفيقة».

قال ويل عندما أخبرته: «هذا لطفٌ منكِ».

قلت: «تعني لطف منكَ أنت، هي غرفتك التي وهبتها للغرض».

أتينا به تلك الليلة إلى غرفتي، وساعد نايثن ويل في الاستلقاء على السَّرير وأعطاه أدويته بينما انتظرَت كارن في الغرفة المجاورة. غيَّرت ملابسي في الحمام وارتديت كنزتي وبنطالًا قصيرًا ثم فتحت باب الحمام واستلقيت على الأريكة بتكاسل ومخدتي تحت ذراعي. شعرت بعينيّ ويل عليّ، وشعرت بغرابة مع أني أمضيت معظم الأسبوع الماضي أمشي أمامه في ثوب البحر. عدّلت وضع مخدتي على مسند الأريكة. فقال:

«كلارك؟».

«ماذا؟».

«ليس عليكِ أن تنامي هناك. هذا السَّرير واسع ويكفي لفريق كرة قدم بحاله».

الحقيقة أني لم أفكر في الأمر حقًّا. وهذا ما حدث حينها. ربما الأيام التي أمضيناها شبه عراة على الشَّاطئ خففت من توتّرنا جميعًا بعض

الشَّيء. ربما كانت فكرة أن نايثن وكارِن على الجانب الآخر من الجدار، يلتحفان بعضهما بعضًا، منعزلَين عنا. ربما أردت أن أكون قربه. بدأت أسير نحو السَّرير، ثم جفلت عندما دوَّى صوت الرعد المفاجئ. تلجلجت الأضواء، صرخ شخص ما في الخارج. سمعنا من الباب المجاور نايثن وكارن ينفجران بالضَّحك.

مشيت نحو النافذة وسحبت السِّتارة، وأنا أشعر بالنسمة المفاجئة، والانخفاض المباغت في درجات الحرارة. عند البحر انبعثت الحياة في العاصفة. وميض دراماتيكي من البرق المتشعّب أنار السَّماء، ثم ضرب قرع الطبول الثقيل طوفان المطر سطح كوخنا الصغير بقوة كبيرة حتى إنه حجب الصَّوت.

قلت: «من الأفضل أن أغلق الدَّرفات».

«لا، لا تفعلي».

التفتّ.

أومأ ويل نحو الخارج: «افتحي الأبواب. أريد أن أرى».

تردّدت ثم فتحت الأبواب الزجاجية المطلّة على الشرفة ببطء. طرق المطر على المجمع السياحي، وراح يتقطّر من سطحنا، ويرسل أنهارًا تجري من شرفتنا نحو البحر. شعرت بالنداوة على وجهي، وبالكهرباء في الهواء. اقشعرَّ شعر ذراعيَّ.

قال من خلفي: «هل يمكنك أن تحسّي بها؟».

«إنها أشبه بنهاية العالم».

وقفت هناك تاركة الشُّحنة تسري عبري. الوميض الأبيض وهو ينطبع على جفوني، جعل أنفاسي تغصّ في حلقي.

مشيت نحو السَّرير وجلست على حافته. وفيما هو يراقب، انحنيت وجذبت بلطف عنقه المسفوع بالشَّمس نحوي. عرفت كيف أثيره الآن،

كيف يمكنني أن أجعل وزنه وصلابته يتجاوبان معي. ممسكة به قريبًا مني انحنيت ووضعت مخدة كبيرة بيضاء خلف كتفيه قبل أن أدعه لحضنها الناعم، كانت رائحة الشَّمس كما لو أنها تسرّبت عميقًا في جلده، ووجدت نفسي أستنشّق بصمت كما لو أنه كان شيئًا لذيذًا.

ثم صعدت بجانبه وأنا لا أزال مبلّلة قليلًا، قريبة جدًا حتى إن ساقيّ مسَّتا ساقيه، ومعًا حدقنا بالحرق الأبيض المزرق عندما ضرب البرق الأمواج، نحو خشبات الدرج التي تلمع كالفضّة من المطر، الكتلة المتبدّلة بلطف من اللون الفيروزي التي امتدت على بعد مائة قدم فقط. انقبض العالم من حولنا إلى أن أصبح صوت العاصفة، والسَّتائر المصنوعة من الشَّاش، تموج بلطف أنفاسي السطحية. شممت رائحة زهور اللوتس في نسيم الليل، سمعت أصواتًا بعيدة لخشخشة الزجاج وكراسٍ تسحب على عجل، موسيقى من احتفال بعيد، شعرت بشحنة الطبيعة انفكّت من عقالها. مددت يدي نحو يد ويل وأمسكت بها. فكرت أني لن أشعر بمثل هذا الاتصال الحاد مع العالم مع شخص آخر كما فعلت في تلك اللحظة.

قال ويل في الصَّمت: «ليس سيئًا إيه كلارك؟». كان وجهه في وجه العاصفة ساكنًا وهادئًا. التفت وابتسم لي وحينها كان هناك في عينيه شيء ظافر.

قلت: «لا، ليس سيئًا على الإطلاق».

استلقيت هادئة، أصغي إلى تنفّسه البطيء والمعمَّق، صوت المطر تحته، شعرت بأصابعه الدافئة متشابكة مع أصابعي. لم أرغب بالعودة إلى الوطن. اعتقدت بأني قد لا أعود إلى الوطن أبدًا. هنا كنا، ويل وأنا في مأمن، محبوسَيْن في جنّتنا الصَّغيرة. كل مرة فكرت بالعودة إلى إنكلترا، أمسك خوفٌ عظيم بمعدتي وبدأ يحكم عليها قبضته.

سيكون كل شيء على ما يرام. حاولت أن أكرّر كلمات نايثن لنفسي. سيكون كل شيء على ما يرام.

أخيرًا، استلقيت على جنبي، ملتفتة عن البحر، وحدَّقت بويل. لفت رأسه لينظر إلي في الضَّوء الشَّاحب، وشعرت بأنه كان يخبرني بالشيء نفسه. سيكون كل شيء على ما يرام. حاولت للمرة الأولى في حياتي ألا أفكر بالمستقبل. حاولت أن أكون، أن أترك ببساطة أحاسيس المساء تسافر عبري. لا أعرف كم بقينا على هذه الحال، فقط نحدّق ببعضنا البعض، لكن تدريجيًا ازداد ثقل جفنَيْ ويل، إلى أن تمتم معتذرًا من أنه اعتقد بأنه قد.. تعمَّقت أنفاسه، تقلَّب فوق ذلك الأخدود الصغير نحو النوم، ثم كنت أنا أراقب وجهه، أنظر إلى أهدابه وكيف انفصلت إلى نقاط صغيرة قرب زوايا عينيه، النمش الجديد على أنفه. قلت لنفسي: عليَّ أن أكون محقّة، لا بد أن أكون محقّة.

توقَّفت العاصفة أخيرًا بعد السَّاعة الواحدة صباحًا، مختفية في مكان ما عند البحر، وميضها الغاضب يضعف، ثم أخيرًا اختفت كليًا لتجلب عصفًا جويًّا لمكان آخر غير مرئي. سكن الهواء ببطء من حولنا، استقرَّت السَّتائر وكانت آخر المياه تنزح مصدرة صوت بقبقة. نهضت في ساعات الفجر الأولى وسحبت يدي برفق من يد ويل وأغلقت النوافذ الفرنسية، وكتمت الغرفة في صمت. نام ويل نومًا هادئًا عميقًا، نادرًا ما نام على هذا النحو في البيت. لم أنم. استلقيت هناك وراقبته وحاولت ألا أفكر في شيء على الإطلاق.

***

حدث أمران في اليوم الأخير. أولهما كان أني وافقت تحت ضغط من ويل أن أجرّب الغطس تحت الماء. فقد كان يلحّ عليّ لأيام معلنًا أنه لا يمكن لي أن آتي إلى هنا من دون أن أنزل تحت المياه. كنت بائسة في ركوب الأمواج، بالكاد قادرة على رفع شراعي من الأمواج، وأمضيت معظم محاولاتي في التزلج على الماء ووجهي مغروس على طول الخليج. لكنه كان مصرًّا، وفي اليوم السَّابق وصل عند الغداء معلنًا أنه حجز لي في دورة مدتها نصف يوم لتعليم الغطس للمبتدئين.

لم تكن البداية جيّدة. جلس ويل ونايثن على جانب حوض السِّباحة عندما حاول مدربي أن يجعلني أصدق بأني أستطيع مواصلة التنفّس تحت الماء، لكن معرفة أنهما كانا يراقبانني جعلتني بائسة، أنا لست حمقاء - أفهم أن الجرّتَيْن على ظهري سوف تزودانني بوفرة من الهواء وأن معدّاتي كانت تعمل وأني لم أكن لأغرق - لكني ذعرت، وكلما نزل رأسي تحت الماء اندفعت نحو السَّطح. كان كما لو أن جسدي رفض أن يصدّق أنه يستطيع أن يتنفّس تحت عدة آلاف من الغالونات من أفضل مياه موريشيوس المعالجة بالكلور.

قلت وأنا أخرج للمرة السَّابعة أبقبق: «لا أظن أني أستطيع أن أفعل هذا».

نظر جيمس معلّم الغطس من خلفي نحو ويل ونايثن.

قلت بنزق: «لا أستطيع، هذه ليست أنا».

أدار جيمس ظهره نحو الرجلين وربّت على كتفي ونظر نحو الماء المفتوح وقال بهدوء: «بعض الناس بالفعل يجدونه أسهل هناك».

«في البحر؟».

«بعض الناس من الأفضل أن يغطسوا من الجهة العميقة. هيا لنركب القارب».

بعد ثلاثة أرباع السَّاعة، كنت أحدق تحت الماء في المنظر الملوَّن ببهاء الذي كان محجوبًا عن الرؤية، ناسية أن أخشى من أن تجهيزاتي قد تتعطّل، وأني قد أصل حتى القاع وأموت غرقًا. نسيت حتى إني كنت خائفة على الإطلاق. كنت مأخوذة بأسرار عالم جديد. في الصَّمت، المكسور فقط بصوت أنفاسي المضخَّمة، شاهدت أفواجًا من السَّمك الصغير القزحي اللون، وسمك أكبر أبيض وأسود، حدقت بي بوجوه مندهشة متسائلة، وشقائق النعمان تتمايل برفق ترشح في التيارات اللطيفة من ستارتها غير المرئية الصَّغيرة. رأيت مناظر بعيدة بألوان زاهية مضاعفة ومتنوعة عن

تلك التي كانت على البر. رأيت كهوفًا وتجاويف حيث تربّصت مخلوقات مجهولة، وأشكالًا بعيدة ومضت في أشعة الشَّمس. لم أرغب بالصعود. كان في وسعي البقاء هناك في العالم الصَّامت إلى الأبد. ما إن بدأ جيمس يومئ نحو قرص ساعته حتى أدركت أن ليس لدي الخيار.

لم أستطع أن أتكلّم إلّا بالكاد عندما توجّهت أخيرًا نحو ويل ونايثن مبتسمة. كان عقلي لا يزال يدندن بالصور التي رأيتها، ولا تزال أطرافي تدفعني تحت الماء بطريقة ما.

قال نايثن: «جيّد، ها؟».

هتفت لويل وأنا أرمي زعانفي على الرمل أمامه: «لماذا لم تقل لي؟ لماذا لم تجعلني أفعل هذا من قبل؟ كل ذلك! كان هناك طوال الوقت تحت أنفي!».

حدّق ويل فيَّ بثبات. لم يقل شيئًا أولًا، لكن ابتسامته كانت متوانية وعريضة: «لا أعرف كلارك. بعض الناس لا يمكن أن تقولي لهم...».

***

تركت نفسي أثمل في تلك الليلة الأخيرة. ليس لأننا كنا سنغادر في اليوم التالي. كانت المرة الأولى التي شعرت فيها حقًّا بأن ويل كان بخير وأنه في وسعي أن أنسى. ارتديت فستانًا قطنيًا أبيض (كان جلدي قد اسمرَّ الآن، لذا لم يجعلني ارتداء الأبيض أشبه تلقائيًّا جثة ترتدي كفنًا) وصندلًا فضيًّا بأربطة، وعندما أعطاني ناديل وردة قرمزية وعلّمني كيف أضعها في شعري لم أهزأ منه كما كنت لأفعل قبل أسبوع.

قال ويل عندما لاقيتهما عند البار: «حسنًا، مرحبًا كارمن ميراندا، تبدين ساحرة».

كنت على وشك أن أجيب بجواب ساخر، ثم أدركت أنه كان ينظر إليَّ بمتعة صادقة.

قلت: «شكرًا لك، أنتَ لا تبدو رثًا للغاية».

كان هناك حفلة ديسكو في مجمّع الفندق الرئيس لذا قبيل السَّاعة العاشرة - عندما غادر نايثن ليكون مع كارن توجّهنا إلى الشَّاطئ والموسيقى في آذاننا والأزيز المستحب لثلاث كؤوس من الشَّراب يمنح عذوبة لحركاتي.

كان الجو جميلًا جدًّا هناك. كان الليل دافئًا، تحمل نسائمه روائح الشِّواء البعيد، والزيوت الدافئة على الجلد، ونكهة ملح البحر الحادة. ويل وأنا توقفنا قرب شجرتنا المفضَّلة. أحدهم أوقد نارًا على الشَّاطئ، ربما من أجل الطهو، وبقيت كومة من جمرات متَّقدة.

قلت في الظلمة: «لا أرغب بالعودة إلى البيت».

«إنه مكان تصعب مغادرته».

أضفت وأنا ألتفت لمواجهته: «لم أظن بأن أمكنة مثل هذه وُجدت خارج الأفلام. لقد جعلني في الواقع أتعجّب إذا كنت قد تقول الحقيقة عن كل الأشياء الأخرى».

كان يبتسم. بدا وجهه عمومًا مرتاحًا وسعيدًا، عيناه تتغضّنان عندما ينظر إليّ. نظرت إليه وللمرة الأولى لم تكن نظرتي مصحوبة بخوف خفيف مؤلم في داخلي.

قلت بتردّد: «أنت مسرور لمجيئنا، صحيح؟».

أومأ: «أوه نعم».

لكمت الهواء: «هاه!».

من ثم عندما أدار أحدهم الموسيقى عند البار، خلعت حذائي وبدأت أرقص. بدا سلوكًا أحمق - من تلك الأفعال التي قد تشعر بالإحراج منها في يوم آخر. لكن هناك في الظلمة الحالكة، نصف ثملة من الشراب وقلة النوم، والنار والبحر الخالد والسَّماء اللامتناهية، وأصوات الموسيقى في

آذاننا، وويل يبتسم وقلبي يخفق بشيء لم أتمكّن من تحديده، شعرت بحاجة إلى الرقص. رقصت ضاحكة بغير خجل، غير قلقة من أن يرانا أحد. شعرت بعينيّ ويل عليّ وعرفت أنه عرف - أن هذا كان الرد الممكن الوحيد على الأيام العشرة الأخيرة. إلى الجحيم، بالستة أشهر الأخيرة. انتهت الأغنية وتخبّطت مقطوعة الأنفاس عند قدميه.

قال: «أنت...».

«ماذا؟». كانت ابتسامتي عابثة. شعرت بأني أذوب بالإثارة. بالكاد شعرت بأني مسؤولة عن نفسي.

هزّ رأسه.

نهضت ببطء على قدمي الحافيتين، مشيت نحو كرسيه وثم انزلقت على حضنه، فكان وجهي على بعد إنشات من وجهه. بعد الأمسية السّابقة لم تبدُ هذه حركة غير مألوفة.

«أنت»، تلقفت عيناه الزرقاوان اللامعتان مع ضوء النار عينيّ، كانت تفوح منه رائحة الشّمس والنار وشيء حاد وحامضي.

شعرت بشيء يتصدّع عميقًا في داخلي: «أنت شيء آخر كلارك».

فعلت الأمر الوحيد الذي تمكّنت من التفكير فيه. انحنيت إلى الأمام ووضعت شفتيَّ على شفتيه. تردّد فقط للحظة ثم قبّلني. وفقط للحظة نسيت كل شيء - مليون سبب يمنعني من ذلك، مخاوفي، سبب وجودنا هنا. قبّلته أستنشق رائحة جلده، أحس بملمس شعره الناعم تحت أطراف أصابعي، وعندما قبّلني كل هذا تلاشى وكنا فقط ويل وأنا، على جزيرة في وسط اللامكان تحت ألف نجمة تلمع.

من ثم انسحب.

«أنا... آسف. لا...».

فتحت عينيّ. رفعت يدي إلى وجهه وتركتها تتعقّب عظامه الجميلة. شعرت بالحبيبات الرملية تحت أطراف أصابعي.

بدأت: «ويل. يمكنك. أنت...».

«لا». كان لتلك الكلمة لمعة معدنية. «لا أستطيع».

«لا أفهم».

«لا أريد الخوض في هذا».

«أظن أن عليك أن تفعل».

ازدرد ريقه: «لا أستطيع أن أفعل هذا لأني لا أستطيع. لا أستطيع أن أكون الرجل الذي أريد أن أكونه معك. وذلك يعني أن هذا»، رفع بصره نحو وجهي: «هذا يصبح شيئًا آخر يذكّرني بما لست أنا».

لم أترك وجهه. أملت جبهتي إلى الأمام لتمسَّ جبهته، وامتزجت أنفاسنا، وقلت بهدوء فلا يسمعني سواه: «لا أهتم لما تظن أنك تستطيع وما لا تستطيع فعله. إنه ليس أسود وأبيض. صدقًا... تحدثت مع أناس آخرين في نفس الحالة وهناك أمور ممكنة. طرق يمكننا أن نكون سعداء من خلالها...»، بدأت أتلعثم قليلًا. رفعت بصري نحو عينيه وقلت بنعومة: «ويل ترينر ها هو الأمر أظن بأننا نستطيع فعل...».

بدأ: «لا، كلارك».

«أظن أن في وسعنا أن نفعل كل شيء. أعرف أن هذه ليست قصّة حبّ تقليدية. أعرف أن هناك أسبابًا متنوعة تمنعني من أن أقول. لكني أحبّك حقًا، عرفت ذلك منذ أن تركت باتريك. وأظن أنك قد تحبّني ولو قليلًا».

لم يتكلَّم. تحرّت عيناه عينيّ، وكان هناك هذا الثقل الكبير من الحزن فيهما. أزحت شعره بعيدًا عن صدغيه، كما لو أني بطريقة ما أزيح أساه، وأمال رأسه ليلاقي راحة يدي فارتاح هناك. ازدرد ريقه: «يجب أن أخبرك شيئًا».

همست: «أعرف، أعرف كل شيء».

أطبق فم ويل على كلماته. بدا أن الهواء يسكن من حولنا.

«أعرف عن سويسرا. أعرف... أعرف لماذا تمَّ توظيفي في عقد مدته ستة أشهر».

رفع رأسه بعيدًا عن يدي. نظر إليَّ ثم حدَّق نحو السماء. تهدَّلت كتفاه.

«أعرف كل شيء ويل. عرفت منذ شهور. ويل من فضلك أصغِ إلي...». أخذت يده اليمنى في يدي، ورفعتها إلى صدري. «أعرف أنه يمكننا أن نفعل هذا. أعرف أنه ليس كما كنت لتختاره، لكني أعلم بأني أستطيع أن أسعدك. وكل ما يمكنني قوله هو أنك تجعلني شخصًا لم أستطع حتى أن أتخيّله. أنت تسعدني، حتى عندما تكون رهيبًا. قد أفضّل أن أكون معك على أن أكون مع أي شخص آخر في العالم - حتى أنت الذي تبدو أنك تظن بأنك منقوص».

شعرت بأصابعه تطبق بخفَّة حول أصابعي وهذا منحني الشَّجاعة.

«إذا كنت تظن بأنه غير مناسب لكوني موظفة من قبلك، حينها سأغادر وسأعمل في مكان آخر. أردت أن أخبرك - لقد تقدَّمت بطلب لاتباع دورة في الكلية. لقد قمت بكثير من الأبحاث على الانترنت، تحدّثت مع مصابين بالشلل ومع جلساء لهم، وعلمت الكثير عن كيفية إنجاح هذا. لذا يمكنني فعل ذلك، وفقط أكون معك. هل تفهم؟ لقد فكرت بكل شيء، بحثت عن كل شيء. هذه أنا الآن. هذا خطأك. أنتَ غيّرتني». كنت شبه ضاحكة. «لقد حولتني إلى أختي. لكن مع ذوق أفضل في الثياب».

كان قد أغمض عينيه. وضعت يدي حول يديه ورفعت أصابعه إلى فمي وقبلتها. شعرت ببشرته على بشرتي وعرفت كما لم أعرف من قبل أني لا أستطيع أن أسمح له بالذهاب.

همست: «ألن تقول شيئًا؟».

كان في وسعي أن أنظر في عينيه إلى الأبد.

قال بهدوء شديد حتى إني لدقيقة لم أكن واثقة من أني سمعته تمامًا.

«ماذا؟».

«لا، كلارك».

«لا؟».

«أنا آسف. هذا ليس كافيًا».

أخفضت يده: «لا أفهم».

انتظر قبل أن يتحدَّث كما لو أنه كان يكافح ليجد الكلمات المناسبة: «لا أجد أن هذا يكفي عالمي، حتى لو كنت أنت فيه. وصدّقيني كلارك، حياتي كلّها تغيّرت للأفضل منذ أتيت، لكني لا أجدها كافية، ليست الحياة التي أريد».

الآن كان دوري في التراجع. «لقد فهمت أن هذه قد تكون حياة جيّدة. أنه معك ربما تكون حياة جيّدة جدًّا. لكنها ليست حياتي. أنا لست مثل هؤلاء الأشخاص الذين تتحدّثين إليهم. لا شيء مثل الحياة التي أريد. ولا حتى قريبًا منها». كان صوته متردِّدًا متقصِّفًا. أخافتني قسمات وجهه.

ازدردت ريقي وهززت رأسي: «أنت... أنت قلت لي مرة إن ليس على تلك الليلة في المتاهة أن تكون الحدث الذي يعرّفني. قلت إني أختار ما يعرّفني. حسنًا، ليس عليك أن تدع ذلك الكرسي يعرّفك».

«لكنه يعرِّفني، كلارك. أنت لا تعرّفينني، ليس حقًّا. أنت لم تريني يومًا قبل هذا الأمر. أحببتُ حياتي كلارك. أحببتها حقًّا. أحببت عملي وأسفاري والأشياء التي كنتها. أحببت كوني شخصًا حسّيًّا. أحببت ركوب دراجتي، وأن أقذف بنفسي من مرتفعات هائلة. أحببت سحق الناس في صفقات تجارية. أحببت ممارسة الجنس. الكثير من الجنس. عشت حياة غنيّة». ارتفع صوته الآن. «أنا لست مصممًا للوجود في هذا الشيء - وفوق ذلك،

بكل معنى الكلمة هو الآن الشيء الذي يعرّفني. إنه الشيء الوحيد الذي يعرّفني».

همستُ وبدا صوتي أنه لا يريد أن يخرج من صدري: «لكنك لا تمنحنا فرصة حتى. أنت لا تعطيني فرصة».

«إنها ليست مسألة إعطائك فرصة. لقد شاهدتك هذه الأشهر الستة تصبحين شخصًا مختلفًا، شخص بدأ للتو بفهم إمكاناته. لا تعرفين كم أسعدني هذا. لا أريدك أن تكوني مكبَّلة بي، بمواعيد مستشفاي، بالقيود على حياتي. لا أريدك أن تفوّتي كل الأشياء التي يمكن أن يمنحك إياها شخص آخر. وبأنانية، لا أريدك أن تنظري إليَّ ذات يوم وتشعري ولو قليلًا جدًّا بأنك نادمة أو مشفقة على أنك..».

«سوف لن أفكر بذلك أبدًا!».

«أنت لا تعرفين ذلك، كلارك. ليس لديك فكرة كيف سينتهي ذلك. ليس لديك فكرة كيف ستشعرين بعد ستة أشهر من الآن. ولا أريد أن أنظر إليك كل يوم، أن أراك عارية، أن أشاهدك تتجوّلين في الملحق في فساتينك المجنونة ولا... أكون قادرًا على فعل ما أريد معك. أوه، كلارك، لو تعلمين ما أريد أن أفعله معك الآن. وأنا... لا أستطيع العيش مع تلك المعرفة. لا أستطيع. هذا ليس أنا. لا يمكنني أن أكون الرجل الذي... يقبل». نظر إلى كرسيّه وصوته يتكسّر: «سوف لن أقبل أبدًا بهذا».

كنت قد بدأتُ أبكي: «من فضلك ويل. من فضلك لا تقل هذا. فقط امنحني فرصة. أعطنا فرصة».

«صهِ. فقط اسمعي. أنت من بين كل الناس اسمعي ما أقول. هذه الليلة هي أجمل ما فعلتِه لي. ما قلتِه لي، ما فعلتِه في جلبي إلى هنا... معرفة أنه بطريقة ما، استطعت أن تجدي في ذلك المتكبّر الذي كنته ما يستحق الحب، هذا أمرٌ مدهشٌ لي. لكن...» -شعرت بأصابعه تنغلق على أصابعي - «أريده أن ينتهي هنا. لا كرسي بعد الآن. لا مزيد من ذات الرئة.

لا مزيد من أطراف تحترق. لا مزيد من الألم والتعب والاستيقاظ كل صباح على أمنية أن ينتهي. عندما أعود سأذهب إلى سويسرا. وإذا كنت تحبينني كلارك كما تقولين، الأمر الذي يجعلني أسعد من أي شيء هو أن تأتي معي».

تراجع رأسي إلى الخلف.

«ماذا؟».

«لن يكون هناك تحسّن أكثر من هذا. ما سيحدث على الأرجح هو أن صحتي ستزداد اعتلالًا وحياتي مختزلة وسوف تصبح أكثر اختزالًا. قال الأطباء ما يكفي. الظروف تتجاوز حالتي. يمكنني أن أشعر بذلك. لا أريد أن أكون في ألم بعد الآن، أو واقعًا في فخّ هذا الشيء، أو معتمدًا على الجميع، أو خائفًا. لذا أنا أطلب منك إذا كنتِ تشعرين بالأشياء التي تقولين إنك تشعرين بها، افعلي هذا، كوني معي، أعطني النهاية التي آملها».

نظرت إليه في رعب، دمي ينبض في أذنيّ، بالكاد استطعت تحمّله.

« كيف يمكنك أن تطلب مني ذلك؟».

« أعرف، أنه...».

«أقول لكَ إني أحبك وأريد أن أبني معك مستقبلًا وأنت تطلب مني أن آتي وأشاهدك تقتل نفسك؟».

«أنا آسف. لا أقصد أن أبدو متجر القلب. لكن ليس لدي ترف الوقت».

«ماذا؟ أنت حجزت حقًا؟ هل هناك موعد تخشى أن تفوّته؟».

رأيت الناس في الفندق يتوقّفون. ربما يسمعون أصواتنا المرتفعة لكني لم أهتم.

قال ويل بعد وقفة: «نعم، نعم هناك. لديّ الاستشارات. وافقت العيادة على أني حالة مناسبة لهم. ووالداي وافقا على الثالث عشر من شهر آب. علينا أن نسافر قبل يوم».

بدأ رأسي يدور، كان أمامي أقل من أسبوع.

«لا أصدق هذا».

«لويزا...».

«اعتقدت... بأني كنت أغيّر رأيك».

أمال رأسه من جانب إلى آخر وحدَّق بي. كان صوته خافتًا وعيناه رقيقتين: «لويزا لا شيء كان سيغيّر رأيي، أنا وعدت والديَّ بستة أشهر، وهذا ما أعطيته لهما، لقد جعلتِ ذلك الوقت ثمينًا أكثر مما يمكنك أن تتخيلي، لقد منعته من أن يكون اختبار تحمّل».

«لا تفعل!».

«ماذا؟».

كنت منفعلة: «لا تقل كلمة أخرى. أنت أناني جدًّا، ويل. أحمق للغاية. حتى لو كان هناك إمكانية ضئيلة للمجيء معك إلى سويسرا... حتى لو فكّرت بأني قد أكون بعد كل ما فعلته من أجلك، شخصًا يستطيع أن يفعل ذلك، هل هذا كل ما يمكنك قوله لي؟ مزقتُ قلبي أمامك. وكل ما يمكنك قوله هو لا، أنت لست كافية من أجلي. والآن تريد أن آتي وأشاهد أسوأ أمر يمكنك أن تتخيّله، الشيء الذي خفت منه منذ أن عرفت بالأمر، هل لديك فكرة عمّا تطلّبه مني؟».

كنت ثائرة. واقفة أمامه أصرخ مثل مجنونة: «عليك اللعنة، ويل ترينر. عليك اللعنة. أتمنى لو أني لم أعمل في هذا العمل الأحمق. أتمنى لو أني لم ألتقيك».

انفجرت باكية وركضت من الشاطئ إلى غرفتي في الفندق بعيدًا عنه.

رنّ صوته ينادي باسمي في أذنيّ طويلًا بعد أن أغلقت الباب.

24

ليس هناك أمر أكثر إرباكًا للمارّة من رؤية رجل في كرسي متحرك يبتهل لامرأة يُفترَض بها أن تعتني به. في ظاهر الأمر ليس من اللائق حقًّا أن تغضب من المعوّق المكلّفة بمهمة الاعتناء به. لا سيما عندما يكون واضحًا عجزه عن الحركة ويناديها بلطف: «كلارك، من فضلك. فقط تعالي إلى هنا. أرجوك».

لكني لم أستطع. لم أستطع النَّظر إليه. كان نايثن قد حزم حاجيات ويل، والتقيتهما في البهو صباح اليوم التالي - لا يزال نايثن مترنّحًا من خمرته - ومنذ اللحظة التي توجَّب علينا فيها أن نكون بصحبة بعضنا البعض مجدّدًا، رفضت أن يكون لي علاقة بويل. كنت غاضبة وبائسة. كان هناك صوت ملحٌّ ساخط في رأسي يطلب أن أكون أبعد ما يمكن عنه. أن أذهب إلى البيت. ألّا أراه ثانية.

قال نايثن عندما رآني: «هل أنت بخير؟».

حالما وصلنا إلى المطار، سرت بعيدًا عنهما نحو مكتب الوصول.

قلت: «لا، ولا أريد التحدّث في هذا».

«ثمِلة؟».

«لا».

كان هناك صمت قصير.

كان فجأة كئيبًا: «هذا يعني أن ما أفكر فيه حدث؟».

لم أتمكَّن من الكلام. أومأت، ورأيت فكَّ نايثن يتصلَّب لفترة وجيزة. كان أقوى مني مع ذلك. ففي النهاية كان محترفًا. خلال دقائق عاد إلى ويل يريه شيئًا رآه في مجلة، ويتساءل بصوت مسموع عن فرص فريق كرة قدم يعرفانه هما الاثنان. لو راقبتهما لا تستطيع تخمين أي أخبار خطيرة أفصحت عنها للتو.

استطعت أن أشغل نفسي طوال مدة الانتظار في المطار. وجدت ألف مهمة صغيرة لأقوم بها - أهتم بوضع البطاقات على الأمتعة، أشتري القهوة، أطالع الصُّحف، أذهب إلى دورة المياه - كلها أفادت بأني لا أريد النظر إليه. ولا التحدّث إليه. لكن بين الحين والآخر كان لنايثن أن يختفي وكنّا لوحدنا، جالسَيْن بجانب بعضنا البعض، المسافة القصيرة بيننا تصخب بمهاترات غير منطوقة.

كان يبدأ بالقول: «كلارك».

وأقاطعه: «لا أريد التحدّث إليك».

فاجأت نفسي إلى أي درجة أستطيع أن أكون باردة. وفاجأت مضيفي الرحلة بالتأكيد. رأيتهم على الطائرة، يتمتمون في ما بينهم عن الطريقة التي انصرفت فيها عن ويل بتعنّت، أسدّ سماعاتي أو أحدّق بإصرار من النافذة.

لم يغضب. وكان ذلك أسوأ ما في الأمر غالبًا. لم يغضب، ولم يصبح ساخرًا، وببساطة أصبح أكثر هدوءًا إلى أن صمت تقريبًا. كان متروكًا لنايثن المسكين تولي أمر محادثته، وأن يطرح أسئلة عن الشّاي أو القهوة أو عبوات الفستق المحمص الاحتياطية والذين يمرّون بنا للذهاب إلى دورة المياه.

ربما يبدو طفوليًّا الآن، لكن لم تكن فقط مسألة تكبّر. لم أستطع

تحملها. لم أستطع تحمّل فكرة أني قد أخسره، وأنه كان مستبدًا برأيه، ومصمّمًا على ألا يرى ما هو جيّد، وما يمكن أن يكون جيدًا، وأنه لن يغيّر رأيه. لم أصدّق أنه سيتشبّث بذلك الموعد، كما لو أنه كان منقوشًا على حجر. مليون شجار صامت دار في رأسي. لماذا هذا ليس كافيًا بالنسبة إليك؟ لماذا أنا لست كافية؟ لماذا لا تضع ثقتك بي؟ لو كان لدينا المزيد من الوقت، هل كان لهذا أن يكون مختلفًا؟

كنت أضبط نفسي بين الحين والآخر، أحدّق بيديه المسمَّرتين، تلك الأظافر المربعة الشَّكل على بعد إنشات من أصابعي، وكنت لأتذكّر كيف تشابكت أصابعنا - أتذكر دفئه، التوهّم بنوع من القوة، حتى في السُّكون - وغصَّة تصعد في حلقي إلى أن اعتقدت بأني أتنفس بالكاد وكان عليَّ أن أذهب إلى دورة المياه، لأنحني على المغسلة وأنشج بصمت تحت شريط الإضاءة. كان هناك بعض مرّات فكّرت فيها بشأن ما كان ويل لا يزال ينوي فعله، وأنه كان عليَّ بالفعل أن أكافح الرغبة في الصُّراخ، شعرت بأني مغمورة بنوع من الجنون وفكرت بأني قد أجلس في الممر وأولول إلى أن يتدخّل شخص آخر. إلى أن يضمن شخص آخر أنه لا يستطيع أن يفعلها.

لذا مع أني بدوت طفولية - مع أني بدوت للعاملين (وأنا رفضت التحدّث إلى ويل، أو أن أنظر إليه، أو أن أطعمه) كما لو أني كنت أكثر النساء قسوة - عرفت أن التظاهر بأنه غير موجود هي الطريقة الوحيدة التي تمكّنني من تجاوز هذه السَّاعات من القرب المفروض. لو كنت أستطيع ضمان أن نايثن قادر على التعامل مع كل شيء بمفرده لكنت غيرت رحلتي صدقًا، بل ربما اختفيت إلى أن أتأكد أن هناك قارة كاملة تفصل بيننا، وليس فقط بضعة إنشات.

نام الرجلان، وكان هذا مريحًا لي نوعًا ما - إرجاء وجيز من التوتّر. حدَّقت في شاشة التِّلفاز وشعرت مع كل ميل قطعناه نحو البلاد بأن قلبي ازداد ثقلًا وكبر حجم قلقي. بدأ يخطر لي حينها أن فشلي لم يكن فقط

فشلًا لي شخصيًا، سيكون والدا ويل مدمَّرَيْن. وقد يلقيان عليَّ باللوم. ربما تقاضيني أخت ويل. وكان فشلي بالنسبة إلى ويل أيضًا. فشلت في إقناعه. قدّمت له كل ما أستطيعه، حتى نفسي، ولم يقنعه أي مما أظهرته له من أسباب للبقاء حيًّا.

وجدت نفسي أفكّر، ربما هو استحق شخصًا أفضل مني. شخصًا أكثر ذكاءً. شخصًا مثل ترينا التي قد تفكّر بأشياء أفضل. ربما وجد قطعة نادرة من بحث طبّي أو شيء قد يساعده. ربما غيّر رأيه. جعلتني حقيقة أنه كان عليَّ أن أعيش مع هذه المعرفة لبقية حياتي أشعر بالدوار تقريبًا.

داهم صوت ويل أفكاري: «هل تريدين شرابًا، كلارك؟».

«لا. شكرًا لك».

«هل يزعجك مرفقي فوق مسند ذراعك؟».

« لا. إنه ممتاز».

فقط في تلك السَّاعات القليلة الأخيرة، في الظلمة، سمحت لنفسي أن أنظر إليه. انزلقت تحديقتي جانبيًّا من شاشة التلفاز المتوهّجة إلى أن حدّقت فيه خفية في الضوء الشَّاحب للمقصورة الصغيرة. وفيما أنا مستغرقة في وجهه المسفوع والوسيم المسالم جدًّا في نومه نزلت دمعة على خدي. تحرَّك ويل، ربما أحسّ على نحوٍ غير واع بتأمّلي لوجهه، لكنه لم يستيقظ. وبحذر من أن يراني أحد المضيفين أو نايثن، سحبت غطاءه ببطء حول عنقه وثنيته بعناية لأتأكد أن ويل لن يشعر بالبرد في بسبب مكيف هواء المقصورة.

***

كانا ينتظران عند بوابة الوصول. عرفت بطريقة ما أنهما سيكونان هناك. شعرت بإحساس خفيف بالغثيان يسري في داخلي حتى ونحن ندفع ويل عبر ممر مراقبة جوازات السَّفر، التي تمّت مراجعتها سريعًا من قبل موظف حسن النية بينما كنت أصلّي أن نكون مرغمين على الانتظار، عالقين في

طابور يمتد لساعات، بل من الأفضل لأيام. عبرنا الفسحة الواسعة من الأرضية المشمّعة، أدفع عربة المتاع ونايثن يدفع ويل، وعندما انفتحت الأبواب الزجاجية كانوا هناك واقفَيْن عند الحاجز، جنبًا إلى جنب في شكل نادر للوحدة. رأيت وجه السَّيدة ترينر يشرق عندما رأت ويل، وفكّرت بذهول، بالتأكيد - هو يبدو جيّدًا جدًّا. ولخزيي، وضعت نظارتي الشمسية - لا لأخفي تعبي، لكنها هكذا لن تتمكّن في الحال من أن ترى من خلال تعبيري العاري ما كنت سأخبرها به.

كانت تهتف: «انظر إليك، ويل، أنت تبدو رائعًا. رائعًا حقًّا».

انحنى والد ويل، وجهه مكلَّل بالابتسامات، كان يربّت على كرسي ابنه، وركبته.

«لم نصدّق عندما أخبرنا نايثن أنك كنت على الشَّاطئ يوميًّا. وتسبح! كيف كانت المياه، كانت إذًا - جميلة ودافئة؟ كانت تمطر هنا مدرارًا كعادتها في شهر آب!».

كان نايثن بالتأكيد يكتب لهم أو يتّصل بهم. فهم لن يتركونا أن نمضي كل ذلك الوقت من دون نوع من الاتصال.

قال نايثن: «كان مكانًا مدهشًا للغاية». وقد حاول أن يبتسم، أن يبدو كعادته. شعرت بالتجمّد، تتشبّث يدي بجواز سفري كما لو أني كنت على وشك الذهاب إلى مكان آخر. كان عليَّ أن أذكّر نفسي بالتنفس.

قال والد ويل: «حسنًا، فكرنا بأنك قد تحب أن نتناول وجبة عشاء مميزة، هناك مطعم مبهج في الانتركونتيننتال. الشَّمبانيا علينا. ماذا تظن؟ والدتك وأنا فكرنا أنها قد تكون وليمة ظريفة».

قال ويل: «بالتأكيد». كان يبتسم لأمّه وكانت تنظر إليه نظرة كما لو أنها أرادت أن تحتفظ بها. كيف يمكنك؟ أردت أن أصرخ عليه. كيف يمكنك أن تنظر إليها هكذا عندما تعرف الآن ماذا ستفعله بها؟

«هيا، إذًا. وضعت السَّيارة في موقف السَّيارات الخاص بذوي

الإعاقة. إنه على مسافة قريبة من هنا. كنت واثقًا من أنكم ستكونون جميعًا متكاسلين. نايثن، هل تريد أن أحمل عنك هذه الحقائب؟».

اقتحم صوتي المحادثة وقلت وأنا أسحب حقيبتي عن العربة: «في الواقع، أظن بأني ذاهبة إلى البيت. شكرًا لكم، بأي حال».

قلت ذلك وتعمّدت ألّا أنظر إليهم، لكن حتى فوق ضجيج المطار تتبّعت الصمت الموجز الذي أثارته كلماتي.

كان صوت السَّيد ترينر أول الأصوات التي كسرت الصمت.

«هيا، لويزا. لنحتفل قليلًا. نريد أن نسمع كل شيء عن مغامراتكم. أريد أن أعرف كل شيء عن الجزيرة. وأعدك أن ليس عليك أن تخبرينا كل شيء». وضحك ضحكًا مكتومًا.

صوت السَّيدة ترينر كان باهتًا: «نعم، لويزا تعالي معنا».

«لا»، ازدردت ريقي أحاول أن أرسم ابتسامة ملطّفة. كانت نظارتي الشَّمسية درعًا. «شكرًا لك. أفضل أن أعود حقًّا».

قال ويل: «إلى أين؟».

أدركت ما كان يقوله. لم يكن لديّ مكان أذهب إليه.

«سأذهب إلى منزل والديَّ».

كان صوته رقيقًا قال: «تعالي معنا، لا تذهبي كلارك من فضلك».

أردت أن أبكي حينها. لكني علمت باقتناع تام أني لن أتمكن من أن أكون في أي مكان قربه.

«لا. شكرًا لك. آمل أن تستمتعوا بوجبة طيبة».

رفعت حقيبتي على كتفي وقبل أن يتمكّن أحد من قول شيء كنت أبتعد عنهم، وابتلعتني الحشود في المحطة.

***

سمعتها عندما كنت عند موقف الحافلة. كاميلا ترينر، كعباها يسرعان على الرصيف، تمشي قليلًا وتجري قليلًا.

«توقفي. لويزا. من فضلك توقفي».

التفتّ، وكانت تشق طريقها عبر جماعة نزلوا من حافلة ترمي المراهقين الذين يحملون حقائب الظهر جانبًا كما شق موسى البحر. كانت أضواء المطار مشعّة على شعرها، تمنحه لونًا نحاسيًّا. كانت ترتدي شالًا صوفيًّا رماديًّا فاخرًا مربوطًا بطريقة فنية على أحد كتفيها. أفكر بذهن شارد كم كانت جميلة منذ بضع سنوات فقط.

«من فضلك. من فضلك توقّفي».

توقفت، أنظر خلفي نحو الطريق، أتمنى أن تظهر الحافلة الآن وتجرفني بعيدًا. وأن يحدث أي شيء. ربما زلزال صغير.

«لويزا؟».

«لقد أمضى وقتًا طيبًا». بدا صوتي مشذّبًا، مثل صوتها على نحو غريب، وجدت نفسي أفكّر.

«هو يبدو بخير. على أحسن ما يُرام». حدّقت بي وهي واقفة هناك على الرصيف. كانت فجأة ساكنة بشدة، على الرغم من بحر الناس المائج من حولها.

لم نتكلّم.

ثم قلت: «سيدة ترينر، أريد أن أسلّمك مكتوب استقالتي. لا يمكنني... لا يمكنني أن أعمل هذه الأيام القليلة الأخيرة. سوف أدفع أي نقود أدين لكم بها. في الواقع، لا أريد مرتَّب هذا الشَّهر كله. لا أريد شيئًا. أنا فقط».

شحبت حينها. رأيت اللون ينسحب من وجهها.. رأيت السَّيد ترينر قادمًا من خلفها، خطواته رشيقة واسعة، ممسكًا بقبعته بإحدى يديه بحزم

على رأسه. كان يتمتم باعتذاراته وهو يندفع عبر الحشود، عيناه مثبتتان عليَّ وأنا وزوجته نقف بصلابة تفصلنا بضع خطوات.

«أنتِ... قلت إنك اعتقدت بأنه كان سعيدًا. قلت إنك اعتقدت بأن هذا قد يغيّر رأيه». بدت يائسة كما لو أنها كانت ترجوني أن أقول شيئًا آخر، أن أعطيها نتيجة مختلفة.

لم أتمكن من الكلام. حدّقت بها، وجلّ ما تمكّنت من فعله كان هزَّة صغيرة من رأسي.

همست بهدوء شديد حتى إنها لم تتمكّن من سماعي: «أنا آسفة».

كان قد وصل إلى هناك عندما وقعت. كما لو أن ساقيها انهارتا تحتها وذراع السَّيد ترينر اليسرى امتدت وأمسكت بها وهي تقع، فمها فاغر، وجسدها تهاوى على جسده. سقطت قبَّعته على الرصيف. رمقني، وجهه مربك غير مستوعب لما حدث للتو.

ولم أتمكن من النظر. التفتّ خدرة، وبدأت أمشي، أرمي قدمًا أمام الأخرى، وتتحرّك ساقاي تقريبًا من دون أن أحسّ بما تفعلانه، أبتعد عن المطار، ولم أكن أعرف بعد إلى أين كنت ذاهبة.

25

كاترينا

لازمت لويزا غرفتها مدة ست وثلاثين ساعة بعد أن عادت من إجازتها. عادت من المطار في وقت متأخّر من مساء يوم الأحد، شاحبة مثل شبح تحت سمرتها - ولم نتمكّن من فهم ذلك في البداية عندما قالت إنها سوف ترانا صباح يوم الاثنين من كل بد. قالت أنا بحاجة إلى النوم، ثم أغلقت على نفسها باب غرفتها وذهبت مباشرة إلى السَّرير. اعتقدنا بأن هذا غريب بعض الشيء، لكن ماذا الذي نعرفه؟ لقد كانت لو غريبة الأطوار منذ ولادتها.

أمي كانت قد حملت لها كوبًا من الشَّاي في الصباح، ولو لم تتحرّك. عند موعد العشاء قلقت أمي وهزّتها لتتأكد من أنها لا تزال حية (يمكن أن تكون أمي ميلودرامية قليلًا، وكي أكون منصفة، صنعت فطيرة السَّمك وربما أرادت أن تتأكد من أن لو لن تفوّتها). لكن لو لم تكن تأكل، ولم تتحدّث ولم تنزل إلى الطابق الأرضي. قالت ورأسها على وسادتها: أنا فقط أريد أن أبقى هنا قليلًا أمي». أخيرًا أمي تركتها وشأنها. علّقت أمي: «هي ليست نفسها، هل تظن بأنه نوع من رد فعل متأخر على الموضوع مع باتريك؟».

قال أبي: «لا يمكنها أن تهتم بشأن باتريك. قلت لها إنه اتصل ليخبرنا

بأنه جاء في الترتيب الـ157 في سباق الفايكنغ وهي لم تبد أنها مهتمة ولو قليلًا». ارتشف شايه وأكمل: «لتكوني عادلة معها، وجدت أنه من الصعب جدًّا أن يكون المرء متحمّسًا لهذه المرتبة».

«هل تظن بأنها مريضة؟ ليس من عادتها أن تنام كل هذا الوقت. ربما تعاني من مرض استوائي رهيب».

قلت: «إنها فقط متكاسلة». قلت ذلك ببعض السلطة وأنا أعرف أن والديَّ يميلان لمعاملتي كخبيرة بكل أنواع المسائل التي لا يعرف أحد منّا عنها شيئًا.

«متكاسلة! حسنًا، إذا كان هذا ما يفعله بك السّفر الطويل أظن بأني لن أغادر تينبي. ماذا تظنين جوسي حبيبتي؟».

«لا أعرف... من سيفكر بأن إجازة قد تجعلك مريضًا جدًّا؟». هزَّت أمي رأسها.

صعدت إلى الطابق الأعلى بعد العشاء. لم أقرع الباب. (كانت تنام في غرفتي في النهاية، وبالنظر إلى أني كنت هنا في إجازة لمدة أسبوع كان من حقّي أن أكون فيها). كان الهواء ثقيلًا وساكنًا، ورفعت الستارة وفتحت النافذة، فاستدارت لو ناعسة من تحت اللحاف، تستر عينيها من الضوء، وتدوِّم ذرات الغبار من حولها.

«لن تخبريني ماذا حدث؟». وضعت كوب الشّاي على الطاولة الجانبية.

طرفت نحوي.

«أمي تظن أنك التقطت فيروس إيبولا. هي منشغلة في تحذير جميع الجيران الذين حجزوا على رحلة البينغو كلاب إلى بورت أفينتورا».

لم تقل شيئًا.

«لو؟».

قالت بهدوء: «أنا تركت العمل».

«لماذا؟».

«لماذا تظنين؟». دفعت نفسها نحو الأعلى وتناولت الكوب من دون حذر، وارتشفت رشفة طويلة من الشاي.

بدت رهيبة للغاية بالنسبة لشخص أمضى لتوّه أسبوعين في موريشيوس. كانت عيناها صغيرتين جدًّا ومحمرّتين. شعرها ملبد إلى طرف واحد. بدت كما لو أنها لم تنم منذ سنين. لكنها بدت حزينة أكثر من كل شيء. لم يسبق لي أن رأيت أختي حزينة إلى هذه الدرجة يومًا.

«هل تظنين بأنه حقًا سوف يمضي بالأمر؟».

أومأت. ثم ازدردت ريقها بشدّة.

«اللعنة. أوه، لو. أنا آسفة حقًا».

أومأت لها لتفسح لي مكانًا، وصعدت إلى السَّرير بجانبها. ارتشفتْ رشفة أخرى من الشّاي، ثم أسندت رأسها على كتفي. كانت ترتدي كنزتي. لم أقل شيئًا حول ذلك. إلى هذا الحد كنت أشعر بالشَّفقة عليها.

«ماذا أفعل، ترين؟».

كان صوتها ضعيفًا مثل صوت توماس عندما يؤذي نفسه ويحاول أن يكون شجاعًا. في الخارج سمعنا كلب الجيران يلهث جيئة وذهابًا على طول سياج الحديقة، يطارد قطط الجيران. سمعنا بين الحين والآخر نباحًا مجنونًا، وكان رأس الكلب يظهر فجأة من فوق القمة وعيناه جاحظتان بالخيبة.

قالت بصوت انخفض إلى مستوى الهمس: «أنا لست واثقة من أن هناك ما يمكن فعله. يا إلهي. كل تلك الأشياء التي نظّمتها من أجله وكل ذلك الجهد. قلت له إني أحبه. وهو قال إن هذا ليس كافيًا». كانت عيناها متسعتين وكئيبتين. «كيف يفترض بي أن أعيش مع ذلك؟».

أنا الوحيدة في العائلة التي تعرف كل شيء، قرأت أكثر من أيٍّ شخص آخر، التحقت بالجامعة، أنا الوحيدة التي يفترض بها أن تمتلك جميع الإجابات. لكنني نظرت إلى أختي الكبرى وهززت رأسي قائلة: «ليس لدي فكرة».

***

أخيرًا خرجَتْ في اليوم التالي، استحمَّت وارتدت ثيابًا نظيفة، وطلبت من أمي وأبي ألَّا ينبسا بكلمة. ألمحت إلى أنها كانت مشكلة مع صديق، واندهش أبي وتجهَّم كما لو أن ذلك شرح كل شيء، والله وحده يعلم ما كنا نورّط أنفسنا فيه. أمي هرعت لتتصل بنادي البينغو لتقول لهم إنها أعادت النظر بمخاطر الرحلة الجوية.

تناولت لو قطعة خبز محمَّص (لم ترغب بأن تتناول طعام الغداء)، واعتمرت قبعة عريضة كبيرة وصعدنا إلى القلعة مع توماس لنطعم البطَّات. لا أظن أنها أرادت الخروج حقًّا، لكن أمي أصرَّت على أننا جميعًا بحاجة إلى بعض الهواء المنعش. هذا، في قاموس أمّي يعني أنها كانت تتلهّف للدخول إلى غرفة النوم لتهويتها وتغيير مفارش السَّرير. قفز توماس ووثب وتقدّمنا، ممسكًا بكيس بلاستيك مليء بالفُتات وتفاوضنا مع السُّياح المنتشرين بسهولة منحتها لنا سنوات من الخبرة، نتجنّب طريق حقائب الظهر المتمايلة، ونفترق من حول أزواج متوقّفين ونجتمع على الجانب الآخر. تحمَّصت القلعة في حرّ الصَّيف الشَّديد، وتصدَّعت الأرض، والعشب أصبح هشًّا مثل الشَّعرات الأخيرة على رأس رجل أصلع. بدت الزهور في الأحواض مهزومة كما لو أنها كانت تستعد للخريف سلفًا.

لم نتحدّث أنا ولو كثيرًا. وماذا يمكن أن يُقال؟ عندما عبرنا ساحة انتظار سيارات السُّياح رأيتها تنظر من تحت حافة قبعتها نحو منزل آل

ترينر. انتصب أنيقًا بقرميده الأحمر، تخفي نوافذه الطويلة البيضاء مأساة الحياة المتغيّرة التي كانت تجري هناك ربما في هذه اللحظة.

قلت: «يمكنك الذَّهاب والتَّحدّث إليه. سأنتظرك هنا».

نظرت إلى الأرض، طوت ذراعيها على صدرها، وواصلنا السير. قالت: «لا فائدة». عرفت ما لم تفصح عنه، من أنه قد لا يكون هنا.

طفنا ببطء حول القلعة نراقب توماس وهو يتدحرج على الأجزاء الشَّديدة الانحدار من التَّلة، يطعم البطات التي كانت في هذه الفترة من الموسم متخمة للغاية، حتى إنها بالكاد كلَّفت نفسها عناء المجيء لمجرد فتات الخبز. راقبت أختي ونحن نسير، أرى ظهرها البنّي مكشوفًا إذ كانت ترتدي كنزة بلا ظهر، وكتفاها متهدّلين، وأدركت أنه حتى لو لم تكن تعرف بعد، كل شيء تغيّر بالنسبة لها. هي لن تبقى هنا الآن، مهما حدث مع ويل ترينر. كان يخيّم عليها جو جديد من المعرفة، أشياء مرئية، عرفتها من أماكن ذهبت إليها. صار لدى أختي أخيرًا آفاق جديدة.

قلت ونحن نعود نحو البوابات: «أوه، وصلتك رسالة من الكليّة أثناء سفرك. آسفة فتحتها. اعتقدت بأنها لي».

«فتحتها؟».

كنت آمل أن يكون فيها منحة نقود إضافية.

«لديك مقابلة».

طرفت كما لو أنها تلقَّت أنباء من ماضٍ بعيدٍ.

قلت: «نعم. والخبر المهم هو أن موعد المقابلة غدًا، لذا اعتقدت ربما بأن علينا الليلة مراجعة بعض الأسئلة التي يمكن أن تطرح».

هزَّت رأسها: «لا يمكنني الذهاب إلى مقابلة غدًا».

«ماذا ستفعلين غير ذلك؟».

قالت بحزن: «لا يمكنني ترين، كيف يفترض بي أن أفكّر بأي شيء في وقت مثل هذا؟».

«اسمعي لو. هم لا يمنحون مقابلات كما يُمنح الخبز للبط، أيتها البلهاء. هذا أمر كبير. هم يعرفون أنك طالبة كبيرة في السن، وأنت تتقدّمين في الوقت الخاطئ من السَّنة، ومع ذلك هم يرغبون برؤيتك. فلا يمكنك أن تكوني قذرة معهم».

«لا أهتم. لا يمكنني التفكير بها».

«لكن أنت...».

«فقط دعيني وشأني، ترين حسنًا؟ لا يمكنني فعل ذلك».

قلت: «هيه». وتوقّفت أمامها بحيث لا يمكنها متابعة السَّير. كان توماس يتحدّث إلى حمامة، ويتقدمنا بخطوات. «هذا بالضبط الوقت المناسب للتفكير في الأمر. هذا هو الوقت. عندما، سواء أحببتِ أم لا، عليكِ أخيرًا أن تعرفي ماذا ستفعلين في بقية حياتك».

كنا نسدُّ الدَّرب. فكان على السُّياح أن ينفصلوا ليمشوا من حولنا، وفعلوا هذا خافضي الرؤوس أو يحدقون بفضول خفيف نحو أختين تتجادلان.

«لا أستطيع».

«حسنًا، عنيدة. لأنه في حال نسيت، أنتِ لم يعد لديك عمل. وباتريك لم يعد موجودًا لمساعدتك. وإذا فوَّتِ هذه المقابلة، حينها خلال يومين ستعودين إلى مركز العمل لتقرّري ما إذا كنت تريدين أن تعملي في معمل الدجاج، أو راقصة، أو تمسحي مؤخرة شخص ما كي تكسبي قوت يومك. وصدِّقي أو لا تصدِّقي، لأنك الآن متجهة نحو الثلاثين، حياتك مرسومة جيّدًا جدًّا. وكل هذا - كل ما تعلمته خلال ستة أشهر سيكون مضيعة للوقت.. كلّه».

حدَّقت بي، وفي عينيها تلك النظرة من غضب مكتوم توجهها نحوي عندما تعرف أني على حق ولا يمكنها أن تجيب بشيء. ظهر توماس بجانبنا الآن وسحب يدي.

«أمي... قلتِ مؤخرة».

كانت أختي لا تزال تحملق بي. لكني رأيتها تفكر. التفتُّ نحو ابني: «لا، حبيبي، قلت كعكة. سوف نذهب إلى البيت لنشرب الشَّاي الآن، أليس كذلك يا لو؟ ونرى إذا كان في وسعنا أن نحصل على بعض الكعك ثم بينما جدتك تحمّمك سوف أساعد الخالة لو في تأدية وظائفها».

***

اعتنت أمي بتوماس في اليوم التَّالي، لذا رافقت لو إلى الحافلة. لم أبنِ آمالًا كبيرة على المقابلة، لذا أمضيت النهار في المكتبة أفكر بمستقبلي بدلًا من مستقبلها. على العشاء تلك الليلة، نظرت نحو لو. كانت تحدِّق بطبقها، وتدفع الدَّجاج المحمَّص كما لو أنها تحاول أن تخفيه. أوه، فكَّرت.

قالت أمي وهي تتبع خط نظري: «ألست جائعة حبيبتي؟».

قالت: «ليس كثيرًا».

اعترفت أمي: «الطقس دافئ جدًّا لتناول الدجاج. أنا اعتقدت بأنك احتجت إلى أن تتنشّطي قليلًا».

«إذًا سوف تخبرينا كيف جرت المقابلة؟».

توقفت شوكة أبي في منتصف الطريق إلى فمه.

«أوه، ذلك». بدت ذاهلة كما لو أنه يستعيد شيئًا فعلته منذ خمس سنوات.

«نعم، ذلك».

غرزت قطعة صغيرة من الدجاج: «كانت جيّدة».

رمقني والدي.

تململتُ قليلًا: «جيدة فقط؟ لا بد أنهم أعطوك فكرة عن كيف كان أداؤكِ».

«حصلت عليها».

«ماذا؟».

كانت لا تزال تنظر نحو طبقها. توقَّفتُ عن المضغ.

«قالوا إني كنت من المتقدّمين الذين كانوا يبحثون عنهم. وأنه عليَّ أن أتبع دورة تأسيسية تستغرق سنة ثم يمكنني الالتحاق بالجامعة».

استقام أبي في جلسته: «هذه أخبار ساحرة».

مدَّت أمي يدها وربَّتت على كتفها: «أوه حسنًا فعلت حبيبتي. هذا رائع».

«ليس حقًا. لا أظن أن في وسعي تحمّل تكاليف الدراسة لمدة أربع سنوات».

«لا تقلقي بشأن ذلك الآن. أنظري كيف تدبّرت ترينا أمرها جيدًا»، لكزها بمرفقه -»سوف نجد طريقة. نحن دومًا نجد طريقة، أليس كذلك؟». افترَّ ثغر أبي نحونا نحن الاثنتين. «أظن أن كل شيء ينقلب لصالحنا الآن يا فتيات. أظن أن هذا سوف يكون وقتًا مناسبًا لهذه العائلة».

انفجرَت فجأة بالبكاء. دموع حقيقية. بكت كما يبكي توماس، نواح، نخير، ودموع، غير مهتمة لمن يسمع. نشيجها يخترق صمت الغرفة الصغيرة مثل سكين.

حدّق توماس بها بفم فاغر، لذا كان عليَّ أن أجذبه على حضني وألهيه فلا ينزعج كثيرًا. وبينما عبثت بقطع البطاطا وتحدّثت مع البازلاء وأطلقت أصواتًا سخيفة أخبَرَتهم.

روت لهم كل شيء - عن ويل وعن عقد الستة أشهر وما حصل عندما

ذهبوا إلى موريشيوس. وبينما هي تتحدّث وضعت أمي يديها على فمها. بدا جدِّي جليلًا. برد الدجاج، تجمّدت مرقة اللحم.

هزَّ أبي رأسه غير مصدّق. من ثم عندما روت أختي تفاصيل رحلة العودة إلى البلاد من المحيط الهندي انخفض صوتها إلى مستوى الهمس وهي تروي كلماتها الأخيرة للسيدة ترينر. دفع كرسيه ونهض، استدار ببطء من حول الطاولة وأخذها بين ذراعيه كما كان يفعل عندما كنا صغيرتين. وقف هناك وأمسكها حقًّا بشدة إليه.

«أوه يا إلهي، الرفيق المسكين. ومسكينة أنتِ... يا إلهي».

أنا لست واثقة من أني رأيت والدي يومًا مصدومًا إلى هذه الدرجة.

«يا لها من ورطةٍ لعينة».

«مررت بكل هذا؟ من دون أن تقولي شيئًا؟ وكل ما حصلنا عليه كان بطاقة بريدية عن الغوص تحت الماء؟». كانت أمي مرتابة: «اعتقدنا بأنك تمضين عطلة العمر».

قالت وهي تنظر إليّ: «لم أكن بمفردي. عرفت ترينا، كانت ترينا عظيمة».

قلت وأنا أعانق توماس: «لم أفعل شيئًا». كان قد فقد اهتمامه بالمحادثة الآن وقد وضعت أمي علبة حلوى مفتوحة أمامه. «كنت مجرد أُذن. أنت فعلت الكثير. أنت من توصل إلى جميع الأفكار».

«وبعض الأفكار أصبحت شيئًا آخر في النهاية»، انحنت على والدي، تبدو عليها الفجيعة.

أمسك أبي ذقنها وأدارها لكي تنظر إليه: «لكنك فعلتِ كل ما في وسعك».

«وفشلت».

أزاح شعرها عن وجهها. كانت ملامحه رؤومة: «من يقول إنك فشلت؟

أنا أفكر بما أعرفه عن ويل ترينر، ما أعرفه عن رجال مثله. سوف أقول لك أمرًا واحدًا. أنا لست واثقًا من أن أي شخص في العالم كان سيقنع هذا الرجل بعد أن اتخذ قراره. هو من هو. لا يمكنك أن تجعلي الناس يغيّرون ما هم عليه».

قالت أمي: «لكنّ والديه! لا يمكنهما أن يدعاه يقتل نفسه، أي نوع من الناس هم؟».

«هم أناس عاديون، أمي. السَّيدة ترينر لا تعرف ما يمكنها أن تفعل».

«حسنًا، لن يكون أخذه إلى هذه العيادة بداية». كانت أمي غاضبة. ظهرت نقطتان من اللون على عظمَيْ خديها. «كنت لأقاتل من أجلكما، ومن أجل توماس، حتى آخر نفس».

قلت: «حتى لو كان قد أقدم على قتل نفسه؟ بطرق بشعة حقيقة؟».

«هو مريض، كاترينا. هو مكتئب. الناس القابلون للعطب لا يجب أن يُعطوا فرصة ليفعلوا شيئًا». قالت كلماتها الأخيرة في غضب مكتوم وربتت على عينيها بمنديل. «تلك المرأة لا بد أنها بلا قلب. عديمة الرحمة. وفكري بأنهم ورّطوا لويزا في كل هذا. إنها قاضية، بحق الله. كنت لتظنين أنّ للقاضية أن تميز الخطأ من الصواب. من بين كل الناس. لديّ عقل جيّد أستخدمه في محاكمة الأمور».

«الأمر معقّد يا أمي».

«لا. هو ليس كذلك. هو هشّ ولا يمكن أبدًا أن تلقي بالًا لهذه الفكرة. أنا مصدومة. ذلك الرجل المسكين. ذلك الرجل المسكين». نهضت عن الطاولة، أخذت بقية الدجاجة معها، ومشت متصلّبة إلى المطبخ.

مندهشة بعض الشيء، راقبتها لويزا وهي تمضي. أمي لم تكن يومًا غاضبة. أظن أن آخر مرة سمعناها ترفع صوتها كانت عام 1993.

هزَّ أبي رأسه، عقله في ما يبدو في مكان آخر.

«لقد فكرت للتو - لا عجب أني لم أرَ السَّيد ترينر. تساءلت أين يكون. تصوّرت أنهم كانوا جميعًا في رحلة عائلية».

«هل ذهبوا؟».

«لم يكن متواجدًا في هذين اليومين الأخيرين».

عادت لو إلى الوراء وانخفضت في كرسيها.

قلت: «أوه، اللعنة»، ثم ثبَّتّ يدي حول أذني توماس.

«إنه غدًا».

نظرت لو إليّ، ورفعت بصري نحو التقويم على الجدار.

«الثالث عشر من شهر آب. إنه غدًا».

***

لم تفعل لو شيئًا ذلك اليوم الأخير. استيقظت قبلي، تحدِّق من نافذة المطبخ. أمطرت، ثم صفا الجو، ثم أمطرت ثانية. استلقت على الأريكة مع جدِّي، وشربت الشَّاي الذي حضّرته أمي لها، وكل نصف ساعة راقبتها تحدّق نحو رف الموقد وتتحقّق من السَّاعة. كان مريعًا أن تراقب. أخذت توماس للسباحة وحاولت أن أقنعها بالمجيء معنا. قلت إن أمي قد تهتم به إذا أرادت أن تذهب إلى المتاجر معي لاحقًا. قلت إني سآخذها إلى الحانة فقط كلينا، لكنها رفضت كل عرض قدّمته لها.

قالت بهدوء شديد حتى إني لم أكد أسمعها: «ماذا لو ارتكبت خطأً، ترين؟».

رفعت بصري نحو جدِّي، لكنه كان مركّزًا على السِّباق، أظنُّ أن أبي كان لا يزال يضع من أجله رهانًا بخسًا، مع أنه كان ينكر ذلك لأمي.

«ماذا تعني؟».

«ماذا لو كان عليَّ الذهاب معه؟».

«لكن... قلتِ بأنك لا تستطيعين».

كانت السَّماء رمادية في الخارج. حدَّقتُ من خلال نوافذنا النظيفة نحو النهار البائس خلفها.

«أعرف ما قلت. لكن لا يمكنني تحمل ألّا أعرف ما يحدث». تغضن وجهها قليلًا. «لا يمكنني تحمّل ألا أعرف كيف يشعر. لا يمكنني تحمل حقيقة أني لن أتمكَّن من قول وداعًا».

«ألا يمكنك الذهاب الآن؟ ربما تحصلين على رحلة؟».

قالت: «لقد تأخّر الوقت». ثم أغمضت عينيها. «لن أصل إلى هناك في الوقت المناسب. هناك فقط ساعتان حتى يتوقّف اليوم. لقد بحثت على الإنترنت».

انتظرت.

هزَّت رأسها بارتباك: «هم لن يفعلوها بعد الخامسة والنِّصف. شيء يتعلّق بالموظفين السويسريين المتواجدين هناك. هم لا يحبّون توثيق أشياء خارج ساعات العمل».

كدت أضحك. لكني لم أعرف ماذا أقول لها. لم أتمكّن من تخيّل أن يكون عليَّ الانتظار، كما كانت تنتظر، عارفة ما الذي قد يحدث في مكان بعيد. لم يسبق أن أحببت رجلًا كما بدا أنها تحب ويل. لقد أعجبت برجال، بالتأكيد، وأردت أن أنام معهم. لكن أحيانًا تساءلت إذا كنت أفتقد بعض الإحساس. لم أتخيّل البكاء على شخص كنت بصحبته. الحالة الوحيدة كانت إذا فكرت بتوماس ينتظر أن يموت في بلد غريب، وحالما خطرت الفكرة على بالي جعلت شيئًا في داخلي يخبط، كانت مخيفة للغاية لذا وضعتها في مؤخرة عقلي تحت الدرج الذي عنوانه: لا مجال لذكره.

جلست بجانب أختي على الأريكة وحدَّقنا بصمت بسباق ميدان ستيكس عند الساعة الثَّالثة والنصف، ثم سباق السَّاعة الرابعة، والسِّباقات الأربعة التي تبعتها، نتفرّج على أناس ربما قد راهنوا بكل النقود في العالم على الرابح.

ثم رنَّ جرس الباب.

نهضت لويزا عن الأريكة وبلغت الممر في خلال ثوانٍ. الطَّريقة التي فتحت الباب بها جعلت قلبي يتوقّف.

لكن لم يكن ويل هناك على عتبة الباب. كانت شابة تضع مكياجًا سميكًا ومخطّطًا بإتقان، شعرها مقصوص قصير حول ذقنها. طوت مظلّتها وابتسمت وهي تمد يدها نحو حقيبة كبيرة وضعتها على كتفها. تساءلت إذا كانت أخت ويل ترينر.

«لويزا كلارك؟».

«نعم؟».

«أنا من الغلوب. تساءلت إذا كان في وسعي أن أتحدّث معك سريعًا؟».

«الغلوب؟».

سمعت الارتباك في صوت لويزا.

«الصَّحيفة؟». تقدّمت من خلف أختي. رأيت حينها المفكّرة في يد المرأة.

«هل يمكنني الدخول؟ أريد أن أتحدّث معك حديثًا قصيرًا عن ويليام ترينر. أنت تعملين عند ويليام ترينر، ألست كذلك؟».

قلت: «لا تعليق». وقبل أن تحظى المرأة بفرصة لتقول شيئًا آخر صفقت الباب في وجهها.

وقفت أختي مدهوشة في الرِّواق. جفلت عندما رنَّ جرس الباب ثانية.

همست: «لا تفتحي».

«لكن كيف...».

رحت أدفعها نحو الدَّرج. يا إلهي، كانت بطيئة بما لا يصدَّق. كانت كما لو أنها شبه نائمة.

صرخت: «جدِّي، لا تفتح الباب!».

قلت عندما وصلنا إلى سفرة الدرج: «من أخبرتِ؟».

«شخص ما ربما أخبرهم. من يعلم؟».

جاء صوت المرأة عبر صندوق البريد: «آنسة كلارك. فقط لو تمنحيني عشر دقائق، نحن نفهم أن هذا موضوع حسّاس للغاية، نحن نحب أن نسمع قصتك».

امتلأت عيناها بالدموع: «هل هذا يعني أنه ميت؟».

فكرت لدقيقة: «لا. هذا يعني أن ثمَّة وغدًا يحاول أن يقبض المال».

جاء صوت أمي من بيت الدرج: «من كان ذلك يا فتيات؟».

«لا أحد أمي، فقط لا تفتحي الباب».

حدّقَت من الدرابزين. كانت أمي تمسك منديل الشَّاي بين يديها وتحدِّق بظل الشَّخص المرئي عبر الألواح الزجاجية للباب الرئيس.

«لا أفتح الباب؟».

أمسكت بمرفق أختي: «لو، أنت لم تقولي شيئًا لباتريك، هل فعلت؟».

لم يتوجّب عليها أن تقول شيئًا. أفصح وجهها المنكوب عن كل شيء.

«حسنًا. لا تجزعي. فقط لا تقتربي من الباب. لا تجيبي على الهاتف. لا تقولي كلمة لهم، حسنًا؟».

***

لم تكن أمي مستمتعة. وكانت أقل استمتاعًا بعد أن بدأ الهاتف يرن. بعد الاتِّصال الخامس وضعنا جميع الاتصالات عبر المجيب الآلي لكن كان علينا أن نستمع إليهم، أصواتهم تنتهك رواقنا الصغير. كانوا أربعة أو خمسة، مع ذلك. جميعهم يقدمون للو فرصة أن تحكي «قصتها» كما دعوها. كما لو أن ويل ترينر كان الآن سلعة كانوا جميعاً يخربشون عليها.

رن الهاتف ورنّ جرس الباب.

جلسنا والسَّتائر مسدلة، نستمع إلى الصَّحافيين على الرَّصيف أمام بوَّابتنا، يثرثرون مع بعضهم البعض ويتحدّثون عبر هواتفهم النَّقالة.

كان كما لو أننا كنا محاصرين. قلبت أمي كفيها وصرخت عبر صندوق البريد لكي يبتعدوا عن حديقتنا كلما تجرّأ واحد منهم على تجاوز البوابة. حدّق توماس من نافذة حمام الطابق الأعلى وأراد أن يعرف سبب وجود أناس في حديقتنا. اتصل أربعة من جيراننا راغبين أن يعرفوا ماذا يجري. أبي ركن السيارة في شارع إيفي وجاء إلى البيت عبر الحديقة الخلفية. وتحدّثنا حديثًا جدّيًّا حول كيفية الدفاع عن أنفسنا إزاء هذا الهجوم.

ثم بعد أن فكّرت قليلًا، اتصلت بباتريك وسألته عن المبلغ الذي تقاضاه مقابل تصرُّفه الدَّنيء بإفشاء السِّر. التأخير الخفيف قبل أن ينكر كل شيء، قال لي كل ما كنت بحاجة إلى معرفته.

صرخت: «أنت أيها الحقير. سوف أركل قصبة ساقك الماراثونية الحمقاء بقوة شديدة حتى أجعلك تفكر بأن حصولك على الترتيب الـ157 نتيجة جيدة حقًّا».

جلست لو في المطبخ وبكت. لم يكن نشيجًا. فقط سالت على وجهها دموع صامتة ومسحتها براحة يدها. لم أستطع أن أفكر بشيء أقوله لها. وهذا كان جيّدًا. كان لديّ الكثير من الكلام لكل من بقي.

ذهب جميع الصحافيين تقريبًا عند السَّاعة السَّابعة والنصف. لم أعرف إذا كانوا قد استسلموا أو أن عادة توماس في رمي قطع الليغو عبر صندوق البريد في كل مرة كانوا يمرّرون من خلاله ملحوظة أصبحت مملّة. طلبت من لويزا أن تحمّم توماس بدلًا مني، ليس فقط لأني أردتها أن تخرج من المطبخ، لكن أيضًا لأني بتلك الطريقة يمكنني أن أستمع إلى جميع الرسائل على المجيب الآلي وأمسح رسائل الصحيفة. ستّة وعشرون. من التافهون. وكلّها تبدو لطيفة جدًّا متفهّمة جدًّا، بعض منهم قدموا لها المال.

محوت جميع الرسائل. حتى تلك التي تقدّم المال، على الرَّغم من أني

أعترف بأني كنت أرغب بعض الشيء أن أعرف كم كانوا يقدّمون.

وخلال هذه الأثناء سمعت لو تتحدَّث إلى توماس في الحمَّام، وتتأفف من الطرطشة برغوة الصابون مع سيارة «الباتموبيل». هذا هو الشيء الذي لن تعرفه عن الأطفال إلّا إذا كان لديك واحدًا - وقت الاستحمام، لعبة الليغو، وأصابع السمك كلها لا تسمح لك بأن تستكين إلى الأسى لوقت طويل جدًّا. من ثم استمعت إلى آخر رسالة.

«لويزا؟ أنا كاميلا ترينر. هلّا اتصلتِ بي؟ بأسرع ما يمكن؟».

حدَّقت بالمجيب الآلي. أعدت الشَّريط إلى أوله وضغطت زر الإعادة. ثم هرعت إلى الطابق العلوي وأخرجت توماس من الحمام بسرعة كبيرة، حتى إن طفلي لم يعرف ما يصيبه. كان واقفًا هناك والمنشفة ملفوفة بإحكام من حوله مثل ضمادة ضغط، وكانت لو متخبّطة ومشوّشة، الآن في الطريق إلى الأسفل وأنا أدفعها من كتفها.

«ماذا لو كانت تكرهني؟».

«هي لم تبدو كما لو أنها تكرهك».

«لكن ماذا لو كانت الصحافة تحيط بهم هناك؟ ماذا لو ظنّوا بأنني أرسلتهم؟». كانت عيناها متسعتين وهلعتين. «ماذا لو أنها تتّصل لتخبرني أنه فعلها؟».

«أوه، يا إلهي، لو. لمرة واحدة في حياتك، خذي زمام المبادرة. لن تعرفي شيئًا إلّا إذا اتصلت. اتصلي بها. فقط اتصلي لنعرف».

ركضت عائدة إلى الحمام لأخرج توماس. ألبسته بيجامته بسرعة وقلت له إن لدى الجدة بسكويتًا من أجله إذا هرع إلى المطبخ بسرعة كبيرة. ثم حدَّقت من باب الحمَّام فلمحت أختي على الهاتف في الرواق.

كانت تدير لي ظهرها، وتسوّي شعرها بإحدى يديها. ثم مدّت يدها إلى الحائط لتثبت نفسها.

كانت تقول: «نعم. أفهم»، ثم: «حسنًا». وبعد وقفة: «نعم».

نظرت إلى قدميها لفترة بعد أن أغلقت سمَّاعة الهاتف.

قلت: «حسنًا؟».

رفعت بصرها كما لو أنها رأتني للتو هناك وهزَّت رأسها.

قالت وصوتها لا يزال مخدرًا بالصَّدمة: «لم يكن الأمر يتعلّق بالصُّحف، إنه لا يزال حيًّا». ابتسمت لو ابتسامة متزعزعة: «طلبت مني -رجتني - أن آتي إلى سويسرا. وحجزت لي على آخر رحلة هذا المساء».

26

أخال أنه في ظروف مغايرة لكان بدا غريبًا أني أنا، لويزا كلارك، الفتاة التي لم تكن إلّا نادرًا أكثر من راكبة حافلة من مسقط رأسها خلال عشرين عامًا، كانت الآن تطير إلى البلد الثّالث خلال أقل من أسبوع. لكني حزمت حقيبة في ذلك المساء بسرعة مضيفة جويّة، مستبعدة كل شيء سوى أبسط الضروريات. هرعت ترينا بصمت تنقّب عن أشياء أخرى اعتقدت بأني قد أحتاجها، ثم توجَّهنا نحو الطابق الأرضي. توقّفنا في منتصف الطريق. كان والداي الآن في الردهة، يقفان جنبًا إلى جنب على النحو المنذر بالسوء كما كانا يفعلان عندما كنا نتسلّل في وقت متأخر من الليل.

كانت أمي تحدّق في حقيبتي: «ماذا يجري؟».

وقفت ترينا أمامي. قالت: «لو ذاهبة إلى سويسرا، ويجب أن تغادر الآن. لم يبقَ إلّا رحلة واحدة اليوم».

كنا على وشك أن نتحرّك عندما خطت أمي إلى الأمام.

«لا». كان فمها ثابتًا على نحو غير مألوف، ذراعاها مطويَّتَيْن أمامها على نحو أخرق. «حقًا. لا أريدك أن تتورّطي. إذ هذا ما أظنه، إذًا لا».

بدأت ترينا وهي تنظر إليَّ خلفها: «لكن».

قالت أمي: «لا»، وكان صوتها قاسيًا على غير عادته.

«ما من لكن. كنت أفكر في هذا، في كل ما أخبرَتْنا به. هذا خطأ، أخلاقيًّا. وإذا تورّطت فيه واعتُبر أنك تساعدين رجلًا على قتل نفسه، سوف تنتهي في كل أنواع المشكلات».

قال أبي: «أمُّك على حقّ».

«لقد رأينا هذا في الأخبار. قد ينعكس هذا على حياتك برمّتها، لو. هذا المقابلة، كل شيء. إذا كان لديك سجل إجرامي سوف لن تحصلي على شهادة جامعية أو عملًا جيّدًا أو أي شيء»

قاطعت ترينا: «هو طلب إليها المجيء. لا يمكنها أن تتجاهله هكذا».

«نعم. نعم، بل يمكنها. منحت ستة أشهر من حياتها لهذه العائلة. ولم يعد ذلك عليها بالنَّفع بالنظر إلى واقع الحال. لم يعد بالنفع على هذه العائلة. أناس يخبطون على الباب والجيران يعتقدون بأننا قمنا بالتواطؤ أو ما شابه. لا، هي أخيرًا حصلت على الفرصة لتصنع شيئًا لنفسها، والآن يريدونها أن تذهب إلى ذلك المكان البغيض في سويسرا وتتورّط في ما لا يعرفه إلّا الله. حسنًا، أقول لا. لا، لويزا».

قالت ترينا: «لكن عليها الذهاب».

هزَّت أمي رأسها: «لا، ليس عليها. لقد فعلت ما فيه الكفاية. قالت ذلك الليلة الماضية بنفسها، لقد فعلت كل شيء يمكنها فعله. أي فوضى سوف يصنعها آل ترينر في حياتهم بالذَّهاب إلى هذا... أيًّا يكن ما سوف يفعلونه بحياة ابنهم لا أريد أن تتورّط فيه لويزا. لا أريد لها أن تدمِّر حياتها».

قلت: «أظنُّ بأنه في وسعي أن أقرّر بنفسي».

«أنا لست واثقة من أنك تستطيعين. هذا صديقك لويزا. هذا شاب وحياته برمَّتها أمامه. لا يمكنك أن تكوني جزءًا من هذا. أنا مصدومة من أنك استطعت التفكير فيه».

كان لصوت أمي حافّة جديدة قاسية.

«أنا لم أنجبك لمساعدة شخص ينهي حياته! هل كنت لتنهي حياة جدِّك؟ هل تظنين بأن علينا أن نأخذه إلى «ديجنيتاس» أيضًا؟»

«وضع جدِّي مختلف».

«لا ليس مختلفًا. هو لا يمكنه أن يفعل ما اعتاد على فعله. لكن حياته ثمينة. تمامًا كما هي حياة ويل».

«إنه ليس قراري أمي. إنه قرار ويل. الفكرة برمّتها من هذا هي دعم ويل».

«دعم ويل؟ لم يسبق أن سمعت بمثل هذا الهراء. أنت طفلة لويزا. أنت لم تري شيئًا ولم تفعلي شيئًا. وليس لديك فكرة عما سيفعله هذا بك. كيف بحقِّ الله ستكونين قادرة على النَّوم ليلًا لو ساعدته على إنهاء حياته؟ أنت سوف تساعدين رجلًا على الموت. هل تفهمين ذلك حقًّا؟ سوف تساعدين ويل ذلك الرجل الشَّاب الذَّكي المحبوب على أن يموت».

«سأنام ليلًا لأني واثقة من أن ويل يعرف ما فيه خير له، ولأن أسوأ شيء بالنسبة إليه كان خسارته لقدرته على أن يتخذ قرارًا واحدًا، أن يفعل شيئًا واحدًا بنفسه...».

نظرت إلى والدي وأنا أحاول أن أفهمهما.

«أنا لست طفلة. أحبه. أحبه، وليس عليَّ أن أدعه بمفرده، ولا يمكنني أن أحتمل ألّا أكون هناك ولا أعرف ماذا... ماذا...». ازدردت ريقي: «لذا أنا ذاهبة. لا أحتاج أن تعتنيا بي أو تفهما. سأتعامل مع الأمر. لكني ذاهبة إلى سويسرا مهما قلتما».

ران الصَّمت على الردهة الصغيرة. حدَّقت أمي بي كما لو أنها لم تعرفني يومًا. تقدَّمت نحوها خطوة أحاول أن أجعلها تفهم. لكنها تراجعت.

«أمي؟ أنا أدين لويل. أدين له بالذهاب. من تظنين أنه جعلني أتسجّل في الكلية؟ من تظنين أنه شجعني على أن أصنع شيئًا لنفسي، أن أسافر،

أن يكون عندي طموحات؟ من غيَّر طريقتي في التفكير في كل شيء؟ في نفسي أيضًا؟ ويل هو من فعل. لقد حصلت على الكثير، عشت أكثر، في الأشهر السِّتة الأخيرة عشت أكثر مما عشت في السنين السبعة والعشرين من حياتي. لذا إذا أراد منّي الذهاب إلى سويسرا سأذهب مهما كانت النَّتائج».

وقفنا جميعنا نحدّق ببعضنا البعض. كان أبي وترينا يصوّبان النَّظرات بعضهما إلى بعض، كما لو أن كل واحد منهما كان ينتظر من الآخر أن يقول شيئًا.

لكن أمي كسرت الصمت: «إذا ذهبتِ لويزا ليس عليك أن تعودي».

خرجت الكلمات من فمها مثل الحصى. نظرت إلى أمي مصدومة. كانت تحديقتها قاسية. توتّرت وهي تشاهد رد فعلي. كان كما لو أن جدارًا لم أعرفه يومًا انبثق بيننا.

«أمي؟».

«أعني ما أقوله. هذا ليس خيرًا من القتل».

«جوسي...».

«هذه هي الحقيقة برنارد. لا يمكنني أن أكون جزءًا من هذا».

أتذكَّر التَّفكير، كما لو عن بعد، بأني لم يسبق أن رأيت كاترينا تبدو غير واثقة كما كانت الآن. رأيت يد والدي تمتد نحو ذراع أمي، لم أعرف لومًا أو تأسية. أصبح عقلي فارغًا. ثم تقريبًا من دون أن أعرف ما كنت أفعل نزلت الدرج ببطء ومررت بوالدي وبعد ثانية تبعتني أختي.

تهدّل فم والدي، كما لو أنه كان يكافح لاحتواء كل أنواع الأمور. ثم التفت نحو والدتي، ووضع يده على كتفها. تحرّت عيناها وجهه وكان كما لو أنها عرفت ما كان سيقول.

ثم رمى لترينا مفاتيحه فالتقطتهم بيد واحدة.

قال: «هاكِ، اخرجا من الباب الخلفي عبر حديقة السَّيدة دوهيرتي، وخذا السَّيارة. لن يروكما فيها إذا ذهبتما الآن وحركة المرور ليست سيئة».

***

قالت كاترينا: «هل لديك فكرة إلى أين يسير كل هذا؟».

نظرت جانبيًّا نحوي ونحن نسرع على الطَّريق السريع.

«لا».

لم أتمكَّن من إطالة النظر إليها - كنت أنقِّب في حقيبتي، أحاول أن أعرف إذا كنت قد نسيت شيئًا. ظللت أسمع صوت السيدة ترينر على الخط. «لويزا؟ من فضلك هل ستأتين؟ أعرف أن هناك خلافات ما بيننا لكن من فضلك مهمٌّ جدًّا أن تأتي الآن».

تابعت ترينا: «اللعنة لم أرَ أمي يومًا هكذا».

تذكري، جواز السَّفر، المحفظة، المفاتيح. مفاتيح؟ من أجل ماذا؟ لم يعد لديَّ بيت.

نظرت كاترينا نحوي.

«أعني هي غاضبة الآن، ومصدومة. أنت تعرفين أنها ستكون بخير في النِّهاية، صحيح؟ أعني عندما أعود إلى البيت وأقول لها إني طُردت أحسّ بأنها لن تتحدّث معي ثانية. لكن فقط ستستغرق يومين لتعود».

سمعت ثرثرتها بجانبي. لكني لم أكن أصغي حقًّا. لم أكن أركّز على أي شيء. بدا أن الحياة انبعثت في نهايات أعصابي، كانت مشحونة بالترقّب. كانت سترى ويل. وهذا يكفيني. شعرت بأميال بيننا تتقلّص كما لو أننا كنا على طرفي خيط مطاطي غير مرئي.

«ترين؟».

«نعم؟».

ازدردت ريقي: «لا تدعيني أفوِّت هذه الرحلة».

أختي ذات عزيمة قوية. تقدّمنا وأسرعنا في الممر الداخلي وتجاوزنا حدود السُّرعة، وبحثنا في المذياع عن تقارير حركة المرور، وأخيرًا ظهر المطار. هي صرخت ذعرًا حتى توقفت وكدت أخرج من السَّيارة قبل أن أسمعها.

«هي! لو!».

«آسفة». استدرت وركضت بضع خطوات نحوها.

عانقتني بشدّة حقًّا.

قالت وبدا أنها على وشك البكاء: «أنت تفعلين الصَّواب. اذهبي الآن. لن أتحدّث إليك ثانية إذا فوِّتِ الطائرة علاوة على أني حصلت على مخالفة بست نقاط على شهادة السَّوْق خاصتي».

لم ألتفت إلى الخلف. ركضت طوال الطريق إلى مكتب الطَّيران السويسري واستغرقني ثلاث محاولات لأقول اسمي بوضوحٍ كافٍ لأطلب تذكرتي.

***

وصلت إلى زيورخ قُبيل منتصف الليل. بالنَّظر إلى وصولي في تلك السَّاعة المتأخّرة وعدت السَّيدة ترينر أن تحجز لي في فندق في المطار، وقالت إنها سوف ترسل سيَّارة عند السَّاعة التَّاسعة من صباح اليوم التَّالي. كنت قد ظننت أني لن أنام لكني نمت -وكأن الساعات شبكة صيد مخلّعة ثقيلة - استيقظت عند السَّاعة السَّابعة من صباح اليوم التالي ولا أعرف أين أنا.

أجلت نظري مترنِّحة في الغرفة الغريبة، بالسَّتائر الثقيلة البورغندية اللون المصمَّمة لتحجب الضَّوء، نحو شاشة التلفاز المسطَّحة الكبيرة، نحو حقيبتي التي حزمتها بسرعة، ولم أكلِّف نفسي عناء فتحها. تحقَّقت من السَّاعة التي قالت إنها بُعيد السَّابعة بتوقيت سويسرا. وعندما أدركت أين كنت شعرت فجأة بمعدتي تنقبض بالخوف.

اندفعت من السَّرير تمامًا في الوقت لأتقيأ في الحمَّام الصَّغير. نزلت على الأرض المكسوَّة بالآجر، شعري عالق بجبهتي، خدي مضغوط على الخزف البارد. سمعت صوت أمي واحتجاجاتها، وشعرت بخوف قاتم يزحف فوقي. لم أكن مستعدّة لهذا. لم أرغب في أن أفشل ثانية. لم أرغب في أن أشاهد ويل يموت. تقيّأتُ ثانية مطلقة آهة مسموعة.

لم أستطع تناول الطَّعام. بالكاد تمكَّنت من ابتلاع كوب من القهوة، وتحمَّمت وارتديت ملابسي، وهذا استغرق مني وقتًا حتى السَّاعة الثامنة صباحًا. حدَّقت بالفستان الأخضر الباهت اللون الذي أضفته الليلة الماضية وتساءلت إذا كان مناسبًا للمكان الذي كنت ذاهبة إليه. هل سيرتدي الجميع الأسود؟ هل عليَّ أن أرتدي شيئًا أكثر حيوية ومرحًا، مثل الفستان الأحمر الذي نال إعجاب ويل؟ لماذا طلبت السَّيدة ترينر مني المجيء إلى هنا؟ تحقّقت من هاتفي النقال، أتساءل ما إذا كان في وسعي الاتصال بكاترينا. قد تكون السَّاعة السَّابعة هناك الآن. لكنها قد تكون ربما تُلبِس توماس، وفكرة التَّحدّث مع أمي لم تكن واردة. وضعت بعض الزينة ثم جلست إلى النافذة ومرَّت الدقائق ببطء.

لا أظنُّ بأني شعرت يومًا في حياتي بمثل هذه الوحشة. عندما لم أتمكّن من تحمُّل وجودي في غرفة صغيرة أبدًا، رميت آخر أشيائي في حقيبتي وغادرت. قد اشتري صحيفة، وأنتظر في البهو. لا يمكن أن يكون أسوأ من الجلوس في غرفتي مع الصَّمت أو قناة إخبارية فضائية والظلمة الخانقة للستائر. عندما كنت أمر بالاستقبال رأيت غرفة الأعمال. الحواسيب موضوعة بتحفّظ في زاوية. كان قد كُتب عليها: لاستعمال الزوار الرجاء سؤال موظَّف الاستقبال.

قلت للموظف في الاستقبال: «هل يمكنني استعمال هذا؟».

شرح لي، فاشتريت بطاقة مدتها ساعة. عرفت فجأة بوضوح شديد من أردت التَّحدّث معه. عرفت في داخلي أنه كان واحدًا من القلائل الذين

يمكنني ائتمانهم ويكون على الخط في هذا الوقت. دخلت إلى غرفة المحادثة وكتبت في مكان الرسالة:

-ريتشي هل أنت هنا؟

*صباح الخير أيتها النحلة، أنت مبكرة اليوم.

تردّدت للحظة قبل أن أكتب:

أنا على وشك أن أبدأ أغرب يوم في حياتي. أنا في سويسرا.

عرف ما يعنيه. جميعهم يعرفون ما يعنيه. كانت العيادة موضوع الكثير من النِّقاشات الحارَّة. كتبت:

أنا مذعورة.

إذًا لماذا أنتِ هناك؟

لأني لا أستطيع أن أكون هنا. طلبَ مني. أنا في فندق أنتظر الذَّهاب لرؤيته.

تردّدت ثم كتبت:

ليس لديَّ فكرة كيف سينتهي هذا اليوم.

أوه، بي.

ماذا عليَّ أن أقول له؟ كيف يمكنني أن أغيِّر رأيه؟

مرّت لحظات ببطء قبل أن يكتب ثانية. ظهرت كلماته على الشَّاشة ببطء أكبر من المعتاد، كما لو أنه كان يلتزم أشدّ الحذر.

إذا كان في سويسرا يا بي، أنا لست واثقًا من أنه سيغيّر رأيه.

شعرت بغصّة هائلة في حلقي وابتلعتها. كان ريتشي لا يزال يكتب.

هذا ليس خياري. إنه ليس خيار معظمنا على هذا اللوح. أحبُّ حياتي، حتى لو تمنيت أن تكون مختلفة. لكني أفهم لماذا قد يرغب صديقك بإنهائها. مرهق عيش هذه الحياة بطريقة لا يمكن أن يفهمها من هو سليم

البنية. إذا كان مصممًا، إذا كان حقًّا لا يستطيع أن يرى سبيلًا لتتحسّن الأمور، حينها أظنُّ بأن أفضل ما يمكنك فعله هو أن تكوني هناك. ليس عليك أن تفكّري بأنه محق. لكن عليك أن تكوني هناك.

أدركت بأني كنت أحبس أنفاسي.

حظًّا سعيدًا، يا بي. وتعالي لرؤيتي بعد ذلك. الأشياء قد تصبح متخبِّطة في ما بعد. سنرى بأيِّ الطرق يمكنني أن أتعامل مع صديقة مثلك.

سكنت أصابعي على لوحة المفاتيح ثم كتبت:

سأفعل.

ثم أخبرتني عاملة الاستقبال أن سيارتي وصلت وتنتظرني في الخارج.

***

لا أعرف ماذا توقعت - ربما مبنى أبيض مجاور للبحيرة، أو جبال مكلَّلة بالثُّلوج - ربما واجهة رخامية طبّية الشَّكل مع لوحة مطلية بالذهب على الجدار. ما لم أتوقعه كان أن أُقاد عبر منطقة صناعية إلى أن وصلت إلى ما بدا بشكل لافت مثل منزل عادي، محاط بالمصانع وعلى نحو غريب ملعب كرة قدم. عبرت بحوض سمك ذهبي للزينة ثم دخلت.

عرفت المرأة التي فتحت الباب في الحال عمَّن كنت أبحث.

«إنه هنا هل ترغبين أن أرشدك؟».

توقّفت. حدَّقت بالباب المغلق، كان مشابهًا على نحو غريب للباب الذي كنت قد وقفت عنده في ملحق ويل كل تلك الشُّهور التي مضت، وأخذت نفسًا وأومأت.

رأيت السَّرير قبل أن أراه، لقد هيمن على الغرفة بخشبه المهاغوني، لحافه المزهر الجذّاب، ووسائده خارج مكانها في ذلك الترتيب. كان كلًا من السَّيد والسَّيدة ترينر يجلسان على جانبَيْ السرير. بدت شاحبة كشبح، ووقفت عندما رأتني. «لويزا». كانت جورجينا جالسة على كرسي خشب

في الزاوية، وقد انحنت على ركبتيها، يداها مضغوطتان معًا كما لو أنها تصلّي. رفعت نظرتها عندما دخلت، كاشفة عن عيون مظلّلة، محمرّة بالأسى، وشعرت بنوبة من الشَّفقة عليها. ماذا كنت لأفعل لو أن كاترينا أصرّت على حقّها في أن تفعل المثل؟

كانت الغرفة نفسها مضيئة ومهوّاة، مثل بيت عطلة ثري. أرض مبلطة بالآجر وسجاد باهظ الثمن، وأريكة في الطرف الذي يطل على حديقة صغيرة. لم أعرف ماذا أقول. كان مشهدًا مملًّا سخيفًا، ثلاثتهم كانوا جالسين هناك كما لو أنهم عائلة تحاول أن تعرف أين تذهب للسياحة ذلك اليوم.

التفتُّ نحو السرير.

قلت وحقيبتي على كتفي: «إذًا أنا أظن بأن خدمة الغرف ليست مؤهلة كثيرًا؟».

التقت عينا ويل بعينيّ وعلى الرغم من كل شيء، على الرغم من كل مخاوفي، وحقيقة أني تقيّأت مرتين، وأني شعرت كما لو أني لم أنم منذ سنة، شعرت فجأة بالسرور لمجيئي. لست مسرورة بل مرتاحة. كما لو أني أزلت بعض الألم، تذمّرت من جزء من نفسي وتخلّصت منه.

ابتسم. كانت ابتسامته جميلة وبطيئة وملؤها الامتنان.

وجدت نفسي ابتسم على نحو غريب قلت: «غرفة لطيفة»، وفي الحال أدركت بلاهة التَّعليق. رأيت جورجينا ترينر تغمض عينيها وتورَّدت.

التفت ويل نحو أمه: «أريد أن أتحدَّث مع لو، هل هذا مناسب؟».

حاولت أن تبتسم. رأيت مليون شيء بالطريقة التي نظرت إليَّ فيها حينها - ارتياح، امتنان، سخط خفيف لكونها ممنوعة من الدُّخول هذه الدَّقائق القليلة، ربما حتى أمل بعيد أن ظهوري عنى شيئًا، وأن هذا المصير قد ينحرف عن مساراته.

«بالتّأكيد».

توجّهت نحو الممر، وأنا تراجعت من العتبة لأسمح لها بالمرور، مدّت يدها ومسَّت ذراعي فقط. بخفَّة تلاقت عينانا ورقّت عيناها. بدت مثل شخص آخر كليًّا ثم أكملت مبتعدة عني.

قالت عندما وجدت أن ابنتها لم تتحرّك: «تعالي جورجينا».

وقفت جورجينا ببطء وخرجت بصمت، ظهرها يبث تمنُّعها، ووضع السَّيد ترينر يده على ظهرها وهما يمران. ثم أصبحنا بمفردنا.

كان ويل نصف جالس في السَّرير، قادر على أن يرى من النافذة إلى يساره، حيث عين الماء في الحديقة الصغيرة قطرت بمرح تيار صغير من مياه صافية تحت الغطاء المضاد للماء. على الجدار كانت هناك صورة مطبوعة مؤطّرة على نحو سيئ لزهرة الأضاليا. كانت طبعة رخيصة حقًّا ليكون عليك أن تنظر إليها في ساعاتك الأخيرة.

«إذًا...».

«أنتِ سوف لن...».

«أنا لن أحاول تغيير رأيك».

«إذا كنت هنا فأنت قبلت خياري. هذا أول أمر أكون أنا من يأخذ قرارًا بشأنه منذ الحادث».

«أعرف».

لقد تم الأمر. لم يكن هناك شيء يمكنني فعله. أدركنا ذلك نحن الاثنان.

هل تعرف كم من الصَّعب ألا تقول شيئًا؟ عندما كل ذرة منك تضغط لتفعل العكس؟ لقد تمرّنت ألّا أقول شيئًا طوال الطريق من المطار، وكان لا يزال يقتلني تقريبًا. أومأت. عندما تحدثتُ أخيرًا، كان صوتي شيئًا مكسورًا صغيرًا. ما انبثق كان الشيء الوحيد الذي تمكّنت من قوله بأمان.

«اشتقت إليك».

بدا أنه تخفَّف حينها.

«تعالي إلى هنا». ثم عندما تردّدت. «أرجوك. تعالي إلى هنا. على السَّرير بقربي».

أدركت حينها وجود ارتياح فعلي في تعبيره. وأنه كان مسرورًا لرؤيتي بطريقة لم يكن ليتمكّن بالفعل من الإفصاح عنها. وقلت لنفسي إن هذا يكاد يكون كافيًا. وأني قد أفعل ما كان قد طلبه. استلقيت على السَّرير بجانبه ووضعت ذراعي عليه.

أرحت رأسي على صدره، وتركت جسدي يتشرَّب صعوده وهبوطه اللطيف. شعرت بالضغط الخفيف لأطراف أصابع ويل على ظهري، نفَسَه الدَّافئ في شعري. أغلقت عينَيَّ، أتنفس رائحته، لا تزال رائحة خشب الأرز الثمينة نفسها على الرغم من نضارة الغرفة عديمة النكهة، والرائحة المزعجة قليلًا للمعقّمات في الأسفل. حاولت ألا أفكر بشيء على الإطلاق، حاولت أن أكون، حاولت أن أتشرّب الرجل الذي أحببته عبر التناضح، حاولت أن أطبع ما اختزنته منه في نفسي. لم أتكلّم. ثم سمعت صوته. كنت قريبة جدًّا منه حتى إنه عندما تكلّم بدا صوته يتذبذب بلطف عبري.

قال: «هيه كلارك، قولي لي شيئًا جيدًا».

حدَّقت من النَّافذة نحو السَّماء السويسرية الصَّافية وحكيت له قصة عن شخصين. شخصان لم يكن عليهما أن يلتقيا، ولم يحبّا بعضهما البعض عندما التقيا، لكنهما وجدا أنهما الشَّخصان الوحيدان في العالم اللذان يمكن لهما أن يفهما بعضهما البعض. ورويت له عن المغامرات التي عاشاها، والأماكن التي ذهبا إليها، والأشياء التي رأياها ولم يكونا يتوقّعانها أبدًا. استحضرت له سماوات مكهربة وبحار قزحية وأمسيات مفعمة بالضَّحك والنُّكات السَّخيفة. رسمت له عالمًا بعيدًا عن المنطقة الصناعية السويسرية، عالمًا كان لا يزال فيه بطريقة ما الشَّخص الذي أراد أن يكون.

رسمت العالم الذي ابتكره من أجلي، مليء بالعجائب وبالإمكانات. تركته يعرف جرحًا التأم بطريقة لم يتمكن من معرفتها، ولذلك السبب وحده ستكون دومًا قطعة مني مدينة له. وأنا أتكلَّم عرفت أن هذه قد تكون الكلمات الأكثر أهمية التي قد أتمكن من قولها، وكان مهمًّا أنها كانت الكلمات الصَّحيحة، وأنها لم تكن مجرد دعاية، محاولة لتغيير رأيه، لكن لائقة بما قاله ويل. قلت له أمرًا جيدًا.

توانى الوقت، وسكن. كنا نحن الاثنان فقط، وكنت، وحدي تقريبًا، أتمتم في الغرفة الفارغة المضاءة. لم يقل ويل الكثير. لم يتكلّم أو يضف تعليقًا تافهًا، أو هازئًا. أومأ بين الحين والآخر، ضغط رأسه على رأسي وتمتم أو أطلق صوتًا صغيرًا قد يكون تعبيرًا عن الرضى عن ذكرى أخرى طيبة.

قلت له: «كانت أفضل ستة أشهر في حياتي».

رانت فترة طويلة من الصَّمت.

«وأنا أيضًا، كلارك، الأفضل بشكل غريب».

وهكذا، تحطّم قلبي. تغضَّن وجهي، ذهب هدوئي وأمسكت به بشدَّة، ولم أعد أخشى أن يشعر بارتعاد جسدي المنتحب لأن الفجيعة غمرتني، استحوذت عليَّ، وتمزّق قلبي ومعدتي ورأسي وسحبني أسفل، حيث لا يمكنني احتماله. أنا اعتقدت صدقًا أني لا أستطيع احتماله.

«لا تفعلي كلارك» تمتم. شعرت بشفتيه على شعري. «أوه من فضلك لا. انظري إليّ».

أغمضت عينيّ وهززت رأسي.

«انظري إلي. من فضلك».

لم أستطع.

«أنت غاضبة. أرجوك. لا أريد أن أؤذيك أو أجعلك...».

هززت رأسي ثانية: «لا... ليس هذا. لا أريد...».

كان خدي مضغوطًا على صدره. «لا أريد أن يكون آخر ما تراه وجهي البائس الملطّخ».

«أنت ما زلت لا تفهمين، كلارك، هل فهمت؟». سمعت الابتسامة في صوته: «إنه ليس خيارك».

استغرقني وقت لأستعيد رباطة جأشي. نفخت أنفي وأخذت نفسًا عميقًا طويلًا. أخيرًا رفعت نفسي على مرفقي ونظرت إليه. بدت عيناه المنهكتان والتعيستان صافيتين ومرتاحتين بغرابة.

«أنت تبدين جميلة».

«مضحك».

قال: «تعالي هنا، اقتربي مني أكثر».

استلقيت ثانية قبالته. رأيت السَّاعة فوق الباب وشعرت بإحساس مفاجئ بأن الوقت ينفد. أمسكت بذراعه وأحطت نفسي بها بإحكام، وطوّقته بذراعيَّ وساقيَّ من حوله فكنا متشابكين بإحكام. أمسكت بيده التي يستطيع تحريكها وشبكت أصابعي بأصابعه، قبلت أصابعه عندما شعرت بأنه يعصر يدي. كان جسده مألوفًا جدًّا لي الآن. عرفته بطريقة كما لم أعرف جسد باتريك يومًا - قوته وهشاشته، ندوبه ورائحته. قرّبت وجهي جدًّا من وجهه حتى إن قسماته لم تعد واضحة، وبدأت أتوه فيها. لاطفت شعره، بشرته، جبينه بأطراف أصابعي، الدموع تجري غير مكبوحة على خدّيّ، أنفي على أنفه، وطوال الوقت راقبني بصمت، يتفحّصني بإمعان كما لو أنه كان يدَّخر كل ذرة مني.

كان الآن ينكفئ، ينسحب إلى مكان لم أتمكَّن من الوصول إليه. قبَّلته أحاول استعادته. قبَّلته وتركت شفتيَّ على شفتيه فامتزجت أنفاسنا والدموع من عيني طعمها مالحٌ على بشرته، وقلت لنفسي إنه في مكان ما جسيمات صغيرة منه ستصبح جسيمات مني مستوعبة، مبتلعة، حيّة،

أبديّة. أردت أن أضغط كل ذرّة منّي عليه. أردت أن أوصي بشيء فيه. أردت أن أعطيه كل ذرّة حياة شعرت بها وأرغمه على الحياة.

أدركت أني كنت خائفة من العيش من دونه. كيف يكون لك الحق أن تدمّر حياتي، أردت أن أحتجّ عليه، لكن هذا القول ممنوع علي!!

لكنّي قطعت وعدًا.

وهكذا عانقته، ويل ترينر، رجل الأعمال البارع سابقًا، الغواص البهلواني سابقًا، الرياضي، المترحّل، العاشق. عانقته بإحكام ولم أقل شيئًا، طوال الوقت قلت له بصمت إنه كان محبوبًا. أوه، كان محبوبًا. لا يمكنني معرفة كم من الوقت بقينا على هذه الحال. كنت واعية على نحو باهت للمحادثة الخافتة في الخارج، لحركة الأحذية، جرس كنيسة بعيد يرنّ في مكان بعيد. أخيرًا، تركته يطلق نفسًا عميقًا، تقريبًا رجفة، وسحب رأسه مسافة إنش لنتمكّن من رؤية بعضنا البعض بوضوح.

طرفت نحوه.

ابتسم لي ابتسامة صغيرة، تكاد تكون اعتذارًا.

قال بهدوء: «كلارك، هل يمكنك دعوة والديَّ للدخول؟».

27

مديرية النيابة العامة الملكيّة

عناية السيد: مدير النيابات العامة

المستشار السرّي

في ما يتعلّق بـ: وليام جون ترينر

9 /4 /2009

استجوب المحقّقون الخاصّون حاليًّا جميع المعنيين بالقضية أعلاه، وبناء عليه أرفق ملفات تحتوي على جميع الوثائق ذات الصِّلة.

الموضوع في مركز التحقيق هو السَّيد وليام ترينر، البالغ من العمر خمسة وثلاثين عامًا وهو شريك سابق في شركة مادينغلي لوينز، مقرّها في مدينة لندن. أصيب السَّيد ترينر في العمود الفقري إثر حادث سير عام 2007 وشخِّصت حالته حينها بالشَّلل الرباعي في الفقرتين الخامسة والسَّادسة مع حركة محدودة للغاية في ذراع واحدة فقط، ما تطلب رعاية على مدى 24 ساعة. كشفه الطبّي مرفق.

تُظهر الوثائق أن السَّيد ترينر كان قد بذل قصارى جهده لتنظيم شؤونه القانونية قبل بعض الوقت من رحلته إلى سويسرا. قدّم لنا محاميه السَّيد مايكل لاولر بلاغ نيَّة موقّع ومشهود، بالإضافة إلى نسخ من جميع الوثائق ذات الصلة المتعلّقة بمشاوراته مع العيادة مقدمًا.

أعرب جميع أفراد عائلة السَّيد ترينر وأصدقاؤه عن معارضتهم لرغبته المعلنة في إنهاء حياته قبل الأوان، لكن بالنظر إلى سجلّه الطبي ومحاولته السَّابقة في إنهاء حياته (المفصَّلة في سجلات المستشفى المرفقة)، ذكاؤه وقوة شخصيته، لم تكن قادرة في ما يبدو على ردعه، حتى خلال الفترة الممتدّة حتى ستة أشهر التي تمَّ التفاوض بشأنها معه بشكل خاصّ لهذا الغرض.

وتجدر الإشارة إلى أن واحدة من المستفيدين من وصية السَّيد ترينر هي جليسته الموظفة الآنسة لويزا كلارك. بالنظر إلى المدة المحدودة لمصاحبتها للسيد ترينر فإن سخاءه الكبير تجاهها قد يثير بعض التساؤلات، لكن جميع الأطراف يقولون إنهم لا يرغبون بالطعن في رغبات السَّيد ترينر المعلنة، الموثَّقة بصورة قانونية. وقد تم استجوابها مطولًا واكتفت الشُّرطة بقولها إنها بذلت قصارى جهدها لردع السيد ترينر عن رغبته (لطفًا انظر في «تقويم مغامراتها» المضمَّن في الشَّهادة).

كما تجدر الإشارة أيضًا إلى أنَّ والدته السَّيدة كاميلا ترينر التي كانت تعمل في سلك القضاء لسنوات، قدّمت استقالتها في ضوء العلنية المحيطة بالقضية. ومن المعلوم أنها والسَّيد ترينر انفصلا بعد وفاة ابنهما بوقت قصير.

وفي حين أن استخدام الانتحار بالمساعدة في عيادات خارجية ليس شيئًا يمكن للنيابة العامة الملكيّة أن تشجّع عليه، واستنادًا إلى الأدلة التي تم جمعها، من الواضح أن تصرفات عائلة السَّيد ترينر ومقدِّمي الرعاية تندرج أيضًا ضمن المبادئ التوجيهية العامة على النحو المنصوص عليه في ما يتعلَّق بالانتحار بالمساعدة والمحاكمة المحتملة لهؤلاء المقرَّبين من الفقيد.

اعتُبر السيد ترينر مالكًا للأهلية وكانت لديه رغبة «طوعية، واضحة، ثابتة، ومصرَّح عنها» لاتخاذ مثل هذا القرار.

ليس هناك ما يثبت وجود مرض عقلي، أو إكراه من أي طرف. أعرب السَّيد ترينر بشكل قاطع عن رغبته في الانتحار. وكان عجز السَّيد ترينر مستفحل وعصيّ على الشِّفاء.

لم يكن لتدابير هؤلاء المرافقين للسَّيد ترينر إلّا أدنى الأثر.

يمكن وصف تصرفات هؤلاء المرافقين للسَّيد ترينر على أنها مساعدة ممانعة في وجه رغبة صارمة من جهة الضَّحية.

قدّم جميع الأطراف المعنيين كل مساعدة ممكنة للشرطة في التحقيق في هذه القضية.

بالنَّظر إلى هذه الحقائق على النحو المبيّن، وحسن الخلق السَّالف من قبل جميع الأطراف، والدليل المرفق، أنصح أنه ليس من المصلحة العامة متابعة الخصومة في هذه القضية.

أقترح أنه عندما يتمّ أي تصريح علني في هذا الشَّأن، أن يوضح مدير النيابات العامة أن قضية ترينر لن تشكّل أي سابقة قضائية، وأن النيابة العامة الملكيّة سوف تستمر بالنَّظر في كل حالة على حدة في موجباتها الفردية وظروفها.

مع أطيب التمنيّات

شيلا ميكينن

مديريّة النيابة العامّة الملكيّة

خاتمة

29 أيلول

كنت فقط أتبع التعليمات.

جلست في فيء ظلَّة المقهى الخضراء الداكنة اللون، أحدق في طول شارع دي فران بورجوا، شمس الخريف الباريسي الفاترة تدفئ طرف وجهي. أمامي كان النَّادل قد أودع بكفاءة فرنسية طبق الكرواسان وفنجانًا كبيرًا من القهوة المصفَّاة. في الشَّارع على بعد مائة ياردة توقَّف درَّاجان قرب شارة المرور وبدأا يتحدّثان. كان أحدهما يحمل حقيبة ظهر زرقاء برزت منها قطعتان من الخبز الفرنسي في زاوية غريبة. حمل الهواء السَّاكن والرطب روائح القهوة والفطائر والنكهة اللاذعة لسيجارة.

أنهيت رسالة ترينا (قالت إنها كانت لتتصل لكن لم يكن في وسعها تحمُّل تكاليف الاتصال الخارجي). تفوّقت على صفِّها في سنتها الثانية في علم المحاسبة وأصبح لديها صديق جديد، صَنديب، الذي كان يحاول أن يقرر ما إذا كان سيعمل في شركة والده للاستيراد والتصدير خارج مطار هيثرو. وكان ذوقه الموسيقي أسوأ من ذوقها. كان توماس متحمسًا بشأن الانتقال إلى صف دراسي أعلى. وكان والدي لا يزال يبلي بلاء حسنًا في عمله، وأرسل محبته. كانت على ثقة تامة من أنَّ أمي سوف تسامحني

قريبًا. قالت: «هي بالتأكيد تسلَّمت رسالتك. أعلم أنها قرأتها. امنحيها الوقت».

ارتشفت من قهوتي، وذهبت من دون تأخير إلى شارع رينفرو وإلى بيت بدا بعيدًا مسافة مليون ميل. فكّرت بالرسالة التي تلقيتها من السَّيدة ترينر منذ أسبوع وكانت قد كتبت فيها: «أشك أن اليأس ربما جعلني فظَّة، لكني أريدك أن تعلمي أني سأكون ممتنة لك دومًا على جهودك، لويزا. تريحني فكرة أن ويل كان يحظى بشخص صادق معه. أعرف أنك تفتقدينه للغاية كما أفتقده». جلست ونظرت بعينين نصف مغمضتين تجاه الشَّمس المنخفضة، أراقب امرأة تضع نظارة شمسية تسوِّي شعرها أمام زجاج واجهة متجر. زمَّت شفتيها لصورتها المنعكسة، استقامت قليلًا ثم واصلت سيرها في الشَّارع.

وضعت الفنجان، أخذت نفسًا عميقًا، ثم تناولت الرسالة الأخرى التي حملتها معي منذ ستة أسابيع. كتب على واجهة المغلف، بأحرف كبيرة منضدَّة تحت اسمي:

لا تُقرأ إلّا في مقهى الماركيز،

شارع دي فران بورجوا،

مع كروَسان وفنجان قهوة كبير.

عندما قرأت المغلف أولًا ضحكت، حتى وأنا أبكي - هذا هو ويل، مستبدٌ حتى النهاية.

استدار النَّادل وهو رجل نشيط طويل القامة يحمل دزِّينة من قصاصات ورقية بارزة من أعلى مئزره - ونظر إليَّ. رفع حاجبه وقال: «هل كلُّ شيء على ما يرام؟».

قلت: «نعم». ثم كرَّرتها بالفرنسية خجلة بعض الشَّيء.

كانت الرسالة مطبوعة على الآلة الكاتبة. تعرَّفت على الخط من بطاقة أرسلها لي منذ فترة طويلة. استندت إلى الوراء في الكرسي وبدأت أقرأ.

كلارك،

عندما تقرئين هذه الرِّسالة لا بدَّ أن تكون بضعة أسابيع قد مرَّت (أشكُّ أنك ذهبت إلى باريس قبل أوائل شهر أيلول حتى مع ما تملكين من مهارات تنظيمية مكتَشفة حديثًا). آمل أن تكون القهوة جيِّدة وقويَّة والكرواسّان طازجًا وأن الطَّقس لا يزال مشمسًا بما يكفي لتجلسي في الخارج على واحدة من تلك الكراسي المعدنية التي لا تستقيم أبدًا على الرصيف. إنه ليس سيئًا، الماركيز. شرائح اللحم جيّدة أيضًا، إذا أحببتِ أن تعودي لتناول الغداء. وإذا نظرت إلى الطريق إلى ميسرتك آمل أنك سوف ترين لارتيزان بارفومور حيث عليك الذَّهاب بعد أن تقرئي هذه، لتجربي عطرًا يدعى «بابيّون اكستريم» (لا أستطيع تذكُّر اسمه تمامًا). لطالما فكرت بأن رائحته ستكون عظيمة عليك. حسنًا، انتهت التعليمات. هناك بضع أمور أردت أن أقولها وكنت لأخبرك بها شخصيًّا، لكن أولًا، سوف تصبحين عاطفية. وثانيًا، ما كنت لتسمحين لي بقول كل هذا جهارًا. أنت لطالما كنت تتحدّثين كثيرًا.

إذًا ها هي: الشِّيك الذي معك في المغلف الرئيس من مايكل لاولر لم يكن المبلغ كاملًا، بل مجرد هديَّة صغيرة لمساعدتك في الأسابيع الأولى من بعد تركِكِ العمل، ولتذهبي إلى باريس. عندما تعودين إلى إنكلترا خذي هذه الرسالة إلى مايكل في مكتبه في لندن وهو سوف يعطيك الوثائق المتعلّقة بالموضوع لتتمكّني من الوصول إلى حساب أنشأه باسمك بناء على طلبي. يحتوي هذا الحساب على ما يكفيك لتشتري منزلًا جميلًا تعيشين فيه وتدفعي تكاليف دراستك ونفقات معيشتك بينما تتفرغين لدراستك. لا بد أن والديَّ قد أعلما بكلِّ شيء عن الأمر. آمل أن يضمن هذا، وعمل مايكل لاولر القانوني، ألا يثيرا من الجلبة إلّا أقل ما يمكن.

كلارك، يمكنني عمليًا سماعك تبدئين بالهياج من هنا. لا تبدئي بالذعر، أو تحاولي أن تتخلّي عنه - إنه ليس كافيًا لأن تجلسي عاطلة عن العمل بقيَّة حياتك. لكن لا بد أن يشتري لكِ حريتك، من البلدة الصغيرة الخانقة التي نسميها كلانا الموطن، ومن أنواع الخيارات التي شعرتِ حتى الآن أنه كان عليك اتخاذها.

أنا لا أعطيك المال لأني أريدك أن تشعري بالحزن، أو بأنك مدينة لي، أو أن تشعري بأنه نوع من تذكار لعين. بل أقدّم لك هذا لأنه لم يعد هناك الكثير من الأمور التي تسعدني بعد الآن، لكنك تفعلين.

أنا أعي أن معرفتي تسببت لك بالألم، واللوعة. وآمل أنه يومًا ما عندما يهدأ غضبك مني ويقلّ انزعاجك سترين ليس فقط أني فعلت الشيء الوحيد الذي يمكنني فعله، لكن أيضًا أن هذا سوف يساعدك في أن تعيشي حياة كريمة حقًّا، حياة أفضل، أفضل مما لو لم تكوني التقيتِ بي.

سوف تشعرين بعدم الارتياح في عالمك الجديد لفترة قصيرة. دومًا يبدو الأمر غريبًا عندما تخرجين من دائرتك المريحة. لكني آمل في أنك تشعرين بالانتعاش قليلًا أيضًا. وجهك عندما خرجت من الغطس تلك المرة قال لي كل شيء، هناك جوع فيك كلارك. جرأة. أنت دفنتها فقط، كما يفعل معظم الناس.

أنا لا أقول لك حقًّا أن تقفزي من ناطحات السَّحاب، أو تسبحي مع الحيتان أو أي شيء (على الرغم من أني كنت لأحب خفية أن أفكر أنك فعلت)، لكن أن تعيشي بجرأة. ادفعي نفسك. لا تستقرّي. ارتدي تلك الجوارب المخطَّطة بفخر. وإذا كنت تصرّين على الاستقرار مع رجل سخيف، احرصي أن تكنزي بعضًا من هذه التجارب. معرفة أنك لا تزالين تملكين خيارات هو ثروة بحد ذاتها. معرفة أني قد استطعت منحك إياها قد هوَّن عليَّ الأمر.

إذًا هذا هو. أنت حزتِ على قلبي، كلارك. كنت منذ اليوم الأول الذي

جئت فيه، بثيابك السَّخيفة ونكاتك السَّمجة وعجزك الكامل عن إخفاء مشاعرك. لقد غيرتِ حياتي أكثر مما يمكن لهذا المال أن يغير حياتك.

لا تفكري بي كثيرًا. لا أريد أن أفكّر بك وأنت تصبحين سريعة التأثر. فقط عيشي جيدًا.

عيشي وحسب.

حبي،

ويل

نزلت دمعة على الطَّاولة المتداعية أمامي. مسحت خدّيّ براحتيّ، ووضعت الرِّسالة على الطاولة. استغرقني بضع دقائق لأرى بوضوح ثانية.

قال النَّادل الذي عاود الظُّهور أمامي: «فنجان قهوة آخر؟».

طرفتُ له. كان أصغر سنًا مما اعتقدت، وخفَّف من جو التَّكبر الطفيف المحيط به. ربما كان النُّدل الباريسيون مدرَّبين على التَّعامل بلطف مع النِّساء الباكيات في مقاهيهم.

«ربَّما... كأس من الكونياك؟»، نظر إلى الرِّسالة وابتسم مع شيء يشابه التفهُّم.

قلت وابتسمت: «لا، شكرًا لك. هناك أمور عليَّ القيام بها».

سدَّدت الحساب، وثنيت الرِّسالة بتأنٍّ في جيبي. خطوت من خلف الطَّاولة، سوَّيت حقيبتي على كتفي وانطلقت في الشَّارع نحو متجر العطور وعموم باريس من بعده.

رواية قوية عن خيارات الحياة والموت، عاطفية بشكل غير عادي. سحرية وعميقة، وتدخل في تفاصيل صعوبة المشاعر المركّبة.

Waterproof mascara essential - Marie Claire

عندما انتهيت من قراءة هذه الرواية، لم أرغب في كتابة مراجعة لها، بل أردت أن أعيد قراءتها... علاقة استثنائية لا تُنسى.

Liesl Schillinger The New York Times Book Review

قصة جميلة بحق.. أضحكتنا ورسمت ابتسامة على وجوهنا وأبكتنا كالأطفال.. باختصار يجب قراءتها.

Closer

ستكون هذه الرواية حتما الكتاب الذي يوصي به الأصدقاء بعضهم لبعض. جوجو مويس ساحرة في استحضار شخصيات ذات مصداقية، وشديدة الجاذبية. لو، وويل، شخصيتان ستسكنان قلوب القرّاء.

The Independent

مثيرة للمشاعر ومكتوبة بأسلوب جميل، ستعيش هذه الرواية طويلا معكم بعد أن تنتهوا من قراءتها..

Star Magazine –

مضحكة، مثيرة للدهشة، آسرة للقلوب، مليئة بشخصيات حيّة وممتعة. رواية تعبّر تمامًا عن تعقيدات الحب.

People

جوجو مويس: روائية بريطانية، حازت على منحة من جريدة الاندبندنت لدراسة الصحافة، وعملت لاحقًا في الجريدة نفسها لمدة عشر سنوات، وهي منذ 2001 متفرّغة لكتابة الرواية. روايتها (فاكهة أجنبية) حازت على جائزة الرواية الرومنسية لعام 2004 من رابطة الروائيين الرومنسيين. تعتبر الآن من أكثر روائيي العالم مبيعًا.


ISBN 978-9938-886-96-2



التوزيع الحصري: دار التنوير